

أيرين فرايبك
ديفيد براونستون

المشروع القومي للترجمة

ترجمة: أحمد محمود

طريق الحرير



المجلس
الأعلى
للثقافة

المشروع القومى للترجمة

طريق الحرير

تأليف:

أيرين فرانك

ديفيد براونستون

ترجمة:

أحمد محمود

هذه ترجمة كاملة لكتاب:

**THE SILK ROAD
A HISTORY**

BY:

**IRINE M. FRANÇK
DAVID M. BROWNSTONE**

Published By:

FACTS ON FILE

New York - Oxford

1986

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	* إهداء
٧	* مقدمة المترجم
١١	* الفصل الأول: الخيط الحريرى
١٩	* الفصل الثانى: على الطريق
٥٣	* الفصل الثالث: زمن اليشب والبرونز
٨٧	* الفصل الرابع: الطريق الملكى
١٢٧	* الفصل الخامس: خيول فرغانة السماوية
١٥١	* الفصل السادس: السلسلة العظيمة
١٩١	* الفصل السابع: الحجاج والدعاة
٢٤٣	* الفصل الثامن: الازدهار الثانى
٢٨٥	* الفصل التاسع: عصر الخانات العظام
٣٠٩	* الفصل العاشر: السلام المغولى
٣٤٣	* الفصل الحادى عشر: مدن تحت الرمال
٣٦٥	* مراجع المترجم
٣٦٧	* بيبولوجرافيا المؤلف

إلى عزة..

معا على طريق الشوك والحرير

أحمد

عودة الحياة

فى الثالث عشر من مايو ١٩٩٦ نُصبت خيمة بيضاء عملاقة فى صحراء إيران . اجتمعت داخلها وفود ٤٠ دولة ، بينهم رؤساء دول آسيا الوسطى ، تركمانستان وأوزبكستان وقازاقستان وأذربيجان وقرغيزستان ، وتركيا وباكستان وأفغانستان وأرمينيا وجورجيا وبالطبع إيران . أما هدف الاجتماع فكان إعلان قيام «طريق الحرير الجديد» من خلال خط السكك الحديدية الإيرانية التركمانية الذى يكمل شبكة سكك حديد آسيا ويحى طريق الحرير الذى يربط بين بكين شرقاً والبحر المتوسط غرباً .

ووصف رئيس الوزراء الصينى لى يينج خط السكك الحديدية الذى سيربط بين بكين وإسطنبول عبر إيران وآسيا الوسطى بـ«طريق الحرير للقرن الحادى والعشرين» . والواقع أن هذا الجزء الذى افتُتح مؤخراً ويبلغ طوله ١٦٥ كيلومتراً ، بين سرخس على الحدود التركمانية الإيرانية ومشهد شمال شرقى إيران ، ومعه شبكة السكك الحديدية التى تربط آسيا ، يشكل ورقة رابحة بالنسبة لإيران على الصعيد السياسى . فهى تأمل من خلال هذه الشبكة أن تستعيد مكانتها كمفترق طرق بين آسيا وأوروبا والشرق الأوسط . وهو الدور الذى سبق لها القيام به فى الماضى . كما أنه سيربط دول آسيا الوسطى بالمياه الدافئة ، الأمر الذى قد يثير حفيظة روسيا . وسيكون وصول بضائع الصين إلى عالم البحر المتوسط والشرق الأوسط أسهل من خلاله .

وهكذا تعود الحياة إلى طريق الحرير الذى خطه التجار منذ مايربو على الألفى سنة ، عندما كانوا ينقلون النفائس بين الشرق والغرب . وهو الطريق الذى سار عليه الغزاة والفاطحيون ، كالإسكندر الأكبر والرومان والفرس وجيوش الفتح الإسلامى وجحافل چنكيزخان وهولاكو وتيمور لنك . وحمل هذا الطريق الدعاة والمبشرين البوذيين واليهود والمسيحيين والمسلمين . وعليه سار الرحالة العظام أمثال شيان تسونج وابن بطوطة وماركو بولو ، الذين لولاهم لما عرفنا كيف كان حال الطريق فى العصور التى عاشوا فيها .

وقد عاش هذا الطريق سنوات عز وازدهار، وأخرى من الكساد والانقطاع. أما أكثر أيامه ازدهاراً فكانت عندما خضعت البلاد الواقع فيها لإمبراطوريات قوية، كما حدث في عهد الفرس والمغول. في حين أدى ضعف الدول التي يمر فيها وحدوث حروب وصراعات فيما بينها إلى انقطاع الطريق.

وعلى مر التاريخ كانت هناك مدن تظهر وأخرى تختفي، تبعاً لموقعها من طريق الحرير. تماماً كما حدث مع تدمير والبتراء اللتين ازدهرتا بمرور تجارة طريق الحرير عليهما ثم انهارتا وطواهما النسيان حين ابتعد مسار الطريق عنهما.

وشهد طريق الحرير أنواعاً شتى من التجارة، لعل أغربها ما عُرف باسم «التجارة الصامتة»، حيث كان أحد الطرفين يترك بضاعته في مكان متفق عليه ثم يأتي الطرف الآخر بما يريد مقايضته بتلك البضاعة ويضعه ويغادر المكان. فإذا عاد الطرف الأول وأعجبه ما تركه الطرف الثاني مقابل بضاعته أخذه وانصرف، وإلا فإنه يغادر المكان دون أن يأخذ شيئاً. وهنا يعود الطرف الآخر ويزيد المقابل ويغادر المكان. فإن قبل الطرف الأول في هذه المرة أخذ بضاعة الآخر وانصرف، وإلا استمرت هذه العملية إلى أن يرضى وتتم الصفقة. وطوال ذلك لا يرى أحد الطرفين الآخر أو يلتقى به.

وكانت مطايا تجار طريق الحرير ودواب حملهم هي الجمال البلخية ذات السنامين والعربية ذات السنام الواحد والحمير والبغال. وشهد طريق الحرير استئناس الحصان وتوليد سلالات قوية من الخيل استخدمت في الركوب وجر عربات سريعة أحدثت ثورة في مواصلات طريق الحرير، وكان لها دور في مساعدة الغزاة والمقاتلين على سرعة القتال والانتقال. وظهرت أساطير عن الخيل أهمها أسطورة الخيول السماوية التي وُلدت في الماء وحملت الحكام شبه الأسطوريين إلى السماء حيث يخلدون. وبسبب تلك الخيول أرسل إمبراطور الصين الجيوش إلى فرغانة لإحضارها بالقوة، بعد أن رفض ملك كوقند إرسالها له بالحسنى.

وكان الحرير يوماً أهم سلعة تنقل على هذا الطريق، وخاصة أن الصين ظلت رمزاً طويلاً تحتفظ بسر تربية دودة القز وصناعة الحرير. وأدى هذا إلى نسج الحكايات والأساطير عن الحرير في الغرب. ووصل الأمر بالبعض إلى القول بأن الحرير نبات، بل إن هناك نوعاً من الحملان تزرع في الأرض ويؤخذ منها الحرير. وكان أهل الغرب يعرفون الصين باسم

«سيريس»، وهو مشتق من الكلمة التي تعنى الحرير بلغة آسيا الوسطى. وكان المتشددون من الرومان يرون فى حرير الصين إفساداً لحياتهم وإهداراً لثروات بلادهم.

ولم يكن الحرير وحده ما كان ينقله التجار على طريق الحرير. فهناك أيضاً اليشب، ذلك الحجر شبه الكريم الذى عشقه الصينيون، والذهب والفضة والزجاج وغيرها. كما انتقلت على طريق الحرير سلعة فى غاية الأهمية أنتجتها الصين، وهى الورق. هذا المنتج أحدث ثورة فى عالم الثقافة والمعرفة، وخاصة أن الصينيين ابتكروا أيضاً طريقة للطباعة بالقوالب الخشبية. وانتقلت هذه الطريقة إلى أوروبا على طريق الحرير، لتفتح الباب أمام جوتنبرج ليخترع طريقة الطباعة بالحروف المتحركة. هذا إلى جانب أنواع كثيرة من الفواكه والخضروات والحبوب التى انتقلت بين الشرق والغرب بعد أن كانت معروفة فى جهة دون الأخرى.

والأكروبات التى تشتهر بها الصين حالياً انتقلت إليها عبر طريق الحرير من آسيا الوسطى. فقد اتجه اللاعبون إلى الصين مع غيرهم من أهل الفن والغناء والرقص. وانتقلت مع ذلك موضة الملابس وأغطية الرأس وأسلوب المعيشة وفنون الرسم والتصوير. إلى جانب الصناعات الماهرة الذين كان الفاتحون ينقلونهم قسراً إلى عواصم بلادهم، كما فعل المغول.

كل هذا كان هو الدافع وراء رغبتى فى ترجمة هذا الكتاب الذى يحكى قصة الطريق العظيم، ودوره الذى يكاد يفوق دور أى طريق آخر فى تاريخ البشرية. وهو كتاب شامل لتاريخ طريق الحرير تفتقر إليه المكتبة العربية، من حيث جمعه بين تاريخ البلاد التى يمر بها الطريق وجغرافيتها وثقافتها وفنونها وصناعاتها.

ولا أخفى عليكم القول بأننى واجهت أثناء الترجمة بعض الصعوبات التى تتعلق بالأعلام الجغرافية والتاريخية، لاختلاف كتابتها باللغة الإنجليزية عن لغاتها الأصلية العربية والفارسية والصينية والتركية، بل واختلاف المصادر العربية فى كتابتها. وكان لزاماً على أن أرجع إلى كثير من المراجع للتأكد من الشكل الصحيح لكل اسم وكلمة. إلا أن لذة البحث والمعرفة هونت على أى مشقة فى ذلك، حيث كان أى تعب يزول بمجرد عثورى على ضالتي.

وكانت هناك مشكلة أخرى، وهى أن المؤلف أورد مقتطفات من مصادر عربية ذكر اسم مؤلفها دون ذكر اسم الكتاب أو رقم الصفحة أو الطبعة. فكان على - والأمر كذلك - أن أجد المصدر أولاً ثم أبحث فيه كله، أو على الأقل فى جزء كبير منه، إلى أن أعثر على الفقرة المطلوبة. حدث ذلك مع «رحلة ابن بطوطة» و«مسالك الممالك» للاصطخرى و«نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر» للدمشقى و«أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» للمقدسى و«مروج الذهب» للمسعودى. وقد أحلت الفقرة العربية كما جاءت فى النص الأسمى محل ما يقابلها بالإنجليزية، وهو الأفضل.

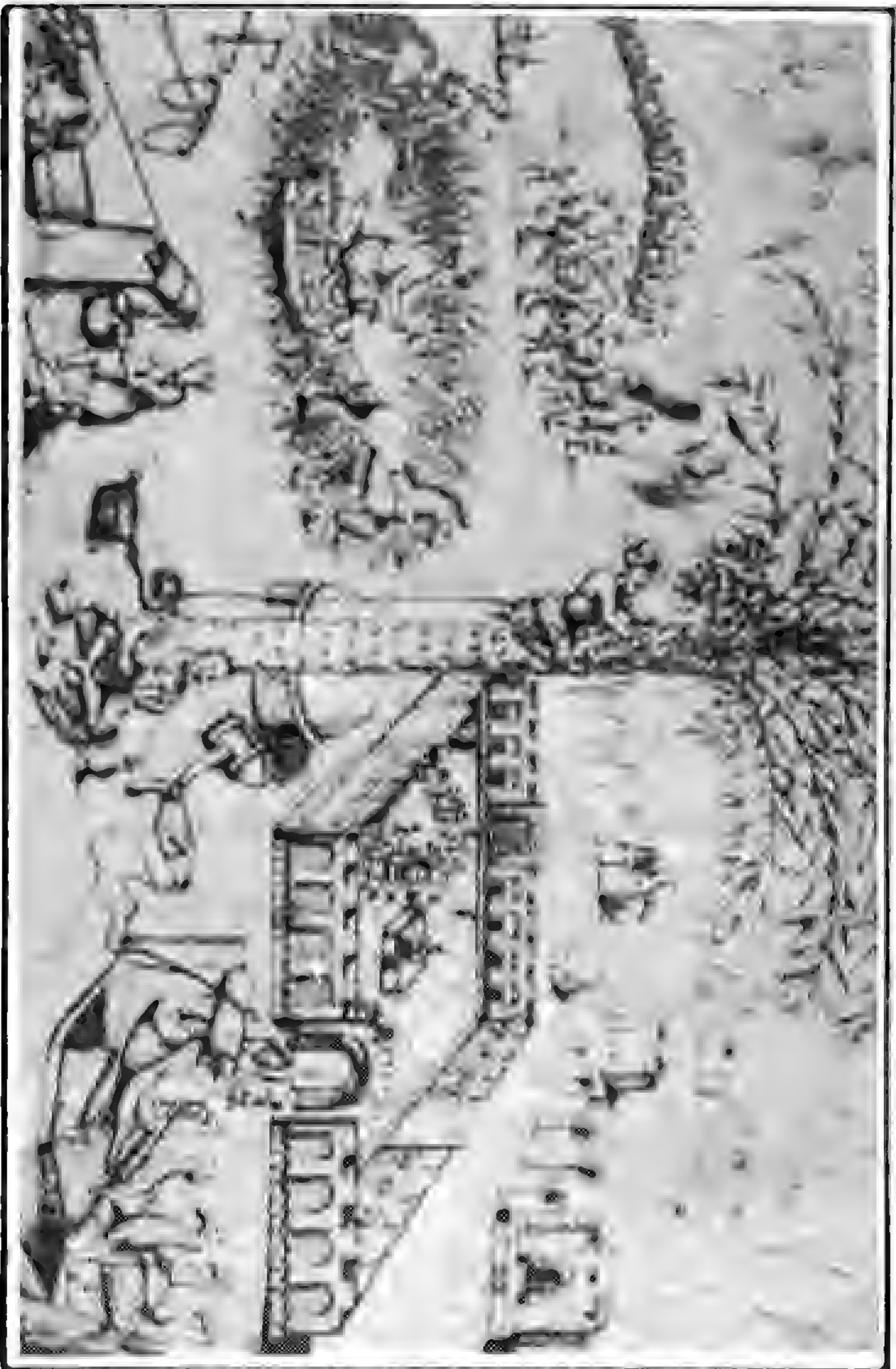
وأرجو أن يجد القارئ العزيز مبتغاه فى هذا الكتاب، الذى أتمنى أن يثرى المكتبة العربية بقصص وتاريخ طريق الحرير.

المترجم

الخِيطُ الحَرِيرِي

أيها الأمراء والأباطرة والملوك العظماء والدوقات
والماركيزات والفرسان وأعضاء البرلمان والناس من كل
الطبقات، يا من ترغبون في معرفة شعوب البشرية العديدة
وأقاليم العالم الكثيرة المتباينة، لتأخذوا هذا الكتاب وليقرأ
عليكم. فسوف تجدون فيه كل ما هو عجيب إلى جانب
التواريخ المختلفة لأرمينيا الكبرى وبلاد فارس وبلاد التتار
والهند وبلاد كثيرة أخرى.

من كتاب سر ماركو بولو،



مدن القشورافل كهذه المدينة التي في بلاد فارس كانت توفر المأوى والوق للمسلمين على طريق الحرير على مر آلاف السنين. (رسم الخيالات كيمسفر 1680 - المكتبة البريطانية)

كل ما كان يرجوه ماركو بولو من العالم هو أن يستمع الناس إلى ما رواه عن تلك العجائب التي رآها على طول طريق الحرير الذي كثرت حوله الروايات. وعندما سجل ماركو بولو مشاهداته في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي، لقي ذلك تقدير عدد قليل من الناس ولم يصدقه إلا عدد أقل. فقد كان الأوروبيون الأجلاف غير المتعلمين الذين تميزوا بضيق الأفق في العصور الوسطى، في ريب من رواياته عن المدن القديمة الواقعة وسط بحار الرمال وعن ملوك البدو الذين يرفلون في ثياب من الحرير ويجلسون على عروش طلّيت بالذهب وعن المدن الشرقية التي تفوق مدن أوروبا عظمة وجمالاً.

ولكن مالم يدركه ماركو بولو، أو من عاصروه، إدراكاً كاملاً، أنه جاء في حقبة متأخرة من تاريخ هذا الطريق العظيم الذي يقطع قارة آسيا. فقد أتاحت له فرصة ثمينة لرؤية طريق الحرير في أواخر عصوره الزاهية. فذلك هو أعظم طرق العالم القديم، طريق الإسكندر الأكبر والإمبراطور دارا العظيم وتشانج شيان وجنكيز خان^(١).

وعلى مر الآلاف من السنين التي سبقت زمن ماركو بولو، سار في طريق الحرير التجار والباحثون عن الثروة والحجاج والجتود والمغامرون والمهاجرون والممثلون الجوالون واللاجئون. أما التاريخ المتعارف عليه لبدء السير في طريق الحرير فهو سنة ١٠٥ أو ١١٥ قبل الميلاد. ففي ذلك الوقت سار الصينيون حتى منتصف الطريق عبر آسيا، ليربطوه بطريق مشابه يسير من عند البحر المتوسط إلى وسط آسيا. ومع ذلك فالواقع يقول إن طريق الحرير أقدم من ذلك بكثير، فربما يعود إلى ألفى سنة قبل ذلك أو يزيد، إذ ظل طريق الاتصال بين البحر المتوسط والصين مالا يقل عن أربعة آلاف سنة.

وفي القرن التاسع عشر أطلق المستكشف الألماني البارون فرديناند فون ريشتهوفن^(٢) اسم Die Seidenstrasse، أي طريق الحرير، على هذا الطريق الذي يقطع قارة آسيا، وإن كان أهل الإمبراطورية البيزنطية أطلقوا عليه اسماً مشابهاً. كما استولى الحرير دون سواه على عقول هؤلاء المراقبين. إذ احتفظت الصين بسر إنتاجه مدة لا تقل عن ألفى سنة، كانت خلالها المصدر الوحيد للأقمشة الرقيقة الفاخرة التي تصل الغرب حتى القرن السادس الميلادي. وفي الوقت نفسه كان الصينيون يسعون إلى الحصول على سلع نادرة من الغرب،

(١) سيأتي الحديث عنهم بالتفصيل فيما بعد. (المترجم).

(٢) جغرافي وجيولوجي ألماني بارز كان لدراساته عن الصين أثر كبير في تطوير علم الجغرافيا الحديث. توفي سنة ١٩٠٥. (المترجم).

مثل أحجار اليشب البيضاء والخضراء المقدسة واللازورد والزجاج الملون الرقيق وخيول آسيا الوسطى القوية التي مكنتهم من توسيع إمبراطوريتهم لتمتد إلى منتصف الطريق إلى البحر المتوسط بحثاً عنها. إلا أن الحرير هو ما جذب الغربيين وجعل إمبراطورية تلو الأخرى تزحف شرقاً على امتداد طريق الحرير.

وإذا كان طريق الحرير أحد أعظم الطرق التجارية في العالم، فقد يكون كذلك أكثرها أهمية من حيث كونه طريقاً لتبادل الأفكار. فعلى هذا الطريق انتقلت بعض أهم الأفكار والتقنيات في العالم، كالكتابة والعجلة والنسيج والزراعة وركوب الخيل وغيرها. وكان للدين أيضاً دور كبير على طول طريق الحرير. وربما يكون الإسلام والبوذية أهم الديانات التي صاغت شخصية الطريق في عصر كل منهما. إلا أن ديانات كثيرة أخرى عبرت قارة آسيا على هذا الطريق. مثال ذلك المسيحية والزرادشتية والمناوية^(١) واليهودية والمزدكية^(٢) والكونفوشية والتاوية^(٣).

وفي الوقت نفسه ساعد طريق الحرير على حدوث تبادل من نوع مختلف. فكثير من الزهور والفواكه التي يعتبرها الغرب نباتات محلية موطنها الأصلي هو الصين وانتقلت إلى الغرب من خلال طريق الحرير. من هذه الزهور والفواكه الورد والأزاليا والكريزانيثم والفاوانيا والكاميليا والبرتقال والخوخ والكمثرى. وكما أعطت الصين الغرب أخذت منه. وبما أخذته العنب والنبيد والبرسيم والخيار والتين والرمان بالإضافة إلى السمس والشم والكزبرة وعباد الشمس. وكانت الخيول والجمال ذات السنامين، وهي دعامة الحضارة في آسيا، قد استأنسها الإنسان لأول مرة في آسيا الوسطى ثم ذهبت بعد ذلك إلى شرق آسيا وغربها عبر طريق الحرير والطريق المشابه له في الشمال وهو طريق السهوب الأوراسية.

وفي العصور الوسطى، وبينما كانت أوروبا تعاني من الضعف، أرسلت الصين المزدهرة إلى الغرب بعضاً من أعظم إسهاماتها، وإن لم تعتمد ذلك. وشملت تلك الإسهامات الورق والطباعة، أو ما أطلق عليه مايكل إدواردز «سقالة العالم الحديث»، إلى جانب التفكير الجديد والتطورات العملية في الطب والفلك والهندسة، علاوة على الأسلحة التي تشمل القوس والنشاب ومعدات الحصار والبارود والعجلات الحربية.

(١) ديانة فارسية أسسها ماني بن فاثك، وهي مزيج من الزرادشتية واليهودية والمسيحية. كما أنها ديانة ثنائية تؤمن بوجود إلهين للخير والشر. (المترجم).

(٢) اتخذت اسمها من أهورا مزد إله الخير في هذه الديانة. وهي نفسها الزرادشتية.

(٣) ديانة ومذهب فلسفي أسسها في القرن السادس لا تسو الذي يخاطب العواطف ويميل إلى التأمل الصوفي. (المترجم).

ولا عجب - إذن - أن يحظى هذا الشريان الآسيوى باهتمام بعض الشخصيات العالمية العظيمة. فمنذ أقدم العصور وهذا الطريق به من المغريات ما يستحق اهتمام أكثر الغزاة طموحاً.

ورغم أهمية طريق الحرير، فقد كان أبعد ما يكون عن الطريق الطبيعى. فالجغرافيون يقولون إن مساره يقع خلال ما يبدو امتداداً للصحراء الكبرى فى آسيا. إذ أن المسافة من البحر المتوسط حتى قلب الصين كلها صحراء. صحيح أن بعض المناطق قاحلة أكثر من غيرها، إلا أن المنطقة فى غالبها أرض جرداء. وعلى امتداد الطريق تأخذ القشرة الأرضية أحياناً شكل الهضاب المرتفعة والجبال الشاهقة. ورغم جفاف هذه المناطق أيضاً بعض الشيء، فهى توفر قدراً من الراحة، بسبب ما يتجمع من ماء ليسقط على المرتفعات مكوناً الأنهار والجداول التى تنساب فى السهول الصحراوية وتصب ماءها فى الواحات التى تحيط بها الرمال. والواقع أن الأراضى التى يمر فيها طريق الحرير من أكثر مناطق العالم طرداً للسكان. إنه يمر فى أراض شديدة الحرارة تخلو من الماء ويربط الواحات الواحدة بالأخرى. لذلك كانت أهمية هذا الطريق لكل من الشرق والغرب هى وحدها ما أبقي عليه مفتوحاً كطريق رئيسى لآلاف السنين.

ومع ذلك لم يكن الناس جميعاً مغرمين بالاتصال بآسيا. فعلى مر العصور كانت هناك شكوى من إفساد رفاهية الشرق لسكان الغرب وإبعادهم عن الحياة البسيطة التى تتميز بالنقاء. وكوزماس انديكو بليوستيس البيزنطى المسيحى الذى عاش فى القرن السادس الميلادى نموذج لأصحاب هذه الشكوى. فلم يرض عن «الرجال الذين لا يمكن إثنائهم عن الذهاب إلى أطراف الأرض لجلب الحرير لمجرد طمعهم فى المال». أما الفرس واليونان والرومان والعرب والصليبيون فقد أغرتهم الأقمشة الفينيقية الأرجوانية والحرير الصينى وعطور الجزيرة العربية والتوابل الهندية وجواهر آسيا الوسطى. ولم يسهم الحرير وغيره من النفائس فى ترويض الغربيين وحدهم، فقد حدث ذلك لموجة إثر أخرى من قبائل بدو آسيا الوسطى الذين تميزوا بالغطرسة، والشراسة أحياناً.

وعلى امتداد تاريخ الطريق لم يتمكن من قطعه ذهاباً وعودة إلا القليل من الناس. وهذا الطريق الذى يمتد لمسافة خمسة آلاف ميل تقريباً يمر عبر العديد من البلاد التى تغار على أراضيتها ومما يحققه الوسطاء التجاريون من أرباح. وكانت بلاد فارس أكثر تلك البلاد غيرة. فقد مكن مرور طريق الحرير عبر أحد ممرات الهضبة الإيرانية الحكام على مر العصور

من الحيلولة دون اتصال الشرقيين والغربيين اتصالاً مباشراً. وحتى في أزهى عصور طريق الحرير، أى في عصر أسرة هان والعصر الرومانى اللذين استمتعت فيهما الصين بالزجاج الملون الفاخر من الغرب ونعمت روما بالثياب الحريرية، لم نجد ذكراً لإنسان قطع طريق الحرير ذهاباً وعودة. وفي العصور الوسطى، التى حكم فيها المسلمون الغرب ولمعت أسرة تانج فى الشرق، لم يقطع الطريق بحرية سوى عدد قليل من الناس. فعلى الدوام كان قطاع أو آخر من هذا الطريق المحفوف بالعذاب يُتلى بالحروب أو الثورات.

ولم تتوحد آسيا تحت راية قوة واحدة إلا فى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر. وفى تلك الفترة وفر المغول، الذين يعتبرهم الغرب مجرد شعب مدمر، الأمن والسلامة للمسافرين بين الشرق والغرب. وفى تلك الحقبة القصيرة من السلام المغولى اتجه التجار الأوروبيون إلى الصين فى رحلات منتظمة، حتى أن هناك من كتب دليلاً إرشادياً يدل المشترين على ما يشترون من سلع وما يتوقفون فيه من محطات على الطريق ليجدوا أفضل الأسواق. وكان ماركو بولو وأبوه وعمه هم أول من فتح الطريق لهؤلاء التجار الذين كانوا يقطعون مسافات طويلة. وبعد عشرات السنين زاد عدد المسافرين على طريق الحرير، لدرجة أن البعض كان يسافر بين الشرق والغرب لمجرد المتعة. ولم يحدث ذلك إلا مرات قليلة جداً على مر تاريخ الطريق.

وفى منتصف القرن السادس عشر سجل جون بابست راموسيو كاتب سيرة ماركو بولو كيف كان معاصرو آل بولو من الإيطاليين يرون جهودهم الرائدة (مقارنة برحلة كريستوفر كولمبس الأولى إلى العالم الجديد):

... إذا لم يخدعنى تحيزى الوطنى، فظنى هو أن رأى السليم قد يكون تفضيل الطريق البرى على رحلة [كولمبس] البحرية. فحسبك ذلك القدر الكبير من الشجاعة التى يحتاجها المرء للقيام بهذه المهمة الصعبة فى طريق بالغ الطول والمشقة، حيث يفرض عليه أحياناً أن يحمل زاداً لنفسه وطعاماً لمطيته، ليس لأيام وإنما لشهور عدة. بينما حمل كولمبس عند سفره بحراً كل المؤن الضرورية. وبعد رحلة دامت ٣٠ أو ٤٠ يوماً أوصلته الريح إلى حيث شاء، فى الوقت الذى أمضى البنادقة عاماً كاملاً كي يقطعوا كل تلك الصحارى الشاسعة والأنهار العاتية.

وبزوال دولة المغول انقضت آخر أيام طريق الحرير العظيمة. إذ عادت شعوب آسيا إلى

ماكانت عليه من انقسام وفرقة وعاد الشرق والغرب ينظر كل منهما للآخر نظرة كلها خيال ورومانسية. وكثيراً ما تميزت تلك النظرة بغرابة شديدة. وعند سقوط القسطنطينية، في منتصف القرن الخامس عشر، ظل طريق الحرير مقطوعاً تماماً لبعض الوقت. ورغم استئناف التجارة والسفر عبر آسيا، لم تقم لطريق الحرير قائمة. وفي عصر الكشف الجغرافية كان أهل غرب أوروبا يفتحون طرقاً بحرية جديدة، ليس إلى العالم الجديد فحسب وإنما كذلك إلى الصين حول آسيا وأفريقيا. ولم يكن هناك بأس من قطع الرحلة في عام أو يزيد وضياح العديد من الأرواح، خاصة قبل أن يتعلم البحارة كيف يتقون مرض الاسقربوط. ولم يكن الطريق البحري يمر في أراضٍ تابعة لأحد، ولم يكن الوسطاء يقاسمون التجار أرباحهم. لذلك كان ظهور الطرق البحرية سبباً في أفول نجم ذلك الطريق البري، الذي ظل آلاف السنين مسيطراً على آسيا. لقد انقطع الخيط الحريري.

وفي عصور الانحطاط التي تلت ذلك، نسيت الشعوب التي تعيش على امتداد طريق الحرير تلك العظمة التي شهدتها أسلافهم. أما تلك المدن التي شيدها الفاتحون العظام وأحيائها المستوطنون واللاجئون وأثرها التجارة وعمرها الكهنة، فقد انكمشت، وغالباً ما هجرها أهلها وتركوها نهياً للرمال.

بعد ذلك بدأت عملية طويلة وبطيئة لإعادة الاكتشاف. فقد قام المستكشفون والمغامرون والباحثون وعلماء الآثار والرحالة بالكشف شيئاً فشيئاً عن قصة هذا الطريق وقدموها للعالم. وأسماء المدن التي وجدوها تفوح جميعاً برومانسية الشرق. ففي غرب آسيا كانت حلب والبتراء وتدمر وصور وصيدا وبابل وبغداد. وعلى الهضبة الإيرانية كانت الري. وعلى حدود مناطق السهوب القاحلة في تركستان كانت سمرقند وبخارى وطشقند وبلخ. وفي سلسلة جبال البامير كانت كاشغر وقرقند. وفي صحراء حوض التاريم كانت خوتان وشان شان وكوتشا وقره شهر ولولان وتورفان وهامي. أما في الصين نفسها فكانت تونهووانج وكهوف الألف بوذا والمعابد القديمة وتشانج آن ولويانج^(١).

وقد علا شأن هذه المدن وغيرها مع علو شأن طريق الحرير ثم أفل نجمها مع أفول نجمه. ومع أن أيام الطريق العظيمة ولت منذ زمن بعيد، إلا أن عبقها مازال يفوح على طول الطريق، بدءاً من شوارع مدينة تدمر ذات الأعمدة، حيث شربت ملكة تاجرة^(٢) من

(١) سوف يأتي الحديث بالتفصيل عن هذه المدن والمواقع جميعاً. (المترجم).

(٢) هي الملكة زنوبيا، أو الزباء، ملكة تدمر. (المترجم).

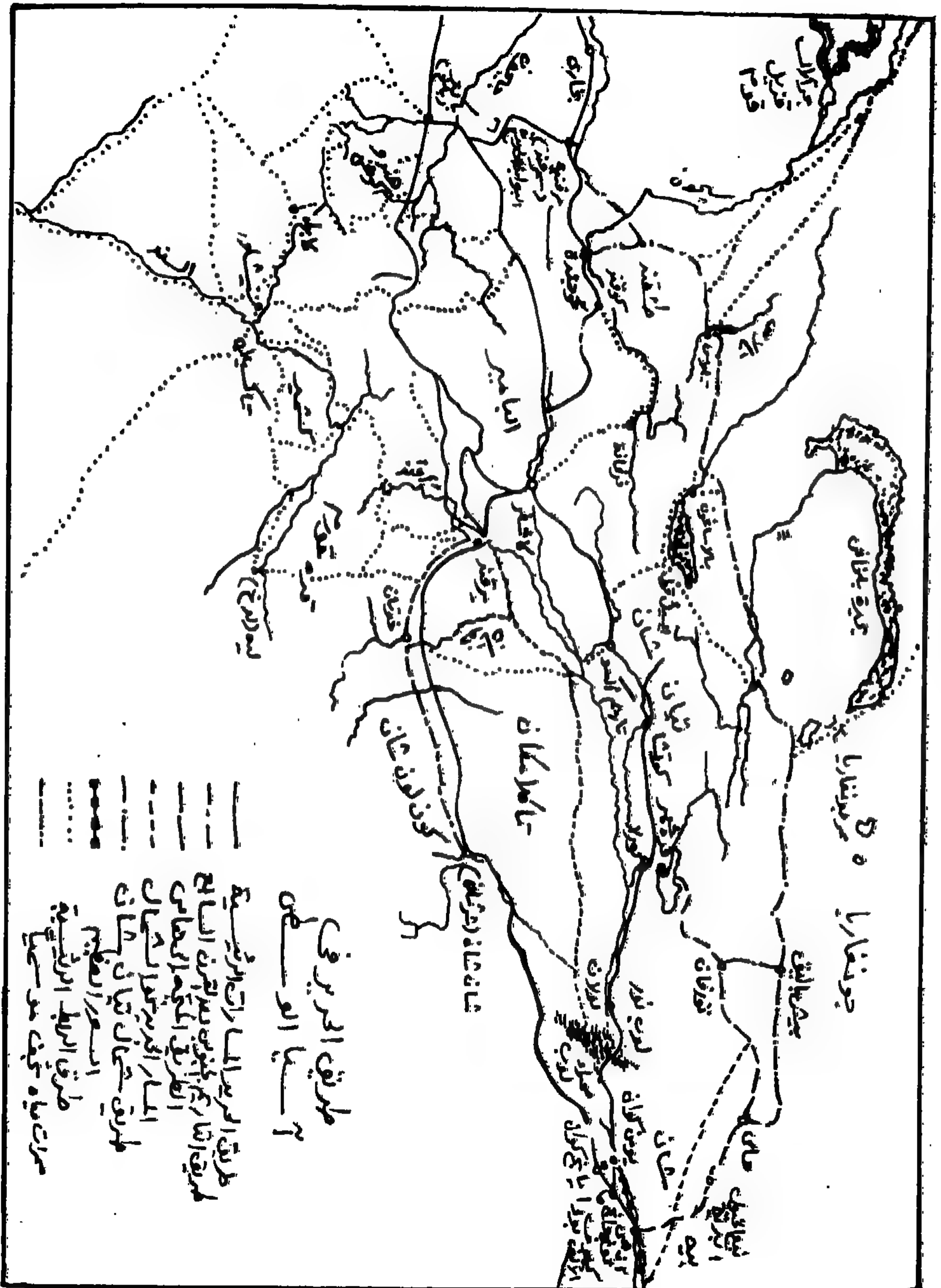
كأس كليوباترا، وحتى أسوار بلخ التي وُجد عندها جيش من التماثيل مدفوناً في مقبرة ملكية، مما يشير إلى عظمة الحضارة الصينية القديمة.

وتعد قصة طريق الحرير نظرة بعيدة وعميقة في التاريخ الإنساني. إنها قصة كل الشعوب التي سكنت صحارى آسيا وسهوبها وجبالها، وأهم من هذا كله قصة معظم القوافل التي فتحت هذا الطريق العظيم الذى يمر من قلب القارة وأبقت عليه حياً.

على الطريق

... ليس هناك نهر من ماء يمكن مقارنته بهذا النهر الدائم
من القوافل، الذى حمل نصف تاريخ العالم من مرحلة إلى
أخرى ومن قفار إلى قفار ومن إقليم إلى إقليم، بقوة البشر
الضئيلة.

فرياستارك



طريق الحرير الآن في ذمة التاريخ. وقد يحاول أى رحالة على قدر كاف من الجرأة والتهور أن يقطعه في الوقت الحالى، حيث يبدأ من الصين مروراً بالاتحاد السوفيتى وإيران والعراق وسوريا، وربما يمر أيضاً بأفغانستان وتركيا وباكستان والهند ولبنان وإسرائيل والأردن ومصر. وحتى في حالة قدرة المرء على التسلل عبر الحدود المغلقة وعبر تلك المناطق التى تشتعل فيها الحروب، فإن المسافر سيمكنه رؤية جزء متواضع من طريق الحرير، قياساً على ما كان عليه من عظمة في تلك الأيام الخوالى. فالسكك الحديدية والطرق السريعة تمتد الآن عبر آسيا، وإن كانت سيئة وخادعة في معظمها، بينما لم يكن في الماضى سوى مدقات ضيقة تسير فيها القوافل. والشئ الذى اختفى أيضاً هو تلك المحطات التى كانت تتوقف عندها القوافل وكانت تنتشر على امتداد القارة. وهذه المحطات كانت بمثابة استراحات للمسافرين ودوابهم، وما زالت آثارها قائمة كشواهد على مسار طريق الحرير القديم.

وفي الوقت نفسه شمل التغير مدن القوافل، التى كانت تتسم بالعظمة يوماً من الأيام. ولا يرجع هذا إلى قرون طويلة من النسيان ودخول التكنولوجيا الحديثة فحسب. فالأرض نفسها صارت مختلفة. إذ أصبحت بعض المدن الواقعة على طريق الحرير تبعد عشرة أميال، بل وعشرين ميلاً، عن مواقعها القديمة. وجاء هذا الانتقال هروباً من الرمال المحرقة وسعياً وراء مصادر المياه. فالجداول الصغيرة، التى كان يغذيها ذوبان الجليد، صارت مياهها تفيض بسرعة في الأرض بالغة الحرارة. أما المدن الواحات التى كانت تميز الطريق، خاصة تلك الواقعة على الحافة الجنوبية لحوض التاريم^(١)، فترقد الآن تحت عشرات أو مئات الأقدام من الرمال. إن الكثبان الرملية التى تندفع بلا توقف تغطي هذه المدن الآن. وكانت مدينة بلخ، الواقعة شمالي أفغانستان وتزوج فيها الإسكندر الأكبر الأميرة روكسانا، تسمى في يوم من الأيام جنة الله على الأرض، لما تنعم به من أراضي خصبة ونهر متدفق يغذي ذوبان الجليد الذى كان يغطي القمم المحيطة بها. أما الآن فقد جف النهر وهجر الناس المنطقة. وفي الأجزاء الغربية من قارة آسيا، غيرت الأجزاء السفلى من نهري دجلة والفرات مسارها مرات عديدة على امتداد القرون. ومواقع بعض المدن القديمة غير معروفة على وجه الدقة. وربما يكون بعضها قابلاً الآن تحت المستنقعات.

يضاف إلى ذلك أن نمط المعيشة أيضاً طاله التغيير. فالمناطق التى كان عبورها يحتاج

(١) إقليم في غرب الصين يقع بين سلسلتى جبال تيان شان وكون لون وتبلغ مساحته ٣٥٠ ألف ميل مربع. (المترجم).

إلى أيام أو أسابيع أو شهور، تقطعها السيارة أو الطائرة أو القطار الآن فى ساعات أو أيام قليلة. أما الشعوب التى كانت منذ قرون قليلة مضت معزولة، بسبب بعد المسافات والخرافات التى أعقبت الأيام الأولى للسفر عبر القارة، فقد أصبحت الآن وثيقة الاتصال بالعالم. لقد أصبح الإرسال التليفزيونى يصل الخيام الواقعة فى أقاصى السهوب.

والآن ليست هناك سوى طريقة واحدة للسفر على طريق الحرير، وهى عبر الخيال. فإذا كان الحاضر قد حجب الماضى، فمازال بمقدورنا إحياء طريق الحرير فى أذهاننا كى نراه على نفس الصورة التى بدت لمئات الآلاف من المسافرين، الذين جعلوه على مر القرون واحداً من أعظم طرق العالم. فقد كان ومازال أشهر الطرق البشرية قاطبة وأكثرها ازدهاراً. والذى يعيننا على بعث أحاسيس طريق الحرير ومناظره وأصواته وروائحه، التى تميز بها على مر العصور، هى تلك الكلمات التى سطرها العديد من الرحالة البارزين، الذين اجتذبهم هذا الطريق وجعلهم يكتبون عنه.

بعض الرحالة العالميين، أمثال ماركو بولو، تركوا سجلات لامثيل لها من الحياة على طول الطريق فى عصر السلام المغولى الفريد الذى يدعو للدهشة. كما أن الحوليات الصينية على مر العصور تحدثت بالتفصيل عن الاتصالات التى كانت تجرى مع البلدان الأجنبية بأسلوب يجمع بين الواقع والخيال. وهو الشئ نفسه الذى تميزت به كتابات المؤرخين فى الغرب فى الوقت الذى سجل الرسل من أنحاء أوراسيا محاولاتهم لعقد تحالفات على امتداد الصحارى والجبال والسهوب. وترك حجاج ولاجئون دينيون، بوذيون ومسيحيون وزرادشتيون ويهود ومسلمون وغيرهم، كتابات تتحدث عن رحلة العذاب التى قاموا بها بحثاً عن المعرفة. وكتب التجار عبر آلاف السنين كتباً إرشادية مستفيدين من خبراتهم. وقد حاولوا بذلك الحفاظ على الطرق التجارية غير واضحة المعالم على امتداد آسيا، فى مواجهة الأخطار الجمة التى كانت تتعرض لها. وبعد عدة قرون أعاد بعض المستكشفين، أمثال مارك أوريل ستاين وسفن هيدن والبارون فرديناند فون ريشتهوفن وأوين لاتي مور^(١)، اكتشاف الطريق الممتد من الشرق إلى الغرب ونشروا اكتشافاتهم فى سلسلة مميزة من الكتب فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

ولا تقدّر خبرات من أعادوا اكتشاف الطريق بضمن. فهؤلاء يؤكدون ماوصلنا من الرحالة

(١) سوف يأتى الحديث بالتفصيل عن نشاط هؤلاء المستكشفين فيما بعد. (المترجم).

الأوائل فيما يتعلق بنمط الحياة على طول طريق الحرير. وفي سنة ١٩٢٨، وقبل وصول تغيرات القرن العشرين إلى قلب قارة آسيا، كتب أوين لاتي مور قائلاً:

إذا كان لما قمت به من أنمية تذكر، فإن هذا يعود في المقام الأول إلى استقائي ما حصلت عليه من معلومات أثناء سفرى على الطريق القديم داخل آسيا مع قوافل أشبه بتلك التى قطعت الطريق نفسه منذ مئات، أو بالأحرى آلاف السنين. فالتقاليد هى التقاليد. كما أن مخاطر العطش والبرد والعواصف الرملية والثلجية وغارات اللصوص لم تتغير. ولم يكن رجال القوافل والتجار مختلفين فى شيء ذى بال. كل مارأيته وأحسست به وسمعتة قد يكون هو مارآه أى أجنبى سافر على الطريق منذ مائتى أو ألفى سنة وأحس به وسمعه، مع اختلاف لا يذكر. ولم تكن معى أية خرائط أستعين بها فى تحديد خط سيرى اليومى. [وأشار قائلاً: كان الرسم سيثير أغرب الشكوك. كما أن البوصلتين اللتين كانتا معى تعطلتا عن العمل.] وقد تكون مشاكل الاتجاهات والمسافات التى أصابتنى بالحيرة هى ذاتها التى واجهت ماركو بولو أو ويليام أوف روبروك. إلا أننى امتزت عنهما بشيء واحد، وهو معرفتى بلغة الناس الذين عشت بينهم.

ولحسن حظنا أننا أيضاً لانعانى من مشكلة اللغة. فكل هذه الكتابات متوافرة باللغة الإنجليزية من خلال باحثين آسيويين لا يضارغهم أحد عاشوا فى هذا القرن والقرن الماضى. وبالاستعانة بما كتبه هؤلاء يمكننا إعادة بناء شكل الحياة على طريق الحرير فى مخيلتنا. وقد تكون السياسة، بل والجغرافيا، قد تغيرت خلال تلك الفترة الطويلة. إلا أن الحياة التى عاشها الرحالة على امتداد طريق الحرير كانت متشابهة إلى حد بعيد. وربما تعين علينا أن نبدأ بتتبع آثار هؤلاء الرحالة الذين ربطوا الشرق بالغرب عن طريق سلسلة لاتنقطع من القوافل على مر العصور.

قد تكون النقطة التى انطلق منها المسافرون هى مدينة تشانج آن الصينية العظيمة ذات الأسوار. وظلت تلك هى المدينة الأولى أو الثانية فى الصين لعدة قرون. وغالباً ما كانت عاصمة البلاد. وترجع معرفة الغرب بهذه المدينة فى الوقت الراهن إلى جيش التماثيل

الرائع الذى يضم جنوداً وخيولاً بالحجم الطبيعى واكتشف سنة ١٩٧٤ داخل مقبرة تشين شى هوانج أول من وحد الصين. وبحلول سنة ٢١٠ قبل الميلاد صارت تشانج آن عاصمة كبيرة. وبلغ عدد سكانها المليونين فى القرن السابع الميلادى. وهو نفس تعداد مدينة شيآن الحديثة القريبة منها. وفى تلك العصور البعيدة، عندما كانت العاصمة تنتقل شرقاً إلى لويانج أو غيرها، كانت تشانج آن تظل هى المدينة التجارية الرئيسية بالنسبة للتجارة الغربية ورأس جسر لطريق الحرير، إلى جانب كونها مدينة عالمية يفد إليها أهل الشرق والغرب لبيع الحرير والموسلين والجواهر والزجاج الفاخر والصناعات المعدنية والعطور والتوابل والشاي وغيرها من السلع التى كانت تلقى رواجاً. كما ظلت تشانج آن لفترة طويلة المنفذ الذى تدخل منه الأفكار الجديدة والديانات وتجتازه الشعوب القادمة من الغرب.

وتقع المدينة فى وادى نهر وى فى قلب الصين القديمة. وكانت تمتد على المنحدر الجنوبى للوادى، حيث بدت أسوارها وقصورها من إحدى الزوايا وكأنها مسرح مدرج، حسب وصف أحد المحدثين لها. وكانت المدينة تضم العديد من القصور والمسارح والمتنزهات وتنعم بشبكة من البحيرات والقنوات. لذلك كانت على قدر كبير من الجاذبية وتزخر بالحركة والنشاط، لكونها مركزاً للتجارة والصناعة. أما السلع والبضائع فكانت تجلب إليها من الأرياف المحيطة بها ثم تُعد، قبل أن تنطلق بها القوافل غرباً. ومن هناك أيضاً كانت السلع التى تُستورد من وسط آسيا وغربها تورع عبر الطرق الإمبراطورية على الأقاليم المختلفة.

وبعد أن يغادر المسافر تشانج آن من خلال بوابتها الغربية، يجد نفسه فى وادى نهر وى الذى يتميز بالخصوبة والانتساع. وهنا يكون اللونان الغالبان هما الأخضر والأصفر. أما الأخضر فهو لون الحقول والبساتين. وقد تناول ماركو بولو بالوصف «السهول الجميلة المزروعة بأشجار التوت»، تلك الأشجار التى تتغذى على أوراقها دودة القز الثمينة. وأما الأصفر فهو لون الكثبان الرملية الناعمة التى تنقلها الرياح عبر آلاف السنين من السهوب الشمالية لتتراكم بارتفاع يصل إلى أقدام عديدة.

وهذه ذاتها هى الرمال التى تشكل الكثبان الحمراء الذهبية فى الصحراء الجرداء التى يخرقها طريق الحرير. ولكن الذى يحدث هنا هو أن المياه الوفيرة تحيل تلك التربة الرسوبية إلى أجود أراض زراعية فى العالم. واللون الأصفر يغلب على الأرض والهواء معاً، حتى أن أباطرة الصين الأقدمين اتخذوا لأنفسهم لقب «هوانج دى» أى «سيد الأرض» أو «سيد

التراب الأصفر». غير أن الغبار كان أقل جاذبية بالنسبة للمسافرين، إذ كان يدخل عيونهم وأنوفهم وأفواههم ويغطي كل ما يحملونه.

وكان المسافرون وهم في طريقهم إلى داخل آسيا يتجهون غرباً بمحاذاة نهر وى لمسافة ٢٥٠ أو ٣٠٠ ميل بعد خروجهم من تشانج آن. وقد شيد الصينيون في سنة ٣٠٠ قبل الميلاد أول أجيال سور الصين العظيم، مستخدمين في ذلك الطين، في المكان الذي كان يعد وقتها الحدود الخارجية لمنطقة نفوذهم. وكان الطريق المتجه غرباً، وأطلق عليه الصينيون الطريق الإمبراطوري، تجري له الصيانة باستمرار ليستخدمه المسافرون. فكانت أرض الطريق إما على قدر كاف من الصلابة أو يجري تمهيدها في معظم الأجزاء كي تصلح لسير العربات ذات العجلات. في حين كانت الدوريات الصينية تجوب الطريق لحماية المسافرين وجمع الضرائب، التي تُحمل إلى الإمبراطور. ولم يكن أفراد القوافل مضطرين إلى حمل زادهم معهم. إذ كانوا يحصلون عليه من المزارع المحيطة بالطريق ويشترونه من المحطات المقامة عليه بصورة منتظمة. كما لم يكن هناك ما يبرر مبيتهم في العراء أو الخيام. فأماكن النوم كانت متوافرة.

وعند أعالي نهر وى كان المسافرون ينحرفون قليلاً نحو الشمال الغربي ثم يسرون في طريق جبلي تحيط به الغابات إلى أن يصلوا إلى أعالي نهر هوانج (النهر الأصفر) قبل أن يسروا نحو الشمال. وكان المسافرون يعبرون النهر عند نقاط اختلفت على مر العصور. إلا أنها كانت في أغلب الأحيان على مقربة من مدينة لانج تشو الحديثة.

وينبع نهر هوانج من سلسلة الجبال المعروفة باسم كون لون، وهي الحافة الشمالية للكتلة الضخمة التي تشكل هضبة التبت. وكذلك من جبال الهيمالايا الواقعة جنوبها. بعد ذلك يميل طريق الحرير ناحية الشمال الغربي متجهاً إلى قلب آسيا بمحاذاة جبال نان شان (الجبال الجنوبية) ليقطع مسافة تزيد على ٢٠٠ ميل. وفي هذا الممر يكون المسافرون قد ابتعدوا عن الرياح المحملة بالأمطار الآتية من المحيط الهادئ. وبدءاً من هذه النقطة وطوال الطريق الممتد غرباً، كانت مصادر المياه الوحيدة هي الجداول والآبار التي يغذيها ذوبان الجليد الموجود على حاجز الجبال الشاهقة الواقعة في آسيا الوسطى.

وكان الطريق على امتداد سفوح نان شان يخترق ما يمكن اعتباره واحة ممتدة يرويها نهر صغير اسمه صولو. أما مايلي تلك الواحة فكان امتداد صحراء جوبي المهلكة. وكان الشريط الذي تكثر فيه المراعي والأراضي الخصبة، والمعروف باسم ممر كانسو، هو الطريق

الطبيعي نحو الغرب. ودفعت أهمية هذا الإقليم الصينيين إلى مد سورهم العظيم بحيث يكون داخله، بمجرد الدخول في علاقات مباشرة مع الغرب قبل قرن تقريباً من ميلاد المسيح. فسور الصين العظيم يمتد على طول عمر كانسو، بدءاً من الانحناء الشمالى لنهر هوانج. وأقيمت أبراج ونقاط للمراقبة على طول الطريق، كما كان الجنود يُستدعون عند وقوع الاضطرابات.

وعند نهاية عمر كانسو، أى بين الحضارة والبرية، كانت تقع مدينة البوذية، وتعرف أيضاً باسم مدينة الرمال. ففي هذا المكان كان المسافرون يواجهون الكثبان الرملية الضخمة التى تتميز بها منطقة تمتد لمسافة تزيد على ألف وخمسمائة ميل. وعلى مقربة من هذه المدينة تقع كهوف الألف بوذا الشهيرة، وهى عبارة عن صخرة ضخمة تضم العديد من صوامع الرهبان. وفى هذا المكان وفى سنة ١٩٠٧ اكتشف أوريل ستاين كنزاً من المخطوطات من بينها «السوترا الماسية»، وهى أقدم كتاب مطبوع فى العالم على شكل لفافات ويعود تاريخه إلى سنة ٨٦٨ ميلادية (يذكر أنه عثر فى أماكن أخرى على شذرات مطبوعة تعود إلى قرن قبل هذا التاريخ).

وعند آخر محطة رئيسية داخل حدود الصين، وهى تونهوانج، كان المسافرون يعدون أنفسهم لنوع مختلف تماماً من السفر. فهامهم الآن على مشارف الصحراء، أو الرمال المتدفقة، كما كان الصينيون يطلقون عليها. وكان مزارعو الواحات فى تلك الأراضى التى تشتد فيها حرارة الجو يشكّون فى إمكانية الزراعة بدون الري اعتماداً على المطر وحده. وما أن يعبر المسافرون تونهوانج حتى يضطروا إلى حمل زادهم ومايكفيهم من ماء ما بين بئر وأخرى. وكانت المسافة بين البئرين تصل أحياناً إلى عدة أيام.

وفى الوقت نفسه كان لابد أيضاً من تزويد الدواب بالماء والطعام، لقلة المراعى فى الأراضى القاحلة التى يمرون بها. وهكذا كانت الجمال أفضل راحلة، فقدرتها على الصوم مكنتها من السير لمسافات طويلة بقليل من الماء والطعام. ولم يمنع ذلك استخدام الحمير والخيول على طريق الحرير، لقدرتها على حمل الأمتعة الثقيلة.

كانت الجمال وسيلة الانتقال الأساسية للمسافرين على طريق الحرير. وتختلف الجمال فى آسيا الوسطى عن جمال الجزيرة العربية فى كونها ذات سنامين. وهى قادرة على تحمل برد الليل القارس وزمهرير الشتاء، إلى جانب تحملها لحرارة الصحراء أثناء النهار. والمعروف عن الجمال قدرتها على شم الماء من مسافات بعيدة، إلى جانب تحذيرها من العواصف

الرملية التى تكاد تخنق المسافرين أو تدفنهم إذا لم يأخذوا حذرهم. وجاء فى تاريخ بيه شى الصينى:

عندما توشك هذه الرياح على الهبوب تكون الجمال المسنة وحدها هى القادرة على التنبؤ بهبوبها. ففى الحال تجتمع كلها وتدفن أفواهها فى الرمال. ويرى المسافرون فى ذلك دليلاً على هبوب العاصفة، فيقومون على الفور بتغطية أنوفهم وأفواههم باللباد. وهذه الرياح سريعة وتمضى فى لحظة وتنتهى. وإن لم يحم المسافرون أنفسهم تعرضوا لخطر الموت المفاجئ.

لم يكن الماء والطعام والعواصف الرملية هى وحدها ما يواجهه المسافرون على طريق الحرير من مشاكل. فما أن يعبروا سور الصين العظيم حتى يتعرضوا لخطر آخر، وهو قُطَاع الطرق. فمع أن جذب تلك المناطق كان يحول دون إقامة أعداد كبيرة من البدو الرحل أو عصابات اللصوص، إلا أنه كانت هناك جماعات صغيرة من اللصوص تغير على القوافل. وكانت تلك الجماعات تحصل على حاجتها من الماء من بعض الآبار المنعزلة وتستولى على ماتحتاجه غير ذلك من القوافل التى تمر من هناك محملة بكل ما هو ثمين. وكان ذلك سبباً فى قلة عدد من يغامرون بالمرور فى تلك المناطق من قلب آسيا. وأغلب هؤلاء كانوا من الحجاج أو رسل الملوك الذين يقومون بمهمات عاجلة. وكثيراً ما كانوا يتجمعون فى قوافل كبيرة تضم مئات الجمال ويحميها رجال مسلحون يكونون فى صحبتها. ورغم ماتوفره الكثرة من حماية، كانت تلك القوافل أكثر عرضة للنهب بسبب بطء حركتها الناتج عن كبر حجمها. وما إن تصل القافلة إلى الرمال المتدفقة حتى يغادر الجميع المركبات ذات العجلات ويسيرون بجانب الدواب المحملة.

وعلى مر التاريخ قطع معظم المسافرين طريق الحرير سيراً على الأقدام، بما فى ذلك المحدثون منهم كستين ولا تيمور. فقد كانت دواب الحمل من جمال وحمير وثيران وخيل أثمن من أن تستخدم لحمل المسافرين. كان يكفيها حمل الزاد من ماء وطعام، إلى جانب البضائع أو الخراج. بل إنه فى العصر الحديث، عندما بدأ المستكشفون فى الذهاب إلى آسيا الوسطى بالسيارات، كانت المركبات تخصص للمعدات المهمة وليس لركوب المسافرين. أما الجمال فكانت تحمل البنزين شديد الأهمية، ليكون وقوداً للآلات فى المناطق القاحلة. وبذلك كان الجميع يمشون على الأقدام، مما جعل القوافل تسير ببطء شديد كأنه الزحف،

بسبب ثقل ما تحمله الدواب. وفي المقابل كانت جماعات البدو الراكبة المغيرة على قدر كبير من السرعة.

بعد اجتياز تونهواتج كان المسافرون المتجهون غرباً يواجهون صحراء حوض التاريم. وغالباً ما كانت تحيط بهم سلاسل جبال ثلجية قاحلة. ففي الجنوب تقع سلسلة كون لون وفي الغرب جبال البامير وفي الشمال جبال تيان شان (الجبال السماوية) وفي الشمال الشرقي جبال ييه شان (الجبال الشمالية). وكانت صحراء التاريم محرومة من الأمطار القادمة من المحيطات والبحار المحيطة بقارة آسيا وتبعث الحياة في المناطق التي تسقط عليها. وهذه المنطقة من أشد بقاع العالم جفافاً وقحطاً. والصحراء هنا ليست «مستأنسة» كتلك التي تنقل فيها بنو إسرائيل في غرب آسيا وتعيش فيها قبائل من البدو تجوبها سعياً وراء مايكفل الحياة لها ولقطعانها. أما الصحراء التي تشكل قلب حوض التاريم فلا تصلح موطناً للإنسان أو حيوان أو نبات.

وأكبر مناطق صحراء حوض التاريم هي تاكلا مكان وتمتد ٦٠٠ ميل من الشرق للغرب و ٢٥٠ ميلاً من الشمال للجنوب. وهذه المنطقة عبارة عن كثبان رملية حمراء ذهبية متحركة يصل ارتفاع بعضها إلى ثلاثمائة قدم. وهي كفيلة بالقضاء على كل مظاهر الحياة. ومع ذلك هناك بعض النباتات على مسافات متباعدة، مثل أشجار الطرفا أو الحور أو نبات البوص. وهي تنمو على حواف المجارى المائية القديمة. وجذوع الأشجار الميتة من أكثر المناظر شيوعاً في تلك المنطقة. وكثيراً ما تتجمع حولها الرمال لتشكل ما يطلق عليه أقماع الطرفا، التي يصل ارتفاع بعضها إلى خمسين قدماً. وفي الطرف الشرقي من حوض التاريم تقع مساحة أقل من الأرض القاحلة الموحشة، وتسمى صحراء لوب (صحراء الملح). وهي عبارة عن سهول تكسوها الطفلة الصلبة أو الملح المتبقى من بحر داخلي مالح.

والمياه القليلة في حوض التاريم مصدرها جداول صغيرة ناتجة عن ذوبان الجليد تسير في ممرات حفرها الماء على مر السنين ثم تختفي في الصحراء. وعلى امتداد الحافة الجنوبية لحوض التاريم تتجمع هذه الجداول في سلسلة من الواحات الواسعة. كما أن المياه القادمة من الجبال الغربية والشمالية تتجمع مكونة نهراً أكثر أهمية، هو نهر التاريم، على امتداد القوس الشمالي من الخوض بيضاوى الشكل. وفي بعض الأحيان كان منسوب هذا النهر يرتفع بسبب مياه نهر خوتان الذي يقطع مجراه تاكلا مكان متجهاً نحو الشمال، ويأتى عليه

وقت يكون فيه جافاً تماماً. وكان نهر التاريم يصب في البحر القديم الذي كان يطلق عليه لوب نور (بحر الملح). وكان في العصور القديمة عبارة عن مستنقع ملحي. وقد تقلصت بقايا لوب نور الآن لدرجة أن أي تغير في الموسم يؤدي أحياناً إلى تغير مجرى الجداول التي تغذيه، مما يؤدي إلى تغير موقعه. ولهذا السبب أطلق علماء الآثار المحدثون على لوب نور اسم «البحيرة المتنقلة».

وتحدث ماركو بولو عن المصاعب التي تحيط بعبور هذا الإقليم الصحراوي قائلاً:

تتكون [هذه الصحراء] كلها من تلال وأودية رملية ليس بها مايؤكل. وبعد مسيرة يوم وليلة تجد ماءً عذباً قد يكفي لخمسين أو مائة شخص مع دوابهم دون زيادة. وعلى امتداد الصحراء قاطبة ستجد الماء بهذه الكيفية. ففي مايقرب من ثمانية وعشرين موضعاً ستجد ماءً صالحاً للشرب، وإنما بكميات ليست كبيرة. كما أنك ستجد في أربعة مواضع أخرى ماءً صالحاً بعض الشيء. والحيوانات البرية لاوجود لها هناك، إذ لا يوجد ما تقتات عليه وهذه الصحراء يرتبط بها شيء مثير للدهشة، وهو أنه إذا شد المسافرون الرحال ليلاً وتصادف أن تخلف أحدهم أو غلبه النعاس أو ما شابه ذلك، فإنه عندما يحاول اللحاق برفاقه يسمع أرواحاً تتحدث فيتصور أنها أصحابه. وفي بعض الأحيان تتأديه الأرواح باسمه. ولذلك فإنه غالباً ما يضل هذا المسافر ولا يهتدي إلى صحبه أبداً. وهناك العديد ممن هلكوا بهذه الكيفية. وأحياناً أخرى يسمع المسافر الشارد ما يشبه وقع أقدام عدد كبير من الناس وهمهماتهم بعيداً عن الطريق الحقيقي. وعندما يتصور أن هذه أصوات قافلته يتبعها ليكتشف عند طلوع النهار أنه خُدع وأنه وقع في مأزق. بل إن المرء يسمع تلك الأرواح وهي تتحدث في وضخ النهار. ومرات تسمع أصوات آلات موسيقية مختلفة أوضاعها الطبول. ومن ثم اعتاد المسافرون أن يكونوا قريبين من بعض في مثل هذه الرحلة. وكل الدواب هي الأخرى معلق في رقابها أجراس كي لاتضل بسهولة. وعندما يحين موعد النوم توضع علامة تدل على اتجاه السير في المرحلة التالية. وهكذا يتم عبور الصحراء.

والمسافرون عبر الصحراء فى كل مكان من العالم يصفون الأصوات الوهمية والسراب الذى قد يقود من هو غير حريص إلى حتفه. ويصف كثيرون من هؤلاء المسافرين تلك الأصوات بأنها من صنع الأرواح الشريرة. إلا أن العلماء المحدثين يرون أن أصوات الصحراء ناتجة عن التغيرات الحادة فى درجات الحرارة فى جو يكاد يخلو من السحب، مما يؤدى إلى سقوط الرمال من فوق الكثبان المرتفعة. وبغض النظر عن أسباب تلك الأصوات، فقد ساهمت بالإضافة إلى ذلك السراب فى وضع كل من الصورة الخيالية والحقيقة الواقعة للخطر بالنسبة للمسافرين عبر آسيا الوسطى.

والمنطق يقول أن مثل هذا الإقليم، بما هو عليه من عدااء للحياة ومايعانيه من انقطاع عن العالم الخارجى، ماكان له أن يستأثر بهذا القدر من اهتمام العالم. إلا أن وقوع حوض التاريم على الطريق الرئيسى عبر آسيا جعله قطاعاً أساسياً من طريق الحرير. وعلى امتداد قرون من الزمان شق المسافرون خلاله طريقاً فى وهن خيوط الحرير يمتد من واحة إلى أخرى مكوناً ممراً موحشاً بين الشرق والغرب.

كان على المسافرين الذين يقررون بدء الرحلة - رغم كل هذا - أن يختاروا عند وصولهم إلى تونهوانج بين الطريقين الشمالى أو الجنوبى حول حافة حوض التاريم. وكان الطريق الجنوبى أكثرهما مشقة وصعوبة، لبعد الشقة بين واحاته. إلا أن المسافرين غالباً ماكانوا يفضلونه، لأن انعزاله يحول دون محاولة العصابات الجواله الهجوم على القوافل أو إقامتها فى هذه المنطقة. كما أن المسافرين لا يتعرضون كثيراً لهجمات قُطَّاع الطرق القادمين من كون لون، لقلة الطرق الطبيعية عبر الجبال. كما كان من المستحيل عبور الممرات المائية لشدة انحدارها. وما إن يتعد المسافرون عن حماية سور الصين العظيم من خلال بوابة يانج كوان حتى ينحرفوا قليلاً نحو الجنوب، بمحاذاة حافة حوض التاريم بوضاوية الشكل. وكان الصينيون يطلقون على هذا الطريق نان شان بيه لو (الطريق الواقع شمالى الجبال الجنوبية).

وكانت الرحلة فى هذا الجزء من طريق الحرير عبارة عن سلسلة من الممرات القصيرة، تتسم فى غالبها بالخطورة وتقع بين إحدى مدن الواحات ذات الأسوار وغيرها. وفى الطريق كان المسافرون يضطرون إلى إقامة معسكراتهم فى العراء، حيث ينامون على ما يحملونه من فراش داخل خيامهم الخفيفة. وكانت القوافل تتحرك فيما بين المدن بأسرع مايمكن، إذ كان استمرار حياة البشر والدواب متوقفاً على الوصول إلى البئر التالية وإيجاد مايكفى من ماء.

وبما أن الماء كان شيئاً حيوياً، فإن المسافرين، ومنهم المستكشفون المحدثون أمثال نستلين وهيدن، كانوا يفضلون السفر على هذا الطريق في الشتاء لتمكنهم من حمل ما يحتاجونه من ماء على هيئة كتل من الثلج. وفي الأوقات الأشد حرارة كانوا يسافرون في الليل البارد على هدي النجوم. وكان بعض قادة القوافل والمرشدين يدرسون في المدارس البحرية بالهند. فالمعروف أن طرق السفر على هدي النجوم في البر والبحر سواء. وفي النهار كان المسافرون يحتمون بخيامهم من أشعة الشمس الحارقة. وما إن يصلوا إحدى الواحات، ليكونوا مرة أخرى خلف الأسوار التي تحميهم، حتى يستريحوا أسبوعاً أو أسبوعين من عناء السفر ويصلحوا متاعهم ويتزودوا بالمؤن ثم يستعدوا لاستئناف السير.

كانت شان شان (تشرتشن) أول وأكبر مدينة يستريح فيها المسافرون على الطريق الجنوبي ويتزودون منها بالمؤن، وقال ماركو بولو: «هذا الإقليم رملى تماماً، وكذلك الحال بالنسبة للطريق على امتداده... وكثير من الماء الذي تصادفه مر المذاق وغير صالح للشرب»، رغم إشارته إلى أن بعضه عذب وحلو. وأورد ماركو بولو هذه الحكاية التي تصف المنطقة الموحشة المحيطة بشان شان:

عندما يمر أحد الجيوش بهذه الأرض يهرب الرجال بزوجاتهم وأطفالهم وماشيتهن لمسيرة ثلاثة أيام في الأراضي الرملية. ولمعرفتهم بمواقع المياه، فهم قادرون على العيش هناك والحفاظ على حياة ماشيتهن. ويستحيل على أي إنسان اكتشاف مكانهم. فالريح تهب وتغطي الرمال آثارهم.

من الواضح إذن أن أرضاً كهذه ماكان ليدخلها إنسان لم تطأها قدماء من قبل. لذلك كان المسافرون على طريق الحرير يحرصون دائماً على استئجار قادة القوافل والمرشدين ذوي الخبرة.

بعد ذلك يصل المسافرون على الطريق الجنوبي إلى مدينة خوتان العظيمة. وهي لم تكن مجرد مركز للتزود بالمؤن، بل كانت أحد المراكز الثقافية الكبرى في آسيا الوسطى. كما أنها لم تكتسب أهميتها لوقوعها على طريق الحرير فحسب، بل - أيضاً - لأنها كانت قريبة من أول طريق جبلي يمر عبر جبال قره قورم إلى كشمير والهند. وهو تقريباً نفس مسار طريق قره قورم السريع الذي يربط الصين وباكستان حالياً. وعلاوة على ارتفاع هذه المنطقة وبرودتها، فهي أيضاً جافة ومكشوفة، كما يدل على ذلك اسمها الذي يعنى «الحصى

الأسود». أما ممر قسره قورم فهو على ارتفاع ١٨ ألف قدم. وظل هذا الطريق مهماً لعدة قرون. إذ كان الطريق الرئيسي الذى وصلت من خلاله البوذية إلى قلب آسيا الوسطى من موطنها الأصلي في الهند. وكانت المدينة التى يروىها نهر خوتان تسر الناظرين وتنعم بالخير. وقد وجد ماركو بولو أن «كل شىء موجود هناك بوفرة».

والشىء الذى اهتم به الصينيون اهتماماً خاصاً هو اليشب^(١) بلونه الأخضر والأبيض، وكان موجوداً بوفرة في قيعان الأنهار الجبلية القريبة من خوتان. وقبل زمن طويل من إرسال الحرير إلى البحر المتوسط في الغرب، كان استيراد اليشب يتم عبر طريق التاريم الجنوبى إلى الصين. وكان المسافرون إلى الهند يسرون في بعض الأحيان عبر الجبال الواقعة خلف خوتان. وغالباً ما كانوا يمضون في السير على الطريق الجنوبى إلى مدينتى يرقند وكاشغر إلى جبال البامير الأقل انحداراً ثم يتجهون جنوباً قبالة الأجزاء المرتفعة من جبال هندوكوش، وبعد ذلك يسرون مع الممر الطبيعى عبر ما يعرف الآن بأفغانستان وباكستان ليصلوا إلى السهول الهندية. وهذا هو الطريق الذى سلكه الغزاة عبر العصور.



كان المسافرون الذين يسرون في الطريق الذى يبدأ من تونهوانج شمالى تاكلامكان يتبعون مساراً مختلفاً إلى جبال البامير. فبعد مغادرتهم سور الصين العظيم من خلال بوابة يومن كوان المعروفة باسم «بوابة اليشب»، كانوا يسرون لبعض الوقت في طريق موار تقريباً للطريق الجنوبى، عبر منطقة شبه صحراوية تقع وراءها صحراء لوب القاحلة تماماً. وكان على المسافرين الذين يعبرون الأراضي الملحية أن يحملوا كل ما يحتاجونه من ماء وطعام. فلم يكن هناك ما يأكلونه أو يشربونه في تلك المناطق الجذباء. وعلى الطرف الأقصى من الصحراء، كان المسافرون في قديم الزمان يجدون المستنقعات المالحة وأطراف لوب نور، على ضحالتها، حيث الرطوبة والخضرة. وعند أطراف المستنقعات كانت تقع المدينة الواحة لولان المعروفة باسم «مدينة الموتى»، وكانت توفر لهم الغوث والمأوى. وعندما كان ذلك هو الطريق الرئيسى إلى الغرب، أطالت الصين خط أبراج المراقبة ومحطات الإرشاد والحصون التابعة لسور الصين العظيم عند لولان. وأدى هذا إلى توفير الحماية والطعام، الذى كانت تخرجه الأرض التى تروى رياً خفيفاً.

(١) اليشب تطلق على معدنين هما الجاديت والتفريت، وهو أبيض وأحياناً أخضر ويحظى بتقدير كبير كحجر للزينة، حيث يستخدم في الحلى والحفر عليه. (المترجم).

وما إن يجتاز المسافرون لولان حتى يجدوا صحراء أكثر رمالاً إلى أن يصلوا إلى كورلا التى تلتقى عندها المياه القادمة من جبال تيان شان القريبة مع تلك الآتية من الجبال الغربية البعيدة. ويخلق ذلك وادياً وسط الصحراء عامراً بالمراعى يجعل السفر يسيراً. وكان الصينيون يطلقون على هذا الطريق اسم تيان شان نان لو، أى الطريق الواقع جنوب الجبال السماوية. وكانوا يسمونه أيضاً «طريق الوسط». وما يدعو للأسف أنه بنهاية القرن الثالث الميلادى انحسر ذلك القدر الضئيل من المياه الذى كان يساعد على وجود الحياة فى إقليم لولان كما أن الجزء الداخلى من آسيا صار أكثر جفافاً فأصبحت المدينة مهجورة ولم تعد واحة كما كانت.

وفى ذلك الوقت، كان على المسافرين الراغبين فى السفر إلى شمال تاكلا مكان أن يبحثوا عن بديل آخر. لذلك كانوا يتجهون شمالاً عبر ممر كانسو ومن ثم يتجهون غرباً نحو ذلك العدد القليل من الواحات الواقعة فى هذه المنطقة. وكانوا يسرون مسافة طويلة قبل أن يعودوا مرة أخرى إلى الطريق الرئيسى عند كورلا. إلا أن هذا البديل كان يتسم بالصعوبة لوقوع جزء من صحراء جوبى الشاسعة، التى تحد الصين من الشمال، خلف سور الصين العظيم. ويصف المؤرخ الصينى ماوتوان لين الصحراء فى تلك المنطقة قائلاً:

.. على المرء أن يعبر سهلاً من الرمال يمتد لمسافة تزيد على ألف فرسخ. ولا يرى الإنسان شيئاً فى أى اتجاه سوى السماء والرمال، دون أن يكون هناك أدنى أثر للطريق. ولا يجد المسافرون مرشداً لهم سوى عظام البشر والدواب ويعبر الجمال. وطوال هذا الطريق الذى يقطع البرية تسمع أصواتاً، تكون غناءً تارة ونحيباً تارة أخرى. وكثيراً ما يتوه المسافرون الذين يتتبعون تلك الأصوات لمعرفة مصدرها ويضلون طريقهم. إنها أصوات الأرواح والعفاريت.

وزغم خطورة هذه الصحراء، كانت المسافة بين الواحات الواقعة على جانبها الأقصى أقصر من تلك التى على طريق لولان القاحل.

كان المسافرون يخرجون من حماية ممر كانسو وسور الصين العظيم قبل تونهوانج بحوالى تسعين ميلاً، عند مدينة أنشى التى يسمونها أحياناً «مدينة الشام»^(١) بسبب زراعة

(١) يزرع فى هذه المناطق نوع من الشامم يميل إلى الاستدارة والصفار، طعمه حلو ورائحته طيبة، يسمى قاوون. (المترجم).

هذه الفاكهة فى واحات الإقليم . وعند اتجاههم ناحية الشمال الغربى عبر صحراء جوبى، كانوا يجدون العديد من الواحات التى تروى بوفرة وتقع على مقربة من سلسلة بييه شان وكانت أولى تلك السواحات حوضاً خصباً له أسماء عديدة مثل «هامى» و «كومول» و «ايو». وفى بعض الأحيان كان يطلق على الطريق الشمالى الغربى «الطريق إلى هامى». وكان الطريق بدءاً من هامى يتجه شمالاً بمحاذاة التلال ثم يميل نحو الجنوب الغربى إلى تورفان، وهى حوض كبير يقع على عمق ثلاثمائة قدم تحت سطح البحر. وساعد ذوبان الجليد فوق قمم الجبال على جعل هذا الحوض مركزاً زراعياً على مر العصور. كما أنه كان استراحة للمسافرين المتعبين. وتظهر رؤيتهم لهذا الإقليم فى الاسم الصينى الذى أطلقوه على الطريق وهو «طريق ما بين أشجار الصفصاف». وبالمثل كانت الواحة الرئيسية الأولى فى حوض تورفان تُسمى قديماً «نبع التين». ويقول مارك أوريل ستاين:

كان اسمها باللغة الصينية صفة تليق بالنبع الذى يهب الحياة وسط صحراء صخرية. فالخيال الصينى يميل دائماً إلى ربط المعالم الطبيعية البارزة بالوحوش المقدسة.

وتحتل تورفان أيضاً موقعاً استراتيجياً لوقوعها عند بداية ممر جبلى رئيسى يسلكه كثير من المسافرين القادمين من السهوب الواقعة خلف جبال تيان شان إلى حوض التاريم. وفيما يتعلق بالبدو الغزاة، كانت تورفان فى حد ذاتها مصدر جاذبية لهم. إلا أنها كانت فى الوقت ذاته قاعدة شديدة الأهمية لشن الهجوم على تجارة طريق الحرير الثمينة أو غزو الصين نفسها. وفى زمن السلم يسافر العمال المهاجرون من تورفان عبر ممرات تيان شان لجنى محاصيل الحقول الواقعة على سفوح الجبال. ويحدث ذلك فيما بين موسمى الزراعة المعتادين فى تورفان الأكثر حرارة (والواقع أن تورفان حار صيفاً. وغالباً ما يتقل النبلاء المحليون إلى غرف تحت الأرض اتقاءً للحر. فى حين كان نظراؤهم البدو يصعدون الجبال للغرض نفسه).

وكان بعض المسافرين المتجهين من الصين إلى تورفان طريقاً مختلفاً. إذ كانوا يتعدون أكثر عن سور الصين العظيم فى اتجاه الشرق عند يومين موغلين أكثر فى الصحراء وملتفين حول واحة هامى. وكان ذلك الطريق الشمالى الجديد مفيداً بصورة خاصة عندما تكون أى من واحتى هامى أو تورفان فى حالة نزاع أو تتعرض لهجوم مباشر. إلا أن طريق هامى المتجه إلى تورفان كان مفضلاً فى أغلب الأحيان، خاصة بالنسبة للقوافل الكبيرة التى عليها أن تضمن وجود الماء الوفير.

ومهما كان الطريق الذى سيسلكه المسافرون إلى تورفان، فإنهم بعد أن يغادروها ينحرفون إلى الجنوب الغربى فى محاذاة سفوح جبال تيان شان إلى واحة قره شهر المفضلة لديهم ثم يتجهون إلى طريق لولان عند مدينة كورلا الواقعة عند ملتقى الطرق. وبعد ذلك يسيرون غرباً إلى واحتى كوتشا وأكسو الرئيسيتين. وعندما لم تكن هناك سلطة مركزية تسيطر على آسيا الوسطى، كانت الواحات الرئيسية، مثل تورفان وهامى، دويلات مستقلة تتبعها ملحقاتها من المدن ذات الأسوار. وكان المسافرون فى ذلك الوقت يجدون مشقة كبيرة فى ترحالهم ويتكبدون نفقات باهظة. فكل مدينة يمرون فيها تحصل منهم الضرائب نقداً أو عيناً على كل أنواع البضائع. وكانت الضرائب عموماً عبارة عن مبلغ محدد عن كل حمل. ولم يكن أمام المسافرين إلا الدفع، لحاجتهم إلى المأوى والمؤن التى توفرها لهم تلك المدن. فى حين كانت الأراضي المحيطة بها موحشة. وكان المسافرون الذين يحملون مايكفى من المؤن يعتمدون الالتفاف حول الواحات الرئيسية مثل هامى، إذا كان هذا فى مقدورهم. وكان هدفهم من ذلك تحاشى الضرائب والنفقات الضخمة التى يدفعونها للحصول على المؤن منها. إلا أنه عندما كانت آسيا الوسطى جزءاً من إمبراطورية كبرى، كانت الحكومة المركزية تُرشد الأعباء الضريبية على التجار وتوفر الحماية والدواب المستريحة إلى جانب كميات وفيرة من الطعام على طول الطريق. وغالباً ما كان يتم ذلك من خلال المهاجرين الذين ترسلهم إلى تلك المناطق كمزارعين جنود.

وبغض النظر عن بيده السلطة، كانت كوتشا وأكسو مركزين مهمين على الطريق الشمالى عبر حوض التاريم. وغالباً ما كانت كوتشا مركزاً إدارياً للإقليم فى ظل حكم الصينيين والترك وغيرهم. فقد كانت ممرات عديدة فى جبال تيان شان تصب فى إقليم كوتشا. وذكر أوريل ستاين: «رغم كونها مغلقة بالثلوج فى جزء من الشتاء وأوائل الربيع، فإنها جميعاً كانت مفتوحة بقية العام أمام الدواب المحملة بالبضائع». وعبر هذه الممرات كان يتوافد التجار من السهوب الشمالية ليشاركوا فى تجارة طريق الحرير ويقايضوا ذهبهم وفراءهم وجلودهم وخيولهم بالأعمال الفنية التى تصنعها الشعوب المستقرة.

ومع ذلك أدى ارتفاع تلك الممرات وضيقها إلى جعل الدفاع عنها أسير من تلك الواقعة شمالى تورفان وهامى، وجعل كوتشا أقل عرضة للهجوم الغادر. وكان إقليم كوتشا ذاته بمثابة مانع، ليس أمام البدو الشماليين بل فى وجه الصحراء الواقعة فى الجنوب. وهو يشغل سهلاً متسعاً على امتداد نهر صغير. وذكر أوريل ستاين أنه:

... بمثابة خندق أو سياج طبيعي يحول دون تقدم الرمال المتحركة. إذ أن قرب منطقة الكتبان الرملية الشاسعة في تاكلا مكان يهدد يبدقن المناطق الزراعية.. عندما يقل ريها لأسباب طبيعية أو بشرية.

وكان المسافرون يجدون في كوتشا كذلك منطقة للراحة وإصلاح متاعهم. وسواء كانت يدايتهم من لولان أم من تورفان، فقد كان ذلك هو منتصف الطريق تقريباً إلى اليامير عبر الخوض. وحتى في العصور الحديثة، التي تعد أكثر جفافاً من عهود طريق الحرير الأولى، كان المسافرون يستهجون لرؤية سناطين كوتشا وحقولها التي تسر العين وكذلك الأسواق العامرة الواقعة عند أطرافها.

وكان إقليم أكسو، وهو المركز الرئيسي الثاني على الطريق في اتجاه الغرب، ملتقى طريق أيضاً. وكما هو حال كوتشا، يقع أكسو على أحد روافد نهر التاريم، وإن كان اليوم أكثر جفافاً وأقل رياً عما كان عليه في الماضي. وبعض الممرات التي تخترق جبال تيان شان تميل إلى الانخفاض واليسر بحيث تعبرها العربات بسهولة. وما يجعل الأمر أكثر يسراً هو أن نهر خوتان الذي يجف موسمياً، ويعد المصدر الرئيسي لري الحزام الذي يقطع وسط تاكلا مكان، يربط مباشرة بين أكسو وخوتان ويصل ما بين الطرق الشمالية والجنوبية عبر الصحراء.

وسواء كان الطريق الذي يسلكه المسافرون من الصين هو طريق التاريم الجنوبي أو ما يطلق عليه ستاين «الطريق الآسيوي المركزي العظيم»، فقد كان عليهم أن يعبروا جبال اليامير، عمود آسيا الفقري، للوصول إلى الغرب. فالطريقان اللذان يتفرعان حول التاريم يلتقيان عند سفوح البامير. ويحدث ذلك عند يرقند أحياناً، ولكنه كثيراً ما يحدث عند كاشغر. وموقع كاشغر شديد الروعة. فجبال تيان شان الشمالية وجبال كون لون الجنوبية تحيط بها. وهي تشكل مع جبال اليامير خطاً متصلاً من القمم التي تطوق كاشغر عند أقصى نقطة في غرب التاريم. ويشير ستاين إلى «روعة منظر الجبال الثلجية» المحيطة بكاشغر من ثلاث جهات.

وعند هذه النقطة كان المسافرون على طريق الحرير يواجهون مانع جبال البامير الشرقي. وكان أفراد القوافل الآتية من تشانج آن يصعدون ببطء وعزم نحو منابع مياه آسيا. وإذا ما وصلوا إلى كاشغر يصبحون على ارتفاع خمسة آلاف قدم فوق سطح البحر. إلا أن بعض قمم البامير يصل ارتفاعها إلى خمسة وعشرين ألف قدم. وهي من الارتفاع والصعوبة بما

يجتذب أكثر متسلقي الجبال حباً للمغامرة. وهذا أيضاً ما جعل الفرس يطلقون عليها «سقف العالم» ويطلق الصينيون على هذه الجبال تسونج لنج (جبال البصل). إذ أنهم يلقون باللوم على هذا النبات فيما يتعلق بالدوخة والغثيان اللذين يعود سببهما الحقيقي إلى عدم كفاية الهواء في المرتفعات. ولحسن حظ المسافرين الذين لا ينشدون متعة النظر إلى القمم التي تغطيها الثلوج، كان من الممكن اجتياز الجانب الشرقي القاحل لهذه الجبال من خلال ممرات عريضة يسهل الوصول إليها. والواقع أن «البامير» تشير إلى هذه الأودية المرتفعة التي تقع عند سفوح الجبال. ومن الواضح أن قوافل طريق الحرير كانت تستخدمها، دون أن يكون لأحدها حظ أكثر من سائر الأودية.

والجزء الأول في رحلة الصعود من كاشغر أو يرقند كان أصعب الأجزاء وأشدّها انحداراً. وفي بعض المناطق كان الطريق شديد الانحدار والوعورة على الدواب المحملة. وكما يحدث في سائر سلاسل الجبال الوعرة، فقد تُنزل أحمال الدواب التي تُقاد عبر الممرات الضيقة بينما يحمل الحمالون الأمتعة لمسافات قصيرة. وفي بعض الأماكن كان المدق يُوسّع لتيسير مرور الجمال وغيرها من دواب الحمل. وعن اجتياز أوريل ستاين جبال البامير لأول مرة قال:

في الوقت الذي بلغنا فيه أرضاً أقل وعورة على الهضاب التي تطل على منابع النهر الجليدي الكبير الواقع أسفل الوادي، شعرت بفرح شديد لاجتياز الحاجز الجبلي الضخم الذي تحدثت عنها إيمانوس القديم وكان يفصل بين سيثيا^(١) والخارجية، والداخلية، اللتين ذكرهما بطليموس.

وما إن يصبح المسافرون فوق منابع مياه آسيا حتى يصبح سيرهم أيسر غير هضاب أكثر اعتدالاً في انحدارها وأودية أنهار متسعة. وبعض هذه الطرق الطبيعية، التي يتراوح عرضها بين ستة وعشرة أميال، كانت صالحة أيضاً لسير العربات. إلا أن البرد كان قارساً في المرتفعات. وتصادف أثناء رحلة ستاين عبر جبال البامير أن هبت عاصفة في أواخر شهر يوليو، حيث لاحظ أن درجات الحرارة هبطت إلى مادون التجمد بين عشية وضحاها. وقد

(١) السهوب الواقعة شمالي البحر الأسود وسكنتها مجموعة من البدو يتحدثون الإيرانية فيما بين القرنين السابع والرابع قبل الميلاد، ويشير هيرودوت وبعض السجلات الشرق أوسطية إلى أنهم نزحوا من آسيا الوسطى أو سيبيريا. وفي القرن الأول الميلادي عبروا القوقاز إلى الشرق الأدنى إلى أن طردهم الميديون في القرن السابع الميلادي. (المترجم).

رأى أن طريق القوافل صالح معظم السنة أو كلها. كما أن أودية الأنهار وفرت الماء والكلاً للقوافل العابرة. وكانت المستوطنات الدائمة للرعاة والمزارعين موجودة في الأودية المتسعة على ارتفاع تسعة آلاف قدم. وفي أشد الشهور حرارة كان البدو يعيشون على ارتفاعات تزيد على ذلك. وهكذا كان المسافرون يجدون المأوى والمؤن على طول الطريق لمدة ثمانية إلى تسعة أشهر في السنة. وحتى في فصل الشتاء كانوا يسبرون لمسافة سبعين ميلاً، أو ثلاث مراحل سهلة، فوق منابع المياه قبل أن يصلوا إلى أول مستوطنة دائمة على الجانب الأقصى. وكان ستاين يرى أن بعض الطرق المغلقة في شهور الشتاء يمكن عبورها، كما هو الحال بالنسبة للممرات في أي مكان آخر، إذا كانت هناك «حركة كافية لخلق مدق في الثلوج والإبقاء عليه مفتوحاً»، كما كان يحدث في العصور الزاهية لطريق الحرير.

وبعد رحلة طويلة في حوض التاريم الجاف وجبال البامير الشرقية القاحلة، كان المسافرون يجدون على الجانب الأقصى من الجبال أرضاً ذات أنهار وبساتين أطلق عليها البعض اسم بابل الشرق. وفي مدن تلك السفوح التي تحصل على كفايتها من الري لم يكن السكان قانعين بمجرد العيش على ضفاف الأنهار. لذلك أقاموا شبكة متطورة من القنوات كي يصل الماء إلى كل أجزاء مدنهم. ووصل الأمر في عدد من المدن أنه كان يصل كل بيت. وكانت أودية الأنهار التي يسير عليها المسافرون في جبال البامير تقودهم إلى هذه الأرض وفيرة الرزق. أما اختيارهم للأودية فكان يختلف تبعاً لاختلاف مقاصدهم وحسب الظروف السياسية السائدة في ذلك الوقت. وكان النهران الرئيسيان، وهما سرداريا (سيحون)^(١) وأموداريا (جيحون)^(٢)، ينبعان من جبال البامير وينحرفان شيئاً فشيئاً ناحية الشرق ليصبوا في بحر آزال. (في بعض القرون كان جزء من ماء جيحون يصب في بحر قزوين) وعلى طول الطريق كانت هذه المجارى المائية تلتقى بالعديد من الجداول الصغيرة، التي لم يعد بعضها يصل إلى الأنهار الكبيرة ويتلاشى في رمال الأرض الجافة المحيطة به.

وغالباً ما كان يُطلق على هذا الإقليم تركستان الغربية أو الروسية. ففي العصور الحديثة أصبحت اللغة والثقافة التركية سائدتين فيه. وهو يضم جمهوريات تركمانستان وأوزبكستان وقازاقستان السوفيتية والقطاع الشمالي من أفغانستان. (ومقابل ذلك يسمى حوض التاريم تركستان الشرقية أو الصينية وأحياناً كاشغريا أو سنكيانج. وهو اليوم أرض صينية). وكون

(١) كان اسمه قديماً «ياكزارتيس». (المترجم).

(٢) كان اسمه قديماً «أوكسوس». (المترجم).

هذه الأماكن معروفة لقليل من الناس في الوقت الحالي دليل على العزلة السياسية الحديثة لهذا الإقليم. ففي هذه البقعة كان يقع واحد من أعظم تقاطعات الطرق في آسيا، حيث يتقاطع طريق الحرير مع الطريق الشمالي الجنوبي الرئيسي الذي يربط بين سهول الأوراس في الشمال والسهول الهندية في الجنوب. وأصبحت المدن الواقعة على أودية الأنهار عند هذا الملتقى ذات شأن عظيم. ويعود ذلك في المقام الأول إلى التقاء التجار القادمين من أنحاء القارة في هذا المكان لتبادل البضائع، إلى جانب الأفكار في كثير من الأحيان.

والمسافرون على طريق الحرير الذين كانت لديهم الرغبة في الاستفادة من التجارة الثمينة مع الهند كانوا يسировون عبر جبال البامير إلى بلخ. وغالباً ماكانوا يذهبون إليها من يرقند أو كاشغر. وكانت الطرق الجبلية الأخرى قد انفصلت قبل ذلك لتتجه إلى كشمير أو الهند فوق قره قورم أو هندوكوش المرتفعة. إلا أن بلخ كانت عند بداية الطريق الهندي العظيم، وهو طريق الغزوات الرئيسي إلى جانب كونه طريق التجارة وطريق السفر عبر الحدود الشمالية الغربية في سهول البنجاب. وكانت مدينة بلخ تقع تقريباً في نقطة تتوسط طريق الحرير. إلا أنها كانت في الوقت ذاته رأس جسر على الطريق المؤدى إلى داخل الهند. وأنطاكية ودمشق وبابل وروما وبيزنطة وتشانج أن كلها أسماء مألوفة للأذن الحديثة بصورة أكبر عما كانت عليه بالنسبة لأهالي بلخ. ومع ذلك كانت بلخ على مدى ألف وخمسمائة سنة نداءً لكل هذه المدن العظيمة.

وتتضح أهمية بلخ من تاريخها. وهناك اعتقاد بأن زرادشت ولد بها. وبعد ذلك اتخذ الإسكندر الأكبر عروساً منها، وكان عرسه من أشهر الأعراس في التاريخ. وبعد ذلك كانت مركزاً كبيراً للبوذية يقصده الحجاج من أنحاء شرق آسيا. ثم أصبحت المدينة درة في عقد المدن الذي ضم المدن الإسلامية في آسيا. وجاء جنكيز خان ليقضى على عظمتها في النهاية. وحتى في عصور تدهورها كان يزورها رحالة عظام في زمن المغول أمثال ماركو بولو وابن بطوطة. وكانت بلخ التي تحتل مكاناً جميلاً على ضفاف أحد روافد أعالي جيحون عاصمة لـ «أرض الألف مدينة». وإذا كان موقعها مهجوراً في وقتنا هذا، حيث لم يعد النهر الذي كان يرويها يجري في ذلك المكان، فإن عدم بروزها حالياً في شمال أفغانستان يتناقض مع تلك الأهمية الكبيرة التي تمتعت بها في التاريخ الأوراسي.

ومن بلخ يسير المسافرون المتجهون غرباً عبر السهوب الترابية نحو مدينة القوافل

الرئيسية مرو، وكانت قديماً تسمى أنطاكية خراسان، لوقوعها في إقليم خراسان الفارسي. وهي إحدى المدن التي أسسها الإسكندر الأكبر، أو طورها على أقل تقدير. وغير هؤلاء من المسافرين على طريق الحرير يصلون مرو من طريق مختلف، بعضهم من خلال معبر جبلي قصير نسبياً من كاشغر إلى أرض فرغانة عند أعالي نهر سيحون. وظلت فرغانة لفترة طويلة أفضل مكان لتربية الخيول والجمال. فسهولها الخصبة تنتج محصولاً وفيراً يتميز بالطول من غذائها المفضل وهو البرسيم الحجازي. وكان لفرغانة دور مهم في فتح الصين للنصف الشرقي من طريق الحرير. وما إن يخرج المسافرون غرباً من فرغانة، وهي قطاع طويل من الأرض تحيط به الجبال من ثلاث جهات، حتى يجدوا أنفسهم في سهل مفتوح، وهو لسان من السهوب الأوراسية الكبرى. وهنا تقوم سلسلة من مدن القوافل العديدة التي تمتد غرباً نحو الهضبة الإيرانية، منها سمرقند (وكانت تسمى في السابق مرقندا) وبخاري.

وكانت سمرقند وبخاري على قدر كبير من التحصين، تماثلها في ذلك بلخ ومعظم المدن الأخرى الواقعة في هذا الإقليم بغض النظر عن حجمها. ويرجع ذلك إلى تعرضها للغارات من السهوب في الشمال ومن المناطق الجبلية في سائر الاتجاهات. وغالباً ما كان حول كل منها سور خارجي، يحيط بالحقول والقرى والضواحي والبساتين والقلاع الخاصة، ويليه سور داخلي أصغر يضم قلب المدينة. وفي العصور المتأخرة على الأقل، كانت توجد في هذا الجزء قلعة، وربما قصر، يحيط به خندق مملوء بالماء عليه جسر متحرك، إلى جانب معبد كبير. وكانت الديانة تتغير على مر العصور. وكانت القنوات كبيرة وصغيرةا تجلب الماء إلى قلب كل مدينة مباشرة. وفي العصور المتأخرة سمح نظام متطور من السدود والأهوسة والقناطر للسكان بتحويل الماء المتدفق في موسم الفيضان بعيداً عن المدينة.

وكانت الأسواق منتشرة على أطراف المدن وكثيراً ما كان أهمها قائماً على مقربة من الأبواب التي تخدم الطرق الرئيسية، مثل طريق الحرير، وغير بعيدة عن دور العبادة التي كان الناس يتجمعون عندها دائماً. ومنذ أقدم العصور خُصصت أحياء بعينها للتجار الجوالين. وكثيراً ما تجمع التجار القادمون من المدن والبلاد الأخرى وأقاموا الخانات، التي كانت تسمى أربطة في بعض الأحيان. وكانت أماكن يأوون إليها ويتخذون منها مخازن لبضائعهم. وكانت هناك تربيّات ممثلة للحرس المسلح المصاحب للقوافل أو الحاميات المقيمة المسئولة عن الأمن على طول الطريق وإدارة أبراج المياه التي شيدت في السور الخارجي، بحيث تفصل بين كل منها مسافة نصف ميل تقريباً.

كانت هذه المدن فى عصورها الزاهية مستوطنات كبيرة الحجم . وتشير آثار مدينة بلخ إلى أنها كانت تمتد على مسافة ١٦ ميلاً . ويحتمل أن سمرقند كان يعيش فيها أكثر من نصف مليون نسمة فى بعض عصورها . وحتى مدينة بيقند القديمة والأقل شهرة فى إقليم بخارى يقال أنها كانت تضم ثلاثة آلاف رباط . ومن الواضح أنه كانت هناك حركة مرور ضخمة فى هذا الإقليم . وهناك سبب وجيه لتسمية الطريق بين سمرقند وبخارى بالطريق الملكى أو الطريق الذهبى . وهو متاخم للسهب الجرداء المعروفة باسم قره قوم (الرمال السوداء) وتحيط به الجبال والهضاب . وتعد منطقة ماوراء النهر الواقعة شرقى نهر جيحون مكاناً ملائماً لالتقاء الثقافات .

وهناك طريق بديل شائع الاستعمال عبر البامير يمتد من يرقند إلى أعالي نهر جيحون . والواقع أنه فى القرن الأول الميلادى كتب الكاتب اليونانى الرومانى بطليموس عن مكان قد يكون فى هذا الإقليم اسمه البرج الحجرى ، كان من عادة التجار الغربيين والهنود والصينيين أن يلتقوا فيه لتبادل البضائع . وليس معروفاً - على وجه الدقة - أين كان البرج الحجرى هذا . والترجمة التركية لهذا الاسم هى تاشكرجان . وهناك مدن كثيرة بهذا الاسم فى الإقليم . وربما كانت هناك «أبراج حجرية» كثيرة موجودة قبل ذلك . وقد يكون فى مكان ما بالقرب من منابع نهر يرقند .

وكان هناك بديل آخر أمام المسافرين غرباً من الصين : إذ كان بإمكانهم تجنب السير فى صحراء تاكلامكان وجبال البامير معاً عن طريق الدوران حول حلقة الجبال المحيطة بها . وكان باستطاعتهم اجتياز بيه شان المنخفضة إلى حوض جونغاريا شبه القاحل . وما إن يصلوا إلى هناك حتى يكون بمقدورهم الاتجاه غرباً عن طريق عبور جزء بارز من الجبل معتدل الانحدار ، أو الدوران حوله من خلال ممر جونغاريا ، وهو الممر القديم الذى يربط بين جبال جونغار وجبال ألتاى (الذهبية) . وبعد ذلك يجدون أنفسهم على الجانب الشمالى من تيان شان ، التى تتبع منها الروافد الكثيرة التى كانت السبب فى أن يطلق على هذه المنطقة : «أرض الأنهار السبعة» .

وكان نهر إيلى ، الذى كان يجمع هذه المياه ليصبها فى بحيرة بلخاش فى الشمال ، بمثابة طريق مريح للمسافرين على طريق الحرير . وأثناء سيرهم كانوا يمرون على العديد من المدن الصغيرة ، وأهمها بيشباليك ، التى كانت فى أغلب الأحيان مركزاً إدارياً للإقليم ، والماليك ، وهى مدينة أرضها خصبة وعامرة بالحقول ويساتين الفسكهة الغناء . وكانت

الهجمات التي تعرضت لها هذه المدن من السهوب سبباً في أنها لم تصبح أكبر مما كانت ولا أكثر مما هي عليه. وخلف هذه المدن كانت تقع إيسيك قول (البحيرة الدافئة)، وسميت بهذا الاسم لأنها لم تكن تتجمد بسبب ارتفاع نسبة الملح في مائها. وهذا الطريق، الذي أطلق عليه الصينيون اسم «تيان شان بى لو» (الطريق الواقع شمال الجبال السماوية)، كان يتبع منحني تيان شان ثم يلتقى بجبال البامير غرباً ثم جنوباً ويسير بالمسافرين إلى مدينتي القوافل في تركستان الغربية سمرقند وبخارى.

ولو كان العالم يعيش في سلام لأصبح ذلك المسار الرئيسى لطريق الحرير. ففيه لم يكن المسافرون يمرون على صحراء مخيفة مثل تاكلامكان، ولا مرتفعات شاهقة كالتى في جبال البامير. كما لم تكن هناك ضرورة للسير على الأقدام. فالعربات كانت جاهزة للاستخدام على الأراضي المنبسطة. صحيح أنه كانت هناك مناطق صحراوية، مثل قزىل قوم (الرمال الحمراء) الواقعة بين نهري سيحون وجيحون، وقره قوم (الرمال السوداء) الواقعة بعدها. ولكن هذه الأراضي كانت أيسر من أراضي حوض التاريم القاحلة. وكانت إمكانية استخدام العربات تعنى قدرة المسافرين على حمل كميات كافية من الماء، دون زيادة أعباء القافلة بلا داع. باختصار، كان هذا هو أفضل طريق من الصين إلى تركستان الغربية حتى ذلك الوقت.

ولكن بما أن السلم أمر نادر الوجود في هذا العالم، فقد كان الطريق شمالى الجبال السماوية مفضلاً فقط لمرات معدودة على مر التاريخ، وبالتحديد في ظل حكم أسرة تانج الصينية ثم في عهد المغول، عندما كانت القوى العظمى في آسيا فى أوج عظمتها وتصميمها على تأمين سلامة المسافرين فيما وراء الخطوط الدفاعية الطبيعية من الجبال. أما فى سائر الأزمنة، وهى معظم التاريخ، فكان المسافرون على طريق الحرير يضطرون إلى سلوك طريق ملتو فى جبال البامير. فوعورة مايحيط به من جبال وأراض صحراوية يضمن له السلامة من قُطَاع الطرق، الذين يندر وجودهم شمالى جبال تيان شان.

ومهما كان المسار الذى يسلكه المسافرون غرباً ليصلوا إلى الجانب الأقصى من جبال البامير، وهى الخط الفاصل التقليدى بين شرق آسيا وغربها، فقد كانوا يقصدون مرو. والحقيقة أنه نادراً ماكان هؤلاء هم أنفسهم المسافرون الذين بدأوا رحلتهم من الصين. فعادة ماكان الناس يسافرون لمسافة تتراوح بين ألف وألفى ميل فقط ليتاجروا أو يحجوا إلى الأماكن المقدسة أو يزوروا قصور البلاد الأخرى، ثم يعودون إلى ديارهم. وربما تمنى كثير

من الناس قطع مسافة طريق الحرير بالكامل. إلا أن أغلبهم حالت الظروف دون قيامه بذلك. واستطاع ماركو بولو القيام بهذه الرحلة فقط لأن المغول في القرن الرابع عشر كانوا يسيطرون بحق على الطريق كله. ومن الغريب أن الصين، التي كانت شديدة الخوف من الأجانب في فترات كثيرة من التاريخ، فتحت الطريق في بعض الأحيان للمسافرين من الأمم الأخرى. وفي عهد أسرة تانج المزدهر كان الغربيون يُقابلون بترحاب في تشانج آن، وكانت أزيائهم وموسيقاهم وفنونهم ومعتقداتهم الدينية مثار اهتمام أكثر الموضات شيوعاً في ذلك الوقت. وكان الحاجز الرئيسي في السفر عبر طريق الحرير لقرون عديدة يقع على الهضبة الإيرانية. وأصبحت مدن مثل بلخ وتاشكورجان أسواقاً عالمية، وليس مجرد محطات على الطريق. وتعود بعض أسباب ذلك إلى أن شعوب الغرب كانت راغبة في احتكار حركة المرور على الطريق، بهدف زيادة أرباحها. وإذا كانت نجحت في ذلك كثيراً، فقد أغلقت أيضاً الطريق كله أمام الآخرين.

والهضبة الإيرانية نفسها عبارة عن مثلث مرتفع رأسه ناحية الجنوب في اتجاه الجزيرة العربية. وتحيط بها سلاسل جبلية على جوانبها الثلاثة وفي الوسط صحراء لا حياة فيها تقريباً، وهي بقايا ملحية لما كان في يوم من الأيام بحراً كبيراً. وكانت القوافل تضطر إلى اتباع سلاسل الجبال، ففيها فقط يمكنهم أن يجدوا الماء. وسار طريق الحرير مع السلسلة الشرقية الغربية، وهي جبال البرز الواقعة على امتداد الساحل الجنوبي لبحر قزوين لتشكل قاعدة المثلث المقلوب. وفي بعض فترات التاريخ، كان المسافرون، وخاصة التجار، يحاولون تحاشي الهضبة الإيرانية عن طريق الانحراف شمالاً إلى الشاطئ الشرقي لبحر قزوين ثم يعبرون البحر إلى المنطقة التي تقع فيها مدينة باكو الحالية. فكانوا يسرون مع وادي نهر الرّس إلى الركن الجنوبي الشرقي من البحر الأسود ليصلوا إلى مقاصدهم في أوروبا، دون أن يَمروا بالأراضي الإيرانية. وكان آخرون يتجهون إلى الجنوب الشرقي حول بحر قزوين ليصلوا إلى الساحل الشمالي للبحر الأسود. إلا أن الشعوب التي حكمت الهضبة الإيرانية كان لها من القوة ما أتاح لها إجبار معظم المسافرين على طريق الحرير على عبور أراضيها.

وكان لبلاد فارس منتجاتها التي تضيفها إلى خليط تلك المنتجات التي كانت تمر على طريق الحرير. واعتمدت شعوب الهضبة على سكان السهول في الشرق الأدنى فيما يتعلق بالأقمشة والحلى الفاخرة. وفي المقابل قدمت هي المواد الخام الأساسية، حيث كانت

أراضيها المقفرة غنية بالموارد الطبيعية وخاصة المعادن والجواهر. كما كانت أول من ربي سلالات الخيول. وظلت فترة طويلة تمتد شعوب الغرب بالخيول، مثلما أمد بها مربو فرغانة الشرق. وهذا المسار الرئيسي المنفرد، الذي يتجه من الشرق للغرب في طريق الحرير، كان مهماً لسكان المرتفعات وسكان السهول على حد سواء.

ونتيجة لذلك، ومنذ عصور خسارة في القدم، قامت على جاني هذا الجزء من طريق الحرير سلسلة من المدن ذات الأسوار. وكان الجنود والتجار الأجانب والصناع ضمن أول من سكنوا تلك المدن. فالواقع أن كثيراً من المدن ظهرت إلى الوجود بسبب التجارة. وعند عبور المسافرين للهضبة الإيرانية من هرو كاتوا يصلون إلى هيكتومبيلوس (مدينة الألف بوابة)، وكانت يوماً عاصمة للإقليم. وعندما كان ذلك المسار يقطع جبال البرز، كان المسافرون يعبرون ممراً ضيقاً، أطلق عليه «البوابات القزوينية»، قبل أن يخرجوا عند مدينة راجي (الري فيما بعد) بالقرب من طهران الحالية. وبالقرب منها (على مقربة من قزوین الحالية) تقع الموت، وهي الحصن الرئيسي للحشاشين، حيث كان «شيخ الجبل» يقود طائفة. ظلت قرنين من الزمان تفرض نفوذها على المنطقة بالقتل والرعب.

وعلى الجانب الأقصى من الهضبة الإيرانية كانت تقع ايكتاتانا (همدان الحالية)، وهي عاصمة أخرى لإحدى الممالك الكثيرة التي تناحست على السيطرة على الجزء الغربي من طريق الحرير. ومن هذا المكان كان الطريق الرئيسي يهبط من جبال راجروس، الحافة الشرقية للهضبة، إلى السهول، حيث دفع لسان جلي نهر دجلة إلى الاقتراب من الفرات. وفي ذلك المكان، عند «وسط» بلاد ما بين النهرين، قامت سلسلة من المدن العظيمة بينها بابل وسلوقية وطيسفون وبغداد. وكل من هذه المدن تدين بجزء كبير من نفوذها إلى موقعها على طريق الحرير. وكانت المنطقة أشبه بالألعاب النارية الدوارة. فالتطرق الفرعية تخرج منها إلى كل اتجاه، حسب حالة الطقس وفصول السنة المختلفة.



وعند تقاطعات الطرق النهرية، كان المسافرون على مر العصور يختارون طريق الصحراء الكبرى، الذي يسير في اتجاه الشمال الغربي إلى أول مدن القوافل في حلب وأنطاكية بسوريا، وهما مدخل عالم البحر المتوسط. وهذا المسار كان يتبع المنحني الداخلي للهِلال الخصيب على امتداد حافة الصحراء السورية الواقعة في قلب الهلال الخصيب. وهي ليست صحراء بالمعنى الذي عليه الحال في تاكلامكان. فهذه الصحراء كانت أرضاً قاحلة

عاش فيها البدو مع قطعانهم عيشاً مريحاً في أوقات كثيرة. وإن كان الجفاف يضطرهم للخروج إلى أراضٍ أوفر ماءً وأكثر خصوبة. كما أنها خلت من الكثبان الرملية. وفي القرن الثامن عشر كتب الرحالة بارثلميو بليستيد يصف هذه الصحراء قائلاً:

... هذه الصحراء توصف عادة على أنها سهل رملي منبسط. ولكن واقع الأمر هو أن الجزء الأكبر منها عبارة عن حصباء رملية أشبه ببعض المروج عندنا في إنجلترا. وفي بعض مواضعها تكثر الأحجار الكبيرة غير الثابتة. بينما تكثر في مواضع أخرى التلال الصغيرة، وهي أشد جذباً من الوديان أو السهول.

وفي هذا المكان قد يتزعج المسافرون من شدة الحر ومن السباع والتمور ومن الذباب الذي يتجمع حول القم والعينين بحثاً عن الرطوبة، إلا أنه لم يكن هناك احتمال لهلاك أفراد القوافل المسافرة على طريق الصحراء الكبرى عطشاً. إذ كان الماء متوافراً إلى حد ما على طول الطريق، وإن كان في أغلبه عكراً أو مائلاً إلى الملوحة أو تكثر به الطحالب، كما يقول بليستيد:

حتى أفضله حالاً سرعان ما يصبح غير صالح للشرب. فعند الوصول إلى إحدى البرك يهتم كل إنسان بجماله. لذلك فإن الكثير منها يرد الماء في وقت واحد فيتعكر بعد قليل ولا يعود صالحاً للاستعمال. وقد اضطررت إلى التعايش معه وشربته في قوام قهوة الأتراك، الذين يهزون الإبريق قبل صبها.

وفي طريق الصحراء الكبرى كان المسافرون عموماً يتحاشون أي مستوطنات كبيرة. وبدلاً من ذلك كانوا يعسكرون خارجها في الخلاء. ورغم ضياع فرصة التجارة مع الأسواق الواقعة على الطريق، فإنهم كانوا يتهربون من دفع المكوس والضرائب والرشاوى التي كانت تطالبهم بها كثير من المدن الواقعة في أودية الأنهار. كما أن الأنهار نفسها لم تكن تستخدم كثيراً في النقل. ومن المدن الواقعة عند أسفل نهري دجلة والفرات كان المسافرون والتجار يحرون في النهر إلى موانئ الخليج الفارسي لبدأوا من هناك طريق التوابل العظيم الذي يربط كل جنوب آسيا عن طريق البحر. ولكن أعالي الأنهار لم تكن صالحة للسفر. فهناك الفيضانات في فصل الربيع والمجاري المائية المنخفضة قليلة الماء في الأوقات الجافة من السنة. ناهيك عن دوامات الفرات وأمواج دجلة الشديدة. والشئ الأكثر خطورة هو أن

ضفاف الأنهار كانت مأوى للقراصنة المستعدين دائماً للانقضاض على المسافرين. ولندرة الأخشاب في المنطقة، فإن الأطواف التي تسير مع تيار النهر كانت تقوم في الغالب على جلود الحيوانات (القرب) المملوءة بالهواء، وهي غير مأمونة وكثيراً ما كانت تنفجر.

وطريق الصحراء الكبرى هو الآخر كان به «قراصنة»، إلا أنهم في كثير من الأحيان كانوا على استعداد لاستبدال دور قاطع الطريق بدور من يوفر الحماية، بشرط أن يدفع لهم مبلغ كاف من المال. وكما هو الحال بالنسبة لأهل الجبال الذين يقومون على حراسة الممرات الاستراتيجية، كان لصوص الصحراء يحصلون على جزء من أقواتهم مما يدفع لهم كي لا يهاجموا المسافرين. وكان ذلك إما على هيئة جزء من البضائع أو رسوم على كل حمل من الأحمال. وفي بعض الأحيان كان يرسل مع القافلة «جواز مرور بشري» لتوضيح أن الرشوة المعلومة قد دفعت للقبيلة المسيطرة على المنطقة، وكانت تعتبر وقتها أن أي هجوم على القافلة اعتداء عليها. وفي فترات كثيرة، كانت فيها قبائل الصحراء تنعم بقدر وافر من السلام، كان هذا النظام معمولاً به بصورة جيدة. وفي بعض الأوقات، وخاصة في العصور اليونانية الرومانية، كانت هذه المنطقة تعيش في سلام أدى إلى امتداد الطرق المنتظمة عبر الصحراء نفسها في اتجاه البلدان الساحلية. وهناك طريق كثر استخدامه في تلك الفترة، وهو الطريق الذي كان يبدأ من مدينة دورا أوروبوس الحدودية في أعالي نهر الفرات مروراً بالصحراء حتى واحة تدمر (مدينة النخيل). ففي هذا المكان الواقع بين تلين، حيث تتدفق العيون الكبرى المانحة للحياة، نشأت مدينة عظيمة ذات شوارع طويلة تقوم على جوانبها الأعمدة والكثير من المعابد والمصارف والأضرحة. وكان نفوذ التدمريين شديداً، حتى أنهم كانوا في وقت من الأوقات دولة عازلة شبه مستقلة بين الإمبراطورية الرومانية مترامية الأطراف وجيرانها الشرقيين وإلى طريق الحرير.

يقطع الصحراء يبدأ من بابل ويسير في أراض أشد جفافاً ليصل إلى مدينة ذات جمال جذاب حفرت في الصخور الذهبية والوردية والخضراء. إنه حصن طبيعي يشكله واد ضيق تلوذ به القوافل بعد عبور الصحراء. وفي القرون الأولى كانت البتراء واحدة من أهم مدن آسيا التي تتقاطع عندها الطرق. فقد كانت مركزاً تتجمع فيه وتنطلق منه الطرق في كل الاتجاهات. وإلى جانب الطريق الذي يقطع الصحراء، كانت البتراء وثيقة الاتصال بميناء إيلة القريب عند رأس خليج العقبة على البحر الأحمر. ومن خلاله كانت تتصل بطريق التوابل العظيم في الشرق. ومن البتراء

كانت القوافل تنطلق إلى الساحل وإلى غزة وإلى مصر (وخاصة الإسكندرية) وإلى مدن صور وصيدا وبيبلوس (جبيل) وبيروت الفينيقية، التي كانت بمثابة مراكز تنوير وموانئ توزيع لعالم البحر المتوسط بأسره. ولكن البتراء، التي ربما تكون أهمها، كانت تقع على طريق البخور، وهو طريق قوافل داخلي عظيم يبدأ من جنوب الجزيرة العربية قاطعاً إياها شمالاً إلى دمشق ثم يسير مع المنحنى الداخلي الغربي للسهل الخصيب ليصل إلى حلب وأنطاكية.

وأى من هاتين المدينتين لم تكن بمثابة نهاية لطريق الحرير وحده، بل كانت أيضاً نهاية لطريق البخور. كانت حلب مدينة عربية في المقام الأول، أُقيمت على مرتفع صخري بجوار أحد الجداول. وسيطرت حلب على أراضٍ ريفية شبه قاحلة تحيط بها. وكانت علاقاتها الأساسية مع طرق القوافل الداخلية، حيث إنها تقع على بعد سبعين ميلاً من البحر المتوسط. أما أنطاكية فكانت مدينة يونانية رومانية ذات تأثيرات مسيحية قوية. وقد استفادت أنطاكية من نسيم البحر المتوسط لوجود ممر في الجبال التي تحجبها عنه وتستخدمه القوافل الآتية من الشرق. وكانت شهرة جو أنطاكية الصحي وجمالها سبباً في أنها كانت منتجعاً صيفياً للهاربين من الساحل الرطب الذي تكثر فيه الملاريا، أو الحر اللافح في الأجزاء الداخلية. ومن موقعها على نهر العاصي، كانت السفن في الغالب تنقل البضائع لمسافة ثمانية عشر ميلاً إلى البحر المتوسط، حيث تقع سلسلة من الموانئ. وفي العصرين اليوناني والروماني كان الغلبة لأنطاكية. إلا أن حلب، وهي أقدم بكثير، استعادت أهميتها في العصر الإسلامي. وتعود شهرة المدينتين واثراؤهما إلى التقاء الفرع الغربي من طريق الحرير وطريق الصحراء الكبرى وطريق البخور القادم من الجزيرة العربية عندهما.

ولكن هذه الطرق الصحراوية المؤدية إلى البحر المتوسط كانت تتطلب سلاماً، وهو سلعة نادرة في أغلب الأحيان. فعندما تتقاتل قبائل الصحراء وعشائرها فيما بينها، فإن الرشوة التي تدفع لإحداها يكون تأثيرها ضعيفاً على من سواها. لذلك فإن جيشاً من الرماة لم يكن كافياً لمصاحبة أى قافلة. وفي ذلك الوقت كان المسافرون على طريق الحرير يفضلون السير في مسالك أخرى. فمن بابل كان كثير من المسافرين يسرون مع المنحنى الداخلي لنهر دجلة، الذي ظهرت فيه العديد من المدن على مر التاريخ ثم انهارت. ومن أشهر هذه المدن آشور ونيوى (الموصل)، وهما أهم مدن الإمبراطورية الآشورية. وكانت هناك تفرعة أخرى من طريق الحرير تبدأ من عند همذان على الهضبة الإيرانية وتتجه مباشرة إلى نيوى. ومن

هناك كان الطريق يدور حول الهلال الخصيب مع الحافة المرتفعة من هضبة الأناضول ليصل إلى حلب وأنطاكية.

وفي عصور كثيرة كان المسافرون يضطرون إلى تجاوز هاتين المدينتين ويصعدون هضبة الأناضول عند نقطة معينة في هذا المنحنى، الذي يقع إلى الشمال منهما، ثم يتوجهون إلى الموانئ الكبرى على بحر إيجه، وهي ميليتوس أو إفسوس أو سميرنا (أزمير حالياً) أو فوسية أو طروادة، التي قد تكون شهرتها في الإلياذة أكثر ارتباطاً بالطرق التجارية منها باختطاف ملكة. وفيما بعد صاروا يقصدون بيزنطة (التي أصبح اسمها القسطنطينية وتسمى الآن استانبول) وميناءى البحر الأسود سينوب وتراپيزوس (التي صارت تريپيزوند والآن أصبحت طرابزون). وطرق هذه المنطقة موعلة في القدم. ففي أعالي دجلة اكتشف علماء الآثار مدينة عمرها عشرة آلاف سنة تحتوى مبانيها على كتل حجرية مسطحة تزن طناً. ولا بد أن هذه الحجارة جلبت من خارج المنطقة. وفي العصور القديمة كانت هضبة الأناضول مقصداً يساوى في أهميته بلاد ما بين النهرين. وكان طريق الحرير يمر خلالهما.

وفي الأوقات التي كان يشتد فيها التنافس في السهول كما حدث في زمن ماركو بولو، كان المسار الرئيسى للطريق يظل بالكامل في المرتفعات، حيث كان ينحرف عند تقاطع همدان في اتجاه الشمال الغربى حول بحر قزوين ليقطع الجزء المعروف الآن بأذربيجان ويصل إلى مدينة تبريز القديمة. ومن هناك يسير في مرتفعات أرمينيا، بالقرب من بحيرتى أورميا وفان عند جبل أرارات (الذى يقال إن سفينة نوح عليه السلام رست عليه)، ليصل طرابزون المؤدية إلى أوروبا عن طريق البحر الأسود ومسالك البحر المتوسط. وفي بعض الأحيان كان الرحالة المحدثون يسمونه الطريق الذهبى إلى سمرقند.

إلا أن هذا الطريق ليس قريباً كما يبدو على الورق. فالتلال شديدة الانحدار والطقس متطرف، حيث الجليد الذى يجعل الطريق غاية في الخطورة جزءاً كبيراً من السنة. وفي كتابه «أرمينيا» الصادر في أوائل القرن التاسع، كتب الرحالة الإنجليزى روبرت كرزون عن صعوبة الطريق بين طرابزون، الواقعة على صخرة مرتفعة تشرف على البحر الأسود، ومدينة أرضروم، مركز القوافل الرئيسى على الطريق الجبلى من إيران أو بلاد فارس (وكانت في أيام كرزون المكان الوحيد الذى يمكن الحصول منه على خيول مستريحة بين بلاد فارس وتركيا). وأشار كرزون إلى التلال التي تغطيها الثلوج قائلاً:

... كان الطريق يتكون من سلسلة من الحفر، عمق كل منها ست بوصات تقريباً. ويفصل بين كل واحدة والأخرى ثمانى عشرة بوصة. وكان عرض المدق ست عشرة بوصة.

وعندما هبطوا من على طريق المرتفعات هذا، الذى أطلق عليه السكان المحليون بحق اسم «السُّلَم»، كانوا «يتدفعون إلى أسفل وينزلقون ويسقطون فى الحفر العميقة ويخرجون منها». وكانت قافلة كرزون محظوظة، إذ كانت خيولها واثقة الخطى فوصلت بسلام. إلا أنه وصف رؤيته لمجموعة من المسافرين الفُرس الذين حل بهم البلاء على الطريق:

... كانوا يجلسون صفاً على حافة هاوية ينظرون فى أسى إلى عدد من الخيول التى تحمل متاعهم وقد سقطت فيها وكانت تتمرغ فى الجليد الواقع أسفل منهم بمئات الأقدام. وحسبما قُدِّر لى أن أرى، لم يبد أنها نفقت، حيث إن الجليد قد خفف الصدمة.. [ولكن] لم يبد أن هناك أى احتمال للصعود بها [على الطريق] مرة أخرى... وأحسب أن خيولهم نفقت من التجمد قبل أن نبعد عنهم كثيراً.

ولم تكن الخيول وحدها من يلقي هذا المصير. إذ يمضى كرزون قائلاً:

كثيراً ما كان يؤتى بالجثث المتجمدة إلى المدينة. ومن الأمور الشائعة فى فصل الصيف، ومع ذوبان الجليد، أن يُكتشف العديد من جثث من هلك من البشر وجيف ما نفق من الخيول فى الشتاء المنصرم. وكان ذلك حدثاً معتاداً، لدرجة أنه كانت هناك عادة، أو قانون، فى جبال أرمينيا، وهى أنه مع كل فصل صيف يخرج القرويون إلى أكثر الممرات خطورة ويدفنون الموتى الذين كانوا متأكدين من وجودهم. وكان لهم حق قانونى فى ملابسهم وسلاحهم وعدة الخيل، بشرط إرسال كل بالات البضائع والخطابات والطرود إلى الأماكن المرسلة إليها.

لم يكن طريقاً سهلاً بأى حال من الأحوال. وفى هذا بعض التفسير لغلبة طرق الصحراء السورية الموصلة إلى البحر المتوسط، بغض النظر عما قد يحف بها من أخطار.

وفى نهاية المطاف كان المسافرون عبر هضبة الأناضول يصلون القسطنطينية، التى يعرفها اليونان ببيزنطة والمسلمون فيما بعد بإستانبول أو إسطنبول، براً أو بحراً عن طريق طرابزون. ورغم وجود القسطنطينية بالفعل فى أوروبا، لوقوعها على الجانب الشمالى من البوسفور، وهو الخط التقليدى الفاصل بين القارتين، فإنها ظلت زمناً طويلاً، ومازالت حتى اليوم، مدينة آسيوية الشخصية. وبسبب وقوع المدينة على شبه جزيرة سهل الدفاع عنها ويحدها ميناؤها الهلالى الشهير بالقرن الذهبى، فقد وسعت تحصيناتها البرية مرات عديدة مع نموها. وفى النهاية صارت هذه المدينة ذات السبعة تلال (مثل نظيرتها روما) فى مأمن من أى هجوم برى، لأنها تحتمى خلف ثلاث مجموعات كبرى من الأسوار. وبعد انهيار روما فى الغرب، ظلت القسطنطينية لقرون عديدة المحطة الأخيرة فى طريق الحرير.

وهكذا قطع طريق الحرير الصحارى والجبال ليربط الصين بعالم البحر المتوسط. ويعود هذا الفضل إلى طريق السهوب الأوراسية. وتقع السهوب الأوراسية شمال الصين، شمال تيان شان وبيه شان، وشمال بحار الأرال وقزوين والأسود وشمال جبال وسط أوروبا. وهى سهل فسيح يمتد لمسافة تزيد على الثمانية آلاف ميل من المحيط الهادى إلى المحيط الأطلسى.

وكانت هذه السهوب متسعة ومستوية لتبدو وكأنها خلقت من أجل العربات ذات العجلات. وربما يكون البدو الذين عاشوا هناك آلاف السنين أمضوا جزءاً كبيراً من حياتهم فى موقع السلطة. إلا أن بيوتهم وكل متعلقاتهم كانت تحملها عادة عربات كبيرة تجرها الثيران فى الغالب. وفى القرن الثالث عشر كتب الراهب الأوروبى ويليام دى روبروك وصفاً شيقاً للحياة على العربات فى السهوب المكشوفة:

تقود امرأة واحدة ثلاثين أو أربعين عربة لأن الأرض منبسطة. إنهم يربطون العربات معاً وتجرها الثيران أو الجمال واحدة وراء الأخرى. وتجلس المرأة فى العربة الأولى وتقود الثيران فى حين تتبعتها العربات الأخرى. وإذا تصادف وصولها إلى جزء سيء من المدق فإنهم يفصلونها ويعبرون بها الواحدة وراء الأخرى. وهى تسير ببطء شديد، كما يسير الخروف أو الثور.

وكان المسافرون فى السهوب يشعرون بقدر أكبر من الراحة. فلم يكونوا مضطرين للسير بصعوبة فى الرمال المتراكمة أو عبر الجبال وهم يحملون فى بعض الأحيان شيئاً من متاعهم بأنفسهم (أو يستخدمون حمالين محليين للقيام بذلك) فى الممرات الصعبة. وعندما كانت حركة السفر نشيطة على طريق السهوب، خاصة فى العصور المغولية، كان بإمكان المسافرين الحصول على العربات والدواب من السكان المحليين الذين كان عملهم هو تأجيرها، فى الأماكن التى لاتلزمهم الحكومة بتأجيرها.

وفى وصفه للممر الواقع بين سراى شمال بحر قزوين ومراكز القوافل على نهر جيحون، يبين الرحالة المسلم ابن بطوطة من القرن الخامس عشر الميلادى أن السفر فى السهوب، وحتى المرور فى مناطق صحراوية مثل قيزل قوم، لم يكن شاقاً جداً بالنسبة للمسافرين، مهما كان احتمال صعوبته على الجمال:

ثم سرنا منها [السرا] ثلاثين يوماً جاداً لا نزل إلا ساعتين إحداهما عند الضحى والأخرى عند المغرب. وتكون الإقامة قدر ما يطبخون الدوقى ويشربونه.. وكل إنسان إنما ينام أو يأكل فى عربته حال السير، وكان فى عربتى ثلاث من الجوارى. ومن عادة المسافرين فى هذه البرية الإسراع لقلة أعشابها. والجمال التى تقطعها يهلك معظمها، وما يبقى لا ينتفع به إلا فى سنة أخرى بعد أن يسمن. والماء فى هذه البرية فى مناهل معلومة بعد اليومين والثلاثة..

ويبدأ طريق السهوب الأوراسية من الأراضى المنبسطة الحجرية شمالى الصين. وهى خليط من السهوب شبه القاحلة والصحراء الموحشة. وكان المسافرون من بكين (بيه جنج) يسرون عبر صحراء جوبى شمال غربى السهوب المغولية ثم يتجهون غرباً بالقرب من جبال ألتاى، ويعبرون ممر جونغاريا ليخرجوا شمال بحيرة بلخاش على السهوب القرغيزية الفسيحة كثيرة الكلاء. ومن هذا المكان كانت السهول تمتد أمامهم. ونادراً ما كانت تقابلهم أى عقبة حتى يبلغوا أوروبا. وهناك، حيث تواجههم جبال الكريات، التى تشبه عصا البومرانج^(١)، ودون أن يتحملوا مشقة عبور الممرات الجبلية، كانوا يهبطون من عليها من

(١) قطعة مقوسة من الخشب الصلب يستخدمها سكان أستراليا الأصليون فى رشق هدف ما. ومنها ما يرتد إلى راميهِ.
(الترجم).

جهة الشمال إلى سهول بولندا وألمانيا أو الجنوب إلى وادي نهر الدانوب . وأى الطريقين يصل إلى قلب أوروبا .

وكان شمال أوروبا الهدف الرئيسى للرحالة المحدثين المسافرين على طريق السهوب الأوراسية . إلا أنه فى العصور القديمة كانت حركة السفر تتجه فى الغالب إلى مدن القوافل فى تركستان الغربية أو إلى عالم البحر المتوسط ، الذى كان وقتها مركز الحضارة الغربية . ومن الساحل الشمالى للبحر الأسود كان المسافرون ينطلقون من إحدى المدن التجارية فى القرم إلى المدينة العظيمة المعروفة الآن باسم إسطنبول . وهى المدخل إلى العالم اليونانى وعالم البحر المتوسط الأكثر اتساعاً . وإذا اختاروا السقاء على اليابسة ، كانوا يسرون بين البحر الأسود وبحر قزوين خلال عمر دربند الضيق فى جبال القوقاز ، الذى لولاه لكانت عقبة فى الطريق .

وكان امتداد طريق السهوب الأوراسية دون أى عائق فى أوراسيا السبب فى أنه كان الطريق الطبيعى بين الشرق والغرب . ومن المؤكد أنه كان طريق جيوش قيائل البدو فى كل العصور . حيث إنها كان تحتاج السهول سعياً إلى تكوين إمبراطورية . وربما كان مبتغاها أقل تواضعاً ، وهو السعى وراء المراعى الأفضل . ومن المؤكد أيضاً أنه كان الطريق المفضل فى تلك الفترات القليلة التى كان السفر فيها مأموناً ، وخاصة فى العصر المغولى . إلا أنه رغم الدور المهم الذى قام به فى تاريخ أوراسيا ، كطريق لبعض الاتصالات الرئيسية الأولى بين الشرق والغرب ، فإن تعرضه لخطر شعوب السهوب دائمة التنافس كان معناه أنه لا يمكن أن يصبح الطريق الرئيسى للمسافرين الذين قد ينالهم الأذى .

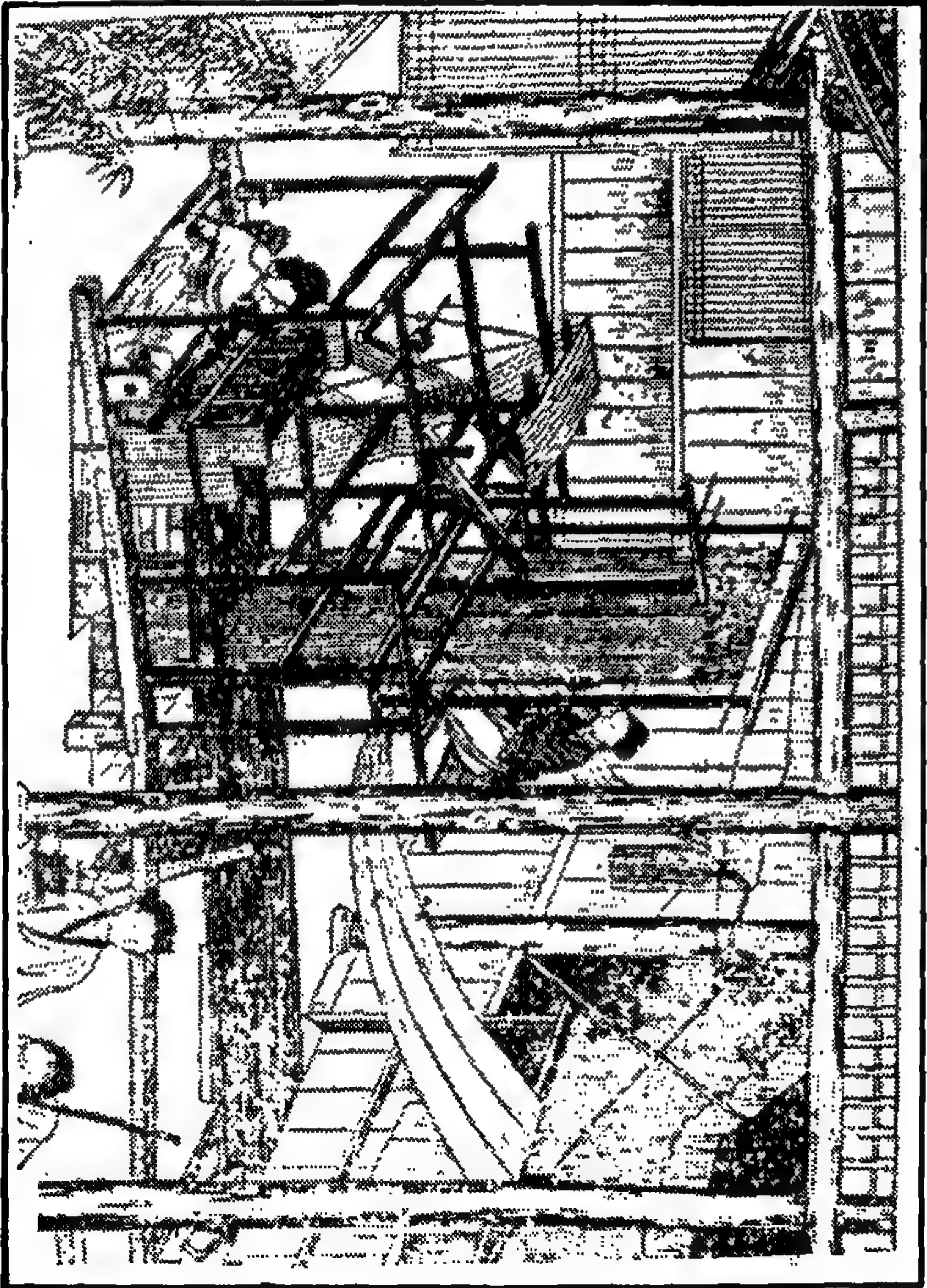
ومن المدهش أن كلا الطريقين ، طريق الحرير وطريق السهوب الأوراسية ، كانا يستخدمان بصورة بدائية آلافاً من السنين . ونحن أبناء العالم الحديث قد نعتبر أنفسنا رحالة لانظير لنا . ولكن الشعوب التى فتحت لأول مرة طرقاً فى أرض أوراسيا هى من يستحق التقدير ، حيث أفنت حياتها فى الترحال والسفر آلاف الأميال وهى تشق الطرق التى تنتشر فى الأرض حتى الآن . وكانت قبل التاريخ تفعل ذلك بدون مركبات أو دواب تحمل عنها متاعها . إن قصتها جزء من قصة طريق الحرير التى بدأنا نعرفها من عهد قريب .

زمن اليُسْب والبرونز

تعدى الإمبراطور مو أن يحقق طموحه عن طريق
السياحة في أنحاء المعمورة ومن خلال ترك آثار عجلات
مركباته وسنابك خيله على أرض كل بلد طلعت عليه
شمس.

من تعليق على

Classic of Spring and Autumn



كانت الأقمشة الحريرية ذات النقوش الكثيرة تحتاج إلى أنوال كبيرة معقدة كهذا النول الصيني (من Encyclopaedia Britannica الطبعة الحادية عشرة).

لاندري متى سافر الصينيون لأول مرة إلى قلب آسيا الوسطى. فالروايات الصينية عن الرحلات الأولى تعد خيالا أكثر منها تاريخاً. ومن بين تلك الروايات «رحلات الإمبراطور مو» التي تضمنتها مجموعة تسمى «حوليات البامبو» كُتبت في القرن الثالث قبل الميلاد. ويفترض أن الإمبراطور مو نفسه تولى الحكم خلال أسرة تشو نحو سنة ألف قبل الميلاد. وحيث إنه كان من المعتاد في الصين القديمة نسبة أى إنجاز مُشرف للأباطرة، ويشمل ذلك كل شيء بدءاً من اكتشاف تربية دودة القز حتى اكتشاف العقاقير الطبية، فقد يكون ما أوحى بهذه الرواية هى تلك الرحلات التى قام بها بالفعل تجار ومستكشفون صينيون مجهولون ثم نسبت وقتها إلى الإمبراطور مو، مع بعض الإضافات الخيالية. (وبنفس الطريقة، وفى الفترة ذاتها تقريباً، اكتسبت الأنشطة التجارية التى مارسها اليونان بحماس صبغة أسطورية كجزء من أسطورة هرقل).

وكشأن معظم المسافرين غرباً، يقال إن الإمبراطور مو بدأ رحلته من عمر يو، بوابة اليشب الشهيرة التى تميزت بها حدود الصين الغربية الرئيسية لآلاف السنين. ووجد الإمبراطور على السهول الواقعة خلف الحدود أناساً مثله «من نسل هو تسونج» إله نهر هوانج (الأصفر)، ذلك الوادى الخصيب الذى كان يشكل قلب الثقافة الصينية. ولقى مو ترحيباً من الملوك المحليين الذين قدموا له «جلود عشرة فهود و٢٦ جواداً» على سبيل الهدية. وعندما وجد مو أناساً آخرين من نسل هو تسونج أثناء تقدمه غرباً، قدموا له المزيد من الهدايا ومنها «باى»، وهى حلية مستديرة من اليشب يتوسطها ثقب وكانت تستخدم رمزاً للمناصب الحكومية. وكان «الباى» يُلقى فى النهر فى احتفال خاص، قرباناً لإله النهر، ويلقى معه ثور وحصان وخنزير وخروف، حيث يضحي بها جميعاً للغرض نفسه. وتمضى الحكاية قائلة إن إله النهر خرج من الماء شاكراً وقال:

مو أيها الإنسان، لتبقى إلى الأبد على العرش وليكن حكمك مميزاً
بالحكمة والازدهار... دعنى أطلعك على كنوز جبل تشى أون وربوع
كون لون الجميلة، حيث تقع أربعة سهول يخرج منها سبعون نبعا.
امض بعد ذلك إلى جبل كون لون وانعم بالنظر إلى كنوز جبل تشى
أون.

وجبل كون لون فى الميثولوجيا الصينية هو موطن الآلهة. وهو بذلك صنو جبل الأولمب عند اليونان. وهو أيضاً موطن أنصاف الآلهة الذين يُرجع إليهم فضل تأسيس

الحضارة الصينية. وكون لون هو أيضاً (على الأقل في العصور الحديثة) اسم للسلسلة المرتفعة من الجبال التي تفصل هضبة التبت الضخمة عن حوض التاريم. وكان الممر الذي يصل سلسلة كون لون بصحراء تاكلامكان هو طريق التاريم الجنوبي، الذي أصبح فيما بعد أحد طرق الصين الرئيسية المتجهة غرباً. ولم يكن اليشب الذي اشتهر به الإقليم، وخاصة حول خوتان، هو أقل ما يتميز به. وقد برز اليشب في مغامرات الإمبراطور مو، كما تشير القصة:

... صعد الإمبراطور جبل كون لون وزار الأماكن الخاصة بهوانج دي [الإمبراطور الأصفر، الجد الأسطوري للشعب الصيني الذي تقول كتب التاريخ أنه حكم البلاد فيما بين ٢٦٩٧ و ٢٥٩٧ قبل الميلاد]. ولكي يميز [الإمبراطور] الموضع الذي دُفن فيه إله السحاب لتعلمه الأجيال التالية، جعل على قبره كومة من التراب... وفي آخر شهر من شهر الصيف صعد الإمبراطور جبل تشي أون في الشمال، حيث قُدِّر له أن يرى من هناك البرية وقد امتدت في الاتجاهات الأربعة...

ويقال إن جبل تشي أون كان أكثر الجبال ثراءً في العالم. فهو مستودع الأحجار الكريمة واليشب الثمين. وكان الموضع الذي تنمو فيه كل المحاصيل الوفيرة. والأشجار فيه باسقة والأحراج جميلة. جمع الإمبراطور بعض العينات كي يزرعها في المملكة الوسطى [الصين] بعد عودته. ويقال أيضاً إن الإمبراطور استراح عند سفح الجبل خمسة أيام وروح عن نفسه بالموسيقى... [أهديت له] نساء عديدات. ويقال إن بلاد الطائر الأحمر كانت مشهورة بنسائها الجميلات ويشبها الثمين.

وتزداد القصة إثارة عندما يسافر مو إلى مايسميهِ مؤرخوه «الغرب الموحش»، وهو في طريقه لتنصيب الحكام الذين يحكمون بعض أجزاء من البلاد.

... اتجه الإمبراطور نحو الغرب قاصداً الجبل المر. وكان اسم الغرب الموحش هو حديقة الوفرة. توقف الإمبراطور للصيد حيث تذوق العشب المر. [ليست هناك أي تفاصيل أخرى تساعدنا على تخمين أي عشب هو المقصود]. ومضوا في طريقهم غرباً حتى.... بلغوا تلك الأراضي الخاضعة لسيطرة الأم الملكية الغربية.

وتعددت محاولات ربط شخصية ما في غرب آسيا بـ «الأم الملكية الغربية» التي جاء ذكرها في أساطير كثيرة يعود بعضها إلى القرن الثامن قبل الميلاد، وربما قبل ذلك. وقد وصل الأمر ببعض الباحثين إلى اعتبارها ملكة سبأ، التي كان يعتقد في زمن الإمبراطور مو أنها كانت تحكم جنوب غربى الجزيرة العربية، وكانت تسيطر على طريق البخور إلى سوريا وبلاد ما بين النهرين. وهل كانت الأم الملكية مستوحاة من شخصية حقيقية، واتصال حقيقى مع الغرب، أم كانت إلهة أسطورية، هذا أمر قد لا يتاح لنا أبداً أن نعرفه. إلا أنه من الواضح أن كل من أرخ لرحلات الإمبراطور مو كان يعتقد أن اللقاء له أهميته:

... زار الإمبراطور الأم الملكية الغربية وهو يحمل صولجاناً [حجرياً] أبيض وديبى، أسود. وقد أهداها مائة قطعة حرير مطرزة وثلاثمائة قطعة من أقمشة [أخرى]. وبعد أن انحنى أمامها عدة مرات، قبلت الأم الملكية هداياه.

وفى اليوم التالى دعا الإمبراطور الأم الملكية لتناول الطعام على بركة الزمرد. وفى هذه المناسبة ارتجلت هذه الأغنية:

تبدو الجبال والتلال
كأنها سحب تصعد للسماء.
وعلى امتداد الأرض تتناثر بلادنا
تفصلها البحار وسلاسل الجبال.
إذا قُدِّر لك طول العمر
فلتأت مرة أخرى

ورد الإمبراطور قائلاً:

عندما أعود إلى الشرق
حاملاً للملايين النظام والسلام
وعندما يتمتعون بالرفاهية وسعة العيش
سأعود إليك.

احسبى ثلاث سنوات من الآن
أعود بعدها إلى هذه البلاد.

بعد ذلك مضى الإمبراطور إلى جبال شي [الغربية] وسجل زيارته على صخورها. كما زرع شجرة تذكارية... وأطلق على المكان اسم شي وانج موشان [جبل الأم الملكية الغربية].

وعندما عاد الإمبراطور نظم قصيدة أخرى تقول:

فى ذلك الغرب الأقصى

تبسط حكمها على السهل شديد الاتساع

تصاحبها النمر والفهود

وتنام مع الغربان.

وفى طريق عودته، زار الإمبراطور العديد من الأمراء الآخرين حيث تلقى كميات كبيرة من الهدايا وقدم مقابلها الكثير. وعلى سبيل المثال قدمت أسرة تشى للإمبراطور مو:

... مجموعتين من الخيول البيضاء، تتكون كل منهما من ثلاثة، وأربعين من الخيول البرية والجاموس البرى وسبعين كلباً. كما قدموا له أربعمئة فرس وثلاثة آلاف رأس من الماشية لتؤكل.

أما الإمبراطور فقد أهدى بدوره:

... قطعة قماش مصنوعة من شعر الكلاب وتسعاً وعشرين كأساً ذهبية وأربعين حزاماً من الأصداق وثلاثمئة لؤلؤة حمراء ومائة كانج [مكيال] من القاسيا والزنجبيل.

وتقول الرواية إن أسرة تشى قبلت الهدايا بـ«الانبطاح على الأرض». وتبادل الهدايا بهذا القدر من الفخامة كان يعد فى فترات كثيرة من التاريخ نوعاً من «التجارة» بين الصينيين، الذين كانوا يفضلون المحافظة على الفكرة الوهمية الخاصة بـ«الهدايا» التى تقدم لهم والعطايا التى يقدمونها هم طواعية، وإن كان هذا النمط من التعامل قد جرى تنظيمه تنظيمًا دقيقاً لكى يكون ما نسميه نحن تجارة.

وأثناء عودة الإمبراطور مو لبلاده تصحبه ست فرق من جنوده، توقف من أجل حملة صيد كبرى اصطاد خلالها «طيوراً وحيوانات لاحصر لها ولا عد». وقد نزعّت «الفراء الثمينة والريش الجميل» وحملته العربات إلى الوطن. وتمضى الرواية قائلة إن الإمبراطور

أخذ لنفسه «حمل ١٠٠ عربة». ولكن حتى الإمبراطور لم يكن محصناً ضد مخاطر اجتياز الصحراء:

... كان يشعر بالعطش ولم يكن الحصول على الماء ممكناً في الصحراء. لذلك طعن [جندى] الحصان الأيسر في عريكته في رقبتة وقدم لسيده الإمبراطور شراباً من الدم الصافى. شعر الإمبراطور بقدر كبير من الرضا وأعطاه قطعة حلّى من اليشب...

وفى الختام وصلت القافلة إلى «نهاية سلسلة جبال الأحجار المترابطة»، وهو مايعنى أنهم عادوا ثانية إلى بلادهم.

ومهما كانت نسبة الحقيقة إلى الخيال فى الروايات الخاصة برحلات الإمبراطور مو، فقد يكون السبب فى إشارتنا إليها هو أنها تتضمن بالتأكيد بعض المعلومات عن شعوب آسيا الوسطى وتعطى اهتماماً لا بأس به لمنتجاتها وإمكانية التبادل المستمر لها. وكانت بعض الهدايا التى تلقاها الإمبراطور، وخاصة القمح، لم تكن معروفة فى الصين من قبل ودخلتها فى هذه الفترة فقط. وتشير الأساطير الفارسية التى تعود لهذه الحقبة ذاتها إلى بعض المعلومات الخاصة بالصيد، رغم أنها هى الأخرى أبعد ما تكون عن كونها تاريخاً محققاً. وسواء سافر المغامرون والتجار الصينيون إلى آسيا الوسطى فى عهد الإمبراطور مو أم لم يسافروا، وما هو الحد الذى وصلوه غرباً إن كانوا سافروا بالفعل، فمن المؤكد أنه كانت هناك شبكة تجارية بين القبائل وبعضها، ليس فقط مع الصين وإنما مع سائر مناطق آسيا.

ولم يكن ذلك أمراً مستحدثاً. فقد كانت شعوب كل مناطق أوراسيا فى حركة واتصال مستمرين، مثل الذرات داخل بالون الهواء الساخن، منذ زمن يعود كثيراً إلى ما قبل العصر الجليدى المتأخر. إذ اتضح أن هناك تطابقاً بين الإبر والحلى المصنوعة من العظام والأسنان والأصداف، وماشابهها من آثار الشعوب التى تنتمى لثقافات العصر الجليدى فى غرب أوروبا، وتلك الآثار الخاصة بالمناطق الشمالية من الصين. وهذا التطابق من الشدة بحيث يصعب التمييز بينها، كما يقول بعض الخبراء.

وظل الاتصال مستمراً فى العصور المظلمة التالية، فى حين كانت شعوب أوراسيا تطور مهارات وتقنيات ما نسميه الآن «حضارة». ومنذ ما بين عشرة آلاف إلى اثنى عشر ألف سنة بدأت هذه الشعوب فى استئناس كل من النباتات والحيوانات، وهو مايعد إرساء لقواعد الثقافتين العظيمتين اللتين انقسمت إليهما القارة الضخمة، وهما الرعى والبداءة من جهة

والزراعة من جهة أخرى، أو ما اصطلح عليه بـ «السهوب والأراضي الزراعية»^(١). ولكن إذا كان غط حياة كل من المجموعتين مختلفاً عن الآخر، فإن الاتصال بينهما ظل قائماً، سواء من خلال الحروب أم التجارة البدائية. وأظهرت الاكتشافات الحديثة أن هذا الاتصال كان يتم بين العشائر على امتداد أوراسيا. وحيث إن بعض هذه الشعوب انتقلت من صنع الأدوات من الصوان والحجر إلى العمل بالمعادن (الذهب والفضة والنحاس ثم البرونز في وقت لاحق ومن بعده الحديد)، فسرعان ما حذت حذوها شعوب أخرى. وأساليب صناعة الفخار، الذي تعد بقاياه غاية في الأهمية لعلماء الآثار المحدثين، واختراع العجلة وطرق استئناس الحيوانات وفكرة الكتابة، أخذت جميعها في الانتشار في أنحاء أوراسيا بعد فترة من الزمن.

وتعارف علماء الآثار على رسم صورة للحركة من الغرب للشرق، حيث تنقل الثقافات الرفيعة في الشرق الأدنى، أي في مصر وبلاد ما بين النهرين، الابتكارات إلى الصين عبر الهضبة الإيرانية وسهوب آسيا الوسطى وصحاريها. وطبقاً لوجهة النظر هذه، كانت الأجزاء الداخلية من آسيا قناة توصيل في المقام الأول، في حين كانت الصين خلال العصور الأولى متلقياً سلبياً في المقام الأول. ولم تصبح لها حضارتها المميزة إلا فيما بعد. ورغم أن الخطوط العريضة لهذه الصورة قد تكون صحيحة، يرى بعض علماء الآثار في أيامنا هذه أن هذا فيه قدر كبير من التسطيح. وهم يعتقدون أن بعض الابتكارات المهمة في الثقافة القديمة، التي قد تكون العجلة والزراعة من بينها، خرجت من آسيا الوسطى. ويغض النظر عن اتجاه الحركة، فمن الواضح أن كثيراً من الجوانب الأساسية للحضارة شاعت في أنحاء آسيا. فهي تارة تنتقل من شعب لآخر وتارة أخرى تحملها الشعوب جميعاً في ترحالها.

وبما أن سكان آسيا انقسموا شيئاً فشيئاً إلى «السهوب والأراضي الزراعية»^(١)، فإن تبادل التأثير بين الجماعتين أخذ ينتج عنه ظهور طرق السفر المنتظمة. فالذين يعيشون في أودية الأنهار، التي تُروى بصورة جيدة، وفي الواحات المنتشرة في أنحاء آسيا أصبحوا يعيشون حياة أكثر استقراراً تقوم على الزراعة. ولأنهم يشعرون بالأمن خلف أسوار مدتهم، فغالباً ما كانوا يبتكرون صناعات كالنسيج وعمل الأواني الفخارية والمشغولات المعدنية اتسمت جميعاً بأنها أكثر تقدماً من تلك التي يقوم بها بدو السهوب. فهؤلاء كانوا يتنقلون بقطعانهم

(١) أي: البدو الرحّل والفلاحون المستقرون. (المترجم).

بحثاً عن المرعى، حيث لم يكن غم النباتات في السهوب بالكثافة التي تتيح لهم الاستقرار في مكان واحد.

ولا يعنى هذا أن البدو الرحل كانوا يتنقلون كيفما اتفق، دون أن يكون لهم اتجاه محدد. فغالباً ما كان الرعاة البدو يتبعون طريقاً منتظماً للهجرة، إذ يتجهون إلى السهول في الشتاء وإلى المرتفعات الباردة التي يكثر فيها الماء في الصيف. إلا أنه ما أسهل تغيير هذا النمط بتغير المناخ أو عدد السكان، وهو ما يدفع الجماعات إلى توسعة أراضيها على حساب غيرها. وأثر ذلك أشبه بتساقط صف من قطع الدومينو، التي تدفع كل واحدة منها التي تليها. وكان البدو الرحل يجورون على أراضي الفلاحين. غير أنه في زمن الاستقرار كانت هجرة قبائل البدو مفيدة لكل من الرعاة والفلاحين. فالبدو يرغبون في الحصول على سلع المدينة الفاخرة، بينما يحتاج الفلاحون المستقرون إلى المواد الخام اللازمة لصناعاتهم. وكان البدو يحملون هذه السلع على ظهور الدواب التي يرعونها في هجراتهم الموسمية. لذلك كان البدو في العصور القديمة جداً يأتون للمدن بالنحاس والقصدير والفيروز من إيران وبالذهب من جبال ألتاي في منغوليا وباللازورد من أفغانستان وبالفراء من سيبيريا وبالقطن من الهند، إلى جانب منتجاتهم كالصوف والجلود والماشية. وأثناء قيامهم بذلك شقوا الطرق الرئيسية في أنحاء آسيا، ومنها طريق الحرير.

ولا ينبغي أن تتخيل أن هذه الاتصالات والمقايضات كانت تتم بالضرورة بطريقة تتسم بالمنطق أو النظام. فأى صفقة تجارية جيدة كانت تعقدتها الشعوب القديمة يمكن أن تكون التسمية الأدق لها هي الحرب أو السرقة، حيث كانت تحصل على ما ترغب فيه بقوة السلاح أو على سبيل غنائم النصر. بل إن بعض الشعوب أعطت السرقة صفة رسمية على أنها «تجارة قرصنة». فكانت إحدى المجموعات تنقض ليلاً وتستولى على الطعام أو غيره مما ترغب فيه. وغالباً ما كانت تخرب سلعاً أخرى في الصفقة. وبعد ذلك تترك ماتعيره ثمناً عادلاً قبل أن تغادر المكان.

وهناك شكل تقليدى آخر من التجارة البدائية لم يقتصر على أوراسيا وحدها، بل ذاع في أنحاء العالم. ويسمى هذا الشكل التجارة الصامتة وكذلك المقايضة البكماء. ففي أحد الأماكن المناسبة التي تم الاتفاق عليها ضمناً، يضع أحد طرفي التجارة البضاعة التي يرغب في مقايضتها ويغادر المكان. يعد ذلك يظهر الطرف الآخر ويضع ما يشعر أنه مساو لذلك من البضائع. ثم يعود الطرف الأول. ويتناوب الطرفان في الظهور ويضيفان إلى أكوام

البضائع أو ينقصان منها، إلى أن يرضى كلاهما بالمقابل. بعد ذلك يرحل كل منهما ومعه بضاعة الآخر. وكانت هذه العملية تتم بالكامل دون أن يتكلم الطرفان أو أن يلتقيا وجهاً لوجه. ولكن الشيء المؤكد أن هذا النمط يوحى بأن هناك دائماً قدرًا من الثقة، وإن كان محدوداً.

ولم تتوصل شعوب أوراسيا إلى تجارة تتسم بقدر أكبر من المباشرة إلا بعد مضي زمن طويل. وكان ذلك من خلال التجار الجوالين والأسواق التي تقام في أوقات وأماكن ثابتة.

في حوالي سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد بدأ الرعاة استئناس الحيوانات التي كانوا روضوها كي تصبح دواب حمل تستخدم في تجارة المسافات البعيدة. وقد استؤنست حمير النوبة البرية التي جئ بها من أعالي النيل. وسرعان ما انتشر استخدامها في الساحل الشرقي للبحر المتوسط ومنطقة الهلال الخصيب والهضبة الإيرانية ثم في شمال الصين في وقت لاحق. وكانت الحمير عماد القوافل في غرب آسيا في تلك القرون البعيدة. وفي الفترة نفسها، وفي السهوب الأوكرانية الواقعة شمالي البحر الأسود وبحر قزوين غالباً، ثم استئناس الخيول البرية. وكانت تلك خيول صغيرة الحجم لا يزيد ارتفاعها على أربعة أقدام، أقرب لخيول برزفالسكى البرية الموجودة حالياً. كان الغرض منها في البداية هو أكل لحومها والاستفادة من بعض المنتجات الفرعية الأخرى، كما هو الحال بالنسبة للماشية. ولكن بعد أن أنتج البدو في آسيا الوسطى سلالة أكبر حجماً وأشد قوة، كان هذا الاستئناس سبباً في حدوث ثورة بعد عدة قرون.

وفي الوقت نفسه كانت الشعوب المقيمة في النصف الغربي من طريق الحرير تبتكر اتصالات بعيدة المدى تتسم بأنها أكثر تطوراً. وفي حين ظهرت إمبراطوريات وأسرات ثم انهارت، يبدو أن العلاقات التجارية امتدت واستمرت. وظهرت طبقة من التجار في الأماكن التي كانت فيها التجارة من قبل عارضة وغير منتظمة. وكانت المعادن الثمينة، كالنحاس والقصدير، وهما المكونان الرئيسيان للبرونز شديد الأهمية، يؤتى بها منذ زمن بعيد إلى بلاد ما بين النهرين من الهضبة الإيرانية. وبحلول سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد بدأ وصول الجواهر والأحجار الكريمة والمعادن، مثل الألباستر والعقيق الأحمر والأصناف والزجاج البركاني والحجر الزجاجي الأسود (المستخدم في صنع السكاكين الحادة جداً). وقد

انضمت هذه إلى الأحجار شبه الكريمة، مثل اللازورد الذى كان يؤتى به عبر الطريق نفسه. أما الأخشاب فكانت تأتى من جبال إيران، حيث كانت تكثر فيها الغابات فى ذلك الوقت. وبذلك توافرت مواد البناء لبابل وغيرها من مدن بلاد ما بين النهرين. فى حين كانت أجزاء من معابد بابل وسومر تُشيد من الرخام وغيره من الأحجار التى جُلِبَت من هضبة إيران المرتفعة.

وفى ذلك العهد البعيد، يبدو أن تجار بلاد ما بين النهرين أقاموا مراكز فى المدن الواقعة على الطريق الإيرانى لجمع منتجات الرعاة وعمال المناجم والمزارعين المحليين. وكانوا ينقلون تلك المنتجات إلى غرب آسيا للتجارة فيما بين المدن الكبرى فى مصر والشرق الأدنى وبلاد ما بين النهرين. وبينما تنقل بعض التجار بين المدن التى يقيمون بها والأماكن التى يحصلون منها على بضائعهم، استقر غيرهم فى المدن البعيدة. وغالباً ما كانوا يقيمون فى ذلك الحى المخصص للأجانب. وهناك أقاموا علاقات دائمة مع الموردين المحليين وعملوا كوسطاء بينهم وبين التجار الجوالين. ولولا ذلك لاضطروا إلى إقامة العلاقات من جديد فى كل زيارة (وكل زيارة وأخرى تفصل بينهما شهور أو سنوات). بل يبدو أن بعض المدن الواقعة على الهضبة الإيرانية تحولت إلى مراكز للإنتاج بصورة أو بأخرى. وإحدى هذه المدن كانت تنتج نوعاً من السلاطين الحجرية التى يبدو أنها كانت تُعد للتصدير، إذ أنها كانت أكثر شيوعاً فى بلاد ما بين النهرين منها فى إيران. وكانت السلاطين الإيرانية تتجه أيضاً ناحية الغرب، حيث وجدت فى بلاد فرغانة المستقرة اعتباراً من سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد تقريباً. وفى تلك القرون كانت الأنماط توضع كى يتبعها الجيل وراء الجيل من التجار على طريق الحرير.

والتجار المقيمون فى المحطات التجارية البعيدة كانوا معرضين للأخطار، كما هو الحال بالنسبة لخلفهم فى الزمن الحالى. وكثير من السجلات التى بقيت من الحضارات القديمة فى بلاد ما بين النهرين عبارة عن وثائق تجارية. ويتحدث بعضها بكل وضوح عبر آلاف السنين عن مخاطر التجارة والرحلات التى تقطع مسافات طويلة. وكتب أحد التجار من محطة على الهضبة الإيرانية يقول:

منذ وصولى إلى هنا وأنا فى هم والبلاد كلها فى هم. فلا تأت هنا فى عامنا هذا... وإلى أن أرسل لك رسالة، لا تأت! ومن الأفضل أن تعود إلى صوصا.

وكتب آخر يقول:

عندما دخلت [المدينة البعيدة]... أخذ صبي الحمار ورحل. وزاد الأمر سوءاً عندما مرضت وكنت على شفا الموت. أما فيما يتعلق بالجارية التى كنت سأرسلها لك فقد ماتت... لقد قلت لى: «سأجعل المانوسف، أخاك، يحضر لك ١٢ مينا من الفضة مع حملة تأتى بعدك». أرسله بحق السماء! لا تؤخره أكثر من ذلك. وما إن أنتهى من أعمالى هنا حتى أكون فى الطريق إليك. لا تقلق، فأنا فى صحة جيدة. توجد هنا جارية عرضتها على المسافرين، ولكن أحداً لم يقبلها منى، إنهم يقولون: «الرحلة محفوفة بالأخطار».

واستمر توسيع الشبكة التجارية حتى الألف الثانية قبل الميلاد. وفى بابل، شملت قوانين حمورابى الشهيرة التجارة. وتشير وثائق تلك الفترة إلى وجود مجموعة من الترتيبات المتقدمة بعض الشيء. وفى العصور السابقة لذلك كان يبدو أن جزءاً كبيراً من هذه التجارة يتم نيابة عن القصور والمعابد، تلك المؤسسات التى كانت تملك المال وتستأجر الكثير من الصناع العاملين فى الدولة. ولكنه بقدوم عصر حمورابى^(١) (إن لم يكن قبله) بدا وكأن التجار يعملون بصورة مستقلة. وكان بعضهم يقطع المسافات الطويلة المضنية بنفسه. بينما كان آخرون يستأجرون وكلاء يتاجرون لهم. وهكذا كانت قوافل الحمير المحملة بالبضائع الثمينة تجتاز صحارى الشرق الأدنى وأوديته متجهة إلى مرتفعات الأناضول وأرمينيا وإيران وتعب السهوب إلى جبال البامير لتتجه إلى أفغانستان والهند فى الجنوب الشرقى. وكان يفضل حمل ماخف وزنه وغلا ثمنه من سلع. ولم يقتصر الأمر على مقايضة التجار لبضائعهم بالسلع المحلية، بل امتد ذلك ليشمل سلعاً جلبت من أماكن أخرى.

وكانت الرسائل التى يبعث بها التجار وهم ذاهبون للتجارة تشير فى الغالب إلى نوعية البضائع التى سيرسلونها وتحدد مايجب عمله عند وصولهم. وكانت المعاملات التجارية فى بلاد الرافدين يتم تخليصها من خلال منظمة للتجار تسمى «كاروم». وكان التجار أنفسهم يطلق عليهم «تام كاروم». وفى نموذج لـ «الرسالة الشارحة» كتب أحد تجار بلاد ما بين النهرين عن الثلاثين مينا من الفضة التى سبق وأرسلها:

(١) أحد ملوك بابل تولى الحكم من ١٧٩٢ إلى ١٧٥٠ قبل الميلاد، وهو مشهور بقوانينه، كما كان إدارياً كفواً ومحارباً شجاعاً. (المترجم).

هذه الفضة تخص أمانة كوداتوم... اشترى سلعاً من المدينة - اشترى بنصف ما لنا من فضة أقمشة من الكتان، وبنصف الفضة قصديراً؛ ولتكن مشترياتكم مناسبة ومريحة له. وعندما تشتروا، لا تشتروا القماش ذا الألوان الزاهية... أنتم إخوانى - وكما حافظت علس الفضة هنا، عليكم أن تحافظوا عليها هناك عندما تكلفون أحداً بشراء البضائع، وعند بوابة المدينة تصرفوا كممثلين لى، وإذا تأخر داداچا [الوكيل المكلف بإعادة البضائع] أرسلوا البضائع مع أول شخص يسافر إلينا.

وكثيراً ما تظهر عبارات «أنتم إخوانى» أو «أنت والدى»، التى لا تشير للمعنى الحرفى للكلمة، فى العديد من مثل هذه الرسائل. أما الواقع فتشير إليه الصرخات الحزينة الكثيرة، مثل «لماذا لم تفعلوا مثلاً طلبت منكم؟». وكان الوكلاء يتقاضون أجرهم عادة قطعة من البضائع. وكان السائسون الذين يرعون الحمير ويعتنون بالبضائع طوال الرحلة يتلقون بعض لفائف القماش مكافأة لهم.

وخلال شبكة تجار كهذه، كانت البضائع تأتى من أماكن بعيدة كالهند وهندكوش وجبال البامير فى قوافل تسير فيما نطلق عليه الآن طريق الحرير عبر الجسر الإيرانى مروراً بوسط بلاد ما بين النهرين، شديد الأهمية بالنسبة لإقليم بابل، ثم تسير عبر الهلال الخصيب إلى مدينة حلب القريبة من ساحل سوريا لتبلغ مدناً أخرى على البحر المتوسط. وكانت التجارة تنعم بقدر كبير من الحظوة لدى كل من يهتم بها، مما جعل التجار ينزلون أثناء سفرهم ضيوفاً فى قصور البلاد التى يفدون إليها. وغالباً ما كان يتولى الأمراء المحليون حماية الأمن فى الطرق الواقعة داخل مناطق نفوذهم. كما كانوا يساعدون التجار بتوفير المخازن وإعانتهم على تحصيل الأموال التى يدين بها سكان الدولة لهم. إلا أن هؤلاء الأمراء كانوا عادة ما يطالبون بمقابل لتوفير هذه الحماية. وكان ذلك يجرى فى بعض الأحيان بصورة غير مباشرة.

وعندما كانت الموانع الجغرافية تجبر المسافرين على السير فى طريق بعينه، أو عندما كان أحد الأقاليم يحتكر منتجاً حيوياً عليه طلب شديد، كالقصدير أو الذهب، كان للحكام المحليين نفوذ كبير فى علاقاتهم مع الإمبراطوريات الواقعة فى السهول ويفترض أنها أقوى وأكثر تطوراً. وكان ذلك ينطبق على شعوب الهضبة الإيرانية التى ظلت زمناً طويلاً تستخدم موقعها على امتداد طريق الحرير لكسب المزيد من الثروات والنفوذ.

إلا أن التجارة، أو بالأحرى المنتجات التي تجلبها، كانت من الأهمية بحيث دعت أكثر من إمبراطورية في السهول إلى إرسال جيوشها إلى المرتفعات في محاولة لتأمين طرق التجارة وتدفق الإمدادات الحيوية. وعلى سبيل المثال، ورد أن سرجون ملك أكاد، الواقعة في المنطقة التي أطلق عليها في زمن لاحق اسم بابل، أرسل حملة في عام ٢٣٠٠ قبل الميلاد تقريباً لإنقاذ مستوطنة تجار أقيمت على هضبة الأناضول.

تبعنا افتتاح النصف الغربي لطريق الحرير حتى الخط الفاصل عند جبال البامير والتطورات المبكرة التي شهدناها. ولكن ماذا عن نصفه الشرقي؟ إن مانعرفه عن هذا الجزء أقل بكثير. فلم تمض أعمال الأثرين في الصين وحوض التاريم بصورة ملائمة إلا خلال المائة سنة الماضية، وهي فترة شهدت فيها تلك المنطقة حروباً أهلية وحروباً عالمية. ولم تُكتشف حتى الآن سجلات تاريخية مكتوبة أو روايات من الحياة اليومية، كتلك التي نراها في غرب آسيا، تعود إلى تلك الفترة المبكرة من تاريخ الصين. فالكتابات التي بقيت حتى الآن تعود إلى عصر قريب نسبياً، بالمقاييس الغربية. ولا غرابة في ذلك، حيث إن الكتابة وصلت الصين بعد غرب آسيا بمئات، وربما آلاف، السنين. وتعود أقدم الكتابات الصينية إلى سنة ١٣٠٠ قبل الميلاد فقط. وهي عظام الكاهن الشهيرة التي اكتشفت في القرن العشرين وتؤكد بوضوح بعض السجلات التاريخية اللاحقة الخاصة بالأسرات الصينية القديمة. (يحدد التراث الصيني غير المؤكد ابتكار الكتابة بما يزيد على ألف سنة قبل ذلك). والمشكلة هي أنه في زمن أسرة تشين العظيمة في القرن الثالث قبل الميلاد، كان هناك جهد ضخم لتجميع وثائق الصين القديمة في سجلات تاريخية مترابطة ومتصلة. ولكن مايؤسف له أن الحكام في الوقت ذاته دمروا العديد من الوثائق التي كان يعتمد عليها كاتبو السجلات. لذلك فإن لدينا أعمالاً قليلة نسبياً تعود إلى ما قبل عصر تشين، كُتب معظمها في الفترة من القرن التاسع إلى القرن السادس قبل الميلاد تقريباً. وهي تعتمد على أعمال أقدم منها وعلى التراث الشفاهي، وكلها مفقودة الآن. وهذه أسن لاتكاد تقوى على رسم صورة للنصف الشرقي من طريق الحرير. إلا أنها ليست عديمة الفائدة، إذا وضعنا في اعتبارنا أن الأساطير والخرافات قد تقوم على شيء من الواقع، كما هو الحال بالنسبة لقصة طروادة التي رواها هوميروس.

ويتحدث الكثير من هذه الحكايات، مثل حكاية الإمبراطور مو، عن شي وانج مو،

الأم الملكية الغربية. حيث تظهر دائماً متمتعة بمعرفة أو قدرات غير عادية وتعيش في مكان أشبه بالبستان، يسمى أحياناً أرض الزهور. وتوجه الدعوة إلى مجموعة مختارة من البشر، وكذلك من غير البشر، لتناول الطعام على مائدتها. ويبحث البطل الأسطوري القديم هو آي، وهو أشبه بهرقل عند الإغريق لكونه نصف إله ونصف إنسان، عن الأم الملكية الغربية ليحصل منها على حبوب تجعله مخلداً. وفي حكاية أخرى أعطت شي وانج مو مبعوثين صينيين بعض الخواتم المصنوعة من اليشب وبعض أقماع الخياطة (الكستبان) من اليشب الأخضر وخرائط طبوغرافية. ويفترض أن بطلاً أسطورياً آخر تعلم على يديها. ويقال إن ممثلاً واحداً على الأقل للأم الملكية الغربية زار البلاط الصيني وأحضر معه هدايا من اليشب الأبيض.

وطبعاً أن تتضمن هذه القصص الأسطورية أوصافاً خيالية لأشياء غريبة، كالحمار الذي يمكن «طيه» عندما لا يستخدم، أو المرأة التي تحمل عندما تسير على آثار أقدام أحد العمالقة. إلا أن الإشارات الكثيرة إلى البضائع والمعرفة الآتية من الغرب يعنى احتمال وجود اتصالات للصينيين بالخارج عن طريق ممر كانسو، وعلى الأقل جزء من الطريقين الواقعين شمال حوض التاريم وجنوبه، في عصر قديم جداً. وربما سافر بعض المواطنين الصينيين بالفعل (وهو ما قد يكون صحيحاً في العصور القديمة أيضاً)، وهذا يعطى حكايات هذه الرحلات النادرة صبغة خيالية تتزايد مع تناقلها عبر الأجيال. وإذا كانت الخبرة اللاحقة توفر نمطاً ما، فإن هناك احتمالاً أكبر بأنه في وقت مبكر جداً نشأت مجموعة من تجار آسيا الوسطى مارست التجارة على الطريق الممتد بين الشرق والغرب وأصبح معروفاً فيما بعد باسم طريق الحرير. وفي ذلك الزمن البعيد، ربما كان من الأفضل أن يسمى طريق اليشب. فكما تشير القصص الصينية، كانت قيمة اليشب مرتفعة وكان يوصف بأنه يأتي من الغرب.

ونحن هنا لسنا مضطرين للاعتماد اعتماداً تاماً على أساطير الماضي التي تناقلها الناس كثيراً. فاليشب نفسه شاهد على حركة التجارة. وهو اسم شائع لنوعين من الأحجار الكريمة، لكل منهما ألوان عديدة. الأول هو الجاديت وهو متوافر بكل ألوان الطيف بما فيها الأبيض والأسود. وهذا الحجر شديد الندرة ويوجد بصورة أساسية في بورما. ويبدو أنه لم يكن معروفاً في الصين حتى القرن الثامن عشر الميلادي. والنوع الثاني هو النفيرين، ويسميه الصينيون «جوهرة السماء» وتدرج ألوانه بين الأخضر الداكن، وهو غالي الثمن، وبقية درجات الأخضر الفاتح (ويتوقف ذلك على كمية الحديد الموجودة في الحجر) حتى اللون الأبيض شبه الشفاف الذي يسمى أحياناً دهن الضأن.

تلك هي أنواع اليشب التي كان يرغبها قدماء الصينيين. وقد بدأ ظهورها في الصين حوالي سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد وربما قبل ذلك. ولكن التفريق لا يظهر بصورة طبيعية في الصين نفسها. ومن المؤكد أنه لم تستخرج كميات لها قيمتها في تلك الأزمنة البعيدة. بل إن هناك اعتقاداً بأن أنواع اليشب هذه تأتي من الجبال القريبة من خوتان ويرقند، على بعد ١٥٠٠ ميل عبر حوض تاريم. (ولا يمكن تحديد مصادر اليشب كيميائياً بصورة مؤكدة، لأن تكوين اليشب يتغير بعض الشيء بمرور الزمن). لذلك فإنه من المحتمل أن النصف الشرقي من طريق الحرير، الذي اصطلح المؤرخون على أنه افتُتح في القرن الثامن قبل الميلاد، كان في واقع الأمر طريقاً تجارياً طوال ألفي سنة قبل ذلك.

وكون اليشب ذا أهمية في الحضارة الصينية منذ أقدم العصور يتضح في أساطير البلاد وخرافاتها. وكما تشير حكاية رحلات الإمبراطور مو، كان اليشب يستخدم على نطاق واسع لأغراض تتعلق بالمراسم. وكانت الفروق بين مراتب موظفي الإمبراطورية تظهر من خلال درجة اليشب المستخدم في نقش رموز متاصبهم. وكان الأغنياء يأكلون في صحون من اليشب ويعلقون تائم من هذا الحجر الكريم، اعتقاداً منهم بأنه يزيد فرصتهم في الخلود. وكانت الأدوات المصنوعة من اليشب تُدفن مع الموتى، الذين تقدر أسرهم على شرائه. إذ كان يعتقد بأنه يمنع تحلل الجثمان. وبخلاف هذه الاستخدامات، كان اليشب يستخدم للزينة في كل شيء من الحلى والتماثيل الجميلة إلى المزهريات والبارافانات التي تحمل نقوشاً محفورة.

ومع ذلك لم يكن اليشب مجرد زينة. فلأنه حجر شديد الصلابة ذو حد يصلح للقطع، فقد استخدم أيضاً لصنع العدد والأدوات. ومن الواضح أنه قادر على قطع بعض المعادن كالحديد. وعُثر على فئوس تسمى «سلتية» مصنوعة من اليشب تعود إلى عصور ما قبل التاريخ، ليس فقط على طريق التاريم المتجه إلى الصين، ولكن أيضاً على ضفاف نهري سيحون وجيحون وجنوب بحر قزوين وبلاد الرافدين حيث كان لليشب قيمته كذلك كأحد الجواهر، وإن لم يكن بنفس القدر الذي له عند الصينيين.

والواقع أن توزيع الأدوات والحلى المصنوعة من اليشب قد يميز طريقاً يمتد عبر آسيا، هو طريق الحرير. فقد رأينا أن تجار غرب آسيا كانوا يصلون بتجارهم في الألف ستة الثالثة قبل الميلاد حتى الهضبة الإيرانية وأن التجارة اتجهت من هناك إلى فرغانة حيث وجدت صادرات إيران من الفخار. ويبدو أن مكتشفات اليشب تشير إلى أنه مع بداية الألف الثانية

قبل الميلاد امتد طريق تجارى عبر آسيا. لم يكن طريقاً متصلاً يمكن لأى إنسان أن يقطعه، وإنما سلسلة من الحلقات التجارية الكثيرة التى تربط غرب آسيا والصين عبر مسافة قدرها خمسة آلاف ميل تقريباً.

كان طريق الحرير أيضاً الدرب الذى يحتمل أن تكون الأفكار والتقنيات قد انتقلت من خلاله عبر القارة، كما هو مؤكد بالنسبة لبعضها. وقد اصطلح على أن الكتابة ابتكرت فى الصين فى هذه الفترة. فقد قيل إنها استوحيت من آثار أقدام الطيور على الرمال. وهو وصف يصدق أكثر على الخط المسمارى المستعمل فى بلاد ما بين النهرين فى ذلك الوقت، كما أشار كثيرون. ويرتبط ابتكار الكتابة فى الصين بحكم الإمبراطور هوانج دى، الإمبراطور الأصفر الأسطورى الذى اصطلح على أنه عاش فى الفترة من ٢٦٩٧ إلى ٢٥٩٧ قبل الميلاد. وطبقاً لطريقة الصينيين فى نسبة الاكتشافات إلى الإمبراطور، فإن الفضل يعود إليه فى الحسابات الرياضية ودورة التقويم الصينى، ومدتها ستون سنة^(١)، والقوارب والنقود والطوب والبوصلة والبامبو وبعض الآلات الموسيقية والعربات التى تجرها الثيران والطب.

وبالنظر إلى فورة النشاط بصورة مذهلة فى ظل حكم الإمبراطور هوانج دى، فقد كان هناك ما أغرى بعض الباحثين الغربيين إلى إرجاع كل الحضارة الصينية القديمة تقريباً إلى أصول غربية. بل إن منهم من تجاوز ذلك بقوله إن هوانج دى نفسه لم يكن شخصية تاريخية فحسب، وإنما أحد الفاتحين من بلد اليشب فى جبال البامير وأنه أحد ملوك آسيا الوسطى وقائد فرقة من الأتباع الصفوة ذوى العيون الزرقاء والبشرة البيضاء. ولم تمتد إمبراطوريته شرقاً إلى الصين فحسب، وإنما غرباً حتى بلاد الرافدين. وقيل أنه نقل إلى الصين أجزاء كبيرة من ثقافة الشرق الأدنى. وتبدو وجهة النظر هذه على قدر كبير من التعصب والشوفينية وتقوم على قدر أكبر من اللازم من الافتراض. فى الوقت نفسه اتجه كثير من الباحثين المحدثين إلى النقيض ونظروا إلى الصين وكأنها تطورت فى معزل تام عن بقية العالم. وهؤلاء يتجاهلون الوجود المحتمل للصلات القائمة بين القارات منذ العصور التاريخية السحيقة، وإن كان ذلك من خلال وسطاء لاحصر لهم.

(١) السنة فى التقويم الصينى ١٢ شهراً قمرياً يضاف إليها شهر نسيء سبع مرات كل ١٦ سنة، لتعادل السنة الشمسية مع السنة القمرية فى عدد أيامهما. والزمن فى التقويم الصينى عبارة عن دورات كل منها ٦٠ سنة. وبدأت أول دورة سنة ٢٦٣٧ قبل الميلاد. (المترجم).

وربما تقلل وجهتا النظر هاتان من قيمة الدور الذي قامت به شعوب آسيا الوسطى. ومن أسباب ذلك قلة مانعرفه عن تلك الشعوب بصورة مباشرة. ولكن نمط التاريخ الحديث يشير إلى احتمال أن يكون تأثيرها كبيراً، عرقياً وفكرياً، على الشعوب الأكثر استقراراً على طرفى طريق الحرير. وتشير أساطير الصين، وحكاية الإمبراطور مو شاهد على ذلك، إلى أن هوانج دى ورجاله كانوا «غرباء» ولدوا خارج أرض الصين الصغيرة فى ذلك الوقت وتقع على امتداد نهر هوانج (الأصفر). وأنهم جاءوا من الأراضى الواقعة غرب ممر كانسو. وبغض النظر عن حقيقة أصول هوانج دى أو مساهماته أو حتى وجوده، فقد يكون من العدل أن نقول إنه من خلال طريق اليشب القديم جاءت إلى الصين بعض التقنيات والممارسات الجديدة من الغرب لتساعد فى إطلاق شرارة ازدهار ضخمة فى البلاد.

والحرير اكتشاف آخر من اكتشافات عصر هوانج دى، وهو أكثر الاكتشافات أهمية فى موضوعنا هذا. وجرى العرف على أن فضل الحرير يعود إلى ليه تزو كبرى زوجات الإمبراطور، التى كرمها الصينيون بلقب سى لنج تشى (سيدة دودة القز). وطبقاً لما هو متعارف عليه، كانت ليه تسير تحت شجرة توت فى بستانها وتصادف أنها التقطت شرنقة بيضاء من بين الأوراق. وبينما هى تلهو بها سقطت فى كوب الشاي الذى أمامها بالصدفة. ووجدت ليه أن بإمكانها سحب خيط أبيض طويل منها. والواقع أننا لاندري كيف ولا متى بدأت تربية دودة القز. ولكن الشئ المؤكد هو أنه بحلول الألف الثانية قبل الميلاد، عندما كانت الصين تخطو خطواتها الأولى نحو عصر التاريخ المسجل، كانت تربية دودة القز قد ترسخت.

ورغم بساطة تقنيات تربية دودة القز الشديدة، ظل الغرب جاهلاً بها لقرون عديدة. وخيوط الحرير عبارة عن ألياف ينتجها نوع معين من الدود أثناء تشكيله الشرائق، التى تعد مخابىء يحتوى فيها. وفى هذه الشرائق يتحول الدود إلى فراشات. وفى خلال عدة أيام تفرز دودة القز أليافاً شديدة الوهن تلفها حول نفسها على هيئة الرقم "8". وبعد فترة تتراوح بين عشرة أيام وخمسة عشر يوماً تخرج دودة القز من الشرنقة فى صورتها الجديدة كفراشة، مالم يحدث مايعوق هذه العملية. وتتقطع الخيوط أثناء ذلك. وهذه الخيوط المقطعة تستخدمها ثقافات كثيرة فى غزل خيوط حريرية خشنة. إلا أن الصينيين وجدوا طريقة للحفاظ على الخيوط سليمة. فعن طريق وضع الشرائق فى ماء مغلى وتقليب الماء بعضاً متشعبة، أمكنهم إذابة البروتين الصمغى المسمى «سيرسين» الذى يمسك بالخيوط معاً.

وأتاح لهم ذلك فك الألياف على هيئة خيوط متصلة يبلغ طول الواحد منها أكثر من نصف ميل.

ولكن الخيوط التي فُكت كانت أرق وأرفع من أن تستخدم منفردة. لذلك كانت تفك خيوط أكثر من شرنقة في وقت واحد وتضم إلى بعضها لتصبح خيطاً واحداً. وهذه العملية، وتسمى «اللف»، كانت دقيقة وتأخذ الكثير من الوقت، لأن الخيوط دائماً أقل سُمكاً وأشدّ وهناً عند الأطراف وتحتاج إلى توصيلها ببعضها بحرص شديد. ومع ذلك كانت معظم الخيوط تظل ضعيفة، مما أوجب برمها معاً في عملية أخرى تسمى «الغزل»، حيث يتفاوت أسلوب البرم ومقداره تبعاً لنوع الخيط المطلوب.

وكان الخيط المغزول يلف بعد ذلك على هيئة شلات. (في العصور الحديثة تُقتل الشرائق في الغالب بتعريضها للبخار أو الهواء الساخن، وغالباً ما يبقى السيرسين إلى مرحلة لاحقة، حيث يتمتع الحرير الخام بقوة أكبر أثناء عمليتي اللف والغزل. وبعد ذلك يمكن التخلص من السيرسين في العادة بغلى خيوط الغزل أو الأقمشة المنسوجة أو صباغتها، وكلاهما له نفس الأثر).

وكانت مخلفات الحرير، وخاصة من الشرائق المعطوبة أو الخيوط المقطعة، تمشط وتغزل أيضاً، وإن كان الغزل الناتج عن ذلك (شأنه شأن الحرير الخشن) أقل شفافية ولمعاناً من أنواع الحرير الفاخرة. وكانت نفايات الحرير، التي لاتصلح حتى للغزل، تستخدم كمادة عازلة في الملابس الشتوية، وهو ما يشبه البطانة الوبرية في المعاطف الحديثة. وغالباً ما كان يُستفاد من طور العذراء، وهو ما بين طورى الدودة والفراشة، بتحميمه وأكله. ولكن الحرير الناعم اللامع الذي استُخدمت في صنعه الخيوط المتصلة هو الذي جعل التجار يقطعون مسافة تقدر بنصف الكرة الأرضية.

وتتطلب تربية دودة القز الكثير من المهارات والمعرفة وتقدير الوقت والصبر والدقة. فدودة القز مخلوق مطالبه كثيرة. ودودة *Bombyx mori* هي أكثر الأنواع شيوعاً وتنتج أفخر أنواع الحرير الصيني وأكثرها بياضاً. وهي تعيش على أوراق التوت الأبيض، حيث تلتهم كميات كبيرة من هذه الأوراق لمدة تزيد على الشهر. وما تأكله يومياً يعادل وزنها تقريباً. وخلال هذه المدة تغير جلدها أربع مرات، قبل دخولها في مرحلة الشرنقة. وبعض أنواع الدود تنتج حريراً ملوناً. وتتفاوت الألوان تبعاً لغذاء الدودة. ودودة القز شديدة الحساسية بالنسبة لتطرف درجات الحرارة والضوضاء وكذلك الروائح. والذين كانوا يرعون

دودة القز كان عليهم أن يوفرُوا البيئة الملائمة بكل دقة وأن يعرفُوا بالضبط الوقت الذى يقتلون فيه الفراشة التى لم تكتمل داخل الشرنقة. إلى جانب تمتعهم باللمسة الرقيقة التى يحتاجها فك الخيوط الواهية.

وتتجلى أهمية تربية دودة القز عند الصينيين فى جعل النساء فى كل أسرة، بما فى ذلك الإمبراطورات والأميرات، مسئولات عن إنتاج الحرير. وكان هناك جزء معين من كل مزرعة أو بستان يجنبه أصحابها ليكون «أرض التوت». وفى هذا المكان تقدم الرعاية لأشجار التوت وتقطف الأوراق الصغيرة الغضة وتقدم طعاماً لدودة القز. وفى فترات كثيرة من تاريخ الصين كان يمكن دفع الضرائب حريراً. لذلك كانت ثروة الأسرة تقوم على موهبة النساء وجهودهن فى تربية دودة القز. وكانت شلات الحرير تجمع فى ورش تسيطر عليها الدولة، حيث تنسج وتتحول إلى لفائف من قماش ذى عرض ونقش محدد تفرضه الموضة الصينية، ثم الأسواق الأجنبية فيما بعد. وجرى العرف أيضاً على إرجاع الفضل إلى سى لنج تشى فيما يتعلق باختراع النسيج. ومن المؤكد أن النساجين الصينيين أنتجوا بعض الأقمشة الفاخرة التى لا مثيل لها من هذه الخيوط الحريرية الرقيقة. ورغم انتشار تربية دودة القز فى كل بيت من بيوت الصين، فإن السر لم يتعد سور الصين العظيم طوال عدة قرون. ولم يصل إلى الغرب حتى القرن السادس الميلادى. وبذلك تبدو أهمية الاحتكار الصينى.

فى الألفى سنة الثالثة والثانية قبل الميلاد، عندما كانت شعوب الصين والهند وغرب آسيا فى سبيلها للتوصل إلى أسلوب جديد للحياة أكثر استقراراً، كانت تزداد بعداً أكثر من أى وقت سبق عن الشعوب البدوية فى آسيا الوسطى. فى تلك العصور القديمة زادت حدة التوتر بين السهوب والأراضى الزراعية، بين الرعاة والفلاحين، بين السهول والمرتفعات، بين المدينة والريف. وكان وراء ذلك توتر بين من يعرفون القراءة والكتابة والأمين. وكانت معرفة القراءة والكتابة ماتزال أحد ملامح الحياة فى المدينة. وبالنسبة لأهل بابل وسومر، الذين يحتمل أن يكونوا أول من ابتكر الكتابة^(١) فى الألف الرابعة قبل الميلاد، كانت المدنية تنتهى عند جبال زاغروس. (وإن كان من المثير أن نعرف أن السومريين قد يكونون فى

(١) بدأ الخط السومرى برسم الأشياء ثم بُسّطت الرسوم وحُولت إلى رموز. وبعد ذلك استُخدم الرمز الخاص بكلمة شائعة للدلالة على جميع أصوات هذه الكلمة. وأدى التمثيل الصوتى إلى ابتكار رموز كتابية للغة بالكامل. وأقدم كتابة تصويرية تعود إلى سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد. (المترجم).

الأصل مهاجرين من آسيا الوسطى). وغالباً ما كان الصينيون أيضاً يرون الأقوام التي وراء حدودهم برابرة، وكانوا يقارنونهم بالكلاب والحشرات. ولم يسلم علماء الآثار الأوائل من وجهة النظر هذه، خاصة أن القليل الذي عرفوه عن قبائل البدو في تلك الحقبة غير الواضحة وصلهم من الكتابات المتناثرة التي تركتها ثقافات السهول المستقرة.

ولكن الرعاة الذين احتقروهم كانوا يساهمون في الحضارة، وفي قصتنا عن طريق الحرير، في أوائل الألف الثانية قبل الميلاد. وكان استئناس الجمل أهم شيء بالنسبة لمسافري المسافات الطويلة على طريق الحرير. والجمل، وهو حيوان لا حظ له من رشاقة المظهر، يتمتع بقدرة غير عادية على السير عدة أيام بلا ماء، وهو أمر ضروري للسفر في الصحراء. والجمال تحتاج أيضاً إلى قدر يسير من الطعام. فهي تعيش فترات طويلة على أقل قدر من أكثر نباتات الصحراء خشونة. فهي تسحب مخزونها من الدهون الموجودة في سنامها المميز. والسنام هو أوضح ما يميز النوعين الرئيسيين من الجمال: فالجمل العربي لديه سنام واحد والبلخي له سنامان. وكتب كوو يثو الكاتب الصيني من القرن الثالث الميلادي وصفاً رائعاً يمكن أن ينطبق على كل من الجمل العربي والجمل البلخي:

الجمل حيوان مستأنس غير عادي. إنه يحمل سرجاً من اللحم فوق ظهره. وهو ينطلق بسرعة على الرمال المتحركة. ويظهر فضله في الأماكن الخطرة ولديه معرفة خفية بالعيون والبنابيع. والواقع أن معرفته تتسم بالحدق والمهارة!

ولا يُعرف على وجه الدقة متى رُوضت الجمال كي يستخدمها الإنسان ولا أي الأنواع استؤنست أولاً. وربما جرى بالجمال ذى السنامين من موطنه الأصلي في المنطقة المحيطة ببلخ إلى بلاد ما بين النهرين في أول الأمر. ولكن إذا كان هذا هو ما حدث فإن استخدامه لم يدم هناك. فالجمال ذو السنامين تكيف بصورة غير عادية مع الأراضي الرملية والأراضي شديدة الوعورة في آسيا الوسطى، وكذلك مع تطرف درجات الحرارة في تلك المنطقة. وهو أقصر طولاً من الجمل العربي وجسمه أكثر امتلاءً، وتكون له طبقة كثيفة من الوبر في الشتاء يتجرد منها كل ربيع على هيئة خصلات كبيرة. أما الجمل العربي فقد استؤنس حوالى سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد. وهو أكثر ملاءمة لظروف الشرق الأدنى وشمال أفريقيا. وهكذا اقتسم النوعان العالم تقريباً، أو طريق الحرير على الأقل. فكلاهما يتمتع بقدر غير عادي من السرعة والتحمل. كما أن الجمال تتمتع أيضاً ببعض الصفات التي توفر لها الحماية وتحتاج

إليها احتياجاً شديداً في الصحراء، حيث العواصف الرملية تهب كل يوم. فعين الجمل لها جفنان. ويمكن للجمال أن تغلق أنوفها لمنع دخول الأتربة. وحتى الأذان بها حاجز من الشعر عند فتحاتها. وحاستا الإبصار والشم لديها أنقذتها ومن معها من المسافرين، الذين كادوا يموتون من الحر والعطش، حيث ساعدتهم على تحديد مواقع الماء عن طريق رائحة الخضرة الضعيفة التي تحملها الرياح.

والواقع أن الجمال كانت على قدر كبير من الفائدة، حتى أن الرحالة الآسيويين كانت لديهم الرغبة في التعرف على شخصياتها التي لا ينكر أحد صعوبتها. وعندما لا تكون الجمال قد أحسن السيطرة عليها أو تدريبها، أو عندما تغضب أو تكون في موسم التزاوج، فإنها تصبح شديدة الخطورة، فتتفلس ذلك البائس الذي أثار غضبها أو تعضه أو تبصق في وجهه. وربما يخدع مظهرها الإنسان غير الحذر، وهو ما أدركه آرثر كانون دويل^(١) عندما كان يستعد للقيام برحلة بالجمال في الشرق الأدنى في بداية القرن العشرين:

[الجمال] أغرب حيوانات العالم وأكثرها خداعاً. فمظهره يتسم بهدوء واحترام لا يجعلانك تصدق أن تحتكما ذلك القدر من الشر الأسود. إنه يقترب منك بأسلوب محبب فيه سمو، كأي سيدة ذات أصل طيب في إحدى مدارس الأحد. كما تشعر أن ما ينقصه هو نظارة في طرف مروحة. وبعد ذلك يمد شفثيه برفق للأمام، مع نظرة بعيدة في عينيه. ولا يسعك وقتها إلا أن تقول: «هذا الحبوب الجميل سوف يقبلني». ولكن ما إن يصطك أمامك صفان من الأسنان الخضراء المخيفة حتى تجد نفسك تقفز للخلف قفزة لم تكن تحلم بها وأنت في عز شبابك. ويسقط القناع لا يكون هناك ما هو أشد بشاعة من وجه جمل. ولا يبدو أن أي قدر من اللطف معه أو طول مدة امتلاكه يمكن أن يجعله أليفاً. ومع ذلك لا بد من التماس بعض العذر لمخلوق يحمل ٦٠٠ رطل يسير بها ٢٠ ميلاً يومياً ثم لا يطلب إلا القليل من الطعام ولا يسألك أي قدر من الماء.

وكان المسافرون في العالم القديم يلتمسون العذر للجمال. وكان الجمال الخبراء في

(١) روائي إنجليزي ابتدع شخصية شيرلوك هولمز، وكانت له اهتمامات بالتاريخ وكتب عدة روايات تاريخية وهي ما أراد أن يعرفه الناس به وليس بالقصص البوليسية. توفي سنة ١٩٣٠. (المترجم).

التعامل مع هذه المخلوقات العنيدة يلقون قدراً كبيراً من الاحترام والتبجيل . إذ كانوا، مثل الجمال التي يرعونها، صنفاً مختلفاً من البشر . وكانوا يتوارثون خبرتهم جيلاً بعد جيل . وكانت الجمال نفسها تلقى تقديرًا كبيراً لدى بعض الشعوب، حتى أن إيذاءها يأتي ضمن المحظورات . ووجد أوين لاتي مور أثناء سفره في السهوب المغولية في بداية القرن العشرين أن :

رجال القوافل لا يمكن أن يذبحوا جملاً أو يأكلوا لحمه أو يبيعوا جلده . وإذا أصاب الوهن أحد الجمال، بحيث لا يمكنه متابعة القافلة، فإنهم يتركونه على جانب الطريق ليموت . ولا يقتله صاحبه، خوفاً من أن تلحق روحه بالقافلة وتسكن الجمال الأخرى .

ولاندرى إن كان الحظر يعود إلى أزمنة قديمة أم لا . فلا يبدو أنه كان مطبقاً في غرب آسيا . كما لم يكن شائعاً في آسيا الوسطى . ففي أوقات الشدة كان رجال القوافل يشربون في بعض الأحيان دم الجمل أو حتى بوله ويأكلون لحم الجمل الذي ينفق في الطريق أو يقدمون الجمل الضعيف لجباة الضرائب والمكوس المحليين، على سبيل الرشوة .

ولكن إذا كان قد قُدر للجمل بعد استئناسه أن يكون دعامة السفر في آسيا، فإن الحصان هو الذي ساعد على إحداث ثورة في أوراسيا . وكان الحصان هو الملكية المميزة للبدو في آسيا الوسطى . وطوال الألف الثالثة قبل الميلاد كان هؤلاء الرعاة يهذبون الحصان ويولّدون حيوانات أكبر حجماً وأشد قوة . وفي وقت ما بعد سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد كانت هذه السلالات القوية قد ربطت في نوع جديد من العربات اسمه العَجَلَة . وكانت الدواب الأخرى تستخدم، بدرجات متفاوتة من النجاح، في جر عربات ثقيلة بطيئة الحركة لها عجلات مصممة في بلاد ما بين النهرين منذ سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد تقريباً . وبحلول سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد تقريباً، انضمت العربات ذات العجلتين إلى تلك العربات ذات الأربع عجلات . وكانت العربات ثقيلة الحركة مصممة بحيث تحمل سائقاً يقودها ومحارباً يقاتل بالرمح أو البلطة أو النشاب . ولكن في أوائل الألف الثانية قبل الميلاد، ربطت شعوب آسيا الوسطى الحصان في نوع جديد من العربات يتمتع بقدرة أكبر على المناورة . وسرعان ما أصبح أخف وزناً باستعمال العجلات ذات البرامق . وزاد على ذلك أن بدو آسيا الوسطى ابتكروا قوساً مركباً صمم بحيث يمكن إطلاق سهامه بدقة وقوة من على مركبة تتحرك

بسرعة. وكان هذا النوع أرقى بكثير من القوس والنشاب العاديين. وهذه التركيبة منعت أى إنسان من الوقوف فى وجه هؤلاء البدو فترة من الزمن.

ولكن الهدوء النسبى الذى شهدته الألف الثالثة قبل الميلاد، بما فيها من تجارة طويلة المدى تميزت بها بداية العصر البرونزى، مزقته موجة من الغزاة من داخل آسيا. وعندما ظهرت لأول مرة فى غرب آسيا لم تكن الخيل مألوفة، مما جعل ضحايا هذه الهجمات تعساء الحظ يطلقون عليها «حمير الجبال». ويتردد صدى ذكريات الدمار الذى أحدثه راكبو العربات المغيرون فى العهد القديم وفى كثير غيره من السجلات التى تعود إلى الألفين الثانية والأولى قبل الميلاد. وهاتان اثنتان فقط من المراتب الكثيرة:

... فإذا هم بالعجلة يأتون سريعاً... الذين سهامهم مسنونة وجميع قسيهم ممدودة. حوافر خيلهم تحسب كالصوان ويكراتهم كالزوبعة.

اشعيا ٥ : ٦ - ٢٨

... وزحف مهلك الأمم. خرج من مكانه ليجعل أرضك خراباً. تخرب مدنك فلا ساكن... هو ذا كسحاب يصعد وكزوبعة مركباته. أسرع من النسر خيله. ويل لنا لأننا قد أخربنا.

ارميا ٤ : ٧ - ١٣

وكان للعجلة والقوس المركب أكبر أثر مدمر عندما استخدمتها القبائل البدوية التى يطلق عليها بصورة عامة هندوأوروبية. وهؤلاء قوم متعددو الأجناس يشتركون فى اللغة وقدر كبير من الثقافة. وفى تلك الفترة انطلقوا فى كل الاتجاهات من السهوب الروسية شمالى البحر الأسود. ويعد أن تفرق الهندوأوريون فى اللغة والثقافة والأرومة، عندما انتصروا على شعوب أخرى واختلطوا بها، أصبحوا البلاء الذى أصاب أوراسيا فى تلك العصور المظلمة. ونجاحهم على مدى الألف سنة التالية تؤيده حقيقة أن معظم سكان أوروبا وإيران والهند يتحدثون بلغات بينها صلات مشتركة مشتقة من هؤلاء القوم، ومن ثم اسمهم وهو «هندوأوروبى». وحدث فى الألفين الثانية والأولى قبل الميلاد أن سيطروا على جزء كبير من آسيا أيضاً، بما فى ذلك السهوب الأوراسية وحوض التاريم. وما الحثيون^(١)

(١) قوم قدموا إلى آسيا الصغرى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد من أوروبا أو جنوب روسيا. واستطاع ملكهم مورشيلي الأول أن يحتل سوريا ويحرق على بابل ويقضى على سلالة حمورابى. (المترجم).

واليونان والسيث^(١) والسلاف^(٢) والبلط^(٣) والجيرمان والكلت^(٤) والأرمن إلا بعضاً من الهندوأوربيين الذين اندفعوا نحو أوروبا وغرب آسيا. وتحرك السيث أيضاً نحو الشرق. وكذلك فعل الإيرانيون والهنود (الآريان) وغيرهم من القبائل التي لاحصر لها.

وكان الهندوأوروبيون أبعد مايكونون عن الشعب الموحد. وتبعاً للنمط القديم الخاص يبدو السهوب، كانوا أشبه بأولاد العم الذين يتشاجرون داخل عشيرة كبيرة مختلطة. وكان الأقوى هو الذي يسيطر على أفضل الأراضي. وفي أوقات زيادة السكان والقحط والتفوق التكنولوجي، أو مجرد الرغبة في التوسع، كانوا يدفعون بالأضعف إلى الأراضي الأقل أهمية. وكانت نتيجة ذلك موجة تليها أخرى من الهجرات في كل الاتجاهات من أراضي السهوب المفضلة شمالى البحر الأسود وبحر قزوين، مع هجرات أقل تحدث كتتابع لها في أنحاء أوراسيا. حيث إن نفس النمط يكرر نفسه في أنحاء اليابسة. وهذه هي قصة جزء كبير من أراضى آسيا في الألفين الثانية والأولى قبل الميلاد. وحيث إن قبائل البدو كانت لاتعرف القراءة والكتابة، فإننا نعلم في معرفة القصة بصورة كبيرة على آثار موجات المهاجرين على الشواطئ الأكثر استقراراً الذين يعرفون القراءة والكتابة، في الصين والهند وإيران وبلاد ما بين النهرين وسوريا والأناضول وكذلك أوروبا. وهذه القصة تعبر بنا الحدود الوهمية بين ما قبل التاريخ والتاريخ.

ففي سنة ١٦٠٠ قبل الميلاد تقريباً كان النصف الغربى من طريق الحرير يعانى من وطأة الاجتياح الإيراني لأراضى بلاد ما بين النهرين والهند التي تتمتع بالثراء والاستقرار. وسقط ورثة مملكتى سومر وبابل أمام راكبي العجلات الإيرانيين وأقاربهم الأبعدين من الحشيين الذين اندفعوا من هضبة الأناضول. وسقطت حلب، التي كانت أقوى مدينة على طرف طريق الحرير عند البحر المتوسط. أما بابل فقد دُمرت وسُلبت نفائسها. وفي ذلك العصر المظلم هاجرت أقوام كثيرة من الهلال الخصيب إلى مصر. (أطلق المصريون على المهاجرين البدو اسم «عابىرو» التي حُرقت بعد ذلك إلى «عبرى» واقتصرت فقط على مجموعة واحدة، هم اليهود). ولم تكن مصر نفسها بمنأى عن الهجمات المدمرة، وإن استعادت استقلالها على وجه السرعة. أما الهند فكانت أسوأ حظاً. فحضارتها العظيمة التي تقوم

(١) أهل سيثا التي سبق ذكرها. (المترجم).

(٢) مجموعة عرقية في وسط أوروبا وشرقها تشمل الروس والصرب والكروات وغيرهم. (المترجم).

(٣) سكان المنطقة التي تعرف الآن بجمهوريات البلطيق، وهي إستونيا ولاتفيا ولتوانيا. (المترجم).

(٤) شعب هندوأوروبى يمثل الآن أهل أيرلندا وويلز. (المترجم).

على الأنهار، وتتركز في وادي نهر السند، وكانت لها علاقات تجارية برية وبحرية مع سومر، دُمرت تماماً ولم تستعد ازدهارها إلا بعد عدة قرون.

وتشبه خريطة النصف الغربي من طريق الحرير، طوال بقية الألف الثانية قبل الميلاد، الكاليدوسكوب^(١) الذي تتغير الأشكال داخله كلما حركته. غير أن الغلبة لم تدم للهندوأوروبيين. فسرعان ما أدخلت ثقافات بلاد ما بين النهرين الراقية أسلوب العجلة ضمن عدتها الحربية.

والواقع أنه كانت بها أعداد تزيد عما لدى قبائل البدو في السهوب من الصنّاع المهرة، وهم صانعو العربات والعجلات والسروجية والحدادون. كما أنها وُكِّدت خيولها الخاصة بها. فما يُعرف بالحصان العربي وُلِّد من سلالة من آسيا الوسطى. كما وفرت ماتحتاجه من أخشاب ومعادن لصنع العجلات الحربية. وحيث إن كليهما متوافر في الهضبة الإيرانية أو بلاد بعيدة في الشرق، فإن شعوب السهول كانت لها جهود متواصلة لتأييد الطرق الموصلة إلى مرتفعات إيران، للحصول على احتياجاتها الحيوية.

وكانت لغة التجارة المستخدمة على هذا الطرف الغربي من طريق الحرير هي الأكادية، لغة بابل القديمة. وظلت مستخدمة لفترة طويلة. وفي الغالب كانت الترتيبات التجارية طويلة المدى تسير حسب أنماطها القديمة، وإن كانت كثيراً ماتتوقف في تلك الأوقات المضطربة. ويأتي القصد في مقدمة الموارد التي يشتد عليها الطلب. إذ كان يستخدم لخلطه بالنحاس لعمل البرونز، الذي كان مايزال أبرز المعادن في ذلك الوقت. (كان القصد مهمماً جداً في تلك الفترة المتأخرة من العصر البرونزي لدرجة أن بحارة الشرق الأدنى كانوا يجوبون كل أنحاء البحر المتوسط ويتجهون إلى كورن وول في الجزر البريطانية بالمحيط الأطلسي لتوفير واردات إيران المحدودة من هذا المعدن). وكان الصنّاع التجار الذين يعملون على طول النصف الغربي من طريق الحرير والطرق الفرعية القريبة يشترون المعادن الخردة ويصنعون منها أدوات نافعة وحلياً ثم يبيعونها.

فيما يتعلق بالألف الثانية قبل الميلاد، عندما كانت آسيا على أعتاب عصور تاريخية

(١) آلة بصرية بداخلها قطع من الزجاج والورق والخزير الملون في مؤخرة أنبوب دوار. وعند النظر إليها من خلاله تتغير أشكالها باستمرار لتكون صوراً متناسقة بسبب انعكاسها على ثلاث مرايا كل منها موضوعة أمام الأخرى بزاوية ٦٠ درجة. (المترجم).

مهمة، لم تصلنا سوى بعض الصور المتباعدة غير الواضحة عما كان يحدث فى النصف الشرقى من طريق الحرير. ومن المؤكد أن الصين تطلع علماء الآثار المحدثين على دلائل الاتصالات مع أهل الغرب. ففى منتصف الألف الثانية قبل الميلاد كانت الصين، ونقصد بها تلك الأرض الواقعة على نهر وى وأعالى نهر هوانج، تحت حكم أسرتى شيا وشانج وهما أول الأسرات الأسطورية التى قدم علم الآثار لنا معلومات عنها، وإن كانت التواريخ الثابتة قليلة. وفى تلك الفترة كان فخار الصين المزخرف بالمشط شديد الشبه بفخار سيبريا والجزء الأوروبى من روسيا. ومن الواضح أن الصينيين بدأوا فى استخدام العجلات الحربية. والشئ المثير هو أنهم ربما بدأوا فجأة فى استخدام البرونز. وربما يكونون قد تعلموا تشكيل البرونز من شعوب آسيا الوسطى، خاصة تلك التى كانت تعيش فى السهوب الأوراسية. ويوضح عالم الصينيات المشهور رينيه كروسيه ذلك فىقول:

... العديد من نصال السهام بالغة القدم التى اكتشفت فى الصين... تبدو من أصل سيبرى. بل إن العديد من المزهريات القديمة التى تعود إلى عهد شانج تكشف عن تقليد ساذج لأشغال خشبية، حيث نسخ عامل البرونز نمودجه بأمانة، لدرجة تقليد الخدوش وآثار السكين. ويبدو أن الصينيين، عندما واجهوا التقنيات السيبرية فى تشكيل المعادن، كان عليهم أن يأخذوا مزهرياتهم الصلصال القديمة ومزهريات الطقوس الخشبية ويحولوها إلى برونزية بين عشية وضحاها.

وبغض النظر عن بداية تشكيل البرونز فى الصين، ابتكر عمال شانج فناً جميلاً من تماثيلهم ومزهريات الطقوس المعدنية. وهو فن نادراً ما كان له نظير، فى الصين أو أى مكان آخر من العالم. كما أنه يتميز كثيراً بنمط خاص به من أشكال الحيوانات، وهى فكرة يحتمل أنهم أخذوها من شعوب آسيا الوسطى لجعلوها خاصة بالصين بعد فترة وجيزة. واستمر هؤلاء الصناع المهرة الصينيون فى العمل فى اليشب، الذى ظل على ما يبدو يأتيهم عبر طرق حوض التاريم.

وفى ظل حكم أسرة شانج كانت الصين دولة توسعية. ولم يكن الناس يطلقون على بلدهم اسم الصين. فمن الواضح أن هذا اسم غربى أطلق عليها فيما بعد. وإنما كانوا يسمونها «المملكة الوسطى»، وهى المنطقة الوحيدة الصالحة للسكنى وسط البرية الموحشة.

ولكن شعب شانج انبرى لتغيير ذلك كله. فقد انطلقوا فى كل اتجاه من قلب الأرض الصينية ليغزوا القبائل شديدة التباين فى المنطقة ويبتلعوها على مر القرون، حيث انصهرت فى بوتقة الأمة التى نعرفها الآن باسم الصين. ويعلق رينيه جروسيه على الصين القديمة قائلاً:

... إذا كان على المرء أن يقارن تاريخ الصين بتاريخ أى مجتمع إنسانى عظيم آخر، فلا بد أن يتجه إلى كندا أو الولايات المتحدة. ففي كل من الصين وأمريكا كان الاهتمام المبدئى والأساسى، بعيداً تماماً عن التقلبات السياسية، هو غزو مساحات شاسعة من الأراضى البكر باستخدام شعب مكافح لم يجد أمامه سوى أقوام شبه بدوية.

. ولم تكن هذه العملية سريعة كما حدث مع الأمريكيين الذين انتهوا منها خلال ثلاثمائة سنة فقط. ففي الصين احتاج دمج البلاد لتصبح وحدة ثقافية واحدة، الجزء الأكبر من فترات امتدت ٤ آلاف سنة.

وكان توسع شانج انتقائياً كذلك. حيث بدأ بالأراضى الواقعة على طرق التجارة الرئيسية. وليست مصادفة أن كلمة «شانج» تعنى «تاجر». ومن أشد الأسر الرائدة وأقواها فى ذلك الوقت عشيرة تشو التى اتجهت إلى ماكان وقتها الحدود الصينية على نهر وى. وتقول الأسطورة أنهم جعلوا قبائل الصيد والالتقاط هناك «تحرث الأرض وتبذر الحب». ولم يكن طريقهم سهلاً واضطروا أكثر من مرة إلى الانسحاب من أراضيهـم الزراعية عالية الجودة، الواقعة بالقرب من المكان الذى ستقوم عليه تشانج آن فيما بعد، ليعودوا إلى نهر هوانج.

ولكن تشو أصبحت شديدة القوة على مر ثلاثة قرون من الكفاح ضد «البرابرة»، حتى أنه عندما أنجيت أسرة تشانج طاغية لا يـحتمل فى منتصف القرن الحادى عشر قبل الميلاد، قادت تشو تمرداً ناجحاً قضى على أسرة تشانج وافتُتح عهد أسرة تشو. وطوال ثلاثة قرون ظلت حاضرة تشو فى وادى وى إلى أن أخرجهم منها «برابرة الغرب» سنة ٧٧١ قبل الميلاد واضطروا إلى اتخاذ عاصمة أبعد منها ناحية الشرق بالقرب من لويانج فى أرض وادى هوانج القديمة. والمؤكد أن عيونهم كانت على الغزاة المحتمل قدومهم من الغرب.

والواقع أن الشىء المتعارف عليه هو أنه ربما بقيت أسرة تشو فترة أطول، لو لم يطلب الإمبراطور العيون مرات عديدة بلا داع. فكانت الإشارات النارية التى يقصد بها تنبيه الجيش

تضاء كثيراً لتسليّة عشيقّة الإمبراطور. وعندما كان هناك هجوم حقيقى، لم يستجب الجيش. وتقول القصة إن عاصمة تشو سقطت فى أيدي الغزاة.

وفى عهد تشو أوليت الطرق اهتماماً كبيراً، حيث كانت الطرق الواسعة للخارج والتجارة والطرق السريعة للإدارة والرقابة. وتشير قصيدة من القرن التاسع قبل الميلاد إلى الرعاية التى حظيت بها تلك الشرايين الحيوية:

طرق تشو [ناعمة] كحجر المسن

مستقيمة كالسهم

طرق حيثما يمر السادة والمسئولون

طرق حيثما ينظر عامة الشعب

واعتمد كافة السادة والمسئولين والجنود على العجلات لتسير بهم بسرعة فى أنحاء الأرض. وكانت الواحدة من تلك المركبات المفتوحة من الخلف تحمل سائقاً ورماحاً وقواسماً، وجميعهم يرتدون دروعاً ذات ألوان زاهية ويحملون أعلاماً ملونة متطايرة. وكان يجر العجلات فى العادة أربعة من الخيول القصيرة قوية العضلات لكل منها شكيمة مزينة بأجراس دقيقة الحجم. وهذه الأجراس استُخدمت فيما بعد لتزيين الجمال. وحتى السادة فى البلاط كانوا يضعون زينة من اليشب على أحزمتهم لتحدث «صليلاً منغماً». وقد بدأ استخدام الجمال ذات السنامين، التى أطلق عليها الصينيون «جمال الجبل» أو «حاملو الأكياس»، فى الصين فى بداية الألف الأولى قبل الميلاد أيضاً.

وفى ذلك الوقت كان الحرير يسيطر على الطرق الصينية الداخلية، حتى أنه كان يستخدم كوسيلة مشتركة للمقايضة. ولكننا لانستطيع تأكيد إذا ما كانت تجارة الحرير مع قبائل البدو فى آسيا الوسطى، مقابل اليشب أو الخيل أو الجمال أو الذهب - وجميعها كانت تأتى من خارج الصين - قد بدأت أم لا. رغم أن هذا الاحتمال يبدو قوياً.

وفى عهد أسرة تشو كانت «الصين» ببساطة يلدأ صغيراً ريفياً فى المقام الأول، تحيط به العديد من الإمارات الصغيرة التى كان لكل منها حاكمها وطرقها وممارساتها. إلا أنها كانت تشترك فى شىء من اللغة والثقافة. ولكن أسرة تشو حكمت الطريق الرئيسى المتجه غرباً. ورغم أنهم كانوا عرضة للهجوم من ذلك الإقليم، ف يبدو أنهم أبقوا على خطوط الاتصال مع أقطار آسيا الوسطى مفتوحة. وكان الإمبراطور مو الأسطوري أحد أفراد عشيرة تشو.

وتتضمن القصص التاريخية التي تعود إلى العصور القديمة العديد من الإشارات المشوقة إلى زوار جاءوا من الغرب حاملين هدايا جديدة، ربما كان بينها قماش من الحرير الصخري (اسبستوس) المصنوع من ألياف معدنية وجدت في جبال شمال شرقي أفغانستان، في الإقليم الذي يسمى بذخشان، حيث يستخرج اللازورد أيضاً. ويصف «كتاب العجائب»، وهو كتاب صيني قديم ربما يعود إلى عهد تشو، أحد الجبال الذي «يفتقر إلى الخضرة ولكنه يحتوى على كميات وفيرة من اليشب الأبيض والأخضر. أما فيما يتعلق بحيواناته، ففيه أعداد كبيرة من الجمال». كما يشير أيضاً إلى أن اليشب يظهر على «الجانب المشمس» لجبل قريب. بينما «توجد على الجانب المظلم كميات ضخمة من الحديد». وهذا الوصف فيه تلميح قوي إلى تركستان الصينية، خاصة المنطقة المحيطة بخوتان. ولكننا لانعلم الكثير عن الطرق الواقعة في حوض التاريم في تلك القرون، التي كان فيها الهنود وأوروبيون من الغرب يجتازون القارة في طريقهم إلى حدود الصين.

وتوحي أساطير الهضبة الإيرانية بوجود اتصالات مع الصين في تلك الفترة. ففي حوالي سنة ألف قبل الميلاد بدأت موجة جديدة من الإيرانيين تعبر الهضبة الإيرانية، في ذلك الوقت الذي يفترض أن الإمبراطور مو الصيني زار فيه الأم الملكية الغربية. ومع أن أساطيرهم ليست أكثر نفعاً، كسجلات تاريخية، من حكايات الرحلات الصينية القديمة، فهي تحمل إشارات إلى معارف الصين منذ أقدم العصور وتوحي بما هو أكثر من ذلك. ويقال إن الملك الإيراني القديم جمشيد تزوج ابنة الملك ماتشين (الصين العظيمة). ويقال إن الملك نفسه لاحقه أعداؤه في أراضى الصين والهند. ويقال إن ملكاً إيرانياً آخر أوصى لثاني أبنائه بأجزاء من آسيا الوسطى والصين. وتشير الأساطير إلى أنه أعطى ابناً آخر جزءاً من الصين وخوتان عند زواجه. ويُفترض أن بطلاً ملكياً آخر من الإيرانيين أسر إمبراطور الصين على فيله الأبيض. وفرض ثالث سطوته على حكام الصين وآسيا الوسطى. إلا أن رابعاً طارد أحد حكام آسيا الوسطى حتى عاصمته وذبحه فيها.

ومن المحتمل أن الإيرانيين، عندما أشاروا إلى البلاد الشرقية، كانوا يتحدثون عن أقاليم تقع في أقصى الغرب من الصين بمعناها الضيق داخل آسيا الوسطى (كما سيحدث في عصور لاحقة)، مع أن هذه الأراضى لم تكن واقعة تحت النفوذ الصيني المباشر. ولكن انتشار هذه الأساطير وورود حكايات الرحلات الخاصة بآسيا الوسطى عند طرفى حوض التاريم يجعل وجود اتصالات تجارية، وربما سياسية - استمرت زمناً طويلاً على امتداد النصف الشرقي من طريق الحرير - أمراً محتملاً. وإذا كان الأمر كذلك، فقد قطعت هذه

الاتصالات منذ ثلاثة آلاف سنة مع بداية الألف الأولى قبل الميلاد، حيث هب بدو آسيا الوسطى من جديد.

مرة أخرى احتل الحصان مركز الصدارة في ثورة جديدة. فطوال الألف الثانية قبل الميلاد كان الرعاة البدو في آسيا الوسطى يجرون التجارب على ركوب الخيل. ولم تكن تلك مهمة يسيرة. فهذه المخلوقات القوية المبتهجة ذات العقل المستقل تقاوم هذه العملية بشدة. ولكن قبائل البدو لم تكن وحدها فيما تبذله من جهد. إذ حاول آخرون في الشرق الأدنى ركوب الخيل في المعارك وأثناء الصيد. ولكن ممارسة ذلك لم تكن على نطاق واسع. ولعل السبب هو صعوبة القيام بأى شئ سوى الركوب. مع التسليم بعدم وجود سرج أو ركاب لمساعدة الراكب على البقاء على ظهر الحصان. وكانت شكيمة اللجام المزينة، التى ربما ابتكرت لاستعمالها فى العجلات الحربية، هى وحدها التى أتاحت للراكب قدراً من السيطرة على الحصان. ولكن بحلول سنة تسعمائة قبل الميلاد كانت قبائل البدو فى سهوب غرب آسيا الوسطى قد تعلمت كيف تتحكم فى خيولها وتوجهها باستخدام النصف الأسفل من الجسم، بحيث تكون للذراعين حرية استعمال القوس والسهم. وشيئاً فشيئاً هُجرت العجلة الحربية بصنعتها المتقنة المكلفة وسائقها وراميها. وكان الرامى الراكب يتمتع بالسرعة والقوة. وحيث إنه لم تكن هناك حاجة إلى معدات خاصة، فإن كل ذكر - وفى بعض جماعات البدو كل أنثى - كان يمكنه أن يصبح جندياً، فى بلاد توافرت فيها الخيل.

وهكذا وُلدت الفروسية، ووُلدت معها فنون جديدة للقتال يمكنها نقل الغزاة عبر مساحات شاسعة بسرعة مذهلة. ويصف ستيوارت ليج فى كتابه The Heartland هذه التغيرات قائلاً:

بعد أن تحررت جماعات الفرسان من العجلات والملابس الخاصة أصبح بمقدورها الآن أن تنتقل بخفة من السهوب إلى المناطق الزراعية. لقد نشروا الفزع وفرقوا المقاومة المحلية بدفعات من السهام التى يطلقونها وهم يجرون بأقصى سرعة. ويات بإمكانهم الإغارة على القرى خلال بضع ساعات فيجمعون الغنائم ويختفون قبل إحضار الدفاع المنظم ليتصدى لهم. وكانوا يقومون بعمليات فى أرض العدو تستمر زمناً غير محدد، حيثما وجدت مناطق ريفية خلاء وعشب أو

علف يستولون عليه لإطعام خيولهم. فإذا لقوا معارضة جادة انسحبوا وانقضوا على مكان آخر. أما إذا كان الدفاع ضعيفاً أو لاوجود له، فإنهم يستمرون في تقدمهم ويستدعون أعداداً أكبر من جنسهم ويحولون الغارة الخاطفة إلى حملة. وبهذه الطريقة سرعان ما تتحول نقرات الاختبار إلى دقات مطرقة. وسرعان ما تجعل سنايك الخيل التي تدق الأرض والسهام المدوية التي يطلقها الرماة الراكبون القادمون من قلب البلاد، الكل يشعر بوجودها، في المناطق الواقعة على حدودها الجنوبية الغربية.

انتشر هذا النمط من القتال في أنحاء آسيا شيئاً فشيئاً. ولم يصل فقط إلى هؤلاء الهندوأوروبيين الذين اتجهوا شرقاً نحو الصين، وإنما إلى شعوب أخرى في السهوب الأوراسية، وهم أسلاف شعوب كالمغول والمنشور^(١). وعلى امتداد السهوب أصبح المحارب الراكب، أو الخيال، أهم الملامح المميزة في تلك الأنحاء. وحافظت العربات على أهميتها في السهول، ولكنها استُخدمت بصورة أساسية في نقل البضائع. وكانت هناك مقطورات ضخمة عريضة تجرها عدة أزواج من الثيران تستخدم في سحب «البيوت المتقلة» الخاصة بقبائل البدو والمغطاة باللباد، وهي خيام شبه دائمة تسمى الواحدة منها «يورت». وفي وقت من الأوقات، ورغبة منها في الدفاع عن نفسها، استحدثت بعض الشعوب المقيمة في المدن سلاح الفرسان أيضاً. ولكنها نادراً ما كانت في مستوى هؤلاء القوم الذين ركبوا الريح وكان الحصان بالنسبة لهم مركز الحياة. وظلت قبائل البدو السريعة يركوبها الخيل تحكم جزءاً كبيراً من السهوب، أو على الأقل تثير قلق البلاد المستقرة المحيطة بها، حتى العصور الحديثة.

ومع ذلك لم يكن كل هؤلاء الخيالة غزاة وحسب. فبينما استمر الإيرانيون في شن هجماتهم على الهضبة التي حملت اسمهم فيما بعد، لم يكن الغزو يفتة. إذ كانت غزواتهم عبارة عن هجرة بطيئة لم يقف في وجهها شيء. وكانت تقوم بها عائلات بأكملها ومعها قطعانها. واستمرت تلك الهجرة فترة امتدت ثلاثة أو أربعة قرون. وغالباً ما كان القادمون الجدد يلتحقون بالعمل كخيالة للأمراء المحليين. وشيئاً فشيئاً استولوا على سلسلة من الدول المدن الواقعة على المسار الرئيسي لطريق الحرير. وأثناء ذلك عرفوا الكثير عن

(١) مغول منشوريا الذين غزوا الصين في القرن السابع عشر وأسسوا أسرة تشنج التي ظلت تحكم حتى سنة ١٩١٢. (الترجم).

أهمية الطريق التجارى الذى كان يمر فى أرضهم الجديدة. وكان الغزاة الهندوأوريون الأوائل الذين جاءوا إلى تلك المنطقة قد ذابوا تماماً فى السكان المحليين. ولم تتأثر شعوب المناطق البعيدة إلا قليلاً بالتغيرات الضخمة التى حدثت على طريق الحرير. ولكن هؤلاء الإيرانيين احتفظوا بثقافتهم المميزة. بينما استفادوا من الثقافات القديمة على طول الطريق.

ولا يعنى هذا أن هجرة الإيرانيين لم تلق أى مقاومة. فقد استمرت شعوب ما بين النهرين هى الأخرى فى إرسال التجار والجوش إلى الهضبة، فى محاولة للسيطرة على طريق التجارة. بل إنها قاتلت يقدر أكبر من الشدة من أجل السيطرة على الطريق مع ظهور الحديد.

وكان الحديد معروفاً فى غرب آسيا ومصر منذ الألف الرابعة قبل الميلاد كمنتج فرعى لتشكيل المعادن، وخاصة الذهب. ولكن الحديد الذى ينتج بهذه الطريقة كان نادراً ويأتى بعد البرونز فى المرتبة. لذلك كان يستخدم على نطاق كبير فى المراسم. وفى بعض الأحيان كان يُرصد به الذهب ليكون حلية. وحتى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد وبعدها بقليل، لم تكن تلك التقنيات قد تطورت بحيث تنتج حديداً أقوى وبكميات تكفى لأن يصبح قوة فى المجتمع، خاصة فى صناعة الأسلحة. ويبدو أن هذا النوع من الحديد أُنتج لأول مرة فى هضبة الأناضول، فى إقليم أرمينيا الغنى بالحديد. واحتكر الناس هناك تقنيات تشكيل الحديد لفترة طويلة. وكان الحكام المحليون يسيطرون على صادرات واسعة النطاق إلى أعداء محتملين، فى الوقت الذى يشكون فيه بأعلى صوتهم من عجزهم عن إرسال أكثر من نصل خنجر واحد من المعدن الثمين إلى «الصديق». ولكن عندما تقاتل صناعات الحديد الأرمن هؤلاء مع جيواتهم الجنوبيين، بدأ السر يتسرب شيئاً فشيئاً. وإن كان ذلك بالطرق الحربية من خلال أسر الصناع وجعلهم يظهرون براعتهم لمصلحة سادة جدد. وبحلول سنة ألف قبل الميلاد كانت المعارف الخاصة بتشكيل الحديد قد انتشرت من أرمينيا إلى اليونان فى الغرب وإلى القوقاز فى الشمال وفى أنحاء الهضبة الإيرانية فى الشرق وعلى امتداد الهلال الخصيب.

أما أكثر من استفاد بتكنولوجيا الحديد هذه فكانوا الآشوريين، وهم شعب سامى أو عربى مثل كثير من سكان الشرق الأدنى. وبحلول سنة ٩٠٠ قبل الميلاد كان لديهم جيش مجهز بمعدات حديدية. أثار الرعب فى المنطقة. ومن عاصمتهم نينوى، الواقعة على المنحنى الشمالى لنهر دجلة، بسط الآشوريون سطوتهم على جيواتهم من بابل حتى سوريا وفرضوا

حمايتهم للطريق الحيوى عبر الهضبة الإيرانية . ولأن الحديد كان أيضاً أكثر وفرة من البرونز وأرخص منه سعراً، أصبح من الممكن توفير كميات من الأسلحة تكفى لعدد أكبر من الجنود . وبذلك استعاد المشاة أهميتهم كأحد أسلحة الجيش . وكانت قوة الجيش الآشورى المسلح بالحديد وسرعته حائلاً دون وقوع أى هجوم آخر من قبائل البدو فى الشرق لبعض الوقت .

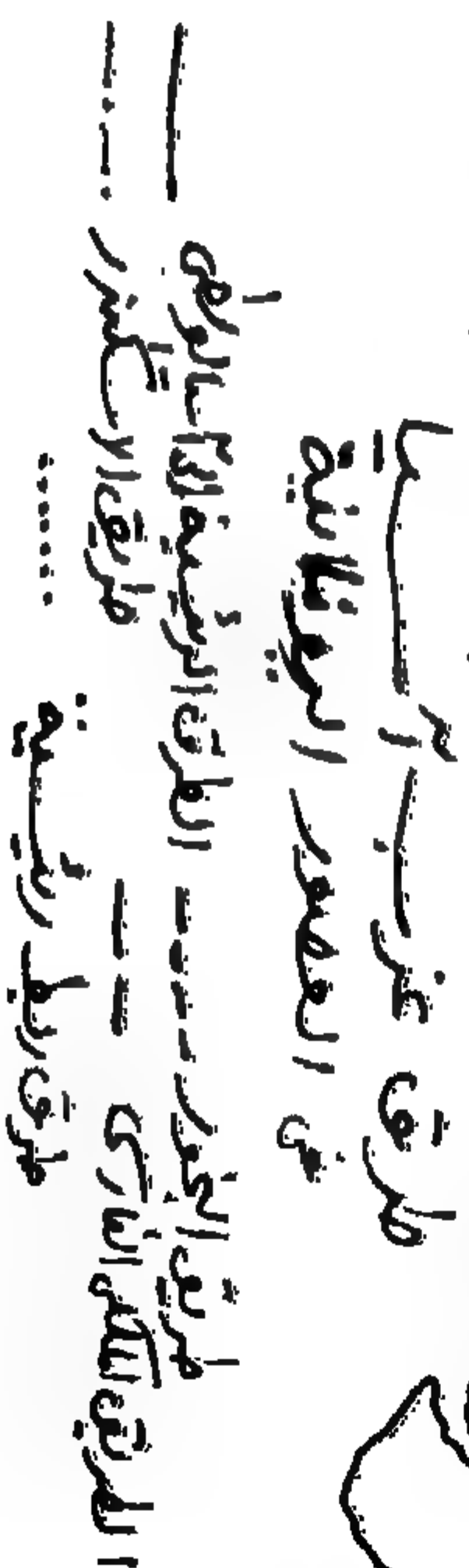
بل إن الآشوريين نافسوا الإيرانيين فى السيطرة على النصف الغربى من طريق الحرير، خاصة بعد أن حُرِّموا من حديد أرمينيا واضطُّروا إلى الاعتماد على الواردات الآتية من إيران ومن أقصى الشرق . ورغم امتلاك الآشوريين للأسلحة الحديدية، فقد ظلوا يقاتلون من العجلات الحربية، وهو اختيار سيء على مدقات القوافل التى لم تصمم للمركبات ذات العجلات . كما أن العجلات لم تكن نداءً للرماة الإيرانيين الراكبين، الذين كانوا يطوقونها من كل جانب . وكانت نتيجة ذلك أن الآشوريين أسرعوا بإدخال سلاح الخيالة . والواقع أن كثيراً من غزواتهم كانت فى جوهرها غارات للسلب . ووصل بعضها حتى منطقة طهران الحالية . وكان الغرض منها جمع الخيول للجيش الآشورى .

ورداً على ذلك، أقامت القبائل الإيرانية العديدة تحالفاً ضد الآشوريين . وهذا التحالف هو الذى وحد بعد فترة النصف الغربى من طريق الحرير لأول مرة .

الطريق الملكي

والآن هذه هي حقيقة هذا الطريق. فعلى امتداده تقع محطات البريد الملكية والنُّزُل الممتازة. وهو يسير في أرض مأهولة وأمونة... وهذه الأرض تجري فيها أربعة أنهار صالحة للملاحة يحتاج عبورها إلى معدية... وإجمالي المحطات مائة وعشر محطات ونُّزُل كثيرة من سرديس حتى صوصا...

— هيرودوت



حتى الآن يبدو طريق الحرير وكأنه طريق للتجار والغزاة في المقام الأول. إلا أنه في القرون الأولى من الألف الأولى قبل الميلاد أُدخلت تغييرات على حركة السير أدت إلى تحويل النصف الغربي من الطريق في حقبة من الزمان إلى طريق لكل الطوائف. طريق يسافر عليه الأطباء والموسيقيون وصناع المعادن ولاعبو الأكروبات والكتّاب والمزارعون والنحاتون والعاهرات ومن لا هدف لهم سوى المغامرة. باختصار، كل الشرائح التي شكلت الثقافة. كل هؤلاء كانوا يسافرون أو يشاهدون العالم أو يبحثون عن وطن جديد أو يسعون إلى الشهرة أو يجرون وراء الثروة، أو يأملون في تحقيق هذا كله. ويتحمل مسئولية هذا التحول شعبان، هما الفرس واليونان.

في بداية هذه الفترة كان الفرس مجرد قبيلة من القبائل الإيرانية التي أقامت في الهضبة الإيرانية. وكانت قاعدتهم جنوبى جبال زاغروس، إذ لم يقيموا على طريق الحرير. وكان هذا الجزء من الهضبة يسيطر عليه الميديون، وهم القبيلة الرئيسية الأخرى في هذا الاتحاد الكونفدرالى الفضفاض. وكانت عاصمة الميديين إيكبتانا (ومعناها مكان الاجتماع)، وتسمى اليوم همذان، تقع مباشرة على طريق الحرير. ومن هذا المكان كانت تنطلق حملات الميديين ضد الآشوريين للسيطرة على الطريق العظيم. وكثيراً ما كان الآشوريون، من الناحية الأخرى، يتوغلون في الهضبة ويحاولون تحقيق مكاسب مؤقتة على طريق الحرير من خلال إقامة مستوطنات يهودية تمتد إلى الرى شرقاً (بالقرب من طهران الحالية)، جرياً على العادة الاستعمارية الخاصة باستخدام المنشقين في تعمير الحدود.

ولكن بحلول نهاية القرن الثامن قبل الميلاد أوقف الغزاة من الشمال الصراع بين الميديين والآشوريين. إذ تدفقت جحافل من الرماة الراكبين السيميريين^(١) والسيث عبر ممرات جبال النوقاز الضيقة إلى الشرق الأدنى. وكان هجومهم مختلفاً تماماً عن وصول القبائل الإيرانية خلصة وبيطء. ولكنه لم يكن هجوم عصابة من الدهماء البدو خرجت لتروع الشرق الأدنى. ويشرح المؤرخ اليونانى هيرودوت، وهو يكتب في القرن الخامس قبل الميلاد، كيف جاء ذكر هذه الواقعة. فبعد أن روى لنا كيف هزم ملك ميديا^(٢) الفرس وشن الحرب على الآشوريين، مضى قائلاً:

(١) قوم طردهم السيث من القرم في القرن الثامن قبل الميلاد فهاجروا إلى الأناضول وغزوا ليديا في القرن السابع قبل الميلاد ومنوا بهزيمة نكراء على يد السيث سنة ٣٦٠ قبل الميلاد. وما يُعرف عن مصيرهم بعد ذلك قليل جداً. (المترجم).

(٢) مملكة قديمة في غرب آسيا كانت تقع جنوبى بحر قزوين وكانت عاصمتها إيكبتانا. (المترجم).

فاز في معركة ضد الآشوريين. إلا أنه أثناء حصاره للمدينة ودخل مملكته جيش ضخم من السيث... وقد كان دخولهم آسيا أثناء قيامهم بطرد السيميريين من أوروبا. وبينما كانوا يطاردونهم دخلوا أرض الميديين.

ساقوا أمامهم شعوب البلاد ودمروا جزءاً كبيراً من الشرق الأدنى، كما يقول هيرودوت:

ظل القوقاز يسيطرون على آسيا على مدى ٢٨ سنة. وكان عنادهم وعدم اكتراثهم سبباً في دمارها. فبالى جانب الحصول من كل إنسان على الخراج الذي فرض عليه، كانوا يجوبون البلاد ويستولون على أى شيء تركه إنسان.

ولكن الميديين خرجوا سالمين من مواجهتهم مع السيث. فخلال تلك الفترة أعاد الزعيم الميدي سياخرز تنظيم جيشه، كما يقول هيرودوت:

يقال إن [سياخرز] رجل حرب يفوق أسلافه في عظمته. وكان أول من جمع محاربي آسيا في حاميات وكلف كلاً منها بمهمة منفصلة. فالبعض رمّاح والبعض الآخر قواس بينما يقاتل آخرون من فوق ظهور الخيل. وكان السائد حتى ذلك الوقت هو اختلاط الحابل بالنابل دون أى تمييز.

وبعد فترة تمكن الميديون من إجبار الجزء الأكبر من القوقاز والسيميريين على الانسحاب شمال جبال زاغروس في المرتفعات الأرمنية. ولكن كثيرين من هؤلاء المحاربين الجوالين ظلوا في ميديا وكونوا نواة جيش جديد أكثر فاعلية أصبح يحكم الهضبة الإيرانية. وتحالف الميديون مع بابل المتمردة ضد الآشوريين. وفي سنة ٦١٢ قبل الميلاد استولوا على نينوى عاصمة المملكة التي كانت كثيراً ماتفاخر بحكمها الإرهابي. وبعد ذلك اقتسم الميديون والبابليون جزءاً كبيراً من غرب آسيا فيما بينهما. وكان الميديون يحكمون طريق الحرير من نهر جيحون حتى الفرات، بالإضافة إلى جزء كبير من الأناضول. في حين سيطر البابليون على طريق الصحراء الكبرى من نهري بلاد ما بين النهرين حتى المتوسط.

غير أنه كانت هناك قوة أخرى ترقب طريق التجارة العظيم عبر إيكبتانا، وهم الفرس

الذين تأهبوا للتحرك ضد أقاربهم الأبعدين الميديين . وعندما أحس البابليون بتهديد الميديين لهم، مع علمهم التام بالنبوءات العبرية الخاصة بسقوط بابل، تحالفوا مع الفرس بزعامة قورش الثانى . ومع أن الفرس وقتها كانوا شعباً شبه مستقر، فقد ظلوا وثيقى الصلة بجذورهم . ونقش أحد أسلاف قورش على لوح من الذهب هذه العبارة: «أرض الفرس هذه التى أملكها فيها الخيل الجياد والرجال الأفاضل» . وحاول الميديون إضعاف البابليين بقطع طريق الحرير . ولكن الفرس نجحوا فى آخر الأمر فى تحقيق أهدافهم الاستعمارية واستولوا على ايكبتانا وجعلوها العاصمة الصيفية لإمبراطوريتهم .

ولكن قورش لم يقنع بذلك . فما كان ليرضى بأقل من السيطرة على كل النصف الغربى من طريق آسيا العظيم . وذلك بالنسبة له كان يعنى كل آسيا الصغرى، إذ كان الملك الثرى كريسوس^(١) مازال يسيطر على ماوراء أرض ميديا القديمة، حيث تجمعت فى الموانئ اليونانية ثروات الشرق كى تتجه إلى بلاد اليونان الأوروبية . واستولى قورش على سرديس عاصمة كريسوس التى كانت تبدو منيعة ثم شق طريقه إلى المدن الساحلية اليونانية الواحدة تلو الأخرى، بادئاً بذلك قروناً من الحرب بين الفرس واليونان . وبعد ذلك تحول اهتمامه إلى الشرق، حيث كانت قبائل مغيرة من البدو تسعى للوصول إلى الهضبة الإيرانية . وسار قورش فى جبال البرز وخرج إلى السهوب وعبر نهر جيحون وجعل نهر سيحون حدوده الشرقية . كما شيد سلسلة من المدن المحصنة لحماية إمبراطوريته من غارات بدو السهوب .

فى هذه المنطقة، التى يقول البعض إنها بالقرب من الرى ويقول آخرون إنها قرية من بلخ، كان نبي يدعى زرادشت قد وضع قبل فترة قصيرة أسس الديانة الزرادشتية . ولأن الزرادشتية صورة معدلة من الديانة المجوسية^(٢) التى كانت القبائل الإيرانية تؤمن بها، فقد انتشرت بصورة كبيرة فى أنحاء آسيا الوسطى، خاصة فى المناطق الواقعة على طريق الحرير . واشتركت الزرادشتية فى عدد من الأفكار مع اليهودية، التى كانت تسعى إلى أن يكون لها شكل متماسك فى ذات الفترة . من هذه الأفكار الإيمان بالمخلص أو المسيح وبالبعث واليوم الآخر وبكتاب فى السماء تسجل فيه أعمال البشر وبالفردوس . وهناك ما يدعو إلى التساؤل عما إذا كانت مستوطنات التجار اليهود، التى أقامها الآشوريون عند الرى وربما أبعد منها

(١) ملك لبيديا، وهى مملكة قديمة غربى آسيا الصغرى التى كانت تسيطر على معظمها . وحكم فى الفترة من ٥٦٠ إلى ٥٤٦ قبل الميلاد . وهو مشهور بثروته الضخمة . (المترجم) .

(٢) المجوس هم أتباع زرادشت الذين يعبدون النار التى لا بد أن تحفظ فى بيت النار بعيداً عن الشمس وعيون غير المؤمنين . (المترجم) .

شرقاً، أداة التوصيل التي جرى من خلالها التبادل الديني بين الجماعات الرئيسية في الديانتين أم لا. والشئ المؤكد هو أن الديانة الزرادشتية، بإبرازها لقوى الخير والشر المتصارعة في العالم، كان لها أثر كبير على المسيحية، خاصة في أشكال المسيحية بالشرق الأدنى التي اعتبرها البعض هرطقة. وصارت الزرادشتية بعد ذلك الدين الرسمي للإمبراطورية الفارسية. إلا أن الفرس في تلك العصور القديمة لم يسمحوا فقط بوجود أديان عدة، وإنما بوجود شعوب كثيرة. وكانوا يهدفون من ذلك إلى وجود إحساس واهم بأن هناك استقلالاً في إطار الإمبراطورية الأم.

وإذا عدنا مرة أخرى إلى ما بين النهرين، وجدنا أن قورش قضى على حكم الملوك البابليين الذي دام طويلاً واستولى على أراضى الهلال الخصيب وسلسلة مدن القوافل الكبيرة والموانئ التي تربط بلاد فارس بالجزيرة العربية ومصر وعالم البحر المتوسط. واعتبر كثيرون، وخاصة اليهود، قورش محرراً، فانتصاره كان بمثابة إنهاء لـ «الأسر البابلي». كما أنه هو الذي سمح لهم بالعودة إلى أورشليم ليعيدوا بناء الهيكل. وفي سفر عزرا ١ : ٢ - ٣ بالتوراة:

هكذا قال كورش ملك فارس. جميع ممالك الأرض دفعها لي الرب إله السماء وهو أوصاني أن أبني له بيتاً في أورشليم التي في يهوذا. من منكم من كل شعبه ليكن إلهه معه ويصعد إلى أورشليم... ويبني بيت الرب إله إسرائيل.

ووسّع خلفاء قورش من بعده حدود الإمبراطورية الفارسية: غرباً إلى مصر^(١) وشمال أفريقيا وشمالاً إلى تراقيا^(٢) وشرقاً إلى جبال الأفغان والهند. وبذلك كانت أكبر إمبراطورية يشهدها العالم حتى ذلك الوقت. ومع بداية القرن الخامس قبل الميلاد وجد خلفه دارا العظيم أرضه الشاسعة بشبكة لا نظير لها من الطرق. ومن أشهر هذه الطرق الطريق الملكي الفارسي الذي ربط عاصمة الفرس القديمة صوصا مع مدينة كريسوس القديمة سرديس في الأناضول. وخرج طريق فرعي من صوصا ليعبر جبال زاغروس إلى إيكبتانا على طريق الحرير.

(١) قاد قمبيز الثاني (٥٢٩ - ٥٢٢ قبل الميلاد) الذي خلف والده قورش إلى مصر على رأس حملة قوامها ٥٠ ألف جندي وبذلك قامت في مصر أول أسرة حاكمة فارسية سنة ٥٢٥ قبل الميلاد، هي الأسرة السابعة والعشرون. وكانت تلك هي المرة الأولى التي تحكم فيها مصر من خارج حدودها. (المترجم).

(٢) شمالي بحر إيجه. (المترجم).

وكما هو حال الطرق السريعة الحديثة، أنشئت تلك الطرق السريعة بحيث لا تمر في المدن الكبرى، لأن السير في شوارع تلك المدن سوف يعطل المسافرين. كما أن الطرق السريعة تجعل وصول الأعداء إلى أبواب المدن سهلاً. وكان الرسل الذين يركبون خيلاً سريعة يقطعون مسافة ١٦٠٠ ميل بين صوصا وسرديس في تسعة أيام، تزيد إلى عشرة إذا امتد السير حتى ميناء سميرنا (أزمير الحالية) أو ميناء افسوس. وكانت خدمة الرسل هذه على قدر كبير من الشهرة، حتى في العصور الوسطى، حيث كان اسمها - angareion - رمزاً للسرعة. ويصف لنا هيرودوت الطريقة التي كانت تعمل بها هذه الخدمة:

ليس هناك شيء على الأرض يمكنه الآن قطع المسافات أسرع من هؤلاء الرسل، الذين هم نتاج مهارة الفرس. ويقال إنه على قدر الأيام التي تحتاجها الرحلة يكون عدد الرجال والخيول الواقفين على الطريق. كل رجل وحصان يقطعان مرحلة من الرحلة. وهؤلاء لا يوقفهم جليد أو مطر ولا حرارة أو ظلمة عن تحقيق ماكفؤوا به بأقصى سرعة. ويسلم الخيال الأول ما يحمله إلى الثاني والثاني إلى الثالث. وهكذا ينتقل من يد إلى أخرى، كما هو الحال في سباق حاملى الشعلة تكريماً لهيفايستوس.

وهؤلاء ليسوا فقط أسلاف الذين عملوا في «بونى إكسبريس»^(١)، بل أسلاف كل أنظمة البريد في العالم. كما أن هيئة البريد الأمريكية استعارت نصاً من تعليق هيرودوت ليكون شعاراً لها:

لا ينبغي للجليد أو المطر أو ظلمة الليل أن تثني هؤلاء الرسل عن إنجازهم المهام التي كُلِّفوا بها بسرعة.

وكسابق عهده امتد الطرف الغربى من طريق الحرير في ذلك الوقت إلى بابل التي ظلت ملتقى طرق مابين النهرين. وكانت تمر عليه قوافل كثيرة عبر طريق الصحراء الكبرى إلى حلب ودمشق. وكانت القوافل في أغلب الأحيان تعبر نهر دجلة بالقرب من عاصمة

(١) نظام قديم كان متبعاً في الغرب الأمريكى لنقل البريد عن طريق فرسان يقطع كل منهم مرحلة يسلم عندها ما معه لغيره ليوصلها إلى ثالث. ونخص بالذكر تلك الخدمة التي كانت بين سانت جوزيف بولاية ميسورى وسكرامنتو بولاية كاليفورنيا (١٨٦٠ - ١٨٦١). (المترجم).

الآشوريين نينوى (وهى الموصل الآن) وتعبّر الفرات عند زوغما، التى يعنى اسمها «جسر» أو «عبور». غير أنه مع اتجاه الإمبراطورية نحو الشمال الغربى إلى الأناضول والمدن اليونانية الواقعة على بحر إيجه والبحر الأسود، حمل الطريق الملكى الفارسى كثيراً من المسافرين والتجار إلى أماكن أبعد عبر الإمبراطورية. ورغم أن الطرق البرية التى تمر فى الأناضول كانت طويلة وشاقة، فقد كان يفضلها المتجهون إلى بلاد اليونان. فالقراصنة كانوا يجعلون السفر فى البحر المتوسط محفوفاً بالمخاطر. ومن حلب كانت مرحلة مختلفة من الطريق الملكى الفارسى - وهو الطريق المفضل فى زمن هيرودوت - تدور حول خليج إيسوس الذى يشبه الإصبع، عبر بوابات كيليكيا الضيقة ثم تصعد هضبة الأناضول لتتصل بالطريق الرئيسى عند أنقرة. ومن الطبيعى أن القوافل كانت تسير أبطأ كثيراً من رسل البريد الذين وصفهم هيرودوت الذى يقدر أن أى مسافر يسير على قدميه أو أى قافلة تسير بسرعتها البطيئة المعتادة كانت تحتاج إلى تسعين يوماً لتكمل الرحلة على الطريق الملكى الفارسى.

وكانت حاجات المسافرين تُلبى بشكل جيد. وأغلب الظن أن ذلك كان يجرى على غرار الأنماط التى نشأت على مدى الألفى سنة السابقة لخدمة تجار المسافات الطويلة على الهضبة الإيرانية. إذ أقيمت محطات الإقامة والتموين على مسافات معقولة. فكانت قريبة من بعضها ولا يفصل بينها فى بعض الأحيان سوى اثنى عشر ميلاً، فى أراضٍ جبلية وعرة حيث كان الطريق فى بعض المرات قد شقّ فى الصخر الأصم. فى حين كانت المسافات بينها تزداد فى الأراضى المنخفضة الأكثر سهولة، حيث يتوقع المسافرون قطع مسافات أطول فى اليوم الواحد. وكانت العبارات، وبعد ذلك الجسور الدائمة الموسمية المقامة على قوارب، تُستخدم كثيراً عند معابر الأنهار عندما لا يكون خوض مياهها ممكناً. وفضلاً عن ندرة الأخشاب وأحجار البناء فى السهول، كان من النادر استخدام الجسور الدائمة لأن أنهار بلاد ما بين النهرين كانت تفيض فيضاً شديداً.

ورغم كون الطريق الملكى أشهر الطرق الفارسية فى تلك الفترة، فلم يكن فريداً بأى حال من الأحوال. إذ كان نفس القدر من الاهتمام بأمن المسافرين وراحتهم متوافراً على الطرق الرئيسية فى أنحاء الإمبراطورية، بما فى ذلك طريق الحرير بطبيعة الحال. والواقع أن السلام النسبى الذى ساد الأراضى الفارسية الشاسعة أتاح للسفر والتجارة أن يتما بقدر أكبر من السهولة والربحية لكل الأطراف عما كان عليه الأمر فى السابق.

وحدث في تلك الفترة أن بدأت مدن القوافل الكبرى في سوريا - وهي حلب وحماة وحمص ودمشق بصورة خاصة - تتبوأ مكانة بارزة بحق، حيث كانت تتلقى بضائعها عبر طريق الحرير إلى جانب التوابل والعطور عبر طريق البخور بالجزيرة العربية وغيرها من النفائس عن طريق البحر من الهند. وكان الآراميون (وهم إحدى المجموعات السامية الكثيرة التي كانت تعيش في الصحراء السورية وماحولها) تجاراً نشطين في مدن القوافل تلك، حتى أن لغتهم أصبحت لغة تجارية شائعة، أي اللغة المشتركة (lingua franca)، على الثلث الغربي من طريق الحرير. وشجع الفرس التجارة تشجيعاً كبيراً في كل أنحاء الإمبراطورية، حيث أدخلوا الموازين والمقاييس الثابتة وصكوا العملات لتحل محل أنظمة المقايضة القديمة، وهي دفع ثمن السلعة عيناً. ونتيجة لتوافر قدر أكبر من الأمن وماتبع ذلك من انخفاض في تكاليف النقل والمخاطر، أصبح طريق الحرير لا يقتصر على نقل البضائع النفيسة أو المعادن الحيوية، وإنما تعدى ذلك إلى كميات كبيرة من سلع الحياة اليومية كالأدوات المنزلية والملابس الرخيصة والحبوب.

في هذا النوع من التجارة كان الجمل صاحب السيادة. ربما كان الحصان مطية رسل الملوك والغزاة شديدي السرعة. ولكن الجمل في ذلك الوقت كان دعامة تجارة طريق الحرير. وبينما كان الجمل العربي في الغالب قاصراً على السهول الحارة، كان الجمل ذو السنامين سائداً في المرتفعات. وكثيراً ما كان ضمن الخراج الذي يُرسل إلى حكام الجبال. بل إن صور الجمال ذات السنامين نُقشت على جدران القصر الفارسي في بريسبوليس^(١) وقد وضعت الأجراس حول أعناقها وقيدت بالأرسن. وكان الجمال أشخاصاً مهمين على طريق الحرير. وليس مصادفة أن اسم زرادشت بالفارسية كان «زرا أوشترا» أو «زراتوسترا» ومعناها «الجمال». وفي القرن الرابع قبل الميلاد قُدمت وسيلة مُعينة لدواب الحمل التي كان عليها أن تسافر على الطرق الوعرة، عندما ابتكرت الحدوة المصنوعة من النحاس أو الجلد أو شعر الخيل^(٢).

ويتجلى مدى اتساع ثراء إمبراطورية الفرس في النقش الذي كتبه دارا على قصره في صوصا سنة ٥٢١ قبل الميلاد تقريباً:

(١) أصبحت تسمى «إصطخر» بعد ذلك. (المترجم).

(٢) أستخدمت حدوة الحصان المصنوعة من الحديد لأول مرة في القرن الثاني قبل الميلاد تقريباً، رغم استخدام الحديد في أغراض أخرى قبل ذلك بزمان طويل. (المترجم).

هذا هو القصر الذى شيدته فى صوصا. جُلبت زخارفه من مكان بعيد... حُفرت الأرض و... سُحق الركام... وصب البابليون قوالب الآجر الذى تجففه الشمس... خشب الأرز... من جبل يسمى [البنان]... أحضره الآشوريون إلى بابل. ومن بابل جاء به الأيونيون^(١) والكاريون^(٢) إلى صوصا. وجيء بخشب الياكو من قندهار [فى الهند] ومن كرمان^(٣). وجيء بالذهب من سرديس^(٤) ومن باكتريا (بلخ) حيث شُكِّل هنا. وحجر اللازورد والعقيق الأحمر الكريم الذى شُكِّل هنا جيء به من بلاد الصغد^(٥). وجيء بحجر الفيروز الكريم من خوارزم وشُكِّل هنا. وجيء بالفضة والأبنوس من مصر. وجيء بالزخارف التى زُيّنت بها الجدران من الجزر الأيونية. وجيء بالعاج الذى شُكِّل هنا من أثيوبيا ومن السند ومن أراخوزيا. وجيء بالأعمدة الحجرية التى شُكِّلَت هنا من عيلام^(٦). والحجارة التى نحتوا الحجر كانوا أيونيين وسرديسيين. والصاغة الذين صاغوا الذهب كانوا ميديين ومصريين. والرجال الذين صبوا الآجر المحروق كانوا بابليين. والرجال الذين زينوا الجدران كانوا ميديين ومصريين.

وفد إلى هذا القصر أمراء ورسل أجانب وأطباء وكُتَّاب وفنانون وكل الصفوة السياسية والثقافية فى منتصف الألف الأولى قبل الميلاد.

وأحدث الحكم الفارسى تغييرات أخرى فى طريق الحرير. فتُفُذت أشغال عامة ضخمة، مثل شق العديد من القنوات المغطاة لتوفير الرى فى الهضبة الجافة، حيث كان الماء أئمن من أن يُترك ليتبخر فى القنوات المكشوفة. وفى السهول التى يكثر فيها الماء، جُففت المستنقعات لزيادة الأراضى الزراعية. وشجع دارا على وجه الخصوص نقل أصناف جديدة من النباتات فى كل أنحاء إمبراطوريته تشجيعاً كبيراً. وفى هذه الفترة انتقل البرسيم

(١) سكان مجموعة جزر يونانية غزوا الأراضى اليونانية ثم هاجروا إلى جزر بحر إيجه وشواطئ آسيا الصغرى. وهم يُنسبون إلى جدهم أيون. (المترجم).

(٢) سكان كاريا وهى منطقة قديمة جنوب غربى آسيا الصغرى. (المترجم).

(٣) تسمى أيضاً كرمانشاه، وهى مدينة إيرانية قريبة من خليج عُمان. (المترجم).

(٤) مدينة قديمة فى غرب آسيا الصغرى كانت عاصمة لىديا القديمة. (المترجم).

(٥) إقليم كان تابعاً للإمبراطورية الفارسية القديمة، يقع بين نهري سيحون وجيحون وسُميت أيضاً ماوراء النهر. (المترجم).

(٦) مملكة قديمة شرقى بابل وشمالى الخليج العربى، عاصمتها صوصا. (المترجم).

الحجازى، وهو العلف المفضل للخيول، من الهضبة الإيرانية إلى آسيا الصغرى واليونان. وفى خطاب من دارا إلى أحد حكامه كتب يقول: «إنى أزكى عزمك على تحسين أرضى عن طريق نقل أشجار الفاكهة». وفى هذه الفترة أيضاً وصل الفستق إلى حلب لأول مرة والسهم إلى مصر والأرز إلى بلاد ما بين النهرين.

فى تلك الفترة كان النصف الشرقى من طريق الحرير مازال فى الظل. وربما سار بعض الرسل والتجار الأجانب شرقاً عبر جزء من هذا الطريق. ولكن يبدو أن الطريق، مثله مثل الصين ذاتها، كان مقسماً بين العديد من الدويلات والعشائر. إلا أنه كان هناك طريق يمتد مسافة طويلة عبر اليابسة فى الفترة نفسها، وهو طريق السهوب الأوراسية الذى يبدأ عند حدود الصين الشمالية وينتهى عند السهوب الأوروبية شمال البحر الأسود. وهناك، فى الأرض التى يُفترض أنها موطن الشعوب الهندوأوروبية القديم، كان يحكم القوقاز الأقوياء.

وربما كان أكثر ما ذكره للسيث الآن هو مجموعتهم الرائعة من أدوات الزينة والمعدات الذهبية. وكان كل شىء بدءاً، من عدة ركوب الخيل إلى صحنونهم وزينتهم الشخصية، إما مصنوعاً من الذهب الخالص أو مطلياً بالذهب. وكان جزء كبير من تلك الأشياء من عمل صناع مهرة فى المستعمرات اليونانية الجديدة على سواحل البحر الأسود. وهناك كان اليونان يقايضونها بالحبوب التى ينتجها هؤلاء السيث الذين كانوا يميلون إلى الزراعة. إلا أن الذهب الذى كان التجار السيث يأتون به مع الفراء عبر السهوب من الشرق له نفس القدر من الجاذبية.

وزعم مغامر يونانى اسمه أريستيس أنه تعقب القوافل السيثية شرقاً من عند الأسواق الواقعة شمالى البحر الأسود للحصول على الذهب، فى القرن السادس أو السابع قبل الميلاد. وقد ضاعت قصيدة أريستيس الخيالية التى تحكى تجاربه، ولكن هيرودوت يلخص لنا كيف أن أريستيس أعلن أنه:

... سافر إلى الإيسيدون بوحى من أبولو. وفى الأرض الواقعة وراء الإيسيدون يعيش الأريماسيى، وهم قوم بعين واحدة وخلفهم الغرافين التى تحرس الذهب وبعدهم أهل ما وراء الريح الشمالية الذين يمتدون حتى البحر، وتتوقع كل هذه الأمم أن أهل ما وراء الريح الشمالية يزعمون جيرانهم، بدءاً بالأريماسيى...

وكانت العناصر الخيالية الواضحة والأسماء غير المألوفة في هذه القصة سبباً في عدم الاعتقاد بعدم صحتها لفترة طويلة. ولكن بعد التحليلات الدقيقة التي قام بها أفراد مثل ج. ف. هدرسون، يعتقد كثيرون الآن أن القصة وصفت طريقاً حقيقياً يمر في أوراسيا.

ويستمر هيرودوت في حديثه عن هذا الطريق المزعوم قائلاً:

وفيما يخص الجرد [ربما يقصد المغول الذين يفتقرون إلى شعر الجسم الوفير عند القوقاز] فالأرض والأقوام التي تسكنها معروفة جيداً. فهناك من القوقاز من يسافر إليها. وليس من العسير الحصول على المعلومات من هؤلاء أو من اليونان في أسواق بورثينيس [دنيبر] أو أسواق بنطش [البحر الأسود] الأخرى. والسيث الذين يسافرون يقومون بأعمالهم من خلال سبعة مترجمين بسبع لغات... وأرض الجرد الممتدة إلى البحر معروف يقيناً أنه يعيش بها الإيسيدون. إلا أن المنطقة الواقعة بعد ذلك ناحية الشمال من الجرد والإيسيدون غير معروفة، فيما عدا تلك القصص التي يرويها هؤلاء الناس عنها... وهناك رواية عن الإيسيدون تقول إن في الأرض الواقعة وراءهم أناساً ذوي عين واحدة وخرافين تحرس الذهب. وقد أجاز السيث هذه الرواية... أما فيما يتعلق بأهل ما وراء الرياح الشمالية، فلم يقدم السيث أو لا غيرهم في تلك المنطقة أية رواية عنهم بخلاف ما ذكره الإيسيدون ومن جهتي أنا، فإني لا أصدق أن الإيسيدون حكوا عنهم شيئاً. لأنهم إن كانوا فعلوا ذلك لتحدثوا عنهم كحديثهم عن ذوي العين الواحدة.

وهنا نجد تناولاً للموقف يتسم بقدر أكبر من العملية، بما يتضمنه ذلك من بعض الشك الصريح. واعتماداً على المزيد من وصف هيرودوت، اعتقد هدرسون أن قوافل الذهب السيثة كانت تخرج من مدينة عند مصب نهر الدون، ربما كانت تانيس (التي أصبحت تانا) في منطقة «خالية من الأشجار البرية والمزروعة لمسيرة خمسة عشر يوماً إلى الشمال». وبعدها تقع أرض بها قدر يسير من الغابات، حيث يبيعون الفراء، ثم صحراء لمسيرة سبعة أيام. ويمضي هيرودوت قائلاً:

... وبخصوص أرض هؤلاء السيث، فكلها مستوية وترتبتها عميقة.

ولكن الأرض بعد ذلك تصبح وعرة وكثيرة الحجارة. وبعد أن يقطع المرء مسافة طويلة من الأرض الوعرة، يصل إلى أناس يعيشون عند سفوح جبال شاهقة.

ويرى هدرسون أن هذا الوصف ينطبق على الطريق من نهر الدون عبر السهوب إلى الفولجا، الذى يبدأ نمو الأشجار عند ضفته الشرقية، وتقع وراءه أرض ملححة جرداء. والجبال «المرتفعة التى لا يمكن اجتيازها» هى فى تصوره أنها جبال ألتاي (الذهبية) التى يتم بلوغها بعد المرور فى سفوح وعرة متكسرة.

والواقع أن قمم ألتاي التى تغطيها الثلوج كانت أمراً مدهشاً لسكان السهوب الذين تعودوا على منظر السهول التى لا ملامح لها. ولا بد أن التلال فى تلك المنطقة كانت تشكل حاجزاً أمام السفر اليسير لهؤلاء الذين لا علم لهم بممر جونغاريا الذى يمر خلاله طريق السهوب الأوراسية بسهولة إلى السهوب المغولية. وفى هذا الموضع من جبال ألتاي توجد مناجم الذهب السيبيرية العظيمة. وهى المناجم التى وفرت أكبر كمية من الذهب للسيث. ذلك الذهب الذى عرف طريقه أيضاً إلى تركستان الروسية حول بحر آرال، ثم عبر طريق الحرير إلى غرب آسيا. وبعد ذلك يضع هدرسون الإيسيدون فى إقليم لوب نور (وهو الموضع ذاته الذى وضعهم فيه الجغرافى اليونانى الرومانى بطليموس فى القرن الثانى الميلادى).

وبعد وصول هدرسون إلى ذلك الحد من القارة، أى ما وراء ألتاي ولوب نور، رأى أن أهل ما وراء الرياح الشمالية «الذين يمتدون إلى البحر» هم فى الواقع أهل الصين. فالمعروف أن مناخ الصين معتدل. وفى المقابل نجد أنه فى سيثيا، كما يقول هيرودوت: «يستمر الشتاء ثمانية أشهر وخلال الأربعة الباقية يظل الجو بارداً». وأشار هيرودوت أيضاً إلى أن أهل ما وراء الرياح الشمالية كانوا نباتيين. ومن المؤكد أن الصينيين كانوا كذلك، على الأقل مقارنة بقبائل البدو فى آسيا الوسطى الذين كانوا يسخرون منهم كأكلة لحوم.

وهذا الافتراض الخاص بطريق برى يقطع آسيا تدعمه اكتشافات حديثة من الحرير الصينى تعود إلى تلك الفترة فى مقابر تقع بين جبال ألتاي مروراً بسيثيا، بل وتمتد إلى وسط أوروبا. وحتى ذلك الوقت، إن لم يكن قبله بكثير، كان الصينيون يقايضون حريرهم الذى لا مثيل له بالفراء واليشب والجمال والخيول، التى لا قبل بتوفيرها إلا لقبائل البدو فى السهوب. وكانوا يأملون خلال ذلك فى تأمين بعض مظاهر السلام على حدودهم.

وإذا صح مايقوله هدرسون، يكون أريستيس أول إنسان نعرفه بالاسم سافر من أوروبا عبر آسيا إلى أطراف الصين ويعرض لنا لمحة عن تجارة القوافل بعيدة المدى التى امتدت عبر آلاف الأميال من الأراضى غير المستقرة. فهل امتدت شبكة تجارية شبيهة على طول طريق الحرير؟ إننا لانعرف ذلك على وجه الدقة. ومن المؤكد أن اليشب كان يجتذب الصينيين كما يجتذب الذهب الأوروبيين. إلا أنه لا يوجد تحت أيدينا سجل لمسافر عبر التاريخ فى نفس الفترة، لمقارنته بما قاله أريستيس. والواقع أنه فى زمن هيرودوت، أى بعد أريستيس بقرن أو قرنين على الأقل، يبدو أن الطريق التجارى عبر السهوب كان قد انقطع.

فهيرودوت كان ينقل ما سمعه وما ذكر أنه لم يتمكن من العثور على ما يؤكد فى الروايات المعاصرة. ويُفترض أن طريق السهوب الأوراسية، الذى كان الأسهل دائماً، قد سقط قريسة لعيبه القاتل، وهو تعرضه الدائم لقبائل السهول البدوية المتصارعة دائماً.

وسرعان ماشرع اليونان، الذين قدموا لنا هذه الصورة الجزئية عن الطريق الذى يقطع آسيا، فى تطوير النصف الغربى من طريق الحرير فى القرون التى سبقت ظهوره كطريق سريع يربط بين سوريا والصين. وربما أخضع الفرس الطريق والإقليم لحاكم واحد. إلا أن اليونان هم الذين وفروا له وحدته الثقافية، وإن كان ذلك لفترة وجيزة. والرجل المسئول عن ذلك لايمكن أن يكون سوى الإسكندر الأكبر.

وعندما وصل الإسكندر إلى موقع الطريق، كانت الأيام العظيمة التى شهدتها بلاد اليونان الكلاسيكية قد ولت. ورغم أن الإسكندر تعلم على يد أرسطو، فلم يكن نتاج العصر الذهبى لبلاد اليونان لأنه جاء من بلاد مقدونيا الشمالية الأشد قسوة. ولكنه ألزم نفسه بمهمة الثأر لهزيمة اليونان على أيدي الفرس، إلى جانب تحقيق المجد لنفسه. ليس فقط من خلال إقامة إمبراطورية على غرار تلك التى أقامها دارا، إنما يفتح كل بلاد العالم المعروفة ونقل الثقافة الهلينسية إلى أنحاء غرب آسيا.

كان طبيعياً أن يبدأ بعبور هالسينطس (الدردنيل)، تلك القناة الضيقة التى تفصل بين البلقان والأناضول. وبالتحديد بين شبه جزيرة غاليلولى والمنطقة التى كانت فى السابق تحت حكم خصم اليونان القديم، طروادة. وظل ذلك لفترة طويلة المعبر الرئيسى بين أوروبا وآسيا. أما قناة البوسفور الواقعة فى الشمال الشرقى، وتقوم عند رأسها استنبول الحالية، فلم تبرز إلا بعد ذلك. وكانت طروادة وكل المدن المطلة على بحر إيجه تتناقص منذ زمن

بعيد على التجارة الواردة من غرب آسيا عبر هضبة الأناضول. وكان الإسكندر يعى جيداً أهمية هذه التجارة الغنية بالنسبة للتاريخ اليونانى. وعند وصول الإسكندر إلى آسيا فى ربيع سنة ٣٣٤ قبل الميلاد، كما يقول مؤرخوه، توقف أولاً عند موقع طروادة ليقدم فروض الولاء والطاعة لأخيل بطل حرب طروادة. وتصف المؤرخة مارجريت بريانت ذلك قائلة:

... وهناك استعرض أعمال التضحية المدهشة المقدمة لأثينا الإلياذة وتلقى الدرع الذى يُعتقد أنه كان ملكاً لأخيل وتقديم القرايين للموتى الهومريين العظام، وقد اكتسبت أهميتها من ذلك السحر الشعري الذى أضفى، فى ذهن الملك الشاب، على العمل كله، وهو ماسيتفاوت تقدير الناس له تبعاً للجزء الذى يعزونه إلى الخيال فى الأمور البشرية.

وبعد أن انتصر الإسكندر على الفرس فى معركة قصيرة، مضى فى طريقه لاستعادة المدن اليونانية الواقعة على الساحل الغربى لهضبة الأناضول. وأثناء توغله فى داخل البلاد، انحرف عن المسار العام للطريق الملكى الفارسى واتجه شرقاً لإخضاع الأمراء المحليين الذين ظلوا زمناً طويلاً يتمتعون بالحكم الذاتى فى ظل الفرس. وفى مدينة جورديوم عجز عن حل العقدة الجوردية^(١) الشهيرة فدفعه نفاذ صبره إلى قطعها بدلاً من حلها، إشارة منه إلى أنه سوف «يحكم كل آسيا» فى يوم من الأيام.

وبينما كان الإسكندر فى طريقه للقاء الجيش الفارسى الأساسى، اتخذ الطريق المتجه جنوباً من أنقرة إلى طرسوس على البحر المتوسط. وكان ذلك فى المسار الرئيسى للطريق الملكى الفارسى فى القرن الرابع. وهو أيضاً ما كان عليه قبل ذلك بقرن، عندما امتدح هيرودوت الطريق السريع العظيم. إلا أن ذلك كان خياراً تحفه المخاطر، بسبب عبور الإسكندر بجيشه من الممر الضيق الذى يسمى بوابات كليكيّا فى أماكن تستع فقط لأربعة جنود بجوار بعضهم. لذلك نجد المؤرخ العسكرى زينوفون، الذى عاش فى القرن الرابع الميلادى، يصف هذا الممر بأنه «لا يمكن عبوره إذا سده العدو» الذى كان يلقي فى العادة كتلاً صخرية ضخمة من أعلى الجبل عند محاولة الغزاة اقتحام البوابات. ولكن الإسكندر اقتحمها فى هجوم ليلى جرى ليخرج إلى سهول طرسوس الرطبة غير الصحية.

وحتى الآن لم يلق الإسكندر معارضة كبيرة. فالجيش الفارسى الأساسى مازال رجباً.

(١) تقول الأساطير اليونانية إن هذه العقدة عقدها جوربوس ملك فريجيا. ونمضى الأسطورة قائلة إن من يحلها، فإنه يملك آسيا. إلا أنه يروى أن الإسكندر الأكبر قطعها بسيفه، وهو ما يعنى أنه حل هذه المعضلة بقوة السلاح. (انترج. ٥٠٠)

إلا أن الجيشين التقيا في آخر الأمر في ربيع سنة ٣٣٣ قبل الميلاد في السهول الواقعة شرقي خليج إيسوس^(١)، ذلك الخليج الذي يشكل الزاوية التي بين الأناضول وسوريا. وتحول الاشتباك إلى هزيمة نكراء واضطر دارا إلى الفرار على حصانه إلى المرتفعات الفارسية. ولم يتعقبه الإسكندر وإنما بدأ في تنفيذ خطط خاصة به.

وكانت لليونان مدن على طول سواحل الأناضول منذ زمن طويل. وكان وجود تلك المدن تحت الحكم الفارسي من أسباب الفتوحات التي قام بها الإسكندر. وجنوب خليج إيسوس أيضاً كان اليونان يتاجرون زمناً طويلاً من خلال مدن مثل المينا وأوجاريت. ولكن ما إن يتعدى اليونان تلك المدن من سوريا حتى يكونوا داخل أراضٍ ظلت آلاف السنين في أيدي شعوب المنطقة السامية.

وعلى طول الطريق البري كانت هناك سلسلة من مدن القوافل، منها حلب ودمشق وعمان، في أرض الأردن، والبتراء، وهي موقع صحراوي تحميه الصخور المرتفعة. يقع جنوب خليج العقبة.

وكانت هذه المدن الخاضعة للعديد من القبائل العربية. والطريق الذي يربط بينها تشكل الامتداد الشمالي لطريق البخور الأسطوري، الذي كان يبدأ من مدينة عدن في الجنوب الغربي من الجزيرة العربية وكانت ملتقى طرق. وكان الإسكندر يعرف جيداً أن كل ثروات الشرق كانت تتدفق على مدينة عدن وتسير في طريق البخور. وكان ينضم إلى توابل الجزيرة العربية، كاللبان والمر، الآتية من هذا الطريق الجواهر والتوابل القادمة من الهند والشرق الأقصى، بعد أن ظلت زمناً طويلاً تُجلب بالبحر عبر طريق التوابل. وقبل الإسكندر بقرون عديدة، وفي القرن العاشر قبل الميلاد تقريباً، زارت ملكة جنوب الجزيرة العربية^(٢) ملك إسرائيل اليهودي. وقد سجلت عظمة قافلته في سفر «الملوك» ١ : ١٠ :

**وسمعتُ ملكة سبأ بخبر سليمان... فأنت إلى اورشليم بموكب عظيم
جداً بجمال حاملة أطياباً وذهباً كثيراً جداً وحجارة كريمة... وأعطت
الملكة مئة وعشرين وزنة ذهب وأطياباً كثيرة جداً وحجارة كريمة...**

(١) بالقرب من الإسكندرونة الحالية. (المترجم).

(٢) بلقيس ملكة سبأ التي جاء ذكرها في القرآن الكريم في سورة «النمل» حيث أرسل لها سليمان عليه السلام رسالة مع الهدى يدعوها وقومها للدخول في الإسلام. وبدلاً من أن تقتله أثرت السلامة وأرسلت له هدية تليق به وتنتظر الرد منه. ولما عاد رسلها بهديتها سارت إليه بجنودها ذليلة عارمة على الدخول في الإسلام. وعندما وصلت إليه كان قد أتى له بعرشها الذي غلقت عليه الأبواب. (المترجم).

وكانت التجارة على طريق البخور هذا قد استمرت وتوسعت فى القرون التى بين هذين التاريخين. وحتى عندما استطاع التجار الذين يركبون البحر الدوران حول الجزيرة العربية بالإبحار فى البحر الأحمر إلى ميناء إيلة (العقبة)، ظلت القوافل البرية تحمل البضائع الثمينة شمالاً إلى البتراء ودمشق وحلب.

كانت مدن البحر المتوسط التى يسيطر عليها الفينيقيون تحظى بنفس القدر من اهتمام الإسكندر، إن لم يكن أكثر. إذ ظل الفينيقيون قروناً طويلة منافسين لليونان فى التجارة البحرية فى البحر المتوسط والمحيط الأطلسى. وببيلوس (الجيل) وصيدا وصور هى أهم مدن بلاد الفينيقين (وهى تقريباً المكان الذى يشغله لبنان الآن). وكانت ببيلوس المركز القديم لتجارة ورق البردى المصرى. وقد اشتق منها اسم الكتاب المقدس بالإنجليزية Bible ومعناه الحرفى «الكتاب». وفى صيدا وصور كانت مصانع الأصباغ الفينيقية، حيث كانوا ينتجون الصبغة «الأرجوانية الملكية» الشهيرة التى كانت تلقى تقدير الطبقة الأرستقراطية فى البحر المتوسط. وكان ذلك يتم بنفس الدرجة تقريباً من السرية التى كان الصينيون يحيطون بها صناعة الحرير.

وكان للصبغة نفسها دور هام فى موضوعنا. فأحد مفاتن طريق الحرير هو تلقيه للأصباغ، وخاصة الصبغة الأرجوانية. وطوال عدة قرون، وحتى خروج سر صناعة هذه الصبغة الأرجوانية ذات النوعية الجيدة الفريدة من بلاد الفينيقين، كان مسار طريق الحرير يعرج على تلك المدن، حيث كان الحرير المستورد يُصبغ صباغة فاخرة.

وكانت الصبغة الفينيقية تُصنع من حيوانات رخوية توجد عند سواحل البحر المتوسط. وتشير أسطورة محلية إلى الطريقة التى اكتشف بها الإله ملجارت الصبغة عندما أخذ كلبه يأكل قوقعة وتلطخ فمه باللون الأحمر. وتشير الأسطورة إلى أن ملجارت هو أول من استخدم هذا اللون فى صبغ ثوب لعشيقتة. ولم يكن اللون الأرجوانى الذى يُنتج هو نفس اللون الحديث الذى نعرفه بهذا الاسم، وإنما كان سلسلة من درجات اللون تتراوح بين الأرجوانى الداكن المائل للاحمرار «لون الدم المتجلط» والأزرق الداكن. والسائل الذى تفرزه غدد المريف (murex)، وهو أفضل الرخويات المستخدمة فى إنتاج الصبغة، يكون أصفر اللون فى بادئ الأمر، ولكنه يتغير بتأثير الشمس إلى سلسلة الألوان كلها حسب رغبة الصبّاغ.

ولا تتم الصبغة إلا في الخريف والشتاء حيث تتوافر الرخويات. وبما أنه ينبغي جمع الصبغة واستخدامها عقب قتل الرخويات مباشرة، فإن مصانع الصبغة كانت قاصرة على الساحل (وظل الحال كذلك قروناً عديدة إلى أن تعلم الناس كيف يحتفظون بالرخويات حية على اليابسة). وكان من الممكن استخراج السائل الغدّي الثمين مباشرة من الرخويات الكبيرة. إلا أنه كان لابد من سحق الرخويات الصغيرة معاً ثم تنقع في الملح وتغسل وتغلى لاستخراج الصبغة من الأصداف واللحم والفضلات. وكانت العملية بصورة عامة مجهدة ومكلفة. وفي الوقت الحاضر نجد أن المواقع التي كانت توجد بها المصانع القديمة بالقرب من صور تتميز بأكوامها القديمة من الأصداف المكسرة وتلك التي تخلصوا منها.

وكان لون الصبغة يتوقف على الرخويات المستخدمة وطول مدة التعريض لضوء الشمس وطريقة التحضير ودرجة التركيز التي تتحقق بالغلي. ومن أندر الدرجات وأغلاها كان الأحمر الناري. وكان يتحقق عن طريق الصبغة المزدوجة، حيث كان القماش يوضع في المرة الثانية في صبغة مأخوذة من نوع مختلف من الرخويات. وهذا الإنتاج المكلف جعل الصبغة الأرجوانية غالية الثمن بصورة حالت دون استخدامها في كل أنواع القماش. وكان أغنى الناس وأكثرهم نفوذاً، مثل دارا وحبر العبريين الأعظم، هم فقط القادرون على شراء ثوب كامل من القماش الأرجواني.

ومن المؤكد أن الصبغة الأرجوانية كانت مهمة في تاريخ الفينيقيين. ويأتي اسمهم من الكلمة اليونانية التي تعني أرجواني poeni. (وفي العصور الرومانية تحولت الكلمة إلى pu-nic. أما الفينيقيون فكانوا يطلقون على أنفسهم اسم «الكنعانيون»، وذكرنا بهذا الاسم في التوراة). إلا أن جعبة الفينيقيين كان فيها الكثير غير الصبغة الأرجوانية. فكانوا صنّاعاً بارعين، خاصة فيما يتعلق بصنع الزجاج الملون. وكتجار ركبوا البحر سنين طويلة، وكان لهم باع طويل في التبادل التجاري بين آسيا والبحر المتوسط. وكانت المدن الفينيقية، وخاصة صور، مراكز تجارية عامرة، وهو ماجاء ذكره بإسهاب في سفر حزقيال ٢٧:

وقل لصور أيتها الساكنة عند مداخل البحر تاجرة الشعوب إلى جزائر كثيرة... آرام تاجرتك بكثرة صنائعك تاجروا في أسواقك بالبهرمان والأرجوان والمطرز والبوص والمرجان والياقوت. يهوذا وأرض إسرائيل هم تجارك. تاجروا في سوقك بحنطة منيت وحلاوى وعسل وزيت وبلسان. دمشق تاجرتك بكثرة صنائعك وكثرة كل غنى بخمر حلبون

والصوف الأبيض... تجار شبا... هم تجارك. بأفخر أنواع الطيب وبكل حجر كريم والذهب أقاموا أسواقك... هؤلاء تجارك بنفائس بأردية أسمانجونية ومطرزة وأصونة مبرم معكومة بالحبال مصنوعة من الأرز... عند خروج بضائعك من البحار أشبعت شعوباً كثيرين. بكثرة ثروتك وتجارتك أغنيت ملوك الأرض.

وكانت المدن الفينيقية جوائز تغرى بالفوز بها، إذ أنها تجمع بين الصناعات الماهرة وأسواق التقاء الطرق القائمة من زمن طويل والموانئ التي تنقل البضائع إلى الأنحاء المختلفة من عالم البحر المتوسط.

ومن بين سائر المدن البحرية والداخلية، كانت تلك المدن تستحق ما استأثرت به من اهتمام الإسكندر. فالليونان أولاً وأخيراً شعب تجارى على درجة كبيرة من المهارة. وكانت أنشطتهم التجارية فى الماضى تولى البحر اهتماماً كبيراً. وطوال قرون كثيرة كان الاستعماريون من بلاد اليونان الشحيحة المكتظة بالسكان يجوبون البحار من جبل طارق إلى القرم لإقامة مراكز تجارية ينقلون من خلالها موارد تلك البلاد الأكثر وفرة إلى وطنهم. وكان على الإسكندر وخلفائه أن يفعلوا الشيء نفسه مع بلدان غرب آسيا. وقد استولوا على المدن القائمة وأضافوا إليها مدناً من إنشائهم.

تجاهل الإسكندر مؤقتاً الجيش الفارسي الذي عمته الفوضى وأقسم أن ينتقم منه، بينما أثر أن يقضى العامين التاليين فى الاستيلاء على مراكز القوافل والموانئ الرئيسية فى غرب آسيا، من سوريا إلى فلسطين ومصر. والواقع أن دارا كانت هزيمته شديدة حتى أنه عرض تسليم الإسكندر كل الأراضى الواقعة غرب الفرات مقابل السلام. وربما كان من أسباب انكساره أن الإسكندر سبى نساء العائلة الملكية الفارسية بعد هزيمة الفرس عند إيسوس. ولكن الإسكندر رفض الصفقة إعلاناً منه عن عزمه الاستيلاء على كامل أرض دارا.

ولم يستول الإسكندر على تلك المدن الحصينة دون قتال. ولم تكن مفاجأة أن تكون أشرس مقاومة من صور التي كانت يوماً معقل الفينيقيين. ورغم أن أهل صور كانوا يخضعون منذ زمن طويل للنفوذ الفارسي، فقد كانوا يرفضون الخضوع لنير منافسيهم الأقدمين اليونان. وطوال سبعة أشهر صمدوا خلف أسوار حصنهم. ولم تسقط المدينة إلا عندما أقام الإسكندر جسراً عرضيه نصف ميل (ما زالت بقاياها قائمة إلى الآن) يصل إلى

الجزيرة ثم شن هجوماً بحرياً وبرياً عليها. وكذلك صمدت غزة معقل الفلسطينيين، الواقعة جنوباً على الساحل، شهرين أمام الحصار. وفي النهاية نُهبت المدينتان وإن لم تدمرا. وتفرق أهلهما الذين أصبحوا عبيداً. وسرعان ما عمّر المدينتين المستعمرون اليونان وغيرهم من المستوطنين القادمين من المدن القريبة.

بعد ذلك كان طريق الإسكندر أيسر. فقد عبر قطاع غزة إلى دلتا مصر وأراضيها الصحراوية. وربما يكون أشهر ماقام به هناك هو تأسيس ميناء يوناني عند مصب الفرع الغربى للنيل، وهو الإسكندرية. وأصبحت الإسكندرية، التى قُدِّر لها أن تكون واحدة من مدن العالم العظيمة، المنفذ الرئيسى للتجار البحرين على طريق التوابل. وبصفتها مركزاً كبيراً للتقنية والتوزيع فى عالم البحر المتوسط، كانت فى بعض الأوقات بمثابة نهاية لطريق الحرير، منافسة بذلك النهاية المنطقية الواقعة شمال غربى سوريا.

وعند عودة الإسكندر من مصر سار فى طريق القوافل البرى ماراً بدمشق ليتجه شرقاً فى ربيع سنة ٣٣١ قبل الميلاد. وأدت أمطار الشتاء إلى امتلاء أنهار بلاد ما بين النهرين. ولكن الجيش اليونانى عبر أعالي نهر الفرات على جسر عائم أنشئ خصيصاً. وكان نهر الفرات من الضحالة بالقرب من موقع مدينة نينوى الآشورية القديمة بحيث أتاح للإسكندر وضع صفين من الخيالة بعرض النهر كى يتمكن المشاة من عبوره على الأقدام. ومرة أخرى كان ينبغى أن تكون الغلبة لتفوق دارا العمدى، خاصة فى السهول المنبسطة. ولكن استراتيجية الإسكندر هى التى انتصرت وهُزم الفرس ولجأ دارا إلى الهضبة الإيرانية.

وفى هذه المرة أيضاً لم يشأ الإسكندر تعقبه على الفور، حيث أثر أن يستعاض عن ذلك بالتقدم جنوباً نحو بابل أغنى مدن بلاد ما بين النهرين. وعلى طول الطريق فتحت المدن أبوابها لحاكمها الجديد، بعد أن فر الحاكم القديم إلى المرتفعات. وفى بابل، التى اتخذها الإسكندر عاصمة له فى غرب آسيا، أمر بزراعة النباتات اليونانية فى حدائق بابل المعلقة الشهيرة. وبينما لا يزال مستمراً فى تقدمه جنوباً، أضاف إلى ثروات بابل ثروات صوصا عاصمة الفرس الربيعية. وفى حملة شتوية مباغته شق الإسكندر طريقه فى جبال زاجروس وعبر الهضبة الإيرانية إلى عاصمة الفرس الصيفية القديمة بيرسيوليس. وفى الليل أحرق قصر بيرسيوليس الرائع الذى أقامه الفنانون والصناع المهرة من أماكن تمتد إلى الهند والأناضول. وقد لا يسعنا معرفة إن كان ذلك قد حدث أثناء حفل عريدة صاحب أو نتيجة لقرار واع يهدف إلى تدمير مكان محتمل لتجمع الفرس. وبعد أن حدث ذلك تحرك

الإسكندر عبر الهضبة الإيرانية قاصداً الموقع الذى تقع فيه إيكبتانا (همدان) عاصمة الميديين القديمة الواقعة على طريق الحرير، التى كان دارا قد فر إليها. ولم يعد الإسكندر يواجه أبواب المدن السهلية المفتوحة. ففى تلك المنطقة التقى الإسكندر بالقبائل الجبلية الحشنة. ولكنه أعطى أكثر مما أخذ، كما تقول مارجريت بريانت:

تعلمت القبائل الجبلية الواقعة على الطريق، التى اعتادت الابتزاز الفاحش حتى من حاشية الملك، درساً مريئاً مفاده أن يداً قوية قد أتت للهيمنة على الإمبراطورية.

وأثناء فرار دارا من الإسكندر تقهقر على طريق الحرير من إيكبتانا عبر الرى إلى ماوراء البوابات القزوينية، حيث تفرقت أعداد كبيرة من جيشه وذابت فى المرتفعات. وفى النهاية رأت فلول الجيش الفارسى المهلهلة رجال الإسكندر الأشداء على مرمى البصر ذات صباح. فما كان منها إلا أن قتلت دارا قبل أن يأسره اليونان. وفى صيف سنة ٣٣٠ قبل الميلاد، أى بعد مايزيد قليلاً على أربع سنوات من وصوله إلى آسيا، كان الإسكندر قد ثار لهزيمة اليونان القديمة^(١). وهاهو يحكم النصف الغربى من آسيا. إلا أن هزيمة دارا لم تتح له السيطرة التلقائية على شعوب الجبال فى الشرق. وكان ذلك هو مايجب أن يظفر به. غير أن اليونان كانوا فى حاجة إلى عون لتحقيق ذلك.

على طول الطريق من مقدونيا حتى البوابات القزوينية، كان الإسكندر يعمل على ضم شعوب البلاد التى فتحها حديثاً إلى حظيرة اليونان. ولم يكن جيش الإسكندر مجرد قوة مقدونية قليلة العدد كثيرة العدد. بل إنه فى ذلك الوقت كان يضم بين صفوفه التراقيين والإليريين^(٢) والإيرانيين والأناضوليين والساميين والهنود وكثيراً غيرهم. وكان البعض قد وجد فى النصر اليونانى تحرراً من النفوذ الفارسى. فى حين جذبت البعض الآخر وعود المغامرة وتحقيق الربح. ومع أن كل فرقة عسكرية كانت بها نواة مقدونية، فإن غير اليونانيين كانوا يشكلون نصف الجيش على الأقل. وكان يدعم هذا الجيش متعدد الأعراق ويربط بين أجزائه مجموعة متكاملة من المتخصصين، تشمل المهندسين العسكريين والميكانيكيين

(١) عندما قمع الإمبراطور الفارسى دارا ثورة اليونان سنة ٤٩٤ قبل الميلاد وفرض سلطته على تراقيا ومقدونيا. وعندما احتل الفرس أثينا بعد الحملة التى قادها أحشويرش سنة ٤٨٠ قبل الميلاد. (المترجم).

(٢) أهل بلد قديم على الساحل الشرقى للبحر الأدرياتيكي. (المترجم).

والمترجمين والمرشدين والأطباء الذين يعالجون الجرحى والبيطريين الذين يعالجون الخيول ذات الأهمية الكبرى. وخلف هؤلاء كان هناك من يتبعون الجيش من زوجات وعشيقات وأطفال وخدم وعبيد وعاهرات، بالإضافة إلى التجار والمرايين الذين كانوا يتعاملون في المبالغ الكبيرة من المال التي كان يكسبها الجنود الذين أثروا وكانوا يدخرونها أو يتداولونها. وكانت نتيجة ذلك، كما يقول المؤرخ ميخائيل روستوفتروف، أن «الجيش الهلينستي في تلك الفترة كان مدينة ضخمة متحركة أشبه بالمدن المتحركة الخاصة بقبائل البدو الشرقية في مشرق أوروبا وفي آسيا»، أو بدقة أكثر، «عاصمة متحركة تضم أناساً يزيد عددهم على تعداد كثير من العواصم اليونانية»، وفوق ذلك هي أيضاً عاصمة ثرية.

ولكن تركيبة «عاصمة» الإسكندر «المتحركة» تغير أثناء توغلها في آسيا. فعلى طول الطريق، كان كلما أضيفت مدينة جديدة إلى مناطق نفوذ اليونان كان يُترك بها حكام وإداريون وجنود وصناع وتجار يونان ليربطوا تلك المدينة بالإمبراطورية الهلينستية. وفي الوقت نفسه كان كثير من سكان البلاد التي فتحت ينضمون إلى تلك الحاشية الضخمة الجواله، إما طوعية أو كعبيد. وبمرور الأيام كانوا يُصبغون بالصبغة الهلينستية. وحتى الإسكندر نفسه تغير بمرور الأيام، حيث اتبع الأسلوب الآسيوي في اللبس، وكان يتميز بالزركشة، متجاهلاً انتقادات أبناء بلده. إلا أن ذلك أكسبه المزيد من تأييد هؤلاء الذين انضموا إليه في الطريق. والذي أغضب الكثير من أبناء بلده مقدونيا بصورة خاصة هو ارتدائه ثوباً أرجوانياً على الطراز الفارسي. حيث كان ذلك يرمز بالنسبة لهم إلى انحرافه عن زمالة الجيش الأصلية الأكثر نقشاً وتسم بقدر أكبر من المساواة. وهذا الانقسام الذي حدث بين الإسكندر وأهل بلده أدى في وقت لاحق إلى مصاعب كبيرة. أما في ذلك الوقت فكانت سياسة السعي إلى دمج أساليب الحياتين الهلينستية والآسيوية معاً تزيد من قوة الجيش أكثر مما تضعفه.

وهكذا استطاع اليونان أن يخلفوا وراءهم أراضى آمنة نسبياً وظلوا يتجهون شرقاً على طريق الحرير بقوة. وكانت تلك القوة ضرورية في شرقي بلاد فارس. ففيها واجه اليونان شعباً إيرانياً معترساً بنفسه يقاوم النفوذ الأجنبي. وإذا كان جيش الإسكندر قد استطاع اجتياز هذا الإقليم، فالأقاليم التي تلت شهدت حركات تمرد كثيرة. وكان التقدم بطيئاً، مما قاد اليونان إلى منحني بطيء يتجه إلى الجنوب الشرقي نحو الهند ليصل إلى وادي نهر كابل. ولكن الإسكندر كان مستعداً في نهاية الأمر لمواجهة القوة الكبرى في المنطقة، وهي باكتريا

(بلخ). ولا تنبع أهميتها من موقعها على طريق الحرير فحسب، ولكن لأن قتلة دارا ذهبوا بالتاج الفارسي إلى هناك وأعطوه لملك باكتريا.

وفي ربيع سنة ٣٢٨ قبل الميلاد نزل الإسكندر من المرتفعات الأفغانية إلى سهول باكتريا، متعباً قلول المعارضة الفارسية طوال الطريق عبر مرقندة (سمرقند) إلى بخارى ناقلاً حدوده إلى ماوراء نهر سيحون، وهي تقريباً حدود الأرض الزراعية. وفي النهاية أمّن قبضته على الإقليم باستيلائه على ماتبقى من معازل جبلية خاصة بالأمراء المحليين. وأطلق على المدينة التي أنشأها في أقصى الشرق اسم الإسكندرية القصوى. وهي تقع على مقربة من خوجنده الحالية.

ورغم استمرار انتقاد أتباع الإسكندر الأوروبيين له لاتباعه أساليب الحياة الآسيوية، وتعامله بخشونة مع تلك الانتقادات، فقد استمر في توحيد البلدان المتباينة التي سيطر عليها مع الإمبراطورية الهلينستية. ، ومن رموز ذلك اتخاذه روكسانا الأميرة البلخية زوجة له. ويشير أريان مؤرخ الإسكندر إلى أن روكسانا كانت إحدى أجمل نساء آسيا قاطبة. وربما يتضح الأمر أكثر حين يقول إن الإسكندر «لم يجد في زواجه منها ما يحط من كرامته». ومن الواضح أن الأميرة البلخية كانت تعد فتاة تستحق أن يقام من أجلها تحالف بالمصاهرة، بغض النظر عن أي مفاتن شخصية كانت تتمتع بها. وبعد تغيير اسم العاصمة من زارياسبا إلى باكترا، اتخذها عاصمته الشرقية. وهو ما أثار دهشة آسيا. وكما كان مسلكه في أي مكان آخر، أنشأ مدينة يونانية بجوار المدينة الفارسية القديمة. ولم يسكن فيها الجند وحدهم، وإنما أسكن معهم الصناع والعمال المهرة وكذلك التجار.



وهكذا وصل الإسكندر إلى منتصف طريق آسيا. منتصف ماسيكون بعد قليل طريق الحرير. فهل كان يعلم شيئاً عن الصين، التي تبعد عنه شرقاً مسافة تساوي تلك التي قطعها تقريباً عبر الجبال والصحارى؟ لا أحد يدرى. ويبدو أن اليونان كانوا على علم بسلعة الصين النفيسة، أي الحرير. فبحلول القرن الخامس قبل الميلاد كان شيء من الحرير قد وصل إلى شرق أوروبا عبر آسيا. إلا أننا لانجزم بوصول أي قدر منه إلى عالم البحر المتوسط. ويبدو أن أرسطو معلم الإسكندر ذكر الحرير في كتاباته العلمية وهو يتحدث عن:

... دودة عظيمة لها قرون وشكلها مختلف عن سواها. وفي طورها الأول تكون يسروعاً ثم تتحول إلى خادرة وتصبح في النهاية - دعة.

وكل هذه التغيرات تحدث خلال ستة أشهر. ومن هذا الحيوان تأخذ النساء الشرانق وتلف خيوطها وبعد ذلك تغزلها. ويقال إن أول من غزل هذا هي بامفيلي ابنة بلاطيس في جزيرة كوس.

ويشعر كثيرون أن أرسطو كان يتحدث عن قماش من الحرير البري الأقل جودة. وهو أقرب إلى القماش المعروف الآن باسم البومبازين المصنوع من شرنقة دودة موطنها جزيرة كوس اليونانية. وسواء كان يتحدث عن حرير كوس أم الحرير الصيني، فيلاحظ أن كثيراً من الكتاب الكلاسيكيين كانوا يعتقدون أن الخيوط من أصل نباتي.

والواقع أن كلمة "Silk" كانت الاسم الغربي للقماش الرقيق. أما الصينيون فعرفوه باسم أقرب إلى «سى» أو «زو». في حين كانت قبائل البدو في آسيا الوسطى تطلق عليها عادة «سير» أو «سيرغ» أو «سيرك». (ويفترض البعض أن هذه الكلمات مشتقة من الأصل الوسط آسيوى الذى يعنى «أصفر»، وهو اللون الذى يرتبط فى الغالب بالحضارة الصينية). وربما عرف اليهود هذا القماش باسم «شيريقوط». ويبدو أن العرب أطلقوا عليه اسم «سرقاي». فى حين عرفه اليونان باسم «سيريك» حيث استبدل حرف r بحرف l وتحولت الكلمة فيما بعد إلى "silk". وحسب معلوماتنا، لم يعرف الناس فى عهد الإسكندر بلاد الصين بهذا الاسم. فطبقاً لعادة تسمية الأقوام حسب منتجاتهم، أطلقوا على منتجى الحرير اسم «سيريس». وظل الغرب يعرف الصينيين الشماليين بهذا الاسم قرناً طويلاً.

وليس هناك أى تفسير للطريقة التى وصلت بها كميات صغيرة من الحرير الصينى إلى غرب آسيا. فربما وصل بعضها إلى الغرب عبر السهوب الأوراسية من خلال الطريق الذى وصفه هيرودوت، أو عبر تركستان الروسية ليلتقى مع طريق الحرير. ومن المحتمل أن يكون الحرير قد سار على طريق الحرير نفسه من خلال تجارة المقايضة القديمة. وهناك قوم من أشباه البدو يسمون يوويه تشى، كانوا يسكنون ممر كانسو فى تلك الفترة، يقومون بدور الوسيط فى توريد الشب من جبال البامير إلى الصين. وربما يكون الحرير قد اتجه فى الطريق المعاكس، وخاصة أنه أصبح سلعة فريدة لها قيمتها فى التجارة مع الغرب. وتلك الطرق هى الأكثر احتمالاً فى ذلك الوقت. فاليونان ومن بعدهم الرومان عرفوا الـ «سيريس» على أنهم أهل الشمال الذين يمكن الوصول إليهم عن طريق البر ويشغلون أراضى تقع بين سيشيا والهند.

وربما وصل بعض الحرير إلى غرب آسيا عن طريق الهند فى ذلك الوقت. فبعد قرنين

نعرف أن بعض الأقمشة الهندية (قد تكون الحرير) وجدت فى بلخ، حيث جىء بها من جنوب الصين عبر بورما عن طريق خليج البنغال (والاحتمال الأضعف عن طريق البر عبر جنوب شرقى آسيا) إلى الهند ومنها إلى بلخ. وكان ذلك طريقاً قديماً يحتمل أنه كان يعمل فى ذلك الوقت. وإذا كان الأمر كذلك، فربما يكون هذا هو مصدر الشائعة التى تقول إن الهنود اكتشفوا طريقة صنع الحرير. وبالمثل ربما يكون بعض الحرير وصل الغرب، خاصة مصر، عبر طريق التوابل الذى كان قد مضى على إنشائه وقت طويل فى ذلك العهد. ولكن الصينيين الجنوبيين، الذين اتصلوا بالغرب عبر تلك الطرق، كان يطلق عليهم «سينى» أو «تينى». ولم يدرك أهل الغرب عامة أن الـ«سيريس» والـ«سينى» كانوا سكان نفس البلاد إلا بعد عدة قرون. لذلك فإن الطرق الآسيوية البرية قد تكون هى التى حملت كميات الحرير الصغيرة التى وصلت إلى الغرب، لأن رأى الذى ساد العصور الكلاسيكية هو أن الـ«سيريس» قوم شماليون.

والواقع أنه من المحتمل أن يكون اليونان اعتبروا وسطاء آسيا الوسطى هم منتجو الحرير السريون. (وبالمثل، كانت بعض شعوب بلاد ما بين النهرين تطلق على الحرير اسم «ميدى»، حيث كان الميديون الحلقة الأخيرة فى سلسلة توريده). والقليل الذى عرفه اليونان عن الـ«سيريس» كان خيالاً أكثر منه حقيقة. فعلى سبيل المثال ذكر طبيب يونانى فى أحد القصور الفارسية فى حوالى سنة ٤٠٠ قبل الميلاد:

يقال إن الـ«سيريس»، والهنود الشماليين شديداً الطول، حيث إن المرء يلتقى برجال يصل طول الواحد منهم إلى ١٣ ذراعاً. وهم يعمرّون أكثر من ٢٠٠ سنة.

ومن المؤكد أن منتجى الحرير كانوا فى مكان قصى وكان منتجهم والمعلومات الخاصة بهم تمر خلال بلاد كثيرة. ولا يحتاج المرء إلا أن يلعب لعبة النميمة الشهيرة ليفهم الطريقة التى خرجت بها تلك الحكايات الغريبة من الشعوب التى تعيش بعيداً عنهم وحكايات هيرودوت عن هذا الموضوع. وكان شائعاً بين التجار الأوائل أيضاً أن ينشروا معلومات ملفقة ليحموا بذلك مصادر تمويلهم.

والحقيقة أنه ليس هناك إجماع على أن الحرير وصل الغرب فى تلك القرون. والبعض لا يعطى أى أهمية لتلك الأدلة الضعيفة جداً عن الحرير والمعارف الخاصة بذلك النسيج، إذ يعتقدون أنها مجرد سوء تفسير أو مغالاة فى الحقائق حدثت فى وقت لاحق. (بل إن

البعض يقول إننا لا يمكن أن نتأكد من وصول الحرير إلى غرب آسيا حتى سنة مائة قبل الميلاد تقريباً، عندما عبر جبال البامير أول مبعوثين صينيين معروفين). إلا أن هذه تبدو وجهة نظر تتسم بالمبالغة. وبغض النظر عن أى شيء آخر، فإن الترحيب غير العادى الذى لقيه هؤلاء المبعوثون الصينيون الأوائل عندما وصلوا الهضبة الإيرانية (كما سنرى) لن يكون ذا مغزى إلا إذا افترضنا وجود معرفة تسبق ذلك بعطايا الصين الفريدة ورغبة شديدة فى الحصول عليها.

وفيما عدا ذلك يصعب علينا تصديق أن السلاسل التجارية عبر القارة، التى كان قد مضى عليها آلاف السنين، لم تكن مستمرة فى عملها، رغم انقطاعها من وقت لآخر أو تعطّلها بسبب القلاقل التى قامت بها قبائل البدو فى آسيا الوسطى. ويبدو أنه فى تلك القرون نُقلت زراعة القمح إلى الصين من الغرب. وهو ما يعنى وجود اتصال مستمر بين الشرق والغرب، بغض النظر عن ضآلته. وفى كتابه «تجارة آسيا التقليدية» (The Traditional Trade of Asia) يشير سى. جى. إف. سيمكن إلى أنه اعتباراً من القرن الثامن قبل الميلاد شهدت الصين تقدماً اقتصادياً سريعاً:

حل الحديد محل البرونز حتى فى الأدوات العادية... تطور الرى بصورة كبيرة... أصبح الحرير من الوفرة بحيث حل هو والسبائك المعدنية محل الأصداغ الصفراء كوسيط للمقايضة ونمت التجارة بسرعة وأصبحت المدن مراكز تجارية. ويعود بعض هذا النمو إلى الاتصال بالهند أو إيران. ومن الواضح جداً أنه حدث عقب توحيد دارا لغرب آسيا وجزء من شمال الهند.

ورغم عدم توافر الدليل المفصل على ذلك، فإن الشيء الذى يمكننا أن نستشفه بقوة هو أن تجارة المقايضة ظلت تربط الصين بالغرب.

وليس معلوماً إن كان الإسكندر قد علم قدرأ من الحقيقة عن الصين أم لا. كما أننا لا ندرى إن كان قد فكر فى عبور جبال البامير وقطع الفياقى أو اختراق السهوب الواقعة بعد نهر سيحون ليصل إلى أرض الـ «سيريس» الذين تُروى عنهم الحكايات أم لا. إلا أنه إذا كان تمنى ذلك بالفعل، فإنه ما كان ليأخذ جيشه معه. لأن جنوده أصبحوا غير راضين عن أساليبه الآسيوية أكثر وأكثر.

وعلى أية حال، كانت الصين الأقرب والأكثر ثراء. وكما فعل دارا قبله، اندفع

الإسكندر إلى الجنوب الشرقي عبر وادي كابل ثم اتجه إلى شمال الهند. وفي ذلك الوقت كان هناك اعتقاد بأن أنهار الهند قد تكون منابع للنيل. لذلك كان الإسكندر يأمل في أن يحقق حلمه الخاص بإحاطة «العالم المعروف». غير أن الجيش أبى أن يتقدم وأجبره على العودة، قبل أن يعبر أنهار البنجاب الخمسة. وبعد أن ترك الإسكندر حكاماً يونان في شمال غربي الهند، وهو ما دأب عليه في غيرها من بلدان، اتخذ الطريق الصحراوي بمحاذاة الخليج الفارسي إلى صوصا. وهناك تزوج مرة أخرى، وكانت زوجته هذه المرة ستاتيرا ابنة دارا. ودامت احتفالات العرس العظيمة خمسة أيام تزوج خلالها أيضاً عشرة آلاف من جنوده وعشرات من قادته زوجات آسيويات. ومن هناك دخل الإسكندر طريق الحرير مرة أخرى عند إيكبتانا التي مات فيها صديقه هيفايستوس وكانت مراسم دفنه على قدر كبير من الفخامة. وعاد الإسكندر نفسه إلى بابل التي مات فيها نتيجة لإصابته بحمى شديدة مفاجئة في ربيع سنة ٣٢٣، أي بعد إحدى عشرة سنة من وصوله آسيا.

ومع أن الإسكندر حكم البلاد مدة تقل عن عشر سنوات، ولم يستمر حكم اليونان في بعض الأماكن بعد وفاته أكثر من خمسين سنة، فإن الحكايات التي تتحدث عن بطولاته وشجاعته ظلت تتردد في آسيا قروناً طويلة. (بل إن هناك من يزعم أن إمبراطوريته أوحى بفكرة أول وحدة تجمع دول الصين المتفرقة). وليكن الأمر ما يكون. فالتأثيرات الهلنستية التي جاء بها إلى المنطقة دامت قروناً عديدة ثم انتشرت بعد ذلك على طول طريق الحرير، ذلك الطريق العظيم الذي كان قد أوشك على أن يفتح بكامله متجهاً إلى الشرق.

في بادئ الأمر أدت الحروب الأهلية التي وقعت بين خلفاء الإسكندر إلى تمزيق الوحدة الهشة التي فرضها هو على المنطقة. فهؤلاء الخصوم فتتوا الأراضي التي اكتسبها الإسكندر. وبحلول سنة ٣٠٠ قبل الميلاد كان النصف الغربي من طريق الحرير في يد رجل واحد، هو سلوقس نيكاتور الذي كان له النصيب الأكبر الذي شمل أفغانستان وبلخ وفارس وما بين النهرين وأرمينيا وسوريا وبعض أجزاء من الأناضول. وكان منافسه الرئيسي في غرب آسيا هو بطليموس، الذي كانت الإسكندرية درته، وكان أيضاً يسيطر على المدن الفينيقية الساحلية ذات الأهمية الكبرى. يضاف إلى ذلك أن بطليموس كان يسيطر على الطرف الغربي من طريق التوابل القادم من الهند الذي زادت أهميته.

وكثيراً ما كان التنافس التجاري بين إمبراطوريتي السلوقيين والبطالمة يشتد. وكانت

الاحتكارات التي تحدث من حين لآخر وراء التعجيل بهذا التنافس . فقبل فتح طريق التوابل بصورة كاملة أمام البحارة اليونان القادمين من مصر ، كان السلوقيون يتحكمون فى كمية الحرير المتناهية فى صغرها التى تأتى من الشرق . وفى الوقت نفسه سيطر البطالمة على مصانع صباغة الأرجوان الشهيرة فى فينيقيا . وسعى السلوقيون سعياً حثيثاً للتخلص من اعتمادهم على المدن البطلمية . إلا أنه رغم جهودهم تلك كانت البضائع الآتية من طريق الحرير كثيراً ما تجد طريقها إلى المدن الفينيقية للتكرير والتوزيع .

وسيطر خلفاء آخرون للإسكندر على الطرف الغربى من الأناضول ، بما فى ذلك المدن اليونانية التجارية القديمة على بحر إيجه إلى جانب شرق تراقيا واليونان . ولكن لم يكن هناك ما يشير إلى أن السلوقيين سوف يشاركونهم التجارة ، إذ لم تكن بهم حاجة إلى ذلك . وكانت النتيجة أن الطرق الرئيسية القديمة الواقعة فى الأناضول تقلصت . ورغم احتفاظها بأهميتها المحلية ، لم تعد المحطات الأخيرة لطرق القوافل العظيمة طويلة المدى . لذلك جعل السلوقيون من سوريا المركز الرئيسى الغربى لطريق الحرير .

ونتيجة لذلك أنشأ السلوقيون تلك المدينة التى حددت الطرف الغربى للطريق القارى طوال القرون التالية ، وهى أنطاكية . تأسست أنطاكية سنة ٣٠٠ قبل الميلاد وهى تتميز بموقعها الممتاز بكل المعايير . فهى تبعد عن البحر المتوسط بعشرين ميلاً ويخدمها العديد من الموانئ الواقعة على خليج ايسوس على مر القرون . وتقع أنطاكية على نهر العاصى الذى يمثل واديه طريقاً طبيعياً إلى البحر . وكان الطريق الأناضولى من طرسوس يبدأ أيضاً عند السهول القريبة من أنطاكية عبر ممر بيلان ، وكانت الطرق التى تتفرع من تقاطعات طرق الفرات المختلفة ، وخاصة زوغما وسمسطا وتاباسكوس ، تتجمع بالفعل فى هذا المكان من خلال الأودية التى فى المنطقة . وقيل إن الإسكندر أقام معسكراً على موقع أنطاكية . بل إن الموقع يرتبط ببعض أبطال اليونان الأسطوريين من العهود القديمة ، حيث كان اليونان يمارسون التجارة فى تلك البقعة .

وكانت أنطاكية ذات شوارع متقاطعة وبها شارعان رئيسيان ، أُقيمت على جوانبهما الأعمدة وكانا يتقاطعان فى وسط المدينة . وكانت هذه المدينة وقلعتها تطلان على شاطئى النهر . وسرعان ما أُضيفت مدينة أخرى ذات أسوار إلى هذه المدينة ، ثم أُلحق بهما حيان آخران تحيط بهما الأسوار . وبحلول القرن الثانى قبل الميلاد أصبح الاسم الشائع للمدينة هو «تتراپوليس» (الأربع مدن) . وتحول مسار طريق التوابل القديم ، الذى ظل زمناً طويلاً ينقل

القوافل من جنوب الجزيرة العربية إلى حلب، لتصبح نهايته الشمالية هي أنطاكية، التي كانت عاصمة السلوقيين الغربية فترة طويلة من العصر الهلنستي.

وفي الفترة نفسها أنشأ سلوقس مدينة أخرى على نفس القدر من الأهمية، وهي سلوقية الواقعة على نهر دجلة. ورغم أنه أقام في بابل في بادئ الأمر، كما فعل الإسكندر، فسرعان ما قرر إقامة مدينة يونانية بحق على مقربة منها، كي تحل محل بابل المدينة القديمة التي فقدت رونقها. وكانت العاصمة الشرقية الجديدة سلوقية تقع عند مصب القناة الملكية، التي كانت في ذلك الوقت تربط نهري دجلة والفرات في الجزء الذي يقتربان عنده من بعضهما. ومن موقعها الذي يبعد خمسين ميلاً شمالاً بابل وخمسة عشر ميلاً جنوبى بغداد الحالية، أصبحت المدينة الجديدة أهم مدينة ملتقى طريق في بلاد ما بين النهرين، بل والوحيدة في ذلك الوقت التي تقع في الصحراء شمال غربى أنطاكية. ومن سلوقية كانت بعض القوافل صغيرة الحجم تتجه إلى دمشق عن طريق المدينة الواحة بالميرا (وتعرف أيضاً باسم تدمر)، أو عبر أراض أشد قحطاً وجفافاً إلى مدينة البتراء التي تحيط بها الجبال، لتصل ببضائعها إلى الإمبراطورية البطلمية. بينما كانت هناك قوافل أخرى تسير بمحاذاة الأنهار لتصل إلى الخليج الفارسي. وكان هناك طريق جنوبى من الهند يتقاطع مع سلوقية. إلا أن السلوقيين حاولوا قدر استطاعتهم الاحتفاظ بسيطرتهم على كامل الطريق، حيث حولوه إلى ميناء أنطاكية.

وكانت أنطاكية وسلوقية اثنتين من أهم مدن الشرق الأدنى، ولكنهما لم تكونا فريديتين في اسميهما. فقد شيدت مدن كثيرة على نخطهما أو أعيد بناؤها أو جرى توسيعها وأعطيت أسماء جديدة في أنحاء الأراضى السلوقية، بل في أنحاء الإمبراطورية الهلنستية. فقد أقيمت ست عشرة مدينة على الأقل تحمل اسم أنطاكية، كما أطلق الاسم على مايزيد على عشر مدن أخرى. وربما يكون هناك الكثير من الإسكندريات، التي أسس الإسكندر نفسه بعضها وسُمى البعض الآخر باسمه. وكان هناك ما لا يقل عن ثمانى مدن تحمل اسم سلوقية. وكان اليونان يعملون في البحر منذ قرون طويلة. لذلك تدفقوا من منطقة بحر إيجه لاستعمار الأراضى التي فتحها الإسكندر. وكان خروجهم من وطنهم الفقير، جنوداً وفلاحين وصناعاً وإداريين وأطباء، وراءه أمل في حياة جديدة أكثر ثراء. وكما حدث مع كثير من المستوطنين في الغرب الأمريكى بعد الحرب الأهلية، أعطيت للمستعمرين الأرض الزراعية والمسكن والبذور والماشية. وكانت هذه الإغراءات تهدف أساساً إلى تشجيع

المستعمرين الجنود على الاستيطان في أجزاء الإمبراطورية النائية والأكثر خطورة، بما في ذلك الأجزاء الواقعة على طريق الحرير من بلاد فارس وبلخ. ولحق بالمستعمرين اليونان أقوام غيرهم من تراقيا والأناضول وسوريا وبلاد ما بين النهرين. وسلكوا جميعاً طريقهم على امتداد طريق الحرير إلى بلخ ومابعداها.

وكانت القلعة بما فيها من حامية معلماً ثابتاً في المدن التي اتسمت بالصبغة الهلينستية، سواء كانت مدناً أقيمت حديثاً أو شُيّدت بجوار المدن الآسيوية القديمة. وأعيد بناء إيكبتانا كمدينة يونانية. وإلى الشرق منها برزت مدينة يوروبوس بروزاً مؤقتاً بالقرب من الري. وفي منطقة أبعد إلى الشرق منها أقيمت مدينة ذات أسوار لها أبواب عديدة أطلق عليها هيكاتومبيلوس (أي المائة بوابة). وفي الطريق الأقل خطورة بين سلوقية وأنطاكية أقيمت مدن أخرى ذات أسوار على حافة الصحراء، أشهرها دورا يوروبوس عند منتصف نهر الفرات. وصارت لها أهمية فيما بعد لكونها غرفة مقاصة حدودية. وكل هذه المدن لم توفر الأمن على امتداد طريق التجارة فحسب، بل كانت في الوقت نفسه أماكن توفر المأوى والمؤن للقوافل المسافرة. وأصبح بعضها مدناً حرة لها دساتيرها الخاصة بها ولم تكن المواطنة فيها قاصرة على اليونان. فعلى سبيل المثال كانت مدينة سلوقية الحرة تضم بين سكانها العديد من المواطنين السوريين واليهود.

وبالطبع لم تكن تلك المدن يونانية خالصة، مع وجود هذا الخليط من الشعوب. وظلت اللغة الأرامية زمناً طويلاً لغة الحياة اليومية، خاصة في السهول. بينما كانت الفارسية لغة الحياة اليومية في المرتفعات. إلا أن اللغة اليونانية كانت لغة السلطة، لغة الإدارة والقصور، لغة الطامحين، لغة الأدب والفلسفة والعلوم السائدة. وكانت نتيجة ذلك أنه في المدن الواقعة على الطرق الرئيسية، على الأقل، أصبحت اليونانية شيئاً فشيئاً لغة العمل الشائعة، التي يتحدث بها المسافرون والتجار في أنحاء البلاد الهلينستية. ويخلاف اللهجات التي يتحدثها اليونان والمقدونيون القادمون من أنحاء مختلفة من بلاد اليونان، ظهرت لغة موحدة جديدة على قدر من السهولة، أطلق عليها Koine dialektos (اللغة الدارجة) أو مجرد Koine. وكانت تلك اللغة غير خاضعة للحدود السياسية. فمن الممكن أن تجدها في سوق بلخ أو في بلاط فارسي أو في مكتبة بالإسكندرية أو في معبد يهودي (حيث كانت لغة التوراة السبعونية، وهي الترجمة اليونانية للعهد القديم التي تمت في سنة ٢٥٠ قبل الميلاد تقريباً). وشيئاً فشيئاً حلت اللغة الدارجة Koine محل اللغة الأرامية لتصبح اللغة المشتركة على طريق الحرير.

ومع اللغة اليونانية، جاء الفن اليونانى والثقافة اليونانية. لم يكن هناك ما يجبر سكان الإمبراطورية الهلينستية على التحدث باللغة الدارجة Koine. ولم يكونوا أكثر اضطراراً إلى اتباع الأنماط الفنية اليونانية. ولكن فى ظل سيادة اليونان، وكون الثقافة اليونانية الأمل الوحيد للتقدم، واختراقها الكامل للمنطقة، أثبتت الأساليب الهلينستية على نطاق واسع. وتعد مدينتا القوافل تدمر والبتراء مثالين واضحين للأثر اليونانى فى العمارة. ففى تدمر مازال بإمكان أى مسافر حديث أن يرى آثار الشوارع العظيمة التى تقف على جوانبها الأعمدة والمباني الحجرية العظيمة، وكلها على النمط اليونانى. وكذلك الحال فى البتراء، حيث حُفرت فى صخور المنطقة الرملية.

ونُقلت الأساليب الفنية اليونانية أيضاً من خلال العملات الهلينستية. إذ استبدل الإسكندر العملات المحلية القديمة بعملات موحدة للإمبراطورية تزينها صورته. وكانت تلك العملات خاضعة لرقابة شديدة، من حيث وزنها ونوعية المعادن الثمينة التى كانت تعجب بها شعوب آسيا الوسطى. وعلى وجه الخصوص، نجد أن الهنود، الذين كانوا فى تلك الفترة فى سبيلهم لأن يصبحوا قوة تجارية لها وزنها بفضل ما أشاعه اليونان من سلام وجاءوا به من مهارة تجارية إلى المنطقة، على قدر كبير من الإعجاب الذى جعلهم يتخذون النقود اليونانية عملة تجارية لهم. وكانت العملة فى الغالب من الذهب فى أول الأمر. ولكن بعد أن تقلصت واردات الذهب السبيري، استخدم السلاجقة العملات الفضية والنحاسية بصورة أكبر. وكان رأس الإسكندر الذى على تلك العملات من الشهرة بحيث ساعد على انتشار أسلوب الفن اليونانى فى أعماق الهند. وسرعان ما أثر الفن اليونانى على البوذيين، الذين حملوا الأساليب الهندو يونانية فى التصوير والعمارة إلى أنحاء آسيا، بل إلى داخل اليابان. وليس مستغرباً أن دور سك العملة نفسها أُقيمت على الطرق الرئيسية فى أماكن مثل سلوقية وإيكبتانا وبلخ.

لم يستمر الجزء الشرقى من فتوحات الإسكندر طويلاً تحت الحكم السلوقى. فقبل أن ينتهى خلفاء الإسكندر من صراعهم على السلطة سنة ٣٢١ قبل الميلاد، كان الهنود بزعماء تشاندراجوبتا قد استعادوا أراضيهم الشمالية. ولم يبذل سلوقس جهداً فعالاً فى الاستيلاء على تلك الأراضي من جديد. فمن المؤكد أنه كان مشغولاً بالمنافسين اليونان الآخرين. ولكن يبدو أنه بالإضافة إلى ذلك كان يفضل أن تكون له علاقات تجارية مفيدة مع هند

قوية لها أهميتها. وكان ذلك هو حال الهند لأول مرة منذ عدة قرون. فالدويلات التي كانت تمزق شمال الهند، منذ قدوم الغزاة الآريين قبل ألف سنة، اتحدت معاً لتشكيل الإمبراطورية المورانية القوية التي كان يمر خلالها طريق رئيسي، ظهر الآن كشريك كامل لطريق الحرير. ومن خليج البنغال شرقاً كان الطريق الهندي الكبير ينطلق على امتداد وادي نهر الجانج عبر سهول البنجاب، ومعناها الحرفي «الأنهار الخمسة» التي تتجمع معاً لتكون نهر السند، ليصل إلى بلخ خلال التلال الأفغانية وعبر ممر خيبر ووادي نهر كابول.

وحقق الهنود مكاسب من اتصالهم بكل من الفرس واليونان. ويتجلى ذلك في إدارتهم للطريق العظيم الذي يصل طوله إلى ٢٦٠٠ ميل. وكُلف مسئول تابع للدولة بمهمة الإبقاء على الطريق في حالة جيدة، حيث يوفر المعابر والعبارات حيثما تكون هناك حاجة إلى ذلك. كما وُضعت اللوحات الإرشادية وعلامات الطرق لإرشاد المسافرين وحُفرت الآبار وغُرست الأشجار كي توفر لهم الماء والظل. وعملت أطقم الطرق على تطهير الطريق من العوائق كالأشجار والصخور. في حين أُعدت أماكن لإيواء المسافرين وإرشادهم، سواء كانوا تجاراً أم حجاجاً أم مغامرين. وأقيمت المحطات ونقاط الحراسة لخدمة الرسل الملكيين، على نمط البريد الملكي في بلاد فارس. وحتى الدبلوماسيين اليونان المقيمين في البلاط الهندي امتدحوا رعاية المورانيين للطريق العظيم.

أما اليونان فأدخلوا تحسينات كثيرة في الأراضي التابعة لهم، حيث وفروا المزيد من الأماكن التي يأوى إليها المسافرون، مع وجود حاميات من الجنود الفلاحين توفر الحماية والمؤن على الطريق. وأقيمت نقاط الإرشاد لوصف خط السير والمحطات على طول الطريق كي ينتفع بها التجار والمسؤولون الحكوميون وغيرهم من المسافرين. كما أدخل التجار اليونان الذين ساهموا في استعمار طريق الحرير بعض التحسينات الأخرى أيضاً. فقد ثبت أن المحاسبة والأساليب التجارية اليونانية أكثر فاعلية من مثيلاتها الفارسية. كما أن خبرة اليونان، التي تعود إلى سنوات طويلة من التجارة البحرية في البحر المتوسط، جعلتهم أقدر على إقامة تجارة عالمية بعيدة المدى، ليس فقط مع سوريا، بل أيضاً مع أوروبا.

ومن بين كل البلاد الخاضعة لليونان، لم يستفد بلد من تلك التحسينات بقدر استفادة بلخ، الواقعة عند رأس الطريق العظيم الهندي. وعندما شعر أهل بلخ بقوتهم سنة ٢٥٠ قبل الميلاد، إلى جانب شعورهم بأن السلوقيين بعيدون عنهم، لوجود عواصمهم في بلاد ما بين النهرين وسوريا، انفصلوا وأقاموا مملكتهم المستقلة. وفي تلك الفترة كانت بلخ لاتزال

تنعم بالقنوات والحدائق الغناء التى أقامها الفرس، مما أكسبها أسماء مثل «أرض المائة مدينة» و«جنة على الأرض».

ولكن أثر انفصال بلخ لم يكن هو الأمر المنتظر على وجه الدقة. فعلى الهضبة الإيرانية استمرت القبائل الإيرانية فى معارضتها للحكم اليونانى. وبعد سنة ٢٥٠ قبل الميلاد مباشرة قاد أبناء إحدى هذه القبائل، وهم البارثيون، تمرداً ناجحاً وأقاموا مملكة مستقلة على طريق الحرير. وفى تلك الفترة انقطع ما يصل السلوقيين من ذهب سيبيريا. وفى العقود التالية وسع البارثيون أملاكهم على الجزء الواقع فى الهضبة من طريق الحرير، حيث جعلوا من المدينة اليونانية السابقة هيكاتومبيلوس عاصمة لهم. وحاول السلوقيون استعادة الجزء المهم من الطريق الواقع جنوب بحر قزوين، لكنهم لم يحققوا سوى نجاح مؤقت. كما كانوا يواجهون ضغوطاً فى أماكن أخرى من قبل البطالمة، الذين كانوا يسعون فى تلك الفترة للاستيلاء على الموانئ السورية.

ورغم هذا الصراع، فإن التجارة لم تستمر فحسب، وإنما ازداد حجمها. إذ أدرك كل من السلوقيين والبارثيين عظم الفوائد التى يمكن أن يجنوها. وكما يحدث دائماً، أمدت شعوب الهضبة السهول بالخيول والمعادن والجواهر. إلا أنه أضيف إلى ذلك السجاد والمنسوجات الصوفية الجميلة والأدوات المعدنية والعقاقير والذرة، بل والكلاب الأصيلة. وعلاوة على ذلك، كانت هناك أيضاً الأقمشة الحريرية والقطنية والموسلين والتوابل والعقاقير والأصباغ التى سوف تميز من الآن فصاعداً حركة السفر بين سوريا والهند وآسيا الوسطى، والصين مباشرة فى وقت لاحق. وبدلاً من رفض التحسينات التى أدخلها اليونان، أثر البارثيون الاستفادة منها. بل إن زعماء البارثيين أطلقوا على أنفسهم Philhellenes (أحباء اليونان). كما أن جزءاً كبيراً من الكتابة الإدارية والتجارية والأدبية فى الإمبراطورية ظل باليونانية. ولقرون طويلة ظل غير اليونان لا يحصلون على أى ألقاب يونانية شرفية إلى جانب أسمائهم العرقية.

كانت هناك تأثيرات أخرى واضحة فى تلك المنطقة. إذ اعتنق أسوكا، حفيد تشاندرا جوبتا وآخر حكام الأسرة المورانية فى الهند، البوذية بعد سنة ٢٦١ قبل الميلاد. وبتشجيع منه، سرعان ما انتشرت الديانة الجديدة فى أنحاء الهند وما تلاها إلى الشرق حتى البحر. والواقع أن البوذية نسخة معدلة من الهندوسية، كما كانت الزرادشتية نسخة معدلة من

الديانة الفارسية القديمة. وكان أسوكا شديد الحماس في الدعوة إلى دينه الجديد مما جعله يرسل البعثات التبشيرية على طول الطريق الهندي العظيم وعبر الجبال وعلى طول طريق الحرير لاجتذاب أتباع جدد. ولم تصل البعثات التبشيرية إلى قصور في سوريا ومصر فحسب، بل إنها تعدت ذلك إلى العالم الهلينستي، إلى مقدونيا وكريت وكذلك إلى إبيروس على البحر الأدرياتيكي. وتسجل الحوليات الصينية وصول البعثات التبشيرية البوذية في حوالي سنة ٢٢٠ قبل الميلاد. وقد يكون ذلك عن طريق هضبة التبت شديدة البرودة والارتفاع، التي يقع عليها طريق يهبط عند كوكو نور (البحيرة الزرقاء) إلى عمر كانسو. ويبدو أن أياً من تلك البعثات لم يكن له أثر دائم.

وتذكر إحدى أساطير التبت أن أسوكا نفسه زار مدينة خوتان في حوض التاريم. وتقول أخرى إن المدينة نفسها أسسها ابن أسوكا. وتوصلت حفائر عالم الآثار مارك أوريل ستاين في المدن الواحات القريبة من خوتان إلى بعض الألواح المكتوبة بحروف هندية قديمة. وربما يدعم هذا فكرة إقامة البوذيين في التاريم في عهد أسوكا. ووجدت وثائق بحروف مشابهة شرقي لولان مع بعض الرسومات المحفورة على الخشب بالأسلوب اليوناني البوذي، الذي أصبح شائعاً بعد ذلك. ومن المؤكد أن خوتان أصبحت مركزاً للثقافة البوذية الهندية لقرون عديدة. وفي حالات كثيرة كانت تلك البعثات التبشيرية البوذية تنبئ عن التأثير الحقيقي والبالغ الذي سيكون للبعثات التي تأتي بعدها في القرون التالية.

وليس واضحاً على وجه الدقة ما آلت إليه المملكة البلخية في تلك الفترة الوسيطة. فبعد أن توصل أهل بلخ إلى حالة من التعادل مع البارثيين في الهضبة الإيرانية، حولوا اهتمامهم إلى الجنوب والشرق. وفي الجنوب انهارت الإمبراطورية المورانية بسرعة بموت أسوكا سنة ٢٣٢ قبل الميلاد، وهو الحدث الذي اعتبره اليونان من أهل بلخ في مصلحتهم. فبعد قرنين من ذلك، وفي زمن المسيح تقريباً، كتب الجغرافي والمؤرخ اليوناني سترابو يقول:

... اليونان الذين قاموا بتمرد [بلخ] أصبحوا ذوي نفوذ بسبب خصوصيتها ومزايا الريف حتى أنهم أصبحوا سادة أريانا [بالقرب من هيراة الحالية] والهند... وحدوا إمبراطوريتهم حتى الـ «سيريس» والـ «فوني».

والإشارة الأخيرة مسألة تثير الاهتمام. فقد أوجت لبعض المراقبين بأن أهل بلخ مدوا

منطقة نفوذهم عبر جبال البامير إلى حوض التاريم، حيث التقوا بالقوم الذين عرفوهم على أنهم موردو الحرير، اعتقاداً منهم بأنهم أيضاً منتجو الحرير، أو «سيريس». وربما يكون الـ «فوني» الصيغة الغربية لكلمة شيونج نو (القبائل المربعة). وهو الاسم الذي عرف به الصينيون المقاتلين البدو الشرسين في الشمال والغرب.

في تلك الفترة كان الشيونج نو - وهم قوم يجمعون بين الأصول الهندوأوروبية والمغولية، وربما كانوا أسلاف الهون الذين أثاروا المتاعب لأوروبا فيما بعد - يتوسعون بسرعة محركين كل قبائل البدو في سهوب آسيا، التي انطلقت في كل اتجاه. وكثير من شعوب حوض التاريم وممر كانسو إما خضعت لهم أو اندفعت غرباً، حيث استولى الشيونج نو على معظم المراعى الجيدة. وفي ظل هذه الظروف انقطعت شبكة التجارة الواهية التي امتدت على طول طريق الحرير، أو على الأقل أصابها خراب شديد. وفي أواخر القرن الثالث قبل الميلاد حاول ملك واحد من ملوك بلخ، وهو يوتيديموس، الوصول إلى «سيريس» مباشرة في حملة سارت عبر السهوب لتدور حول جبال البامير وشمال جبال تيان شان. ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل. حيث أوقفهم الشيونج نو.

وتعرض يونان بلخ أنفسهم لضغوط شديدة من جانب قبائل بدو السهوب. فقد كانوا بمثابة منطقة عازلة لكل من البارثيين والهنود، حيث صدوا عنهم الغزاة سنوات عديدة قبل أن تسلبهم استقلالهم في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد مجموعة من قبائل البدو الهندوأوروبية تسمى «ساكي» (التي سرعان ما دانت لقبائل بدو مهاجرة من آسيا الوسطى). واتجهت فلول يونان بلخ جنوباً إلى وادي نهر كابول، وبالأخص إلى مدينة تاكسيلا التجارية الواقعة عند رأس أحد الممرات التجارية الجبلية من حوض التاريم عبر كشمير، وبقيت هناك لتكون لها دور آخر في تاريخ المنطقة. وترك الأمر للصينيين كي يفتحوا النصف الشرقي من طريق الحرير.

في القرون التي كان فيها الفرس واليونان والهنود يشيدون إمبراطوريات مركزية وطرقاً فخمة، كان الصينيون شعباً إقطاعياً مقسماً إلى كثير من الإمارات الصغيرة. والواقع أن الحقبة التي تلت انهيار أسرة تشو في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد تسمى عصر الدول المتحاربة. وكأى من عصور التاريخ المضطربة، أفرزت هذه الفترة بعض الشخصيات ذات التأثير والطاقة غير العاديين. من هؤلاء الفيلسوف البارز كونج فو تزو (كونج المعلم) الذي

يعرفه الغرب بكونفوشيوس^(١). وأكدت تعاليم كونفوشيوس على تبجيل الماضي وطرق الحكم القديمة والأسلاف والنظام الكونى الذى يعد فيه الإمبراطور «ابن السماء». وعلى المستوى الشخصى، كثيراً ما يتم التعبير عن ذلك فى شكل من أشكال الاحترام والفروسية التى قد ترتبط بالقيم الإقطاعية الأوروبية. وفى تلك الفترة وُضعت الأنماط الأساسية للثقافة الصينية، وكان أتباع كونفوشيوس هم أكثر من شارك فى ذلك. إلا أن مزاج تلك الفترة كان يختلف اختلافاً جذرياً مع المثل الأعلى الكونفوشى.

ويتميز عصر الدول المتحاربة بوحشيته غير العادية. ففي القرون التى تلت سقوط أسرة تشو مباشرة، انتشرت قواعد حروب الفروسية، رغم أن المعارك الضخمة التى كانت تشارك فيها العجلات والرماح كانت أموراً دموية. إلا أنه بمرور القرون أفسحت أشكال القتال التى كانت أقرب للطقوس الطريق لأعمال القتل الجماعية، حيث كانت تُقطع رؤوس الآلاف من الرجال والنساء والأطفال فى أى مدينة يدخلها الغزاة. وفى ذلك العصر من الحروب الشاملة، ابتكر الصينيون تقنيات الحصار، فاخترعوا آلات الحصار والأبراج المتحركة والمنجنيق، مما أتاح لهم شن الهجمات على المدن المحصنة.

إلا أن الصينيين لم يقصروا قتالهم على بعضهم البعض. فقد كان الشيونج نو يهاجمون حدود الصين الشمالية. كما أن فرسانهم القادرين على شن الغارات السريعة استطاعوا مباغته القوات الراكبة الصينية الثقيلة ومحاصرتها وقتما يشاءون، على ما يبدو. وفى إطار الدفاع عن النفس، بدأ الصينيون تكوين قوات الرماة الراكبة على وجه السرعة، خاصة فى تلك الدويلات الواقعة فى الشمال والغرب. وفى الوقت نفسه أخذوا من شعوب السهوب السراويل والسترات القصيرة الملائمة لركوب الخيل، وإن استمروا فى ارتداء الأثواب الطويلة الفضفاضة فى الأغراض التى تتعلق بالمراسم.

وللغرض نفسه بدأت العديد من الدويلات الصينية فى إقامة الأسوار منذ القرن الرابع قبل الميلاد، لصد الغزاة البدو الذين لم تكن لديهم أدوات الحصار التى تمكنهم من اختراقها. كما أن الصينيين استمروا فى محاولاتهم لشراء السلام مع البدو الذين على حدودهم بالهدايا السخية والتحالفات العسكرية، وهى ممارسات استمرت زمناً طويلاً. ويبدو

(١) عاش فى الفترة من ٥٥١ إلى ٤٧٩ وأسس الكونفوشية كمذهب أخلاقى فى أساسه ولكنها تأثرت بعناصر دينية مستمدة من العقائد التى سبقتها. وكانت رؤيته كمنظر سياسى تتسم بالمحافظة. كما كان يقول إنه ينقل ما تعلمه دون أن يخترع شيئاً من عنده. (المترجم).

أن مسئولاً صينياً، كان مرافقاً لإحدى الأميرات الصينيات إلى خطيبها من الشيونج نو سنة ١٧٠ قبل الميلاد، عنَّ له سؤال عن تلك السياسة وحاول لفت إنتباه الشيونج نو إلى ضرورة الحفاظ على حريتهم. وكانت هذه نصيحته لهم:

إن عددكم أجمعين لا يكاد يبلغ مقدار اثنتين من المقاطعات الصينية. إلا أن سر قوتكم يكمن فى استقلالكم عن الصين فى كل ماتحتاجون إليه. وأنا ألاحظ أن هناك إعجاباً متزايداً بوسائل الترف الصينية. تذكروا جيداً أن خمس ثروة الصين يكفى لشراء شعبكم بالكامل. إن الحرير والساتان لا يصل إلى نصف مدى صلاحية اللباد لحياتكم الخشنة، كما أن أطايب الصين ليست على نفس القدر من الفائدة التى لحليب الفرس المخمر والجبن.

تلك هى الحقيقة المرة. ولكن الشيونج نو لم يصبهم اللين لاتصالهم بالصين. والواقع أن كثيراً من الحرير، على ما يبدو، اتخذ طريقه إلى الغرب من خلال نظام التجارة القديم من قبيلة إلى أخرى على طريق السهوب الأوراسية، وربما على طريق الحرير أيضاً.

وفى تلك الأثناء وداخل أسوار الصين، وبينما ذابت بعض الدويلات المتحاربة فى عدد قليل من الممالك الرئيسية، ظهرت إحدى الممالك كأكثرها قوة، وهى دولة تشين الشمالية. كانت أكثر الممالك قوة وربما أكثرها دموية. فبعد أن كانوا يحتفظون بالأسرى للحصول على الفدية، صاروا يعدمونهم فى الحال. بل قيل إن بعضهم ألقى به فى قدور الماء المغلى ليصنع منهم حساء يشربه القادة «لزيادة مكانتهم الرفيعة». وكان جنود تشين يتقاضون رواتبهم مقابل مايسلمونه من رؤوس المهزومين التى يُطاح بها بشكل جماعى. إلا أنه من هذا الرعب خرجت قوة توحيد الصين لأول مرة. وكان الأمر لا يخرج عن كونه مسألة جغرافية، كما قال المؤرخ الصينى سيما تشيان^(١) بعد ذلك:

كان لأرض تشين موقع يضمن لها النصر. وكان الوصول إليها صعباً بسبب المانع الذى يحيط بها ويتمثل فى النهر الأصفر والجبال التى كانت ترتفع عن سائر الإمبراطورية. وقد استطاعت بألف رجل أن ترد مليوناً من الرماة. [كان موقعها متميزاً جداً، كما يقول رينيه جروسيه،

(١) توفى سنة ١٤٨ قبل الميلاد وهو صاحب كتاب «المدونات التاريخية» الذى كان شكلاً جديداً من أشكال السيرة الذاتية. (المترجم).

حتى أنها إذا أطلقت جنودها... كانت كمن يصب إبريق ماء من أعلى منزل مرتفع.

وفي سنة ٢٤٦ قبل الميلاد، وفي الفترة التي أعلنت فيها بلخ وبارثيا في الغرب استقلالهما، صارت مملكة تشين في قبضة حاكم جديد، هو الملك تشنج. وفي السنوات الخمس والعشرين التالية ضم كل الممالك الصينية الأخرى التي قامت على نهري وى وهوانج. وفي سنة ٢٢١ قبل الميلاد اتخذ لنفسه الاسم الذي عرف به في التاريخ، وهو تشين شى هوانج دى (أول إمبراطور فى أسرة تشين). وفيما استمر ذلك كأسلوب صينى، تخلى الأباطرة عن أسمائهم الشخصية حيث منحوا أسماء عامة للأسرة. وغالباً ما كان يحدث ذلك بعد وفاتهم. وكان النطق بأسمائهم الشخصية يُعد جريمة.

كان تشين شى هوانج دى حاكماً ذا قدرات غير عادية. فهو الذى وحد نظام الأسوار الدفاعية المتناثرة فى سور الصين العظيم، الذى مده ليحمى الصين من الشمال والغرب، من المحيط الهادى حتى جبال نان شان. وأرسل الإمبراطور كل المنشقين عليه والمجرمين والمشاغبيين من أى نوع إلى مواقع بناء السور العظيم، إلى جانب الجنود الذين يتولون حراستهم وحمايتهم من الغزاة البدو أثناء إقامة السور. وفى الغالب كانت أبراج الحامية تُبنى أولاً، كى يأوى إليها الجنود والعمال إذا دعت الحاجة إلى ذلك. ويعدّها يبدأون فى بناء السور بين نقطتى حدود. وهو أيضاً الذى نقل العاصمة الصينية إلى الغرب لتصبح تشانج آن الواقعة فى مكان استراتيجى يتسع عنده وادى نهر وى ليلتقى بالسهول الصينية الشمالية الواسعة.

أمر تشين شى هوانج دى بتحسين الطرق فى الصين وأقام الجسور لحماية الطرق من السيول وغرس الأشجار لتوفير الظل (وربما من أجل تماسك التربة أيضاً) ووجد طول محاور العربات ذات العجلات (وهى ليست مسألة هيئة ونحن نتحدث عن طرق تربية يمكن أن تنوء تحت العجلات) كما وحد الموازين والمقاييس والقوانين، ومن بينها تلك التى لها علاقة بالتجارة والسفر. والشئ المؤسف أن رغبته فى التوحيد شملت الأدب أيضاً، حيث أصدر أمراً يحرق كل الأعمال التى لا يقرها هو. ورغم نجاة بعض الأعمال من هذا المصير بينها وثائق كونفوشية، فإن هذا الحاكم الجبار يتحمل وزر ضياع معظم سجلات الشعب الصينى القديمة.

ورغم ذلك فإن تشين شى هوانج دى هو مؤسس أول دولة موحدة فى الصين، وهو

الأمر الذى مازال يحظى بالتكريم من أجله فى بلده. كما أنه وضع الشروط الخاصة بتوسع الصين إلى ماوراء حدودها القديمة، لتمتد بعض الشئ إلى داخل أراضى آسيا الوسطى الصحراوية. إلا أن أسرة تشين لقيت بعض المتاعب فى توريث الحكم، وهى المشكلة التى يواجهها الحكام المطلقون. وفى سنة ٢٠٢ قبل الميلاد حلت محلها أسرة هان. وقُدر لهان أن تحكم لمدة أربعة قرون، فى فترة من أعظم فترات تاريخ الصين. وحتى يومنا هذا يصف كثيرون من الصينيين الشماليين أنفسهم بأنهم «أبناء هان». وفى عهد هان تم الافتتاح التام والنهائى للنصف الشرقى من طريق الحرير.



بعض النظر عن قوة تحمل الجمال، كانت جمال كثيرة تنفق في الرحلات شديدة الصعوبة.
 (رسم سفين هيدن، من كتابه *Through Asia* ، ١٨٩٩).

خيول فرغانة السماوية

الخيول السماوية آتية،
آتية من أقصى الغرب
عبرت الرمال المتدفقة
فقد هُزم البرابرة.
آتية الخيول السماوية
التي خرجت من مياه إحدى البرك.
اثنان منها لهما ظهر نمر،
إنها قادرة على تغيير صورتها كالأشباح.
الخيول السماوية آتية
عبر القفار التي لا مرعى فيها
ألف فرسخ بلا توقف،
وهي تسير على الطريق الشرقي
الخيول السماوية آتية...



يعود مايقوم به حالياً لاعبو الأكروبات والحواة الصينيون على الأقل إلى وصول حواة الشرق الأدنى في عهد أسرة هان وفي العصور الرومانية. (من كتاب Zeldzaame Reizen لإدوارد ملتون، أمستردام، ١٧٠٢، وأعيد طبعها في طبعة يول من «ماركو بولو»).

الخيول السماوية التي جاء ذكرها في تلك الأنشودة الصينية، التي تعود إلى سنة ١٠١ قبل الميلاد، سلالة غاية في العظمة من الخيول، وُجِدت في آسيا الوسطى بإقليم فرغانة، بالقرب من أبعد نقطة بلغها الإسكندر في فتوحاته شرقاً. ومن الهند إلى الصين إلى منغوليا ظهرت أساطير عن الخيول التين، وهي خيول مقدسة يُفترض أنها وُلدت في الماء وحملت الحكام شبه الأسطوريين إلى الخلود في السماء. وقيل إن خيول فرغانة، وهي شهباء داكنة تتميز في بعض الأحيان بخطين أو ثلاثة خطوط داكنة على ظهورها، «خرجت من مياه إحدى البرك». وهي لذلك تلى التين المكتمل من ناحية القوة وتمنح أمل دخول الجنة للأباطرة الصينيين. وتستمر الأنشودة قائلة:

افتحوا الأبواب عندما يحين الوقت.
سوف تسحبني [يُفترض أنه الإمبراطور وو] لأعلى وتحملني
إلى جبل كون لون المقدس.
ها قد جاءت الخيول السماوية
وسياتى التين في أعقابها.
سأبلغ أبواب الجنة.
سوف أرى قصر الرب.

ولكى يحصل الإمبراطور وو من أسرة هان^(١)، الذى عاش في القرن الثانى قبل الميلاد، على بعض من تلك الخيول السماوية، أرسل جيشاً عظيماً يضم آلاف الجنود ليقطع مسافة ٢٥٠٠ ميل من الأراضى الصحراوية ويقا تل حاكم فرغانة العدو، فى إطار فتح آسيا الوسطى لتخضع للنفوذ الصينى المباشر لأول مرة. وما يدعو للدهشة هو أن تلك الأراضى البعيدة، التى هاجمها الإمبراطور الصينى بهذا القدر الكبير من الشجاعة، كانت الصين لاتعلم عنها شيئاً قبل ذلك بجيل واحد. أما كيف شق الصينيون طريقهم إلى قلب آسيا، فهذه قصة تستحق أن تُروى.

فى العقود الأولى من عهد أسرة هان كانت «الصين» مازالت تمتد غرباً حتى منابع نهر وى تقريباً، ذلك الوادى الخصيب الذى كان يحمى الإمبراطورية القديمة. وهناك كانت حدودها الغربية التى يرسمها السور العظيم المبنى من الطين ويحمى مزارعى الصين الكادحين وسكان المدن من غارات الغزاة القادمين من سهوب آسيا الوسطى.

(١) حكمت أسرة هان الصين من سنة ٢٠٦ قبل الميلاد حتى سنة ٢٤ ميلادية. (المترجم).

فيما وراء السور، وفي عمر كانسو الصالح للمعيشة، ذلك الشريط الصيني الواقع بين جبال نان شان شديدة الانحدار وصحراء جوبي المخيفة، عاش شعب مسالم إلى حد ما، أطلق عليه الصينيون اسم يويه تشى (أكلة اللحوم). واليويه تشى ينتمون إلى إحدى المجموعات الهندوأوروبية البدوية الكثيرة في آسيا الوسطى. كما أن بعضهم له شعر أحمر نارى وعيون زرقاء. وظلوا زمناً بمثابة عازل يحول دون الهجوم على حدود الصين الغربية. وكانوا أيضاً وسطاء في التجارة بين القبائل، حيث وصلت من خلالهم النفائس كاليشب إلى الصين، والمعادن المصنّعة والحرير إلى الغرب.

في منتصف القرن الثانى قبل الميلاد كان أقوى شعوب سهوب آسيا الوسطى، وهم الشيونج نو، يوسعون مناطق نفوذهم التقليدية ليدخلوا أراضى غيرهم. وتصادف أثناء ذلك أنهم قطعوا السلسلة التجارية التى ظلت زمناً طويلاً تمتد عبر آسيا الوسطى. وشعر الصينيون أنفسهم بضغط ذلك وأوقفوا الشيونج نو خارج السور العظيم بشق الأنفس. إلا أن اليويه تشى كانوا أقل حظاً. فقد شعروا بوطأة هجمات الشيونج نو لعدم وجود مانع ترابى يحميهم. وكتابات سيما تشيان الذى يُطلق عليه أحياناً هيروودوت الصين، وهو واحد فى سلسلة طويلة من المؤرخين الذين سجلوا تاريخ الصين واتصالاتها بالغرب، تروى لنا مصير اليويه تشى:

... استفسر ابن السماء [وكان فى ذلك الوقت الإمبراطور وو] من الشيونج نو الذين استسلموا وصاروا أسرى، وقالوا جميعاً إن الشيونج نو انتصروا على ملك اليويه تشى واتخذوا من جمجمته إناءً للشرب [وهى ممارسة تكررت بين قبائل البدو فى آسيا الوسطى قروناً طويلة]. رحل اليويه تشى واختبأوا فى مكان ما وظلوا يخططون للانتقام من الشيونج نو. إلا أنه لم يكن لهم حليف ينضم إليهم عند توجيه ضربتهم.

وعندما علم ذلك الصينيون، الذين كانوا يعتزمون إعلان الحرب على الشيونج نو ليطردهم من أرضهم، أرادوا توطيد صلتهم باليويه تشى. إلا أن الطريق إليهم كان يمر بأرض الشيونج نو. فدعا الإمبراطور المتطوعين.

لبي الدعوة أول الرحالة الصينيين العظام في العصور التاريخية تشانج تشيان، وكان وقتها ضابطاً صغيراً في القصر الإمبراطوري. ومهما كانت الاتصالات المباشرة مع الأجزاء الداخلية من آسيا، التي قد تلمح إليها الرحلات الأسطورية القديمة للإمبراطور مو أو أخبار هيرودوت، فقد كانت آسيا الوسطى بالنسبة لسكان الصين في ذلك الوقت أرضاً مجهولة تكثر فيها الأخطار. إلا أنه في سنة ١٣٨ قبل الميلاد اتجه تشانج تشيان غرباً مع قافلة تضم مايزيد على المائة رجل، كما يروى سيما تشيان:

كُلف تشانج تشيان بمهمة للبحث عن اليويه تشى، فاصطحب معه كان فو، وهو تترى كان عبداً في يوم من الأيام... وخرج من ممر كانسو ليعبر أرض الشيونج نو. إلا أنه سرعان ما وقع في الأسر حيث أرسل للخان الأعظم الذى حبسه قائلاً: «اليويه تشى فى الشمال منا. فكيف ترسل الصين سفراء لهم؟ إذا أردت أن أرسل سفراء إلى [الصين الشرقية]... هل تخضع لنا الصين؟» واحتجز تشانج تشيان لمدة عشر سنوات وجعل له زوجة أنجبت له ولداً. وطوال ذلك الوقت احتفظ تشانج تشيان بإشارة السلطة الخاصة بالإمبراطور. وعندما سُمح له بقدر أكبر من الحرية بمرور الزمن، انتهاز الفرصة وهرب مع رجاله.

كان ينوى فى بادئ الأمر البحث عن اليويه تشى فى وادى نهر إيلى الواقع شمال جبال تيان شان. إلا أنه وجد أنهم رحلوا من هناك. وبعد مسيرة «عشرات الأيام غرباً» على أطراف حوض التاريم وفى جبال البامير شديدة الانحدار، وصل تشانج تشيان إلى أرض فرغانة (التي كان الصينيون يطلقون عليها تايوان). أدهشه كثيراً ما رآه من أرض خصبة حقولها غنية بالزروع ومن نبذ مصنوع من العنب (ربما أدخله إلى المنطقة، اليونان الذين كانوا مع الإسكندر وكان غير معروف للصينيين حتى ذلك الوقت). وكان تقديره أن مدن فرغانة، التي يبلغ عددها السبعين أو نحو ذلك، تضم مئات الآلاف من البشر. وكان المحاربون مسلحين تسليحاً جيداً حسبما كان متبعاً فى آسيا الوسطى. ويسجل سيما تشيان ذلك فى قوله: «يتكون سلاحهم من القوس والمطرِد [بلطة قتال مركبة على رمح طويل] وكانوا يطلقون السهام وهم على ظهور الخيل».

وكان فى فرغانة الكثير مما أثار اهتمام تشانج تشيان وإمبراطوره، ولم يكن الأمر قاصراً على الخيل التي «جاءت من نسل فرس سماوية». وشعر أهل فرغانة بنفس القدر من السرور

نتيجة لهذا الاتصال. وكانوا قد «سمعوا عن ثروة الصين وخصوبة أراضيها» و«حاولوا مراراً الاتصال بها دون جدوى». (ربما يشير ذلك إلى المحاولات الفاشلة التي قام بها يوثيديموس ملك بلخ وغيره للوصول إلى الصين في القرن السابق). وأوضح تشانج تشيان أنه مكلف بمهمة ولا بد أن ينتهي منها:

ها أنا قد نجوت من الشيونج نو وسأطلب من ملككم من يرشدني إلى أرض اليويه تشي. وإذا نجحت في الوصول إلى ذلك البلد، فسوف يكافلكم ملكي بكنوز لا حد لها عند عودتي.

عرض أهل فرغانة «مساعدة تبعث على السرور»، حيث أمدوه بخط سير مأمون ومترجمين ومرشدين إلى مملكة الصغد الصغيرة الواقعة إلى الغرب، التي اتجه منها نحو الجنوب الشرقي بعد الدوران حول أنف أحد الجبال، ليصل إلى اليويه تشي. وكان هؤلاء المهاجرون المتعبون قد جاءوا للراحة في بلخ، حيث استولوا على بقايا الممالك الهلينية التي أسسها الإسكندر وخلفاؤه. (كان بعض اليونان قد ذهبوا لتأسيس مملكة لم تدم طويلاً في شمال غربي الهند)^(١). ومن مواقعهم المميزة عند تقاطع طرق آسيا، بدا أن اليويه تشي قد وجدوا المكان المناسب لإقامة تحالف مع الصينيين. فالطرفان يمكنهما الضغط على الشيونج نو من الشرق والغرب.

ولكن نتيجة زيارة تشانج تشيان لبلخ لم تكن كل ما يصبو إليه. ويقول سيما تشيان:

بعد مقتل ملك اليويه تشي على أيدي الشيونج نو، نصب الشعب وريثه ملكاً (رغم وجود ما يشير إلى أن الملكة هي التي اختارت الخليفة). ومنذ ذلك الوقت فتحوا بلخ [تاشيا باللغة الصينية] واحتلوا أرضها. كانت أرضاً غنية وخصبة، نادراً ما يطأها اللصوص، قرر أهلها أن يستمتعوا بحياة السلام هذه. بل إنه لم تعد لهم رغبة في الانتقام من الشيونج نو، طالما أنهم كانوا يعتبرون أنفسهم بعيدين عن الصين. وبعد أن مر تشانج تشيان بين العديد من القبائل ليصل بلخ، عجز عن

(١) استولى سلوقوس نيكاتور على أجزاء من حوض السند. إلا أن السلوقيين سرعان ما فقدوها مع غيرها من أراضي إمبراطوريتهم الشرقية وحاول أنطيوخوس الثالث (٢٢٣ - ١٨٧ قبل الميلاد) استعادة مجد السلوقيين ووصل بعد معارك إلى وادي السند. (المترجم).

إقناع اليويه تشى بشن هجوم على عدوهم السابق. ويقيم هناك لمدة سنة ثم بدأ رحلة العودة إلى بلاده.

بعد ذلك قام اليويه تشى بدور مهم على طريق الحرير، حيث عرفهم الغرب باسم الكوشان. إلا أن الصينيين وجهوا اهتمامهم إلى مكان آخر.

ولأن تشانج تشيان كان يأمل تحاشي الشيونج نو وهو فى طريق العودة، فقد عاد من طريق جنوب التاريم حيث احتمى فى جبال نان شان الوعرة. إلا أن جهوده باءت بالفشل ووقع مرة أخرى فى الأسر لدى الشيونج نو لمدة عام. ولم يتمكن تشانج تشيان من الهرب إلا بعد وفاة الخان الأعظم العجوز ودخول قبائل البدو فى نزاع حول خلافته. وأخذ تشانج معه زوجته وكان فو، رفيقه القديم. ولحسن الحظ أن كان فو «كان رامياً ممتازاً وعندما نفذت المؤن كان يوفر لهم الطعام عن طريق الصيد». ولم تكن تلك مساهمة بسيطة، إذ كانوا يسبرون فى أرض موحشة جدداء. وفى النهاية، وبعد ١٣ سنة من خروجهم، عاد اثنان فقط من القافلة الأصلية إلى الصين.

إذا كان تشانج تشيان قد أخفق فى المهمة المكلف بها، فإن رحلته تعد ناجحة. فهو الذى فتح قنوات الاتصال مع أهل فرغانة^(١) الطيبين وعرف الكثير عن شعوب وأماكن جديدة كثيرة. وباعتبار أن الصينيين يحبون الأحجار الكريمة، فإن مقالته عن كون خوتان «بلد فيه الكثير من اليشب» أثار الاهتمام بكل تأكيد. كما أن حكايات خيول فرغانة السماوية صادفت هوى لدى الإمبراطور، ولدى الجيش الذى صار يعتمد على الفرسان، الذين تقل خيولهم منزلة عن خيول الشيونج نو.

وعاد تشانج تشيان كذلك بحكايات عن مناطق أكثر بوناً ولا يعلم عنها الصينيون شيئاً. فقد كانت تقع غرب بلخ الأرض التى يطلق عليها الصينيون آن شى. وتلك هى أرض بارثيا الواقعة على الهضبة الإيرانية الشاسعة والحيوية. ويقول سيما تشيان:

يعيش الناس فى مساكن دائمة ويمارسون الزراعة. وتنتج حقولهم الأرز والقمح ويصنعون النبيذ من العنب. وتتبعها عدة مئات من المدن الصغيرة والكبيرة.. إنها بلد كبير جداً قريب من نهر جيحون. يسافر

(١) شمال شرقى سمرقند. (المترجم).

تجارهم في عربات وقوارب إلى البلاد المجاورة، لمسافات قد تصل إلى آلاف الليات [اللى يساوى ١/٢ كيلو متر تقريباً]. ويضربون عملات من الفضة. وتحمل عملاتهم صورة ملكهم. وعند موت الملك يتم تغيير العملات بعملات أخرى تحمل صورة الملك الجديد. وهم يرسمون صفوفاً من الرموز بالعرض على الجلد لتكون سجلاً لهم.

أعجبت شعوب آسيا كثيراً بمسألة ضرب عملات تحمل صورة الحاكم، وهو ما أدخله الفرس واليونان قبل قرون. ولأن تلك النقود كانت موحدة، من حيث حجمها ووزنها ونوعيتها، صار الناس يستعملونها كعملة مشتركة للتداول في كثير من تجارة آسيا، بما في ذلك طريق الحرير والطريق الهندى العظيم. ويرى البعض أن الرق البارثى، وهو الجلد المعالج بطريقة خاصة، أوحى فيما بعد للصينيين بابتكار الورق ليستخدم في الكتابة بدلاً من الحرير والبامبو اللذين كانا يستخدمان لهذا الغرض من قبل.

كما أحضر تشانج تشيان معه أول معلومات عن بلاد الشرق الأدنى، قائلاً إن سوريا وبابل (وهى «حارة ورطبة») تقع على بعد آلاف الليات إلى الغرب من بارثيا على مقربة من «البحر الغربى»، وهو ما يبدو إلى حد كبير أنه إشارة إلى الخليج الفارسى أو البحر الأحمر الواقعين على جانبي الجزيرة العربية. فالجغرافيا مشوشة بعض الشيء. وتظهر بقية التعليق أصلها في الأوصاف التى تناقلها الناس:

يحرث السكان حقولهم التى يزرعونها أرزاً. وهناك طائر كبير بيضه فى حجم الجرار [قد تكون هذه إشارة إلى النعام]. وعدد سكانها كبير جداً وزعماءها الصغار موجودون فى أماكن كثيرة. إلا أن بارثيا، التى أضافتها إلى ملحقاتها، تعتبرها بلداً أجنبياً.

يعكس هذا حقيقة أن بارثيا وسعت أراضيها بإطراد ووصلت إلى ضفاف نهر دجلة. وأشار تشانج تشيان أيضاً إلى أن السوريين «لديهم حواة مهرة». وكان هؤلاء الحواة شديدي الجاذبية بالنسبة للصينيين. وكانوا يستقدمونهم بعد ذلك، مما أدى إلى ظهور تراث الأكرويات الذى مايزال شائعاً فى الصين الحديثة. وأكثر الإشارات التى تتناول هذه المنطقة غموضاً، هو ذلك التعليق الموجز: «رغم أن كبار السن فى بارثيا يتمسكون بأن..»

شى وانج مو^(١) فى بابل [فهى] لم تر ذلك المكان». ويوحى هذا بأن شعوب غرب آسيا كانت تعرف الأم الملكية الغربية والاتصالات الأسطورية بين الشرق والغرب التى تمت منذ ألف سنة تقريباً. ولكن مايؤسف له أنه لم يُذكر أى شىء آخر عنها.

والشىء الذى يستحق قدراً أكبر من الاهتمام هو ما روى عما رأته تلك المجموعة فى بلخ. ولم يكن تشانج تشيان قد أدرك بعد أنه اتصل بطريق تجارى قديم يقع بين جبال البامير والبحر المتوسط، وهو ما يطلق عليه النصف الغربى لطريق الحرير. كما أنه أشار إلى أن الشعوب التى خضعت لبلخ كانت من التجار المهرة (كما كان اليونان)، وأن عدد السكان كان أكثر من مليون وأن عاصمتهم «بها أسواق لبيع كل أنواع السلع»، خاصة المنتجات الآتية من بلد آخر لم يكن معروفاً من قبل، للصينيين الشماليين على الأقل. وكانت تلك الأخبار مثار قدر كبير من الدهشة، مما جعل كلمات تشانج تشيان توضع فى الحوليات الصينية:

عندما كنت فى بلخ رأيت هناك عصا من البامبو.. وبعض الأقمشة [قد تكون من الحرير] من سيتشوان [إقليم جنوب غربى الصين].. وعندما سألت السكان عن كيفية حصولهم على تلك الأشياء أجابونى: «سكان بلدنا يشترونها من الهند». وربما تبعد الهند عدة آلاف من الليات إلى الجنوب الشرقى من بلخ.

وكان ذلك أول شىء يعرفه، ويعرفه إمبراطوره، عن بلاد الهند العظيمة. قد يبدو مدهشاً أن تشانج تشيان وإمبراطوره لم يعرفا أى شىء عن الهند، أو عن تلقيها لمنتجات من جنوب غربى الصين. ولكن المسافات كانت كبيرة والأرض وعرة، حتى داخل إمبراطورية الصين الشاسعة نفسها. كانت جبال تشن لنج تفصل شمال الصين عن جنوب غربى الصين، الذى كان حديث عهد فى انضمامه إلى الإمبراطورية ولم يكن قد انصهر فيها انصهاراً تاماً. وكان انفصال شمال الصين عن الهند أشد، لوجود الحاجز الضخم الذى يشمل هضبة التبت المرتفعة وكل سلسلة جبال الهيمالايا بينهما. أما جنوب غربى الصين، فكان يفصله عن الهند الغابات الحارة التى تكثر فيها الأمراض. وكانت التجارة بينهما، على أى الأحوال، تتم من خلال سلسلة وسطاء كان بعضهم ينقل البضائع من بورما إلى

(١) الأم الملكية الغربية. (المترجم).

البنغال، قاطعاً بها جزءاً من الطريق. وتشير الحوليات إلى أن بعض البعثات التبشيرية البوذية وصلت الأراضي الصينية في عقود سابقة لذلك^(١). وطالما أن الصينيين لم يعرفوا شيئاً عن الهند، فمن الممكن ألا يكونوا قد أتوا من الهند نفسها وإنما من المراكز البوذية الناشئة المحيطة بخوتان.

وعلى أي الأحوال فإن أخبار الهند كانت أكثر الأخبار تشويقاً. وإذا وضعنا في الحسبان صعوبة الطريق الذي قطعه تشانج تشيان غرباً، وكذلك جاذبية منتجات الغرب، فإنه قدم أكثر المقترحات قبولاً:

طبقاً لحساباتي، فإن بلخ قد تكون على بعد ١٢ ألف لي من الصين ناحية الجنوب الغربي. وبما أن بلاد الهند تقع على بعد آلاف الليات إلى الجنوب الشرقي من بلخ، ووجدت منتجات سيتشوان هناك، فإن هذه البلاد لا يمكن أن تكون بعيدة عن سيتشوان. وإذا أرسلنا سفراء إلى بلخ عن طريق [جبال نان شان] فإن الناس هناك.. سوف يعارضون. وإذا أرسلناهم شمالاً أكثر، فإن الشيونج نو سوف يلقون القبض عليهم. ولكن الذهاب عن طريق سيتشوان قد يكون مباشراً ولا يتعرض لخطر اللصوص.

أدرك الإمبراطور وو مغزى اقتراح تشانج تشيان بشأن طريق بديل للوصول إلى فرغانة وبلخ وبارثيا، التي كان يُعتقد أنها جميعاً «بلاد واسعة عامرة بالأشياء النادرة» وإن كانت بها «جيوش ضعيفة» ولديها رغبة كبيرة في الحصول على السلع الصينية. (هل يمكن أن يشير ذلك إلى تفضيل اليونان للتجارة على القتال في الجزء البلخي من طريق الحرير؟) ولكن ما يؤسف له هو أن محاولة تشانج تشيان الوصول إلى الهند من ناحية الجنوب باءت بالفشل في نهاية الأمر. إذ كانت الغابات الجبلية الواقعة جنوب غربي الصين تحكمها قبائل شرسة تفضل السرقة أو التجارة مع مهربي الحدود على الاتصال بالبعثات الصينية الرسمية.

لذلك اضطر الصينيون مرة أخرى لتحويل أنظارهم إلى آسيا الوسطى، لفتح طرق تجارية محتملة ولتأمين حدودهم ضد الشيونج نو قُطَاع الطرق. وفي تلك المحاولات، كانت

(١) ذكر أنه كانت هناك جماعة بوذية في بلاط أحد أمراء أسرة هان سنة ٦٥ ميلادية. وفي سنة ١٤٨ ميلادية جاء إلى تلك الجماعة مبعوث من بارثيا اسمه شي كاو حيث شارك مع أعضاء بعثته من الصغد والبارثيين والهنود وغيرهم في ترجمة الكتب البوذية إلى الصينية. (المترجم).

خبرة تشانج تشان ذات فائدة بالغة . وأشار سيما تشيان إلى أنه عندما عمل تشانج تشيان مستشاراً للقائد العام فى إحدى الحملات الموجهة ضد الشيونج نو، فإن «معرفته بمراعيهم» حالت دون نقص مئونة الجيش . وبعد ذلك فقد تشانج تشيان حظوته وفقد معها كل ألقابه التى أنعم بها عليه . إلا أنه إكراماً لما قام به من جهد مميز كـ «فاتح للطرق» ، لم يفقد رأسه أيضاً . (كان محظوظاً بالفعل . فمؤرخه سيما تشيان خصى عندما فقد حظوته) . وعلى مدى العامين التالين هاجمت الجيوش الصينية الشيونج نو فى الشمال والغرب إلى أن تمكنت فى سنة ١٢١ قبل الميلاد من طرد الشيونج نو من ممر كانسو . وهنا يقول سيما تشيان :

... فى الغرب وعلى امتداد جبال نان شان حتى لوب نور [البحيرة المالحة] ، لم يبق أحد من الشيونج نو . وإذا كان الشيونج نو يغيرون على القوافل ، فإن هذا التحرش كان نادراً . وبعد عامين أجبر الصينيون خان الشيونج نو على الانسحاب إلى شمال الصحراء .

أصبح الباب مفتوحاً أمام المحاولة الكاملة لإقامة اتصالات بالغرب . وليس هناك من هو أفضل من تشانج تشيان ليتولى ذلك . ورغم تجريده من ألقابه ، فإنه استمر فى تقديم المشورة للإمبراطور . وكان من بين اقتراحاته محاولة الصين بث الفرقة بين من تبقى من الشيونج نو وإضعافهم عن طريق التحالف مع أحد الشعوب الواقعة شمالى جبال تيان شان ، وهم الوو صن (قد يكونون الإيسيدون الذين ذكرهم هيرودوت) الذين عاشوا فى وادى نهر إيلي بالقرب من إيسيك قول (البحيرة الدافئة) كما رأى أنه «طالما أن البرابرة كانوا يرغبون فى الحصول على منتجات الصين» ، فينبغى رشوة هؤلاء القوم بـ «هدايا سخية ودعوتهم للإقامة شرقاً» فى الأراضى التى كان الشيونج نو يقيمون فيها . وعلاوة على ذلك ينبغى أيضاً إرسال أميرة صينية لتقوية التحالف . وظل الصينيون يستخدمون هذا التكتيك قروناً عديدة ، ساعين إلى تفريق أعدائهم من خلال إقامة التحالفات بحكمة ، مع إرسال الأميرات كرهائن لتحقيق تلك الأهداف السياسية .

استعاد تشانج تشيان حظوته :

أقر ابن السماء^(١) اقتراح تشانج تشيان وعينه قائداً فى الحرس الإمبراطورى وقائداً لحملة قوامها ٣٠٠ رجل ، مع كل منهم حصانان ، وآلاف الثيران والخراف . كما زوده بهدايا من الذهب والأقمشة

(١) لقب الإمبراطور الصينى . (المترجم) .

الحريرية تساوى الملايين ويمبعوثين مساعدين يحملون أوراق اعتماد يمكن لتشانج تشيان أن يرسلهم إلى البلاد القريبة الأخرى أو يتركهم فيها.

تلك الثيران والخراف كانت فى المقام الأول مئونة لهم فى الطريق. أما السلع الأخرى فكانت هدايا بالاسم فقط. وفى العصور القديمة، وخلال فترة طويلة من تاريخ الصين، كانوا يمارسون التجارة باسم تبادل الهدايا. والواقع أنهم كانوا ينتظرون حصولهم على «هدايا» مثيلة فى المقابل، من السلع التى يرغبون هم فيها. وكانوا يغضبون من أى صورة من صور عدم احترام «هدايا ابن السماء».

هذا فى الواقع هو ما وجده تشانج تشيان عندما التقى بالوو صن. إذ «أغضبته كثيراً تلك الإهانة التى لقيها، وهو سفير الصين»، من «البرابرة» وهدد بسحب الهدايا إن هم لم يعاملوه بالاحترام الواجب. فما كان من حاكم الوو صن إلا أن «انحنى أمام الهدايا»، وهو ما يعد إصلاحاً للخطأ. ولكن الوو صن كانوا شعباً منقسماً، ولا يرغب فى التحالف الشديد مع الصين. وكانت مساهمتهم الرئيسية هى توفير المرشدين والمترجمين للسفراء المساعدين الذين أرسلهم تشانج تشيان إلى بلاد فرغانة والصغد وبلخ وبارثيا والهند وخوتان وغيرها من البلدان القريبة.

عاد تشانج تشيان إلى الوطن تصحبه عشرات السفارات من الوو صن مع خيول كثيرة «رداً على هدايا الإمبراطور». لم تكن تلك خيول فرغانة السماوية. ولكن بما أن المحاربين والتجار فى تلك الفترة كانوا يعتمدون اعتماداً كبيراً على الخيول، فإن جياداً من سلالة أكثر شيوعاً كانت دائماً «هدية» مقبولة. واستطاعت سفارات الوو صن الزائرة «رؤية الصين رأى العين مما أتاح لها إدراك حجمها وعظمتها». وعادوا إلى بلادهم بأخبار مثيرة عن ثروة الصين وقوتها. وفى السنة التالية عاد المبعوثون المساعدون العديدون إلى الصين أيضاً، مصطحبين معهم ممثلين أجانب. ويشير سيما تشيان إلى أنه بعد ذلك «بدأت بلدان الشمال الغربى التخاطب مع الصين». وبعد ذلك أنعم على تشانج تشيان بلقب «الرحال الأكبر» ورُقّى إلى وزير دولة للشئون الخارجية، وهو أحد المناصب الرفيعة فى الإمبراطورية. وكانت شهرته كبيرة، حتى أن «المبعوثين الذين اتجهوا غرباً بعده كانوا يشيرون إلى [تشانج تشيان]... كتعريف فى البلدان الأجنبية، حيث كان ذكر اسمه بمثابة ضمان للصدق».

وعاد مبعوثو الصين أيضاً من بلدان الغرب البعيدة وهم يحملون معهم عينات من النباتات والمعادن الجديدة وغير المعروفة. وكما تشير «تشان هان شو» (حوليات أسرة هان السابقة)، ففي تلك الفترة «بدأت عينات من الأشياء الغربية في الوصول من كل صوب». ويعتقد أن تشانج تشيان نفسه جلب للصين شجرة العنب (وإن كان الصينيون لم يصنعوا النبيذ من فاكهتها إلا بعد ذلك بزمان طويل) والبرسيم الحجازي، وهو العلف الرئيسى للخيول والجمال. ووصلت الصين نباتات جديدة وغريبة أخرى: فواكه، كالخيار والتين والرمان والجوز، وأعشاب وتوابل، كالسمسم والكرات والكزبرة والقرطم.

وجرى العرف على أن تشانج تشيان هو صاحب الفضل في جلبها جميعاً من بلاد فارس أو آسيا الوسطى. ورغم وجود اعتقاد في الوقت الحالى بأنها زُرعت في قرون لاحقة، فإن العينات قد تكون نُقلت شرقاً في تلك الفترة المبكرة من الاتصال. ومع وجود حاجز التاريم، انتقلت بعض فواكه الصين المحلية غرباً، حتى قبل عصر تشانج تشيان. فمن حدود الصين الغربية جاء البرتقال والخوخ والكمثرى. وكانت تلك المناطق الحدودية نفسها الموطن الأصلي لبعض الزهور التى أصبحت أساسية في الحدائق الحديثة، ومنها الورود والكاميليا والكريزانتيم والفاوانيا.

وعاد مبعوثو الصين أيضاً بكثير من الأخبار العسكرية والتجارية القيمة. إذ وجدوا وداً وحسن استقبال من الممالك الغربية أثناء تلك الاتصالات المبكرة. ورغم كون بلدان آسيا الوسطى غير معروفة للصين، فالعكس لم يكن صحيحاً. فالغربيون كانوا على معرفة جيدة بالـ«سيريس» وماينتجونه من «سيريك». كما وجد الصينيون أن تربية دودة القز لم تكن معروفة في الغرب. حيث حققت الصين نجاحاً تاماً في الاحتفاظ بسر تقنيات تصنيع الحرير. لذلك كانت أمام الصينيين سوق تشوق إلى قماشهم الرقيق، وكذلك إلى مصنوعاتهم المعدنية الراقية وخاصة أسلحتهم. وكانوا يأملون في أن تأتى لهم تلك السلع الأساسية - في المقابل - بالأشياء التى يرغبون بشدة في الحصول عليها من الغرب، وخاصة الخيول السماوية.

ولكن الطريق كان صعباً. فربما يكون الشيونج نو قد طُردوا إلى الشمال، ولكن العصابات الجواله من قُطاع الطرق كانت مازال موجودة. كما أن مشكلة نقص الطعام والماء اللازمين للمجموعات الكبيرة التى تعبر الأقاليم الصحراوية لم تحل. إلا أن الصينيين تصدوا

لتلك المصاعب بقوة. فما إن هزموا الشيونج نو في سنة ١٢١ قبل الميلاد حتى أقاموا المنطقة الغربية تشيو تشان (نبح النبيذ) كرأس جسر للانطلاق عبر عمر كانسو. وعملاً بالأسلوب القديم للإمبراطورية، عَمَّرَ الإمبراطور المنطقة الحدودية الموحشة بالمجرمين المبعدين والمنشقين المنفيين والعمال العاطلين تحت أعين القادة العسكريين اليقظة. وشيئاً فشيئاً جعل هؤلاء، ومن على شاكلتهم، شريط كانسو بكامله تحت الحماية الصينية. وامتدت الحماية لتشمل أيضاً وادي إيتسين جول الخصيب الواقع شمالي الممر. وأقيمت أبراج المراقبة على طول الطريق الممتد غرباً ومُدت جدران السور العظيم الطينية لتربط بين أبراج المراقبة والحصون القليلة التي تحرس الطريق.

يأتى فى مقدمة تلك الحصون يانج كوان ويومن كوان (بوابة اليشب) اللذان أقيما لحراسة بوابات الخروج الخاصة بمسالك طريق الحرير شمالي التاريم وجنوبه. وأصبحت تونهوانج، حيث يبدأ فرعاً طريق الحرير الناشئ الرئيسيان، المحطة الصينية الغربية الرئيسية. وفى الفترة نفسها شن الصينيون بعض الغارات الناجحة جداً فى الشمال داخل موطن الشيونج نو، فيما يُعرف الآن بمنغوليا الخارجية. وفى بعض الأحيان كان يساعدهم عامل المفاجأة وهبوب العواصف الرملية فى وجه خصومهم. ومن أجل المزيد من الإنجازات، ركزوا على الاستيلاء على بعض واحات التاريم الرئيسية، وكانت فى تلك الفترة دويلات مستقلة صغيرة أهمها تلك الواقعة بالقرب من لوب نور وحوض تورفان. وهى نقاط انطلاق إلى مزيد من الفتوحات. وعندما تذكر الشاعر لى شى من (الذى أصبح الإمبراطور تاي تسونج) النصر أعلن:

خلف الحدود يقع الشتاء القارس والريح العاتية...

**دخلنا أرض الهون (الشيونج نو) وتغلينا عليهم فى معاقلم
الصحراوية...**

وذكر المؤرخ سيما تشيان أن الإمبراطور تجشم كل تلك المشاق «كى يتصل بالبلدان الواقعة فى الشمال الغربى». ولم يكن أقل أهدافه أهمية الحصول على بعض خيول فرغانة الثمينة، وخاصة خيول كوقند، التى يقال إنها أفضلها جميعاً. ويروى سيما تشيان أن:

**... ابن السماء كان يهيم حباً بخيول كوقند. فانطلقت السفارات
الواحدة تلو الأخرى على طريق ذلك البلد. كانت أكبرها تضم منات
الرجال وكانت أصغرهما تقل عن المائة. وفى بعض السنوات أرسل**

البلاط الصينى عشر سفارات أو يزيد. وفى سنوات أخرى كان عددها خمسا أو ستا. وعاد السفراء من مهامهم فى تلك البلدان البعيدة بعد ٨ أو ٩ سنوات. ولم يستغرق الأمر سوى عامين أو ثلاثة أعوام للعودة من البلاد القريبة.

كان طول الوقت اللازم لتلك المهام أحد جوانب المشكلة. فالسفارات التى كانت تقضى سنوات فى الطريق كان عليها أن تلتمس الطعام والماء من المدن الواحات الواقعة على الطريق. إلا أن السكان المحليين لم يكونوا مستعدين دائماً لتلبية تلك الحاجات. لذلك كان الأمر يقتضى فى بعض الأحيان القيام بعمل شبه عسكرى أو تقديم «الهدايا» لإقناعهم بذلك. ولكن كلا الأمرين كان السبب فى زيادة عدد المرافقين لأى سفارة لازمة لقطع مسافة ٥ آلاف ميل أو يزيد ذهاباً وعودة. وحاول الصينيون توسيع نطاق نفوذهم على بعض أجزاء الطرق المتجهة غرباً. إلا أنهم أحرزوا نجاحاً محدوداً فى ذلك الزمان البعيد. وتشير «حوليات أسرة هان السابقة»، على سبيل المثال، إلى أن أهل شان شان الواقعة على طريق التاريم الجنوبى كان من المفترض أن «يوفروا المرشدين ويحملوا الماء ويقدموا المؤن للمبعوثين الصينيين». ولكن القول أسهل من الفعل. إذ ظلت أعمال السرقة والقتل شائعة على مسالك التاريم. وما كان من أهل شان شان الطيبين «الذين يتعرضون كثيراً لغارات غاشمة من الجنود، إلا أن قرروا فى نهاية الأمر أنه من غير المفيد الإبقاء على اتصالهم بالصين».

وبسبب ما واجهه أهل الخبرة من صعوبات، أصبحوا لايتقدمون بطلبات للقيام بتلك الرحلات المتجهة غرباً. وسرعان ما استفاد من السمعة الطيبة التى اكتسبها تشانج تشيان وأقرانه للصين مجموعة من السفراء الذين يفتقرون إلى الأدب ويتميزون بقدر كبير من عدم الأمانة وما يصل فى بعض الأحيان إلى حد الخيانة الواضحة. وعندما كان هؤلاء السفراء، الذين يعتمدون على أفضال غيرهم، بعيدين عن الوطن، كانت قدرتهم على تنفيذ مهامهم ضعيفة. ووجد الحكام الغربيون أنفسهم بحق فى «سوق المشتري». فلم يكونوا مضطرين للإذعان لرغبات الصين وإرسال البضائع التى تريدها. وحصلت الدول الثرية الواقعة فى أقصى الغرب على كميات من السلع الصينية وأهمها الحرير. إلا أن البلدان الجبلية الصغيرة فى البامير، التى لم تكن قد رأت بعد الإمكانيات غير العادية للتجارة عبر آسيا، لم تستوعب إلا كمية محدودة من المصنوعات الصينية، بغض النظر عن مدى جودة الصناعة. وتفسر الحوليات هذه المشكلة:

... وما إن زاد عدد السفارات حتى صار الحكام الأجانب لا يأبهون بالهدايا وأصبحت الصنعة الصينية لا تلقى تقديراً كبيراً.

ولكن ابن السماء ظل يهفو إلى خيول كوقند^(١). إذ سمع أن أهل كوقند كانوا يخفون «عدداً كبيراً من الخيول الرائعة» التي رفضوا إعطاءها للسفير الصيني. وعندما وصل ذلك إلى مسامع الإمبراطور الصيني أرسل بعثة خاصة إلى كوقند:

أعطاهما كمية كبيرة من الفضة وحصاناً من الذهب الخالص لتقديمها لحاكم كوقند مقابل الخيول التي لديه.

وشاء حظ الإمبراطور العاثر أن يكون بلاط كوقند «قد حصل من قبل على الكثير من الأشياء الصينية». إلا أن مستشاري البلاط قرروا الاحتفاظ بخيولهم، مهما كانت عظمة الهدايا المقدمة. وربما كانت لتلك الخيول بالذات أهمية دينية خاصة، كما يقول عالم الصينيات المعاصر آرثر ويلى. وهو ما جعل حاكم كوقند يرفض التخلي عنها. فربما كان كالإمبراطور الصيني يعتقد أنها سوف تحمله إلى السماء لينضم إلى الخالدين. وعموماً، أدرك مستشارو كوقند أنه ليس هناك ما يخافونه إن هم رفضوا طلب الصينيين قائلين:

الصين بعيدة جداً والطريق طويل. المسافرون يفتقرون إلى العلف والماء. فى الشمال يتعرضون لخطر هجمات الشيونج نو، وفى الجنوب لا ماء ولا عشب. بل إن الأراضى الواقعة على الطريق كانت تسكنها أعداد قليلة من الناس، وهو ما جعل المسافرين أنفسهم لا يجدون ما يكفيهم من الطعام فى أغلب الأحيان. ويأتى السفراء الصينيون معهم بحاشية تضم مئات الرجال. وهم دائماً يعانون من نقص الطعام، حتى أن نصفهم تقريباً يموتون جوعاً. فكيف لأى جيش أن يصل إلينا؟ لا يسع الصين أن تصيبنا بأذى. ستظل الخيول التي لا يقدر عددها خيول كوقند.

(١) وتسمى أيضاً خواقند وخوقند. وجاءت فى «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق» للإدريسى خجندة، حيث قال إنها مدينة متاخمة لفرغانة على غربى نهر الشاش والأشجار بها قليلة لكثرة البرد. (المترجم).

وعندما غضب أحد السفراء الصينيين لعدم احترام إمبراطورهم، أهان البلاط بدقه الحصان الذهبي ليتحول إلى كتلة لا شكل لها. وكان غضبه هذا سبباً في قتله عند عبوره حدود كوقند.

في أول الأمر بدا أن مستشاري كوقند كانوا على صواب. إذ أرسل الإمبراطور وو جيشاً إلى الغرب لقتال كوقند. إلا أنه بالغ في الضرائب التي فرضها على موارد المدن الواحات التي مر عليها وأضعف نفسه وهو يحاول إخضاع الحكام المحليين. ولم يكن بمقدور الفلول المتبقية اختراق أسوار كوقند. وعند عودة الجيش لبلاده وهو يجر أذيال الخزي واجه مصاعب أشد. فعندما أدركت مدن الصحراء ما عليه الصين من ضعف، شعرت أنها غير مضطرة لتزويد جيشها بما يحتاجه.

إلا أن ابن السماء، الذي شعر بالفزع والعار، لم يتقبل الهزيمة:

ظن الإمبراطور أن إرسال حملة فاشلة لمحاربة... بلد صغير... سوف
يجعل بلخ وغيرها من الدول المجاورة تحتقر الصين. كما أن...
الخيول... لن تأتي أبداً.

لذلك جمع الإمبراطور قوة مذهلة بحق لإرسالها لمحاربة كوقند:

... ستون ألف رجل، ناهيك عن تبعوهم كحمالين للمؤن الإضافية؛
مائة ألف ثور؛ أكثر من ثلاثين ألف حصان وآلاف الحمير والبغال
والجمال وميرة لديها مخزون كبير من المؤن إلى جانب الأقواس
والسهام وغيرها من الأسلحة. وكان على كل أنحاء الإمبراطورية أن
تسارع بتقديم مساهماتها.

وهكذا حُلّت مشكلة الطعام. إلا أن موارد المياه الشحيحة المتناثرة على امتداد طرق
التاريم لم تكن تكفي تلك الأعداد الضخمة من البشر والدواب. لذلك حل الجنرال الصيني
هذه المشكلة بتقسيم القوات إلى فرق اتخذت كل منها مسلكاً مختلفاً. وبعد أن تزود الجيش
بكل ذلك لم يعد مضطراً إلى إهدار طاقته في إخضاع المدن الواقعة على الطريق، وإنما اتجه
مباشرة إلى كوقند.

ورغم ذلك كان الطريق صعباً. فلم يبق على قيد الحياة سوى نصف عدد الجيش
ليشارك في حصار كوقند سنة ١٠٢ قبل الميلاد. كانت المدينة محصنة تحصيناً قوياً ولم يكن

الاستيلاء عليها سهلاً. ونتيجة للخبرة التي اكتسبها الصينيون من هزيمتهم السابقة، أحضروا معهم هذه المرة مهندسين للحصار. وكانت خطتهم، وهي جيدة بحق، هي تحويل النهر^(١) الذي كان مصدر المياه الوحيد للمدينة. ومع ذلك لم يستطع الصينيون اختراق الدفاعات الخارجية للمدينة إلا بعد ٤٠ يوماً. وكان بلاط كوقند آمناً وراء أسوار المدينة الداخلية، إلا أنه كان محروماً من المؤن. ودعاه ذلك إلى طلب الهدنة قائلاً إنه إذا قُدمت لهم «شروط مشرفة» فسوف يقدمون الخيول المطلوبة. أما إذا لم يحدث ذلك فسوف يقتلون كل الخيول ويموتون هم في القتال. وقبل الصينيون العرض. وربما يكونون قد تأثروا بفكرة أن جيش كوقند كان على وشك تلقي الدعم، الذي يشمل بعض مهندسي حفر الآبار، من بلاد تاشين الغربية. (يبدو أن هذه أول مرة يأتي فيها ذكر الإمبراطورية الرومانية في الحوليات الصينية).

كان الصينيون على استعداد تام للنجاح، حيث أحضروا معهم الخبراء لانتقاء أفخر الخيول للبلاط الصيني. وفي النهاية أخرجت الحملة فقط ٣٠ حصاناً «سامياً» أو «سماوياً»، على أساس أنها تتميز بعلاماتها أو خطوطها المقدسة، إلى جانب ٣ آلاف من «النوعية الوسطى والدنيا». بقي نصف هذا العدد على قيد الحياة بعد رحلة العودة، إلا أنه كان كافياً ليصبح نواة لسلالة مميزة تحت بصر الإمبراطور. واستمر ملك كوقند زمناً يرسل اثنين من «الخيول السماوية» إلى الصين في كل سنة.

وهكذا حصل الإمبراطور وو في نهاية الأمر على خيوله السماوية. وليس بغريب أن نُظمت الأناشيد احتفالاً بمقدمها. مع الوضع في الاعتبار تلك الموارد الضخمة التي حُشدت للحصول عليها. إلا أن الصين فازت بصفقة رابحة، علاوة على الخيول السماوية العزيزة على إمبراطورها. فبذلك النصر المدهش الذي حققته في كوقند، دالت لها السيطرة الفعلية على كل منطقة حوض التاريم الذي أصبح من يومها يسمى سنكيانج (الأملاك الجديدة). وعند عودة الجيش من كوقند، قبل استسلام المدن الرئيسية الواقعة على طرق التاريم، حيث كانت تبدى ذلك دون تردد. وعقب ذلك مباشرة «أرسلت الصين مايزيد على العشر سفارات إلى بلدان غربي فرغانة لجمع الأشياء الغريبة والنادرة، إلى جانب جعل تلك البلدان تشعر بأهمية النصر».

ويخبرنا كتاب «تونج باو» أنه بعد حملات فرغانة الناجحة مباشرة..

(١) هو نهر الشاش كما أسلفنا. (المترجم).

... أقيمت النقاط العسكرية من مكان إلى آخر، من تونهوانج حتى المستنقع الملحي [لوب نور] غرباً. وإلى جانب ذلك كان في المنطقة... عدة مئات من المستعمرين العسكريين. ووضع مفوض إمبراطوري [هناك] للإشراف على [هؤلاء الناس والأرض التي يفلحونها] وحمايتهم، لتلبية احتياجات المبعوثين المرسلين إلى البلاد الأجنبية.

وهكذا تولى الصينيون تموين المسافرين المتجهين غرباً بأعداد متزايدة منذ ذلك الوقت. وكان استمرار الحذر ضرورياً، فالصين كانت حديثة عهد بالتاريم. وكان سكان الصحراء قد اعتادوا الاستجابة لسوط الشيونج نو. وذكر سيما تشيان في الـ «شى تشى» أنه حتى الوقت الذي تحققت فيه الزعامة للصين، كان السفراء إلى المناطق الغربية يتعرضون للسرقة في أغلب الأحيان على يد أهل مدن مثل لولان. إذ «كانوا في مناسبات كثيرة بمثابة أعين الشيونج نو وآذانهم وكانوا يجعلون قواتهم تعترض المبعوثين الصينيين».

بعد أن توطدت أقدام الصين في التاريم، أفتُح النصف الشرقي من طريق الحرير بصورة كاملة. لم يعد هذا الطريق العظيم مقسماً إلى شرقي وغربي وأصبح لأول مرة طريقاً متصلاً يمتد لمسافة ٥ آلاف ميل، بين إمبراطورية الصين، التي دخلت واحداً من أعظم عصورها في ظل حكم أسرة هان، وبلدان البحر المتوسط في آسيا، التي كانت بها إمبراطورية عظمى أخرى، وهي الإمبراطورية الرومانية التي بدأت لتوها في وضع اللبنة الأولى لمجدها.

وحتى قبل أن ينهى الصينيون حصارهم لكوقند، كانت التجارة قد بدأت تتجه غرباً على طريق الحرير. وكانت أولى الرحلات من خلال قافلة متجهة من الصين إلى بارثيا سنة ١٠٦ قبل الميلاد، كما تشير الحوليات. وتحدث «حوليات أسرة هان السابقة» عن بعثة في حدود ذلك التاريخ إلى البلد الذي أطلق عليه الصينيون آن شى (بارثيا)، على الهضبة الإيرانية. ولقى السفير الصيني الذي أرسله الإمبراطور وو ترحيباً يفوق الوصف:

أمر الملك [البارثي] قادته العسكريين أن يستقبلوا السفير الصيني عند الحدود الشرقية بصحبة ٢٠ ألف فارس. وكانت المسافة بين الحدود والعاصمة [وهي هيكاتومبيلوس في ذلك الوقت] تقدر بعدة آلاف من الليات. وكان الطريق يخترق عشرات المدن. والناس يغطون الأرض دون انقطاع.

وهكذا كانت المنطقة الواقعة على طريق الحرير، التي شيدتها القبائل الإيرانية والآشوريون واليونان وكل أسلافهم، عبارة عن عقد لا ينقطع من المدن ذات الأسوار في ذلك الوقت. وسرعان ما أصبح طريق الحرير أكثر استيطاناً. حيث أصبح كل من الشرق والغرب يقدر ما يقدمه الآخر. وكان الغرب بالطبع مولعاً بالحرير، تلك السلعة التي ربما كانت وراء ذلك الترحيب الرائع الذي لقيه المبعوث الصيني. أما الصينيون القدماء فأعجبوا بالنعام، الذي أطلقوا عليه في بعض الأحيان «الطيور الجمال» بسبب السرعة الكبيرة التي تنطلق بها سيقانه، وإن كانت سرعة خرقاء، وكانوا لم يروه من قبل. ولم تكن الهضبة الإيرانية موطن النعام. ولكنه جلب من السهول الصحراوية الدافئة في جنوب غربي آسيا.

أعجب الصينيون أيضاً بلاعبى الأكروبات والحواة الذين رأوهم في الأراضي الباردة. ولم يكن هؤلاء كذلك من أهل الهضبة الأصليين وإنما سافروا على طريق الحرير من موطنهم الأصلي في السهول. ونتيجة لذلك مضت الحوليات قائمة:

عندما غادرت البعثة الصينية، أرسل ملك آن شى معهم رسولا له لعله يعلم شيئا عن الصين. وقدم للبلاط الصينى بيضة نعامة وبعض الحواة من لى تشيان [لى كان]. ووجد ابن السماء سعادة كبيرة فى ذلك.

اعتباراً من ذلك التاريخ، أى حوالى سنة ١٠٥ قبل الميلاد وربما ١١٥ قبل الميلاد، بدأت العلاقات المباشرة بين الصين والأراضي الإيرانية على المستويين التجارى والسياسى. وظل الصينيون والإيرانيون حلفاء لما يزيد عن ثمانية قرون، رغم تغير الحكم فى أراضى كل منهما وتداخل قوى أخرى بينهما على طريق الحرير.

وبذلك عرفت الصين الكثير من البلدان الواقعة بعد بارثيا. وعندما سأل الإمبراطور عن المكان الذى يأتى منه الحواة، وهو اسم جامع للسحرة والراقصين وللاعبى الأكروبات، قيل له من «لى كان». وأصل اسم «لى كان» كان مثار خلاف كبير بين الباحثين. فالبعض يرى أن لى كان هو الاسم الصينى للإسكندرية، التى كانت بالفعل مشهورة بلاعبىها، وكانت كثيراً ما ترسلهم كصادرات بشرية إلى البلدان الأجنبية. بينما يصر آخرون أن «لى كان» هى الترجمة الصينية لـ «رى كم»، وهو الاسم المحلى للمدينة التى سماها اليونان «بترا» (وكلاهما يعنى «صخر»). وبغض النظر عن أصل اسمها، فإن لى كان بالنسبة للصينيين كانت تعنى الأرض الواقعة بعد بارثيا، وهى التى عرفوها فيما بعد كإمبراطورية عظيمة. وكون الصين لم تعرفها باسم «الإمبراطورية الرومانية» أمر مفهوم. فهى قد بدأت لتوها

تثبيت وجودها في غرب آسيا. هذا إلى جانب أن الرومان أنفسهم أطلقوا على أرضهم orbis terrarum (العالم). لذلك فلا ينبغي أن نتوقع أن يكون الاسم الصيني أحد صور كلمة «روما». وتعود محاولات الصين الوصول إلى ماوراء بارثيا حتى أرض لى كان إلى ذلك الوقت.

وخلال القرن الأول قبل الميلاد، استمر الصينيون في تقوية قبضتهم على حوض التاريم، حيث المدينة الواحة قره شهر، الواقعة على الطريق الشمالي، ويرقند، البوابة الجنوبية لجبال البامير. وربما يكون الأهم هو بثهم الفرقة بين الشيونج نو. وبحلول سنة ٥١ قبل الميلاد، أخضع زعيم الشيونج نو الشرقيين خضوعاً تاماً، حتى أنه جاء بنفسه إلى تشانج أن ليسجد أمام إمبراطور هان. كما أن الصينيين أسروا زعيم الشيونج نو الغربيين وأطاحوا برأسه. وهكذا لم تقم للشيونج نو قومة طوال الأربعة قرون التالية (وفى ذلك الوقت كانوا يعرفون باسم الهون ويتزعمهم أتيل و تحولت أنظارهم إلى أوروبا).

وبهذه الأعمال نشر صينيو هان السلام في أنحاء حوض التاريم. وأصبح بإمكان تجارة آسيا الوسطى، من الحرير واليشب والخيول والفراء والجمال، أن تصل إلى أماكن أبعد من ذي قبل بعد أن كانت توسعات الشيونج نو تحول دون ذلك. ومارس الصينيون التجارة مع كل الوافدين، ومن بينهم الشيونج نو، جاعلين التجارة أداة من أدوات السياسة الخارجية. وفى سنة ٨١ قبل الميلاد عرض كبير أمراء مجلس هان هذا كما يلي:

يمكن مقايضة قطعة من الحرير الصينى البسيط مع الشيونج نو بأشياء تبلغ قيمتها عدة قطع من الذهب، وهو ما يقلل موارد عدونا. وتعبر الحدود صفوف لا تنقطع من البغال والحمير والجمال. وتصلنا الخيول، مطايا رقطاع وشهباء وكستنائية تختال فى سيرها. أما فراء السمور والمرموط والثعلب والغرير والبساط الملون والسجاد المنقوش فتملاً الخزائن الإمبراطورية. بينما أصبح اليشب والأحجار الميمونة والمرجان والبلور كنوزاً قومية.

كان طريق الحرير، كطريق للتجارة، مجلبة للسمعة السيئة للصينيين. إذ أنهم أكدوا بشدة ما يُقال عن تلقيهم خراجاً من الدول الأقل شأنًا وعن توزيعهم للهدايا. ولكن الحقيقة واضحة، كما فى رأى الذى يقول إن الإمبراطور وو من أسرة هان كان يوزع على الزوار

الأجانب «كنوزاً وحريراً على سبيل المكافأة والهدية وكان يرد على ما أحضروه إليه بوفرة بما هو أغلى منه». وكما فى حكايات رحلات الإمبراطور وو الأولى، سواء كان بعضها أم جميعها أسطورياً، فإن الحوليات تسجل بدقة كثيراً من تلك المعاملات. ففي سنة ٥١ قبل الميلاد، على سبيل المثال، أهدى ٧٧ طاقم مفارش سرير لواحد من «دافعى الخراج» الغربيين. وبعد عامين تلقى نفس الكمية، بالإضافة إلى ١١٠ بدلات. وما إن استتب الأمن حتى زادت الأرقام بسرعة. فعلى سبيل المثال، تلقت إحدى عشائر الشيونج نو ٨ آلاف قطعة حرير مطرزة و ٦ آلاف رطل من الخيوط الحريرية سنة ٥١ قبل الميلاد. وبعد ٥٠ سنة تضاعف هذان الرقمان إلى ٨٤ ألفاً و ٧٨ ألفاً بالترتيب. وغالباً ما كانت السلع التى تأتى من قبائل البدو، كالفراء، تُصبغ أو تُصنع منها الملابس ثم تُرسل إلى الغرب.

وفى القرن الأول قبل الميلاد كان الصينيون يجدون فى استكشاف سبل الاتصال بممالك آسيا الوسطى. ولم تكن كل تلك الممالك مستعدة لممارسة التجارة بعيدة المدى، وهو ما يبدو من المحاولات الصينية لشراء خيول فرغانة السماوية. وحتى بعد ذلك النصر المدهش الذى حققه الصينيون على كوقند، ظلت بعض الدول المدن الواقعة وراء جبال البامير غير مقتنعة بالرغبة فى إقامة علاقات تجارية كبيرة مع الصينيين. وأحد جوانب المشكلة هو أن سهول تركمانستان الروسية كانت فى ذلك الوقت محل نزاع العديد من الجماعات السيثية. وعندما دخل اليويه تشى بلخ طردوا منها الساكى الذين استولوا على بقايا المملكة الهندويونانية فى شمال غربى الهند. إلا أن اليويه تشى أنفسهم كانوا يتعرضون لهجمات قبائل البدو الأخرى القادمة من السهوب.

وربما يكون هذا هو السبب الذى جعل الصينيين يتخذون تلك الخطوة غير العادية الخاصة بمحاولة فتح طرق تجارية، عبر جبال قره قورم وهندوكوش الوعرة، للوصول إلى الهند التى تجتذب الشرق والغرب. وفى ظل رغبة توسعية نادرة الحدوث فى تاريخها، كثيراً ما كانت الصين هى التى تخطب ود البلدان الأخرى فى ذلك العهد البعيد، ولم يكن النجاح حليفها فى كل الأحيان. ويحدثنا «تونج تشيان كانج مو» (مرآة تاريخ العالم)، وهو خلاصة للروايات القديمة التى كُتبت القرن الثانى عشر الميلادى، عن إحدى البعثات الاستكشافية الصينية التى أرسلت سنة ٣٠ قبل الميلاد عبر الجبال شديدة الانحدار إلى الهند. وكان مقصد البعثة هو دولة تشى بن، التى لا يُعرف موقعها على وجه الدقة. إلا أنها قد تكون فى كشمير أو أفغانستان:

عندما بدأ الاتصال بالغرب فى عهد الإمبراطور وو، رفضت مملكة تشى

بن وحدها الإذعان، ظناً منها أن جنود هان لن يصلوها أبداً. بل إن ملكها قتل العديد من المبعوثين الصينيين. وفي عهد الإمبراطور يوان [٤٨ - ٣٣ قبل الميلاد] أرسل ملك تشى بن سفارة لتقديم الاعتذار. إلا أن الإمبراطور لم يكن مهتماً بإقامة علاقات خارجية ورفض استقبالها. وبعد أن اعتلى الإمبراطور [تشنج، ٣٢ - ٧ قبل الميلاد] العرش، أرسلت سفارة أخرى تحمل القرايين والاعتذارات وتقرر [قبولها و] إرسال بعثة لتوصيل السفراء إلى بلادهم بكل تكريم.

ويرى البعض أن تشى بن ما هى فى الواقع إلا مملكة كوفين الهندو يونانية، التى قامت فى إقليم كابول. وكانت الشعوب التى تحكم هناك هى الساكى، وهى قبائل البدو التى هزمت بلخ اليونانية ثم حل محلها اليويه تشى. فهل يحتمل أن يكون تغير المواقف الذى ذكرناه آنفاً راجعاً إلى أن من فى المنطقة من اليونان علّموا الساكى فوائد التجارة؟ هذا افتراض يستحق النظر.

وكان هناك تغير فى مواقف الصين أيضاً، مع تغير الإمبراطور. إذ كان هناك جرح لكبرياء الصين إن هى بدت وكأنها هى التى تسعى للاتصال، وخاصة أن لهذا الاتصال صفة تجارية صرفة. ويتضح ذلك فى حجج المستشارين الصينيين الخاصة بقبول طلبات مبعوثين تشى بن أو رفضها. ويقترح مستول رفيع المستوى بالبلاط عدم إقامة علاقات تجارية كاملة فيما يلى:

الاتصال الودى بالأمم البربرية لا يعد صائباً، إلا إذا كانت وسائل المواصلات على قدر معقول من السهولة. إن ممرات شيننتو [هندوكوش] ستكون على الدوام عقبة فى سبيل إقامة علاقات مع تشى بن. وصداقة ذلك البلد قد لاتفيد المدن الغربية [تلك التى فى حوض التاريم] وحتى إذا صار عدواً فلن يضرها فى شيء. وكنا نتعامل مع تشى بن بمودة فى بادئ الأمر، إلا أنهم آذونا. وهنا قطعنا علاقاتنا بهم. بل إن من يسمون بالسفراء الذين وصلوا إلينا ليسوا بالأشراف أو الرجال الذين يصلحون لذلك. فليسوا سوى تجار يريدون القيام بأعمال تجارية. وما هداياهم واعتذاراتهم إلا حجة. وإرسال سفارة رداً على ذلك لن يكون له معنى. إذ لن يكون ذلك إلا دليلاً على أننا خدعنا.

ومن بي شان [قد تكون جبلاً تلى خوتان] يكون على مبعوثينا أن يعبروا أربعة أو خمسة بلاد، كل واحد منها به الكثير من اللصوص. ثم على المرء بعد ذلك أن يعبر جبال الصداع الكبرى والصغرى، وهى سلسلة من الصخور الجرداء الحارقة وسميت كذلك لأنها تسبب الصداع والدوخة والقيء. ثم يأتى بعد ذلك وادى سان تشى بان الضيق [ربما يكون ممر قره قورم] الذى يبلغ طوله ثلاثين لى، وحيث يكون عرض الممر ١٦ أو ١٧ بوصة فقط، على حافة جبل شديد الانحدار، لا بد فيه من ربط المسافرين ببعض بالجبال. ومن هذا المكان وعبر شينتو تقع مسافة ٣ آلاف لى أو يزيد من الطريق حافلة بالمخاطر.

إن الملوك الأقدمين الحكماء كرسوا جهودهم للأقاليم التسعة والمناطق الخمس المركزية ولم يعطوا أى انتباه لما هو خارجها. ومع ذلك فهناك من يقترح الآن إصدار أمر بمرافقة هؤلاء التجار البرابرة إلى بلادهم، وهو ما سوف يعرض الجنود والمبعوثين الإمبراطوريين لمشاق ومخاطر لا حدود لها. وهذه الأعمال التى لا طائل من ورائها لا ينبغي أن تكون سياسة أسرة تتسم بالجلد والمثابرة. وإذا كان الضباط والمراقبون قد عینوا بالفعل، فلا ينبغي أن تتعدى مرافقتهم لأهل تشى ين جبال بي شان.

اتفق رئيس الوزراء مع وجهة النظر هذه. وتمضى الوثيقة قائلة: «وهكذا سُمح لهم [مبعوثو تشى ين] بالتجارة وعادوا محملين بالهدايا. وبعد ذلك كان مبعوثون من تشى ين يصلون الصين كل بضع سنوات». ولا سبيل إلى التكهّن بأن مبعوثى تشى ين كانوا تجاراً يونان اضطروا إلى عبور جبال قره قورم الشاهقة وتحملوا مشقة الارتفاعات الشديدة، لأنهم منعوا من استخدام طريقهم القديم السهل عبر بلخ.

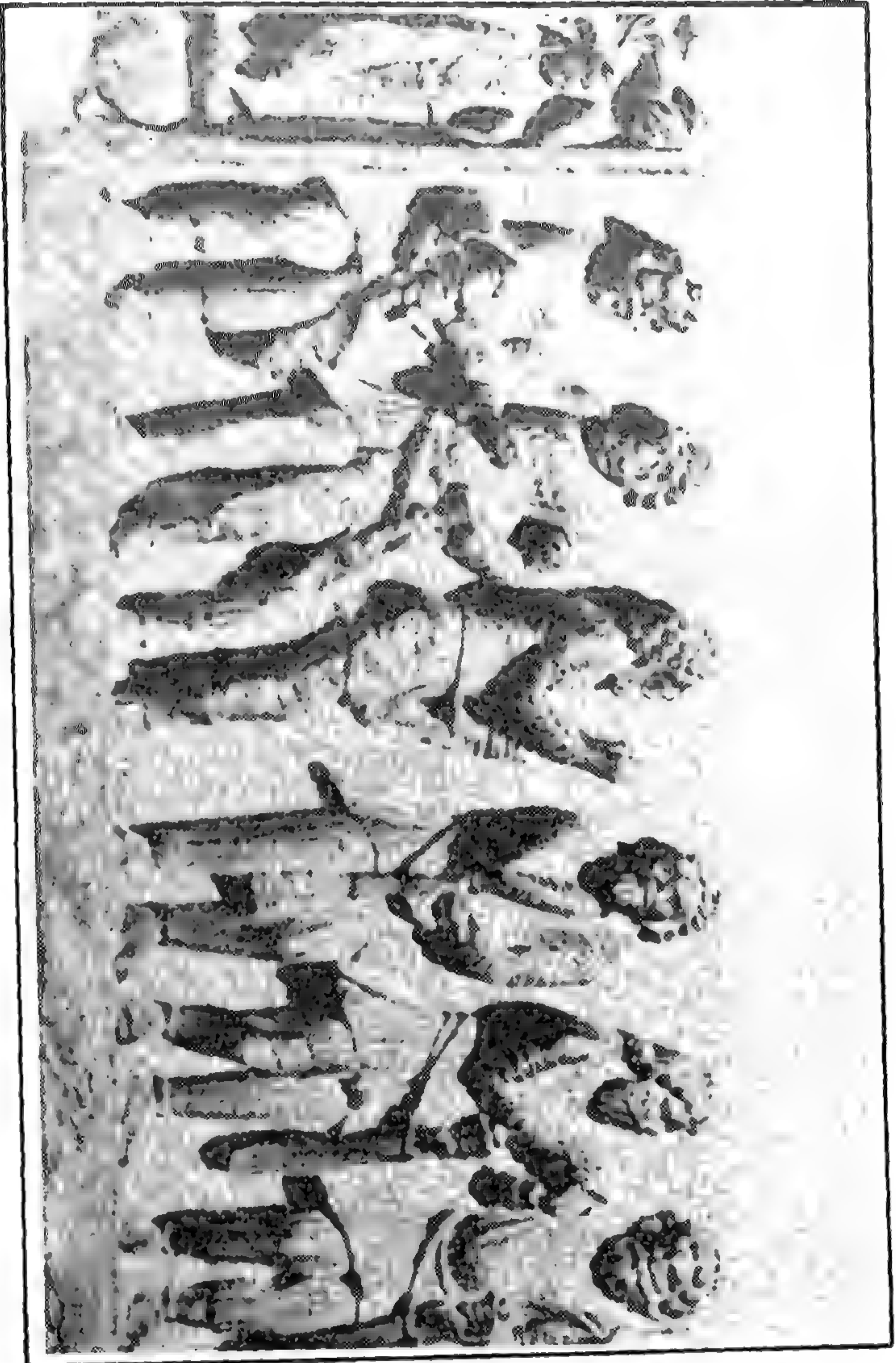
وهكذا عرفت حراير الصين طريقها عبر مسالك آسيا الوسطى الملتوية، ليتلقاها التجار على الطرق القديمة المتجهة إلى إيران وبلاد ما بين النهرين. وكان البارثيون، الذين استمرت اتصالاتهم بالصينيين عبر سهول تركستان المضطربة ما أمكنهم ذلك، يهفون إلى حراير الصين الفريدة، لأنفسهم ثم للمشتريين الغربيين الذين آثروا بارثيا. ويأتى الرومان فى مقدمة هؤلاء المشتريين.

السلسلة العظيمة

الـ«سـيريس» مشهورون بالمنتج الـ«ويرى» الذى يخرج من غاباتهم. ذلك الخيط الأصفر الذى يجدونه نامياً على أوراق الشجر فيبللونه بالماء ثم يمشطونه. وهم بذلك يقومون بعمل مزدوج من أجل نساءنا، حيث يعدون الخيوط فى أول الأمر ثم ينسجونها لتصبح أقمشة حريرية. وتتضاعف المشقة حين يكون من الضرورى نقله بين طرفى الأرض: كل ذلك كى تعرض سيدة رومانية سحرها فى قماش غزى شفاف.

بليزى الأكبر

«التاريخ الطبيعى»



كان هؤلاء الميرون، مثل القارهم الذين لم يغادروا موطنهم في السهوب، يرتدون
السرويل والمناطق القصيرة التي تناسب الفرساغة. (قدهار، من متحف أوتاريو الملكي).

كان الحرير فى بادىء الأمر بمثابة صدمة للرومان القدماء الذين كانوا قوماً من الفلاحين والمقاتلين ذوى طباع خشنة. وفى معركة كبرى مع البارثيين فى حران سنة ٥٣ قبل الميلاد ارتبك الرومان تماماً عندما نشر البارثيون، الذين يتفوقون عليهم برمااتهم الأقوياء، راياتهم الحريرية المصبوغة ذات الألوان الزاهية، إذ يبدو أنها المرة الأولى التى ترى فيها القوات الرومانية الحرير. وكان التأثير مدمراً. فسرعان ما انهارت محاولة الرومان تقليد انتصارات الإسكندر فى آسيا. وحملت النصور الرومانية، وهى شعارات الفيالق الرومانية المهزومة، إلى الهضبة الإيرانية لتزيين القصور البارثية على طريق الحرير.

وكان الحرير بالنسبة للرومان رمزاً لانحطاط الشرق الخلقى. وربما تدين كليوباترا، آخر حكام سلالة البطالمة فى مصر، بشىء من شهرتها كامرأة جذابة إلى ميلها الشديد لارتداء الحرير الفاخرة. وربما يكون ذلك ملبساً أشد جرأة وإغراء مما قد يبدو فى بادىء الأمر. فكثير من حرير تلك الأزمنة القديمة كانت شديدة الشفافية، حتى أن الهنود أطلقوا عليها «الريح المنسوجة». ولم تكن كالأشكال اللاحقة الأثقل وزناً، كالساتان^(١) والدمقس^(٢) والديباج^(٣)، أو حتى أقمشة العصر الحديث الخفيفة التى تقل عنها شفافية.

ويبدو أن الحرير الشفاف، أو شبه الشفاف، كان يُلبس فى الصين منذ قرون بعيدة. وروى تاجر عربى ذهب إلى الصين أنه لاحظ وجود علامة على صدر ضابط فى قصر الإمبراطور يرتدى ملابسه الكاملة. وكانت العلامة تُرى بوضوح من خلال ثنيات ما لا يقل عن خمسة أثواب. وذكر هذا التاجر أن تلك كانت «حرير من الدرجة الأولى التى لم ترد قط إلى بلاد العرب». أما الأقمشة التى كانت تُلبس فى غرب آسيا فتبدو على درجة كافية من الخفة والشفافية. ويشكو بلىنى فى كتابه «التاريخ الطبيعى» من شفافية قماش من الحرير الذى لا يقل جودة يُنتج فى غرب آسيا، وإن كان يلفت النظر إلى المرأة التى يرجع إليها الفضل فى اختراع عملية تجهيز ونسج هذه الخيوط: «دعونا لا نحرمها المجد الذى حققته باختراعها طريقة تجعل النساء كاسيات عاريات».

وفى منتصف القرن الأول قبل الميلاد كان الحرير مايزال شديد الندرة فى الغرب. وربما

(١) يسمى أيضاً «أطلس». وهو قماش ذو تركيب نسجى محكم الضم، له سطح لامع وظهره باهت اللون. وكان قديماً يصنع من الحرير. (المترجم).

(٢) اشتهرت بنسجه مدينة دمشق وهو منسوب إليها. والدمقس من المنسوجات الزخرفية وله سداة واحدة ولُحمة واحدة، كلاهما من لون واحد أو لونين بحسب درجة الوضوح اللازمة للزخرفة. (المترجم).

(٣) من المنسوجات المزركشة والموشاة بخيوط الذهب والفضة ويستعمل فى نسجه سداة واحدة وأكثر من لون فى اللُحمة للزخرفة غالباً ما يكون ضمنها خيوط الذهب والفضة. (المترجم).

قطع الصينيون نصف الطريق عبر آسيا كي يفتحوا النصف الشرقي من طريق الحرير. إلا أن الطريق الذي يبلغ طوله ٥ آلاف ميل ظل طويلاً وشاقاً. وفي ظل قتال الشعوب الواقعة على الطريق من أجل السيطرة على جزء من هذا الشريان العظيم الذي يقطع آسيا، كانت كميات ضئيلة من هذا القماش الرقيق تصل غرب آسيا. وبخلاف عدد قليل من الشخصيات البارزة مثل كليوباترا، كان أغنى أغنياء الرومان وأكثرهم نفوذاً يلبسون قطعاً صغيرة من الحرير على هيئة أشرطة أو دوائر أو مربعات يخطونها في عباءاتهم البيضاء المصنوعة من الصوف أو القطن أو الكتان. وإذا صُبغت تلك القطع الحريرية الصغيرة باللون الأرجواني أو طُرزت بخيوط الذهب والفضة كانت تكلفتها تزيد أربعين ضعفاً. وليس غريباً أن الحرير المصبوغ كان يُستخدم كدليل على رفعة المكانة، بسبب تكلفته وندرته. لذلك كان اللون الأرجواني على أطراف إحدى العباءات دليلاً على أن من يرتديها ينتمي إلى طبقة النبلاء. كما أن الأشرطة القرمزية والأرجوانية كانت تميز عرّاف البلاط ذا المكانة الرفيعة.

وكانت قطع الحرير تلك تمثل استثماراً غير عادي، إذا ما وضعنا في اعتبارنا تكلفة جلب البضائع عبر آسيا وما يحيط بذلك من مصاعب. والواقع أن الرومان أنفسهم كانوا مسئولين عن بعض الاضطرابات السياسية التي شهدتها طريق الحرير في تلك الفترة. فقد وضعوا أقدامهم في آسيا منذ سنة ١٩٠ قبل الميلاد، عندما هزموا اليونان السلوقيين في معركة ماغنيزيا على ساحل الأناضول الغربي. إلا أنه خلال جزء كبير من القرن الثاني قبل الميلاد كان الرومان مشغولين بحروبهم الفينيقية غربى البحر المتوسط، حيث تركز اهتمام إمبراطوريتهم عليها في تلك الفترة. ولم يبدأ الرومان في التحرك شرقاً من البحر المتوسط حتى أواخر القرن، حيث كانت بارثيا تنطلق من الهضبة الإيرانية في اتجاه الغرب.

كان الموقف كالتالي: بينما كانت الصين تؤمن نصف طريق الحرير الشرقي نسبياً، أخذ نصفه الغربي يتحول إلى ساحة قتال. وظلت روما وبارثيا تتعاقبان الضغط على بقايا الإمبراطورية السلوقية المترهلة حتى حُصر الأمراء السلوقيون بحلول سنة ٧٤ تقريباً في عدة مدن قريبة من الطرف الغربي لطريق الحرير. وبعد ذلك قُضى عليهم تماماً. وبين القوتين الأعظم كانت تقوم دول صغيرة كثيرة وتسقط. وفي بعض الأحيان كانت تابعة لإحدهما، كما في أرمينيا والصحراء السورية.

وكانت أول مواجهة كبرى بين الرومان والبارثيين سنة ٥٣ قبل الميلاد عند حران. وكان الرومان مازالوا يعيشون نشوة انتصاراتهم الكبيرة في أماكن أخرى حول البحر المتوسط، مما

جعلهم يبدون قدراً أقل من الاحترام لمن اعتبروهم برابرة، كما فعل اليونان من قبلهم. لقد كانوا يشعرون بذلك الاحتقار التقليدى الذى يكنه الفلاح أو ابن المدينة لهؤلاء القوم أشباه البدو ذوى الشعور الطويلة الذين يرتدون السراويل الفضفاضة والسترات ذات الأكمام الطويلة ويعتمدون فى حياتهم على خيولهم. ولم يحدث قبل اللقاء الأول أن أبدى الرومان قدراً كبيراً من الاحترام لبسالة البارثيين فى القتال. فهم لم يتخلوا أن الجنود المشاة الذين يسيرون فى صفوف متقاربة، وسبق أن أقاموا لهم إمبراطورية فى أوروبا وهزموا السلوقيين، قد يصبحون فى الموقف الأضعف أمام هؤلاء الخيالة الأجلاف.

ولكن ذلك قبل أن يلتقى الرومان بالفرسان البارثيين، الذين كان بعضهم فرساناً يلبسون الدروع كالفرسان الأوروبيين فى العصور اللاحقة والبعض الآخر أقل تسليحاً ولكنهم رماة فى غاية الروعة. هؤلاء الرماة البارثيون كانوا على قدر كبير من القوة فى استخدام القوس، حتى أنهم كانوا فى بعض الأحيان يصيرون جنديين بسهم واحد وكانوا بالفعل يثبتون الجنود فى دروعهم. بل إنهم أتقنوا أسلوباً يسمى الرمية البارثية (والحقيقة أنها كانت منتشرة بين فرسان آسيا الوسطى) وهو أن يتعد الرماة وكأنهم ينسحبون، وفجأة يستديرون ليطلقوا سهاماً قاتلة من فوق أكتافهم. ولم يكن لدى الرومان أى أمل فى نفاذ ذخيرة البارثيين، فقوافل الجمال المحملة بالسهام كانت موجودة فى المؤخرة. وخلاف ذلك كان هناك ذلك الصوت الذى يصم الأذان والصادر عن الطبول الجلدية الضخمة ذات الأجراس المستخدمة فى تشجيع الجيش البارثى. هذا طبعاً إلى جانب الرايات الحريرية ذات الألوان الزاهية.

كانت هذه التركيبة بمثابة الكارثة للرومان. أما القائد الرومانى كراسوس، الذى رأى فى منامه أنه يسير على خطى الإسكندر، فقد وقع فى كمين وقتل وأرسل رأسه إلى الملك البارثى. وقُتل فى المعركة أيضاً مايربو على ٢٠ ألف جندى رومانى وأسر ١٠ آلاف آخرون يُعتقد أنهم نقلوا شرقاً إلى مرو.

ويعد المصير المحتمل لهؤلاء الأسرى واحداً من أغرب قصص طريق الحرير. وجمع عالم الصينيات هومر دبس أدلة تؤدى إلى افتراض ذكى ومعقول بشأن مصير بعضهم. ففى سنة ٣٦ قبل الميلاد، أى بعد ١٧ سنة من معركة حران، فرضت القوات الصينية حصاراً على معسكر ذى أسوار للشيونج نو فى بلاد الصغد قد يكون على نهر تالاس. ومن بين كل الحصارات الأخرى التى سجلها التاريخ الصينى، لوحظ أن هذا المعسكر والخندق الدفاعى

المحيط به كان يحميهما سياج مزدوج من الخراب الخشبية، وهو أسلوب غير معروف في الشرق. يضاف إلى ذلك أن «حوليّات أسرة هان السابقة» تروى لنا أن «أكثر من مائة جندي مشاة كانوا يصطفون على جانبي البوابة في تشكيل قشر السمك». وهذا أيضاً بعيد جداً عن أسلوب آسيا الوسطى في القتال، إذ كان أقرب للاندفاع الجماعي منه للمناورة المنظمة. ولم تذكر الحوليّات الصينية في أي موضع آخر شيئاً عن «تشكيل قشر السمك» هذا. غير أن التشكيل الروماني الذي يسمى testudo (الساتر الترسى)، حيث يقف الجنود بجانب بعضهم في صفوف متقاربة ويضعون رؤوسهم فوق رؤوسهم لتشكل جداراً دفاعياً، قد يبدو أيضاً لمن يقف بعيداً عنه أشبه بقشر السمك.

وعندما انتهت المعركة لمصلحة الصينيين قُتل قائد الشيونج نو. وذكر الصينيون أنهم أسروا المستسلمين، وكانوا يزيدون على ألف رجل، حيث وُزعوا على عدة أماكن كعبيد. إلا أنهم عادوا إلى الشرق بـ ١٤٥ أسيراً حياً. ويفترض دبس أن هؤلاء الجنود الـ ١٤٥ كانوا من الرومان الذين فروا من البارثيين ولم يتمكنوا من العودة إلى الأراضي الرومانية فعملوا كمرتزقة لدى الشيونج نو. وعندما قُتل من استأجرهم، توقفوا عن القتال (لم يستسلموا) وآثروا اتباع الصينيين على الهلاك في السهوب التي لم يألّفوا العيش فيها.

ويبدو أنه سُمح لهؤلاء الجنود الذين «ضاقوا بصخب المدينة» بأن يقيموا مدينة حدودية في قلب ممر كانسو (وكان يسعد الصين دائماً أن يكون لديها قوات إضافية تحمي حدودها). والشئ المثير في هذه المدينة أنها كانت تسمى لي كان. وكان هذا من أقدم الأسماء التي أطلقتها الصين على الأراضي الواقعة وراء بارثيا. فهذا هو الاسم الصيني لموطن الحواة الذين جلبوا كهدايا من البارثيين قبل ستة عقود خلت، أي حوالي سنة ١٠٠ قبل الميلاد. وإطلاق اسم الرومان على المدينة يتناسب مع التقليد الكونفوشي الخاص بجعل الاسم متناسباً مع الشئ. ولم يطلق الصينيون أسماء أجنبية على المدن، إلا إذا كان من يقيمون بها من الأجانب.

لذلك يبدو أن الجنود الرومان، الذين وُلد بعضهم في إيطاليا أو بلاد الغال، وربما سبق أن شاهدوا قيصر أو بومبي يسير مزهواً بنصره في شوارع روما، أمضوا بقية حياتهم في مدينة على حدود الصين وتزوجوا نساء محليات وذاّبوا شيئاً فشيئاً في سكان البلاد. وجاء ذكر مدينة لي كان لآخر مرة في القرن السابع الميلادي. وربما ظلت قائمة حتى سنة ٧٤٦ ميلادية، عندما اجتاحتها أهل التبت الذين دمروا معظم المستوطنات التي في المنطقة.

وبغض النظر عن مصير الأسرى الرومان من معركة حران، لم يستوعب القادة الرومان الدرس الذى لُقنوه هناك. فبعد عقد واحد كان يوليوس قيصر يجهز حملته الشرقية لاستعادة شعارات الفيالق الرومانية المهزومة (ومعها شرف روما). إلا أن اغتياله^(١) قضى على خطته وألقى بروما فى أتون حرب أهلية. وفى سنة ٣٦ قبل الميلاد خرج مارك أنطونيو، وهو أحد قادة معركة السيطرة، فى حملة شرقية. إلا أنه أحرز نجاحاً لم يزد كثيراً عما حققه كراسوس. فعندما قصد إيكبتانا لم تكن هزيمته على يد البارثيين وحسب، وإنما بسبب نقص المؤن فى فصل شتاء قارس فى المرتفعات. وفى نهاية الأمر عاد إلى مصر، ليجد السلوى بين ذراعى كليوباترا اللتين يكسوهما الحرير.

ويتساءل البعض عما إذا كان بمقدور أنطونيو السيطرة بجيشه القوى على الإمبراطورية، إن هو لم يخسر فى آسيا، أم لا. إلا أن الحرب الأهلية انتهت بتحويل الجمهورية الرومانية إلى إمبراطورية موحدة بزعامة أوكتافيان أغسطس^(٢)، بعد هزيمة أنطونيو وكليوباترا فى أكتيوم سنة ٣١ قبل الميلاد. وهكذا بدأ السلام الرومانى Pax Romana، وهى الحقبة العظيمة فى الإمبراطورية الرومانية.

وكان أغسطس هو من استعاد الشعارات الرومانية الغالية، أو «النسور المفقودة»، من بارثيا. ولم يتم ذلك بالقتال وإنما بالمفاوضات. فبعد أن أسر الرومان ابن الملك البارثى بادلوه بالشعارات سنة ٢٠ قبل الميلاد. وفيما عدا ذلك، نصت معاهدة السلام بين القوتين على أن يقيم أربعة من الأمراء البارثيين فى روما كرهائن دبلوماسيين. وهناك كانوا من نجوم المجتمع المعروفين. وكانوا كثيراً ما يظهرون فى المسرح أو وهم يقودون عرباتهم فى المدينة مع أصدقائهم الرومان، ومنهم الشاب كاليجولا.

وظلت روما فى سلام مع بارثيا فترة من الزمن. إلا أن الحرب الباردة ظلت قائمة بينهما. ويتجلى ذلك فى تنافسهما المستمر على احتواء الدول الصغيرة فى المنطقة، وبالأخص أرمينيا والدويلات العربية فى سوريا. إلا أنه فى عهد أغسطس المديد^(٣)، وعهد

(١) أُغتيل يوليوس قيصر يوم ١٥ مارس سنة ٤٤ قبل الميلاد حيث قال قولته الشهيرة: «حتى أنت يابروتس؟»، وكان طموح يوليوس قيصر الزائد هو الذى دفع الجمهوريين إلى قتله. وتميز يوليوس قيصر بفضته وذكائه وديناميكيته. كما كان خطيباً مفوهاً وكاتباً، وله كتابان وصلا إلينا هما «عن الحرب الغالية» و«عن الحرب الأهلية». (المترجم).

(٢) خلف يوليوس قيصر وأصبح أول إمبراطور روماني سنة ٢٩ قبل الميلاد، واسمه الأصلى هو جايوس أوكتافىوس وتضمنت وصية يوليوس قيصر تربيته له فأصبح اسمه الرسمى هو جايوس يوليوس قيصر. أما أوكتافيان فهو الاسم الذى أطلقه عليه المؤرخون المحدثون. وكان فى سنة ٣١ قبل الميلاد قد هزم أوكتافيان مارك أنطونيو فى موقعة أكتيوم ودخلت جيوشه المنتصرة الإسكندرية وبذلك دخلت مصر رسمياً تحت حكم الرومان سنة ٣٠ قبل الميلاد. (المترجم).

(٣) من ٢٧ قبل الميلاد إلى ١٤ بعد الميلاد. (المترجم).

الإمبراطورين اللذين خلفوه، ساد السلام الطرف الغربي الأقصى من طريق الحرير. ويتحدث مراقب معاصر، وهو فيليوس پاتركولوس، عن أمراء رومان وبارثيين يتنزهون معاً على ضفاف نهر الفرات، وهو الحد الفاصل بين الإمبراطوريتين:

على إحدى الجزر فى نهر الفرات التقى جايوس [حفيد أغسطس] مع ملك البارثيين، وهو شاب ذو مظهر متميز. وكانت تصحبهما حاشيتان متماثلتان. وكان منظر الجيش الرومانى المرابط على جانب والجيش البارثى على الجانب الآخر، فى الوقت الذى يلتقى فيه هذان القائدان البارزان اللذان لا ينتميان إلى الإمبراطوريتين اللتين يمثلانها فحسب وإنما إلى البشرية جمعاء، من أسعد المناظر التى رأيتها فى مطلع حياتى كجندى... تناول البارثى الغذاء أولاً مع جايوس على الضفة الرومانية، ثم تناول جايوس العشاء مع الملك على أرض العدو.

وضع هذا السلام حداً للحروب التى استنزفت روما وأدى إلى زيادة الطلب على نفائس الشرق الجديدة، وبعد أقل من عشر سنوات من معركة حران، حيث شوهدت الرايات الحريرية ذات الألوان الزاهية لأول مرة، كانت هناك رايات مثلها ترفرف فوق روما نفسها لتكريم يوليوس قيصر العائد من أحد انتصاراته الكثيرة. ومع عودة السلام من جديد كانت لدى قادة الإمبراطورية التى اتسعت أطرافها رغبة فى الحصول على نصيبهم من حراير الشرق وتوابله وجواهره. فالرومان الذين كانوا يتميزون من قبل بالبساطة باتوا يسعون إلى أن ينعموا بأسلوب الحياة الشرقى الذى يتميز بالثراء.

وفى الشرق استمر الصينيون فى التجارة عبرالقارة مع بارثيا. وليس هناك ما يوضح إن كان التجار أو المبعوثون الصينيون قد تعدوا بارثيا إلى الأراضى الرومانية أم لا. ومن المؤكد أن موارد بارثيا كانت تعتمد على تحكمها فى طريق الحرير. وظل البارثيون قروناً عديدة، ربما تبدأ من ذلك الوقت، يمنعون الآخرين من عبور أراضيهم كى يحتفظوا بأرباح الوسطاء لأنفسهم. ويبدو أن الحوليات الصينية تشير إلى أنه حتى أواخر القرن الأول الميلادى لم يتعد مبعوث رسمى لأسرة هان حدود بارثيا. ولكن ربما نجح بعض المبعوثين غير الرسميين من الصين وآسيا الوسطى فى العبور إلى الأراضى الرومانية فى سنوات الإمبراطورية الأولى، فى محاولة منهم لتوسيع تجارتهم. وبعد قرنين كتب المؤرخ الرومانى فلوروس ما يحمل الكثير من الدلالات من خلال ثنائه على السلام الرومانى فى عهد أغسطس:

بل إن سائر شعوب العالم التي لم تكن خاضعة للإمبراطورية كانت تدرك عظمتها وكانت تنظر باحترام إلى الشعب الرومانى، قاهر الأمم الكبرى. وحتى السيث وأهل سارماتيا أرسلوا مبعوثين طلباً لصداقة روما. كما أن الصينيين جاءوا للغرض نفسه. وكذلك فعل الهنود الذين يعيشون تحت الشمس الرأسية، حيث جاءوا بهدايا من الأحجار الكريمة واللؤلؤ والأفيال غير أبهين بطول الرحلة التي قطعوها وقالوا إنها استغرقت أربع سنوات. والواقع أن الأمر لا يحتاج سوى النظر إلى بشرتهم لترى أنهم أناس ينتمون إلى عالم غير عالمنا. وأعاد البارثيون على الفور الشعارات التي كانوا قد استولوا عليها فى كارثة كراسوس، وكأنهم يكفرون عن تجرؤهم على هزيمة الرومان. وهكذا أحاطت بالمعمورة دائرة متصلة من السلام، أو على الأقل المهادنة.

وخلال هذه الحقبة القصيرة من السلام، كان البارثيون يجدون سعادة بالغة فى تزويد الرومان بالنفائس التي يطلبونها. وظل اليونان والسوريون والأرمن، وغيرهم ممن كانوا يعملون كتجار على طريق الحرير فى عهد السلوقيين، مواطنين مكرمين فى ظل حكم البارثيين. وكان البارثيون يدركون قيمة سيطرتهم على طريق الحرير إلى حد كبير. ولأنه لم يكن هناك طريق بديل يعادله فى المنطقة، بينما يحتكرون هم هذا الطريق، كانوا يفرضون رسوماً كبيرة على البضائع التي تمر فى أراضيهم. وكانت تلك الرسوم تشكل جزءاً كبيراً من موارد دولتهم.

يبدو أن التجار الذين كانوا يترددون على طريق الحرير فى عهد البارثيين واصلوا التقليد الخاص بتوزيع أدلة للمسافرين توضح لهم المحطات الرئيسية أو مراكز تجمع القوافل، التي يمكنهم أن يجدوا فيها مأوى أثناء السفر، بالإضافة إلى المسافات التي تفصل بين كل منها وكذلك أى معالم بارزة يمكن رؤيتها على الطريق. ولم تكن هذه الأدلة مفصلة وإنما ملاحظات مختصرة للتجار والمسؤولين. وأبقت الصدفة على أحد هذه الأدلة ويحمل اسم «المحطات البارثية» وهو من وضع شخص يدعى ايزيدور من ميناء كاراكس. وهو الذى أتاح لنا تحديد القطاع الغربى من طريق الحرير فى عهد يوليوس قيصر. وفى تلك الفترة كانت أنطاكية عاصمة السلوقيين القديمة هى العاصمة الرومانية للأقاليم الآسيوية الغربية. وكانت تحتفظ بكل ما كان لها من عظمة وبهاء فى الماضى.

يبدأ الطريق عند ايزيدور من زوغما، معبر الفرات القديم، ويمضى من هناك عبر القرى الصغيرة العديدة، فإن كانت إحداها محصنة وبها بئر ماء صالح للشرب استحقت الذكر، ليصل إلى مدينة سلوقية التى تتقاطع عندها الطرق. (هذه المدينة سرعان ما غطت عليها طيسفون مدينة البارثيين التى أقيمت بالقرب منها). وبعد ذلك كان الطريق يصعد بالمسافرين عبر أراضي الميديين ماراً بإيكبتانا، «حاضرة الميديين»، ذات المعبد المميز والخزانة. وبعد ذلك كانت تقع الرى، «أعظم مدن الميديين»، والوادي الضيق الذى يُطلق عليه البوابات القزوينية ويقع أسفل جبل مرتفع. وعلى طول الطريق، عبر سهول جرجان وماوراءها، لاحظ ايزيدور وجود قرى ومدن كثيرة، تتفق مع وصف الإقليم كما أورده الزوار الصينيون الأوائل قبل قرن من ذلك. ويقل عدد القرى فى المنطقة الواقعة فى الشرق. وفى مرو على سبيل المثال، التى يفترض أن الأسرى الرومان أقيّدوا إليها بعد حران، لاحظ ايزيدور أنه رغم توافر الماء فى المحطة، لم تكن هناك قرى بالقرب منها. ومن هذا المكان يفترق الطريق الذى يصفه ايزيدور عن الطريق المتجه شرقاً والمألوف فى العصور السابقة واللاحقة. فبدلاً من الاتجاه إما إلى بلخ أو أقاليم فرغانة، كان الطريق يسير فى أراضي بارثيا الشرقية الأشد جدياً على امتداد سلسلة جبال تصل إلى الهند.

والصورة التى لدينا عن الأراضي الواقعة بالهضبة الإيرانية وحوض التاريم فى تلك الفترة ليست واضحة بالقدر الكافى. فبينما كان الرومان يخوضون حربهم الأهلية فى الغرب، كانت جماعات عديدة من بدو آسيا الوسطى تتصارع على هذا الجزء الأوسط، وهو ما يبدو أنه السبب فى جعل الطريق المباشر إلى الشرق صعباً وخطيراً. واعتماداً على خط سير ايزيدور، يبدو أن البارثيين اعتادوا السفر إلى الجنوب الشرقى للإتجار مع الهند. ومن المعلومات الطريفة فى هذا الخصوص أنه فى عهد أغسطس، الذى امتد إلى عصر التقويم المسيحى، كان حاكم إحدى الإمبراطوريات فى شمال غربى الهند ملكاً يسمى جوندوفارنيس، ويُعتبر فى الأساطير المسيحية واحداً من «حكماء الشرق الثلاثة» الذين جاءوا لزيارة المسيح فى بيت لحم^(١).

وفى الشرق استمر الصينيون فى توسيع تجارتهم المتجهة غرباً، حيث افتتحوا فى السنة الثانية الميلادية تقريباً طريقهم الجديد إلى الشرق، مما أدى إلى تقصير المسافة بين بوابة اليشب ومراكز القوافل فى منطقة تورفان والشمال.

(١) جاء فى إنجيل متى: «ولما وُلد يسوع فى بيت لحم اليهودية فى أيام هيرودس الملك إذا مجوس من المشرق قد جاءوا إلى اورشليم قائلين أين هو المولود ملك اليهود». (المترجم).

ومما يؤسف له أنه بينما كانت الصين توسع اتصالاتها عبر القارة، أصبحت أسرة هان على قدر كبير من الضعف فى الداخل مما أدى إلى إقصائها عن الحكم سنة ٩ ميلادية حين استولى وانج مانج على العرش. إلا أن المشاكل المتوالية، فى صورة الجفاف والمجاعة ثم الفيضانات الشديدة التى غيرت شدتها مجرى نهر هوانج، قضت على جهوده لحكم البلاد. وكانت نهاية حكم وانج مانج سنة ٢٥ ميلادية على يد جيش من الفلاحين الذين أطلقوا على أنفسهم اسم الحوارج الحمراء^(١)، إشارة إلى لون الطلاء الذى استخدموه لتمييز أنفسهم. وقام هؤلاء بنهب مدينة تشانج آن المعرضة دائماً للهجوم. وأعيدت أسرة هان للحكم، حيث أطلق عليها هان اللاحقة (أو الشرقية) مقابل أسرة هان السابقة (أو الغربية) وبدأت تحكم من العاصمة الجديدة لويانج.

إلا أنه خلال فترة تزيد قليلاً على العشر سنوات انهارت كل الأعمال التى قامت بها الصين فى حوض التاريم. وعندما أحس الشيونج نو بضعف عدوهم القديم شنوا هجوماً شرساً على حدود الصين الشمالية. وثارت العديد من الدول الواحات فى التاريم وحصل بعضها على استقلال مزعزع. إلا أن معظمها اضطر لدفع الخراج للشيونج نو فى الشمال، أو للغزاة التبت الذين أثاروا القلاقل فى جزء كبير من ممر كانسو. واستقرت بعض أقوام الشيونج نو داخل سور الصين العظيم فى الممر نفسه، مما تسبب فى معاناة الصينيين. ولكن الصين احتفظت ببعض الحلفاء، وخاصة يرقند، فى أقصى التاريم. وماعدا ذلك لم يكن إلا قفاراً. بل إن المدافع العام عن الأراضى الغربية (وهو منصب استُحدث سنة ٥٩ قبل الميلاد) قُتل فى الثورات التالية. وكما تشير الحوليات الصينية، «تخبطت المناطق الغربية وتناثرت كالأجر غير المتماسك». ولم تستعد الصين سيطرتها على حوض التاريم إلا بعد عشرات السنين.

ظلت بعض الحراير تصل إلى الغرب عبر القارة، خاصة فى أعقاب ظهور الرومان بعد فترة قصيرة جداً كأسواق متعطشة لهذه النفائس. إلا أن تكاليف التجارة كانت باهظة وكانت الواردات التى تصل عبر القارة محدودة. وخلال الفترة المضطربة من حكم وانج مانج، على سبيل المثال، لم يتلق أحد شركاء الصين فى تجارة «الخراج»، وهى قبيلة من الشيونج نو تُسمى شان يو، إلا ثمن ما كان يتلقاه من الحراير المطرزة وخيوط الحرير التى كان يتلقاها قبل

(١) كانت هناك أيضاً جماعات شينشى وبينجلين والخيول البرونزية. (المترجم).

عشر سنوات أو نحو ذلك. وفي غياب الدرب الآمن، فقد الكثير في الطريق حيث استولى عليه المغيرون الذين لم تستهوههم عائدات التجارة طويلة المدى. وفي غياب السلطة المركزية التي يفضلها التجار، اضطروا إلى دفع ضرائب ورسوم مرتفعة لكل دويلة يمرون فيها وهم متجهون شرقاً. وكانت النتيجة انخفاض معدل تدفق الحراير من الشرق، في حين كانت رغبة روما في الحصول عليها تزداد يوماً بعد يوم. واستغلت بارثيا «سوق المشتري» لتحقيق أكبر قدر ممكن من الأرباح.

وفي ظل هذه الظروف شرع أغسطس قيصر في محاولة البحث عن طرق بديلة إلى الشرق، كي يحصل على المزيد من الحراير وغيرها من السلع المطلوبة، وبتكلفة أقل. وكان الطريق الواقع شمال بحر قزوين أو عبره يعاني من نفس المشاكل التي يعاني منها طريق الحرير. لذلك لجأ إلى البديل الطبيعي، وهو طريق التوابل. والمعروف أن الهنود ظلوا زمناً طويلاً يبحرون في المياه الواقعة جنوبي آسيا لمقايضة منتجات البلاد البعيدة الواقعة في الطريق. وبحلول أواخر القرن الثاني قبل الميلاد، كان اليونان أيضاً قد بدأوا الإبحار من مصر إلى الهند للمشاركة في الثروة بصورة مباشرة. وكان الرومان يدركون جيداً أن النفائس والثروة ترد من طريق التوابل، تلك النفائس التي ظلت زمناً طويلاً ترد من طريق البخور في الجزيرة العربية أو البحر الأحمر إلى البتراء وغيرها من مدن القوافل أو إلى الإسكندرية. وكانت القوافل التي تسير على هذا الطريق كبيرة الحجم، مما جعل الجغرافيين اليونانيين الرومانيين سترابو يعتقد أنها أقرب إلى الجيش.

جعل أغسطس الإسكندرية مركز التجميع الرئيسي للنفائس الشرقية المنقولة بالبحر إلى روما. واستمر اليونان في السفر على طريق التوابل الذي أصبح تحت إشراف الرومان. وقد أشاد بهم شعراء الموانئ الهندية الجنوبية. وتحدث أحدهم عن «سفن اليافانا [اليونان] الضخمة الجميلة التي تجلب الذهب وتحدث الزبد الأبيض على الماء... وتعود محملة بالفلل». ويقول شاعر آخر:

... يؤتى بأكمياس الفلفل من المنازل إلى السوق. أما الذهب الذي يحصلون عليه من السفن، مقابل السلع المباعة، فيأتون به إلى الشاطئ في القوارب... حيث لا تتوقف موسيقى البحر الهائج وحيث يقدم [الملك] للزوار المنتجات النادرة من البحار والجبال.

ولم تكن لدى أغسطس قيصر الرغبة في المشاركة في هذه التجارة مع العرب أو دفع نصيب الوساطة لهم. وكان سترابو شديد الوضوح فيما يتعلق بهذه النقطة:

كان العرب... معروفين منذ أقدم العصور بأنهم أهل ثراء، حيث كانوا يبيعون توابلهم وأحجارهم الكريمة بالذهب والفضة دون أن يعطوا شيئاً مما حصلوا عليه للأجانب. ولهذا السبب كان [أغسطس] يتمنى استغلالهم كأصدقاء أثرياء أو يقهرهم كأعداء أغنياء.

والحقيقة أنه جرّب الطريقتين. ففي أول الأمر انتهج الأسلوب العسكرى، إلا أن العرب تمكنوا من اللعب بالرومان فى الصحراء إلى أن أقرت فيالقهم بالهزيمة. ولكن الرومان نهبوا الميناء الرئيسى فى طريق البخور، وهو عدن، ودمروه. مما أدى إلى انتقال طريق التوابل إلى نقطة أبعد شمالاً على البحر الأحمر عند الموانئ الخاضعة للرومان مثل إيلة عند رأس خليج العقبة. وشيئاً فشيئاً استولوا على مدن القوافل الواقعة إلى الشمال من إيلة وأقاموا الحصون وحفروا الآبار على طول طرق القوافل القديمة. وفى نهاية الأمر كان الطريق يمتد من إيلة ماراً بالبتراء ثم يتجه شمالاً إلى دمشق ومدينة تدمر العربية شبه المستقلة وبعدها يقطع هضبة الأناضول إلى طرابزون على البحر الأسود.

وعندما كان طريق الحرير شبه مغلق، كانت الخراير والتوابل الآتية من الصين تتجه فى كثير من الأحيان غرباً فى سفن هندية أو هندية ماليزية تبحر من ميناءى نان هاى (كانتون) وكاتيجارا (ربما يكون هانوى الحالية) اللذين ظهرا حديثاً فى ذلك الوقت. وبما أن البارثيين كانوا على حالهم فى السوق، فإن جزءاً من تلك البضائع، علاوة على التوابل والجواهر التى تقدمها للهند نفسها، كان يرسل بالبر من موانئ عديدة إلى بلخ ومنها إلى بارثيا. ولكن الجزء الأكبر كانت تنقله السفن. إذ كانت السفن اليونانية تخرج من الهند وتفرغ حمولتها فى موانئ البحر الأحمر. وكان المقصد قصير المدى فى الغالب هو الإسكندرية أو إحدى المدن الفينيقية. وكانت بمثابة مراكز تنقية وتوزيع إلى سائر عالم البحر المتوسط.

فى ظل ذلك القدر اليسير الذى كان يعبر طريق الحرير نفسه وذلك الفيض الذى يمر على طريق التوابل، أصبح للنفائس الآسيوية أثرها ليس على روما نفسها وحسب، بل أيضاً على سائر أنحاء الإمبراطورية الرومانية. فالحرير الذى كان يُغزل فى الصين ويبيع فى جزر الملايو أو الهند وينسج ويصبغ فى فينيقيا قد يرتديه النبلاء فى أنحاء البحر المتوسط، من الأناضول حتى أسبانيا. والجواهر التى كانت تُستخرج من أفغانستان وتُقطع فى الهند وتُنقل إلى الإسكندرية، قد تزين جسم امرأة من الرعايا الرومان فى أى مكان من النيل إلى

الراين. وكان أثر ذلك على الحياة الرومانية عظيماً. وكثيرون من حذروا من النتائج الوخيمة التي قد تنجم عن مثل هذا الانغماس في الملذات.

والواقع أن هذا كله ذهب سدى. فما إن يتذوق الإنسان طعم النفائس الوافدة حتى يصبح من العسير عليه أن يتخلى عنها. وسرعان ما سلبت السلع المتدفقة من الشرق ألباب الرومان. ويرثى بلىنى، وهو متشدد يخالف ما عليه الناس في زمانه، حال الرومان قائلاً:

... أصبحنا نرى الآن جبلاً بكاملها تقطع لتصبح بلاطات من الرخام،
ويُشد الرجال إلى الدسيريس، (الصينيين) للحصول على أقمشة
للملابس، وتُستكشف أعماق البحر الأحمر بحثاً عن اللؤلؤ، وتُنقب
أعماق الأرض لاستخراج الزمرد. لا، بل إنهم أيضاً يثقبون الآذان،
وكان وضع هذه الجواهر فيما يلبسون من قلادات وتيجان لا يكفي
فجعلوا تلك الثقوب في الجسم ليضعوها فيها.

ولأن أحداً لم يعر تلك التحذيرات اهتماماً، ازداد ما ينفقه الرومان مما ورثوه وما آل إليهم من ثمار إمبراطوريتهم على جواهر آسيا وتوابلها ونفائسها. وباختصار كانت نتائج ذلك مدمرة وساهمت بصورة أو بأخرى في انهيار الإمبراطورية في نهاية الأمر، كما أوضح بلىنى:

... وعلى أقل تقدير، استنزفت الهند والصين وتلك الجزيرة [العربية]
معاً من إمبراطوريتنا مائة مليون سسترس^(١) كل سنة. وهذا هو الثمن
الذي كلفتنا إياه حياتنا المترفة ونساؤنا!

كان المقصود بذلك في المقام الأول هو الحرير. فالحرير هو الذي استنفذ أموال الرومان واستولى على خيال كل من جاء بعدهم. وكان الحرير مرتبطاً بطريق الحرير، كما كان مرتبطاً كذلك بطريق التوابل في تلك الفترة، لأن الصين ظلت تحتفظ بسر صنعها داخل حدودها لمدة خمسمائة سنة أخرى. وحتى القرن الخامس الميلادي تقريباً، كان الغرب بصورة عامة يعتقد أن الحرير ينتجه أحد النباتات. وهو ما اعتقده بلىنى أيضاً كما يتضح في الفقرة الموجودة في صدر هذا الفصل. وهذا الخطأ يعد طبيعياً، لأن الكتان والقطن كلاهما من

(١) عملة فضية رومانية تعادل ربع الدينار ظهرت في القرن الثالث قبل الميلاد. (المترجم).

الألياف النباتية . ولا شك في أن الصينيين شجعوا هذا الفهم الخاطئ كى يحولوا دون وصول الباحثين إلى الحقيقة . وكان نجاحهم فى ذلك عظيماً . وحتى عندما أصاب أحد أبناء الغرب بعضاً من الحقيقة كانت القصة التى رواها عن ذلك ضرباً من المعلومات المضللة . وهاهو ما قاله الرحالة اليونانى بوسانياس فى القرن الثانى الميلادى :

... الخيوط التى يصنع منها الصينيون أقمشتهم ليست من إنتاج النبات ، ولكنها تُنتج بطريقة مختلفة تماماً ، وهى كما يلى . ففى بلادهم حشرة معينة يطلق عليها اليونان (سير) . ولكن الصينيين لا يسمونها كذلك ، بل تختلف تسميتهم كثيراً . وهى من ناحية الحجم ضعف أكبر خنفساء . ولكنها من ناحية أخرى أشبه بالعنكبوت الذى ينسج خيوطه تحت الأشجار . وهى أيضاً لها ثمانى أرجل مثلها مثل العنكبوت . ويربى الصينيون هذه المخلوقات ويصنعون بيوتاً تأوى إليها تصلح للصيف والشتاء . والمادة التى تغزلها هذه الحشرات توجد على هيئة خيط رقيق ملفوف على أرجلها . وهم يطعمونها الدخن لمدة أربع سنوات وفى السنة الخامسة يقدمون لها البامبو الأخضر لتأكله (فهم يعرفون أن هذه المخلوقات لن تعيش أطول من ذلك) . وهذا هو الطعام الذى تفضله الحشرة عما سواه . وهى تلتهم منه الكثير ، حتى أنها تنفجر من التخمة . وبعد أن تموت بهذه الطريقة يجدون داخلها الكمية التى غزلتها .

والحقيقة مختلفة تماماً ، وإن كان بوسانياس قد فهم على الأقل أن الحرير منتج حيوانى وليس نباتياً .

ولكن جهل الرومان لم يكن له تأثير كبير . ففى تلك الأيام كانوا مشتريين وليسوا منتجين . وكانت لديهم واردات من الحرير وغيره من النفائس الشرقية التى ترد إليهم براً وبحراً . وأصبحت الحرير شائعة فى روما فقط فى تلك العقود القليلة . فبحلول سنة ١٤ ميلادية كان مجلس الشيوخ يسعى إلى حظر ارتداء الرجال للحرير ، بزعم أنه « يُشينهم » ويجعلهم متشبهين بالنساء .

وكان هناك عيب خطير واحد فى طريق التوابل ، هو القراصنة . وكثيرون من هؤلاء كان دافعهم إلى السرقة فقدانهم لمصدر رزقهم السابق . والكاتب السكندرى أجاتارخيديس

أوجز ذلك فيما كتبه بعد قرنين فى سياق حديثه عن العرب الذين لم يعد الرومان يمرون فى أراضيهم بعد اتخاذهم الطريق البحري الجديد:

فى الماضى كان رزقهم يكفيهم... ولكنه بعد أن جعل ملوك الإسكندرية الخليج ممراً ملاحياً للتجار، كانوا يهاجمون من ألقى بهم البحر على الشط. وبعد أن صنعوا سفن قرصنة أخذوا يسلبون متاع المسافرين بحراً.

وعلى طول الطريق من الصين إلى مصر كان القراصنة يترددون على الممرات الضيقة ومجموعات الجزر وغيرها من الأماكن التى يسهل عليهم الانقضاض منها على السفن التى تقطع طريق التوابل. وكما هو الحال على البر، قامت ممالك بحرية عديدة فى محاولة للسيطرة على قطاعات من الطريق، مطالبة برسوم كبيرة مقابل المرور الآمن فى المضائق الحيوية على طول الطريق. ورغم تلك العيوب استمر طريق التوابل يعمل قروناً طويلة إلى جانب طريق الحرير.

ولكن الرومان كانوا يستعجلون إعادة فتح الطريق البرى. قد تكون الزحلة طويلة وشاقة، إلا أن الطريق يمكن تأمينه إذا كانت هناك سلطة قوية وكانت المسافة تقل كثيراً عن الطريق البحرى. وجذبت عودة النفوذ الصينى إلى آسيا الوسطى شعوب الغرب، بنفس القدر الذى جذبت به شعوب الشرق فى ذلك الوقت.

قُدِّر لإعادة فتح حوض التاريم أن تكون عملية طويلة. فأسرة هان كان عليها قبل أى شىء أن تعيد النظام داخل البلاد. وسعت بعض دول التاريم مثل شان شان إلى التمتع بحماية الصين، حيث كانت تعاني من الخراج الضخم الذى يفرضه عليها الشيونج نو، فى حين قاوم بعضها نفوذ الشيونج نو. بل إن ملك يرقند، وهى الحليف الرئيسى للصين فى آسيا الوسطى، اقترح تعيينه مدافعاً عاماً عن المناطق الغربية. وعندما قوبل هذا الطلب بالرفض بدأ سلسلة فتوحاته. وكانت النتيجة أن ثمانى عشرة من ممالك التاريم، بينها شان شان وتورفان، توسلت إلى إمبراطور هان كى يعين مدافعاً عاماً يدافع عنها. ولكن حكام هان كانوا مائزاً يركزون على شئونهم الداخلية. وتركزت المدن الصحراوية تحت رحمة القوى المتصارعة فى المنطقة.

وحتى القرن السابع الميلادى لم يكن حكام هان قد بدأوا من جديد أى تحركات

عسكرية فيما وراء السور العظيم. بينما أرسلت حملات عديدة إلى الشمال ضد الشيونج نو فأعادت إلى الحظيرة الصينية واحات هامى وجوتشين (وراء بيه شان الأسفل) وتورفان التى خرج حاكمها المحلى «إلى ظاهر المدينة وخلع غطاء رأسه وقبل سنابك فرس [الجنرال الصينى] وأعلن استسلامه». وفى تلك المدن أقام الصينيون حاميات عسكرية لتكون بمثابة حائط دفاعى فى مواجهة غزو الشيونج نو للمناطق الغربية.

كان الجنرال پان تشاو هو المسئول الأول عن استعادة مناطق الصين الغربية. وپان تشاو من أسرة معروفة. فأبوه هو الذى بدأ «تشيان هان شو» (حوليات أسرة هان السابقة) وأخوه هو الذى أنهارها. بينما كانت أخته كاتبة مرموقة. أما پان تشاو نفسه فكان يتمتع بقدر كبير من الدهاء، إلى جانب كونه مقاتلاً صلباً يمكن أن يكون فى غاية القسوة إذا استدعى الأمر. وربما لم تكن الصين تحظى إلا بقدر يسير من ثقة شعوب الصحراء، عندما اتجه غرباً لأول مرة سنة ٧٣ ميلادية تقريباً ليعبر بوابة اليشب إلى التاريم. ولكن پان تشاو كان يعتقد أن «من يخترق عرين النمر هو وحده من يمكنه أخذ أشباله».

وهكذا شق هو ومن معه طريقهم عبر الرمال شديدة الحرارة مخترقين أرض الجمال البرية. وفى تلك البلاد، التى كانت غريبة وجديدة عليهم، تذكروا كل الحكايات القديمة التى تتحدث عن الأرواح الشريرة التى تسكن الصحراء وعن مدينة التين الأسطورية الواقعة تحت مياه لوب نور. كما أنهم واجهوا خطراً كان أقرب إليهم، وهو الغارات التى يحتمل أن يشنها عليهم الشيونج نو وسكان التبت، إلى جانب نقص المياه فى بلاد ليس لهم فيها فى ذلك الوقت إلا عدد محدود من الأصدقاء. وفى أولى محطاتهم، وهى مدينة شان شان التى تبعد مسيرة ثلاثة إلى أربعة أسابيع من بوابة اليشب، عقد الأمير المحلى العزم على تسليم ضيوفه الصينيين إلى الشيونج نو، وهو يدرك أنه إن لم يفعل ذلك سوف يصبون جام غضبهم عليه. وفى الحال استشف پان تشاو الأمر وبادر بما يسميه العسكريون المحدثون ضربة وقائية. ففى تلك الليلة أضرم النار فى المدينة. وأثناء الفوضى التى نجمت عن ذلك ذبح عدداً كبيراً من السكان. وبعد ذلك أصبحت شان شان تحت إمرة قائد المناطق الغربية وأصبحت بها حامية صينية كانت بمثابة نقطة متقدمة لآى غزوات أخرى متجهة نحو الغرب. ومن المؤكد أن شان شان احتلت موقعاً استراتيجياً على الطريق إلى الغرب، إلا أن مقام به پان تشاو يُعد عملاً رمزياً يهدف إلى إبلاغ الجميع عزم الصين على استرداد المناطق الغربية.

وطوال الثلاثين سنة التالية قاد بان تشاو القوات الصينية فى ربوع حوض التاريم، حيث استولى على كل المدن الرئيسية على طول الطريق إلى جبال البامير. وهكذا أصبحت خوتان ويرقند فى الجنوب وأكسو وكوتشا وكاشغر فى الشمال تابعة للصين. إلا أن كل نصر تحقق فى آسيا الوسطى كان مجرد فصل فى حرب طويلة. فالأمراء الذين أخضعهم الصينيون لسلطانهم كانوا يغيرون ولاءهم ويتجهون إلى الشيونج نو. يضاف إلى ذلك بُعد كثير من تلك المدن عن الصين. غير أن بان تشاو، بصفته ممثلاً للصين، استغل كل دهائه وقسوته فى معرفة من يحتمل ارتدادهم وأعدمهم وأتباعهم. بل إنه عندما كان الصينيون يطردون ويستدعون إلى بلادهم، كما حدث فى كاشغر سنة ٧٥ ميلادية، كان بان تشاو فى بعض الأحيان يتجاهل الأوامر ويعود للاستيلاء من جديد على إحدى الواحات المهمة.

وفى نهاية الأمر أنعم عليه بلقب «المُدافع عن المناطق الغربية»، إذ أخضع بالفعل كامل حوض التاريم للصين. وكما تشير الحوليات الصينية: «استتب النظام حتى جبال البامير وممرات هانجنج»، وهى الممرات الجبلية المرتفعة التى كانت القوافل تعبرها للوصول إلى إيران والهند. ويعود بعض الفضل فى نجاحه إلى السياسة الاستعمارية القديمة التى تقوم على استخدام شعوب البلاد التى تُفتح فى زيادة رقعة الفتوحات. فقد أخذ بان تشاو من كل مدينة صحراوية فتحها بعض القوات التى أضافها إلى الجنود الصينيين، وكانوا فى أغلبهم من المغامرين أو المجرمين السابقين أو المنشقين الذين اضطروا للعيش فى المنفى. ووطَّن بان تشاو هؤلاء الجنود فى سلسلة من الحاميات فى الأراضى التى فتحها إلى أن وصل إلى جبال البامير، وهى بمحاذاة الطرق المتجهة غرباً. وبذلك وفرت هذه الحاميات المؤن والحماية للقوافل التى كانت تسير فى مسالك طريق الحرير التى لم يستتب أمنها بعد. وعن طريق الاستعمال الحكيم لماء الرى استطاع هؤلاء الجنود توسعة الأراضى الزراعية المحيطة بالحاميات، مما ساعد على توفير المؤن للقوافل فى الصحراء وجعلهم يعيشون فى بنجوحة فى تلك الأماكن القصية. وكما أوضح بان تشاو لإمبراطوره، كانت الأراضى المحيطة بيرقند وكاشغر على وجه الخصوص شديدة الخصوبة «حتى أن الجنود المقيمين هناك لم يكلفوا الإمبراطورية شيئاً».

ولم تكن فتوحات بان تشاو مجرد اكتساب المزيد من الأراضى. إذ كان لها هدف وهو بدء الاتصال المباشر الذى لا يعطله شىء مع شعوب الغرب. وكان النجاح الذى أحرز فى تحقيق ذلك عظيماً. وهذا ما توضحه «هو هان شو» (حوليات أسرة هان اللاحقة):

... منذ أن اضطرت [شعوب المناطق الغربية] للاستسلام بقوة السلاح، أو استخدمت الهدايا في شرائهم، جاءت كل ممالك الأقاليم الغربية لتقديم المنتجات النادرة التي تصنع في أراضيها ولتسليم الرهائن العزيزة عليها... وكان مجيء الرسل وحاملى البريد ورواحهم لا ينقطع في كل فصل وكل شهر. وكان التجار والأجانب الذين يشتغلون بالتجارة يدقون أبواب الحاجز [السور العظيم] كل يوم.

وكما يتضح من هذه الفقرة، فإن كثيراً من التجارة، التي تقدر بما لا يقل عن اثنتى عشرة قافلة في السنة، كانت تقوم بها شعوب المناطق الغربية أو ماوراءها. ومن المؤكد أن التجار الصينيين عملوا في المناطق التي أعيد فتحها. بل إن بان تشاو مارس شيئاً من التجارة الخاصة، حيث وصلنا خطاب من أخيه بان كو يقول فيه «أرسل لك ٣٠٠ قطعة من الحرير الأبيض التي أرغب في مقايضتها بالخيل والبلخية والاصطراك [مادة عطرية] والسجاد». إلا أنه بمرور الوقت تزايد عدد من يمارسون التجارة من الشعوب السيئية العديدة التي حاربت بعضها طويلاً من أجل السيطرة على تركستان الغربية.

وبينما كان بان تشاو يضم التاريم إلى الصين، كان أحد هذه الشعوب، وهي قبيلة تدعى كوشان، قد بدأ طريقه إلى الصدارة. وكان الكوشان والشعوب التابعة لهم يتاجرون مع الصينيين من خلال مراكز القوافل الكبرى مثل بلخ وبخارى. ولأن الصينيين كانوا يذكرون كيف احتل هؤلاء ممر كانسو قبل ذلك بقرنين، مثلهم مثل اليويه تشى، فقد ظل أهل الصين يطلقون عليهم يويه تشى الكبرى.

ويبدو أن الكوشان والصينيين كانت تربطهم علاقات ودية في الغالب، حيث تحالفوا ضد الشيونج نو. وصحيح أن العلاقات توترت بعض الشيء سنة ٩٠ ميلادية تقريباً، عندما طلب ملك الكوشان القوى أن يتزوج أميرة صينية. إذ رفض بان تشاو تلك الفكرة الجريئة على الفور وألقى القبض على سفير الكوشان ثم أعادوه إلى بلاده. عندئذ أرسل الكوشان جيشاً قوامه ٧٠ ألف رجل لمحاربة الحاميات الصينية الغربية. إلا أن بان تشاو، بما عُرِف عنه من دهاء وشجاعة وشدة، حال دون وقوع اشتباك ضخم واستعاد السلام. وتروى لنا الحوليات أنه بعد ذلك أرسل الكوشان خراجاً سنوياً إلى الصين، وهو ما قد يعنى طبقاً لأساليب التعبير الصينية القديمة أن الكوشان أتوا إلى الصين للتجارة. وفي تلك الفترة ذاتها، حاول أهل التبت، الذين طالبوا بحقوقهم في المدن الواقعة على طول الجانب الشمالى

من التاريم، التخلّص من الحكم الصيني وظلّوا معطلين الطريق بعض الوقت. إلا أن بان تشاو تغلب عليهم أيضاً.

وفى نهاية الأمر أدرك الكوشان فائدة إبقاء الاتصالات طويلة المدى بين الشرق والغرب مفتوحة. وهكذا ظل طريق الحرير مفتوحاً في أراضي الصين والكوشان. وعندما أرسل بان تشاو مبعوثه كان ينج لاستكشاف النصف الغربي من طريق الحرير، لا يبدو أن الكوشان اعترضوا على عبور المبعوث الصيني لأراضيهم.

وكان الصينيون لا يزالون على اتصال بالبارثيين في الهضبة الإيرانية. وقبل سنوات قليلة كان البارثيون قد أرسلوا سفيراً استعان «بالعديد من المترجمين المتتالين» في الطريق إلى لويانج حاملاً الهدايا إلى بلاط هان. وكان الصينيون قد كوّنوا صورة ما عن الغرب من خلال مثل تلك الاتصالات. كما عرفوا البلاد الرومانية عند الطرف الغربي الأقصى من طريق الحرير باسم لى كان أو تا تشين (الصين الكبرى). ولا يبدو أن الصينيين عرفوا أن مركز الإمبراطورية الرومانية كان في واقع الأمر على مسافة تبعد كثيراً إلى الغرب. وطبقاً لشذرات المعلومات التي وصلتهم عبر آلاف الأميال، كانت «روما» بالنسبة لهم هي الأراضي الرومانية في غرب آسيا وسوريا وفينيقية. وكانت تا تشين هي البلاد التي أرسل إليها كان بنج سنة ٩٧ ميلادية.

وتسجل «حوليات أسرة هان اللاحقة» شيئاً من التقرير الذي قدمه عند عودته:

تقع دولة آن شى [بارثيا] عند مدينة هو تو [هيكاتومبيلوس]. إنها تبعد ٢٥ ألف لى عن لويانج.. ومساحة الدولة عدة آلاف من الليات. وهناك عدة مئات من المدن التي بها عدد ضخم من السكان والجنود. وعلى حدودها الشرقية تقع مدينة مولو [ربما يقصد مرو] التي تسمى آن شى الصغرى. وهي تبعد ٢٠ ألف لى عن لويانج.

والمدن التي وُصفت هنا حُدّت بصورة مبدئية، ليس فقط لأن مواقعها على طريق الحرير تقريبية، بل أيضاً بسبب المسافات التي حُدّت. وإذا كان القياس الروماني stadia قد استُبدل باللى، فإن الطريق كما حُدّ هنا يكون دقيقاً جداً، مما يوحي بأن كان ينج حصل على جزء كبير من معلوماته من دليل التجار الذي كان متوافراً في ذلك الوقت عن طريق الحرير.

ومن المرتفعات الإيرانية، هبط كان ينج، الذى يبدو أنه كان مايزال فى صحبة البارثيين، إلى أرض تياو تشى، وهو ما يبدو إشارة إلى بلاد مابين النهرين. وتستمر الحوليات قائلة:

تقع حاضرة دولة تياو تشى على أحد التلال ويزيد محيطها على أربعين لى. وهى متاخمة للبحر الغربى [الخليج الفارسى] وتحيط بها مياه البحر فى خطوط غير مستقيمة. والطريق مقطوع فى الجنوب والشمال الشرقى. وفى الشمال الغربى فقط يمكن الوصول إليه من خلال طريق برى. وهذا البلد حار ومنخفض. وتعيش فيه الأسود والخراتيت... والطواويس وطيور ضخمة [قد تكون النعام] بيضها كالجرة. وإذا توجهت إلى الشمال ثم عدت إلى الشرق على ظهر الخيل لمدة ستين يوماً تقريباً، لوصلت إلى آن شى [بارثيا] التى خضعت لها بعد ذلك كدولة تابعة يحكمها حاكم عسكرى يسيطر على كل المدن الصغيرة.

ويبدو أن ما تصفه الحوليات بطريقة عكسية هو طريق يتجه غرباً من المرتفعات الإيرانية إلى سهول مابين النهرين ثم يتجه جنوباً إلى حيث تجمعت مدن التقاء الطرق التى تحميها الأنهار والقنوات والمستنقعات. وليس واضحاً بالمرّة ما هى الـ«حاضرة» التى أشار إليها كان ينج. وفى موضع آخر من الحوليات يأتى وصف مختلف بعض الشئ للطريق نفسه:

من آن شى تتجه غرباً لمسافة ٣٤٠٠ لى إلى بلاد آمان [إيكبتانا]. ومن آمان تتجه غرباً لمسافة ٣٦٠٠ لى إلى بلاد سوپن [طيسفون]^(١). ومن سوپن تتجه جنوباً وتعبر نهراً ثم تتجه مرة أخرى إلى الجنوب الغربى إلى بلاد يولو التى تبعد ٩٦٠ لى إلى أقصى حدود آن شى الغربية.

ورغم أن تحديد المدن التى ذكرت آنفاً متفق عليه غالباً، فإن هناك خلافاً بشأن هوية يولو. ومن بين الأماكن المرشحة لأن تكون يولو موقع الحيرة^(٢) المهجورة حالياً، وهو فى

(١) على نهر دجلة فى الجزء الذى يقترب فيه من الفرات بالقرب من بغداد الحالية. (المترجم).

(٢) اتخذها المناذرة عاصمة لهم بعد سقوط تدمر. ويقول المقدسى فى «أحسن التقاسيم» إن الكوفة كانت قديماً الحيرة. بينما يقول الإدريسى فى «نزهة المشتاق» إنها على بُعد أقل من مرحلة من الكوفة التى انتقل إليها أهلها بعد خراب الحيرة التى يقول المسعودى فى «مروج الذهب» إنها أقفرت ولم يعد بها إلا الصدى والبوم. (المترجم).

الجنوب الغربي من بابل وطيسفون على الجانب الآخر من النهر، وكذلك كاراكسي أو أبولوجوس (أسفل النهر)، وكانت كلٌ منهما ميناء للسفن المتجهة جنوباً إلى الخليج الفارسي لتأخذ طريق التوابل.

كانت يولو ميناء، كما يتضح من بقية مايرويه كان ينج. وتشير الحوليات إلى أنه:

... بلغ تياو تشي على ساحل البحر الكبير. وعندما كان على وشك أن يتخذ طريقه في البحر قال بحارة حدود أن شي الغربية لكان ينج: البحر واسع وكبير. وإذا كانت الرياح مواتية يمكن عبوره في ثلاثة أشهر. أما إذا قابلت ريحاً بطينة، فقد تقطع المسافة في عامين. ولهذا السبب يأخذ من يسافرون بالبحر معهم من الزاد ما يكفي ثلاث سنوات. وفي البحر شيء يجعل الإنسان يحن إلى الوطن، وكان ذلك سبباً في هلاك كثيرين. وعندما سمع كان ينج ذلك توقف.

هذه الفقرة كانت دائماً لغزاً لدارسي الصينيات. فهم يتساءلون كيف توجه. كان ينج إلى سوريا الرومانية وأنهى مهمته عند شاطئ البحر؟ لماذا لم يأت ذكر لأي طريق قوافل برى إلى تاتشين، البلاد التي أرسل إليها؟ ويبدو أن الإجابة لدى البارثيين. فكما أن الصينيين تعمدوا إخفاء أسرار تربية دودة القز ونشروا معلومات مضللة لجامعي الأخبار، فمن المحتمل أن البارثيين عمدوا إلى الاحتفاظ بأسرار طرقهم إلى الغرب، وهي التي كانت مصدر كثير من ثرواتهم. وهناك احتمال كبير أنه حرصاً من البارثيين على عدم مضايقة الصينيين، شركائهم التجاريين وحلفائهم الأعزاء، بمنعهم من العبور إلى سوريا، فقد آثروا إثناء المبعوث الصيني بطريقة خفية عن الاستمرار في رحلاته. ولتقديرهم الصحيح بأن كان ينج شخص لم يعتد ركوب البحر، فقد بالغوا كثيراً في زمن الرحلة البحرية وطول مسافتها. والواقع أن الرحلة على طريق التوابل إلى الصين لم تكن لتستغرق زمناً يصل إلى نصف الثلاث سنوات. كما أن الرحلة القصيرة من رأس الخليج الفارسي حول شبه الجزيرة العربية ثم السير في البحر الأحمر كانت تستغرق وقتاً أقل من ذلك.

وربما كان هذا الطريق مستخدماً في ذلك الوقت، وخاصة أن هناك احتمالاً بأن الاضطرابات التي شهدتها الصحراء السورية أدت إلى إغلاق الطرق البرية المتجهة إلى البحر المتوسط بصورة مؤقتة طوال بضع سنوات من زيارة كان ينج. وربما ذهب جزء من السلع الشرقية، وهو جزء قد يكون كبيراً، بحراً من بلاد ما بين النهرين ليدور حول الجزيرة العربية

وصولاً لموانئ البحر الأحمر. وربما اتجه بعد ذلك إلى البتراء التي كانت تمثل همزة الوصل، إذا افترضنا أن البتراء هي لى كان الصينية. ومن المؤكد أن ذلك الطريق كان يصل بالسلع إلى الموانئ التي لها اتصال سهل بمراكز التكرير والتوزيع الرئيسية، وهي الإسكندرية والمدن الفينيقية. وهذا قد يمثل أهمية خاصة بالنسبة للحرير، الذي كان غالباً ما يحتاج إلى الصباغة والنسيج قبل شحنه إلى روما والأجزاء الأخرى من الإمبراطورية. ويقول البعض إن مثل هذا الطريق البحري قد يفضلته التجار الذين كانوا يشترون تجارتهم من البارثيين ثم يشحنون بضاعتهم مباشرة في سفنهم الخاصة إلى شركائهم على البحر الأحمر، حيث يهدفون من ذلك إلى التهرب من دفع الرسوم للوسطاء الآخرين، كالحكام العرب في الصحراء السورية. قد يصدق ذلك كله. إلا أنه بغض النظر عن ذلك الجزء من بضائع طريق الحرير الذي يُنقل بحراً في ذلك الطريق، فإن جوهر الأمر قد يكون مجرد خداع البارثيين لكان ينج المسكين.

ولكن الخدعة كانت على قدر مدهش من النجاح. إذ مضت قرون عديدة قبل أن يعرف الصينيون شيئاً عن الطريق البري إلى سوريا. كما أن البارثيين حالوا دون حدوث ما كان يمكن أن يصبح خطراً قاتلاً عليهم، وهو احتمال قيام تحالف مستقل بين الصينيين والرومان. وكون المسالك البرية مازالت تحتفظ بأهميتها - بل ربما كانت أهم أجزاء طريق الحرير - يتضح جلياً إذا نظرنا إلى ثروات مدن القوافل في الصحراء السورية، كما سنرى.

إلا أنه رغم عدم وصول السفير الصيني إلى تا تشين، فقد رسم (وربما فعل ذلك مبعوثون آخرون إلى بارثيا) صورة للبلاد الغربية سُجلت في «هو هان شو»:

تسمى بلاد تا تشين أيضاً لى كان وتقع في الجزء الغربي من البحر. وتصل مساحتها إلى عدة آلاف من الليات وبها مايزيد على أربعمائة مدينة وتضم عشرات من الدول المستقلة. ودفاعات المدن من الحجارة. وتغطي محطات البريد وعلامات الطريق بالجص. وهناك أشجار صنوبر وسرو وكل أنواع الأشجار والنباتات الأخرى. وكثير من الناس يعملون بالزراعة ويقومون بغرس الأشجار ويربون دودة القز. [لأن بعض الحرير المنسوج بالطرز الغربية المميزة كان يعاد تصديره إلى الشرق، اعتقد بعض الصينيين أن أهل الغرب كانوا يعرفون كيف

يصنعون الحريراً وهم يقصون شعر رؤوسهم ويلبسون ملابس مطرزة ويسيرون في عربات صغيرة تغطيها مظلات. وعندما يدخلون أو يخرجون تُقرع الطبول وترفع الأعلام والرايات والبيارق. ويبلغ طول الأسوار المحيطة بالمدينة ما يزيد على المائة لى. والمدينة بها خمسة قصور يبعد كل منها عن الآخر عشرة ليات. وهم يستخدمون البللور في صنع أعمدة القصور. كما أن الأواني المستخدمة في تناول الطعام مصنوعة منه... وسكان تلك البلاد طوال القامة وعلى قدر طيب من التناسق، وهم أشبه بالصينيين، لذلك أطلق عليهم تا تشين.

وتروى لنا «هو هان شو» أنه لم تصل سفارات صينية أخرى غرباً إلى تياو تشى، فضلاً عن عدم وصولها إلى تا تشين. وهى تسجل صورة عن السفر داخل الأراضى الرومانية، ربما جُمعت من مصادر تعيش فى الأراضى البارثية:

البلاد كثيرة السكان. كل عشرة ليات تحددها «تنج» [سقيفة؟] وكل ثلاثين لى يحددها «تشى» [برج إشارة؟]. والمرء لا يحسب حساب اللصوص، إلا أن الطريق يصبح غير آمن بسبب النمر والأسود المفترسة التى تهاجم المسافرين. وإذا لم يكونوا ضمن قوافل قوامها مائة رجل أو يزيد، أو لم تكن تحميهم المعدات الحربية، فإن هذه الضواري تفترسهم. ويقولون أيضاً إن هناك «جسر طائر» طوله عدة مئات من الليات يمكن عبوره إلى البلاد الواقعة شمالى البحر.

ليس واضحاً ماهو «الجسر الطائر»، وإن كان يحتمل أن تكون هذه إشارة إلى المعابر التى اشتهر بها الرومان فى أنحاء إمبراطوريتهم. وفيما عدا ذلك، فإن الصورة تتطابق فى كثير من جوانبها مع مانعرفه عن طبيعة الطرق والسفر فى المناطق الرومانية التى تتسم بالتنظيم، رغم مايتضح من أنها منقولة عن معلومات غير مباشرة.

مثل هذه الصورة ظلت موجودة فى الحوليات الصينية قروناً عدة. إلا أن الصين سمعت أيضاً عن الكثير من أشياء الغرب الجميلة. وكان بعضها محل رغبة من الصينيين، تماماً كما كان الحرير بالنسبة للرومان. وتصف الحوليات ثروات تاي تشين قائلة:

البلاد بها الكثير من الذهب والفضة ولكن الأحجار الكريمة نادرة، وبالأخص «الجوهر الذى يلمع فى الليل، ولؤلؤ ضوء القمر، والمرجان والكهرمان والزجاج... واليشب الأخضر والسجاد الموشى بالذهب والأقمشة الحريرية الرقيقة من مختلف الألوان. إنهم يصنعون قماشاً فى لون الذهب وقماشاً من الحرير الصخرى. كما أن لديهم «قماش فاخر، يسمونه أيضاً «صوف خراف الماء، وهو مصنوع من شرائق دودة القز البرية. وهم يجمعون كل المواد العطرية... كل جواهر الدول الأجنبية النادرة تأتى من هناك.

كانت تلك قائمة بالأشياء العزيزة على قلب الصينيين وتردد ذكرها مراراً. وكانت لكثير من الباحثين محاولات لم تنجح قط فى تحديد ماهية الأشياء التى جاءت فيها. و«صوف خراف الماء» قد يكون إشارة إلى نوع من القماش الناعم (byssus) المصنوع من الكتان، ظن بعض الصينيين فى أرتباكهم أنه مصنوع من شرائق دودة القز البرية.

والماس هو المرشح الأول لأن يكون «الجوهر الذى يلمع فى الليل». والواقع أن ذلك لا يحدث فى الظروف العادية. إلا أن أنواعاً معينة من الماس يمكن أن تضىء عند دلكها أو تسخينها أو تعريضها للضوء. ومثل هذه الأحجار قد تكون ذات جاذبية خاصة للصينيين، الذين لم يألّفوا حتى ذلك الوقت الجواهر الشفافة (فاليشب ذو القيمة العالية كان شبه شفاف). إلا أن بعض الباحثين لديهم إحساس بأن معرفة الصينيين بالماس كجواهر كانت قليلة، أو لم تكن قائمة بالمرّة. واقتصرت معرفتهم على كونه حجراً «صناعياً» يوضع فى السكاكين من أجل الحفر الدقيق أو شق أنسجة الجسم. وكانت تلك الأدوات تستورد من الغرب. وفى تلك الأيام كان الصينيون مفتونين ببعض الأحجار الخضراء الآتية من الغرب. ويبدو أن جهلهم كان وراء جمعهم معادن مختلفة دون تمييز، لمجرد لونها وشفافيتها، بما فى ذلك الزمرد الذى فى حجم الجواهر والأحجار الأخرى التى على هيئة قطع كبيرة تصلح لاستخدامها فى تزيين المباني.

وكان عدم معرفة الصينيين بمثل هذه الأحجار سبباً فى جعلهم هدفاً سهلاً للصناع الغربيين، الذين باعواهم حبات الزجاج وغيرها من الأشياء سهلة الصنع على أنها جواهر. و«البللور» المستخدم فى الأعمدة، كما جاء آنفاً فى «هو هان شو»، قد يكون زجاجاً. وعلى أية حال، فحتى القرن الخامس الميلادى الذى تعلم فيه الصينيون أسرار صنع

الزجاج^(١)، وخاصة الزجاج الملون الذى كانوا يقدرونه أيما تقدير، حقق التجار الغربيون أرباحاً ضخمة من السلع الزجاجية التى شحنوها إلى الصين. إلا أن هناك تعليقاً فى «هو هان شو» يوحى بأن الصينيين لم يخدعوا تماماً:

والأشياء المصنوعة من الأحجار الكريمة النادرة فى هذا البلد [تا تشين] هى فى الغالب تحف مقلدة غير أصيلة.

وبعد كان ينج لانسمع عن أى سفراء صينيين وصلوا إلى غرب الهضبة الإيرانية. وسواء فهم الصينيون أن كان ينج خُدع أم لم يفهموا، فمن المؤكد أنهم عرفوا أن البارثيين كانوا يحولون دون التقاء الرومان بالصينيين. وتشير «هو هان شو» إلى أن ملوك «تا تشين»:

... كانوا يرغبون دائماً فى إرسال السفارات إلى الصين. إلا أن آن شى [بارثيا] كانت ترغب فى المتاجرة بالحرير معهم. ولهذا السبب حالت دون اتصالهم.

وليس من المتوقع أن يقبل الرومان ذلك دون أى اعتراض. فمن الواضح أن الرومان حاولوا فتح طرق بديلة إلى الشرق، حول بحر قزوين أو عبره، كى يدوروا حول الأراضى البارثية. وقد أصابوا فى ذلك قدراً ضئيلاً من النجاح، أو لم يحققوا أى نجاح بالمرّة.

والإتصال المباشر الوحيد المسجل بين الرومان والصينيين حدث بحراً. وأشارت «هو هان شو» إلى أن الرومان منعوا من الإتصال بالصينيين حتى سنة ١٦٦ ميلادية:

... عندما أرسل آن تون ملك تا تشين سفارة، قدمت عاجاً وقرون خرتيت ودروع سلاحف من جينان [الهند الصينية].

ومع أنه من الواضح أن هؤلاء الرومان قدّموا أنفسهم كمبعوثين من إمبراطورهم (حتى سنة ١٦١ كان أنطونيوس بيوس وتبعه ماركوس أوريليوس أنطونيوس) وقبلهم الصينيون بهذه الصفة، فغالباً ما كانوا تجاراً يعملون لحساب أنفسهم. وربما كانوا يقايضون الهدايا التى يأتون بها ببضائع أخرى فى الهند الصينية. ولكن ما يدعوا للأسى أن هذه السلع، التى كانت تبدو غريبة بالنسبة للرومان، كانت مألوفة تماماً للصينيين الذين ذكروا بوضوح أن «الخراج»،

(١) عرفه المصريون القدماء منذ سنة ٣٠٠ قبل الميلاد تقريباً وكانوا يستخدمونه كطبقة لامعة على حبات من الخزف والحجر. وحوالى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد تطورت صناعة الزجاج فى مصر والشرق الأدنى. ولكن الفينيسيين هم أول من عرفوا طريقة نفخ الزجاج سنة ٥٠ قبل الميلاد حيث انتشرت فى سائر الإمبراطورية الرومانية. (المترجم).

كما أطلقوا عليه، لم تكن به جواهر. إلا أن «هو هان شو» تقول: «يعود إلى ذلك الوقت الاتصال [المباشر] مع هذا البلد [تا تشين]». لكن مثل هذا الاتصال المباشر لم يتم قط على البر حسب علمنا.

ومن المؤكد أن الرومان، أو على الأقل التجار العاملين في المناطق الرومانية، حاولوا الاتصال بالصينيين عبر طريق البر. ويسجل الجغرافيون جهودهم بكل وضوح. ففي منتصف القرن الميلادي الأول تقريباً حاول بومبونيوس ميلا في كتابه De Situ Orbis أن يضع تصوراً لقارة آسيا قائلاً:

في أقصى الشرق من آسيا نجد الهند والسيريس، والسيث. ويشغل الهند والسيث الطرفين بينما نجد الصينيين في القلب.

ومن الواضح أن الطريقة التي كان الرومان يرون بها آسيا في ذلك الوقت غامضة جداً ومشوهة. فهو يمضى في تقديم قدر مذهل من التفاصيل، وإن كان ذلك بقدر أقل من الدقة:

هذا الجزء [من شاطئ بحر قزوين] المجاور للسان القوقازي لا يمكن عبوره بسبب الثلوج في المقام الأول. ووراء ذلك جهة غير مزروعة يقطنها المتوحشون. وهذه القبائل هي السيث أكلة لحوم البشر والساجي [ساكي] ويفصل بينها إقليم لا يمكن لإنسان أن يعيش فيه لكثرة الحيوانات المتوحشة. وتلي ذلك أرض قفر شاسعة تعيش فيها أيضاً الضواري وتمتد إلى جبل يسمى تاييس يطل على البحر. وعلى مسافة بعيدة منه تقع سلسلة جبال طوروس. وبين الاثنين نجد الدسيريس، وهم جنس يتميز بالأمانة والاستقامة. كما أنهم يشتهرون بالتجارة التي يسمحون بأن تتم من وراء ظهورهم، تاركين بضاعتهم في بقعة صحراوية.

إلى هنا يتضح أن الرومان كانوا لا يزالون يعتبرون أن الوسطاء هم الدسيريس. والتجارة التي جاء ذكرها هي المقايضة الصامتة التي كانت تمارس في آسيا قروناً طويلة. ويصف بليني العملية بتفصيل أكثر فيما كتبه في وقت لاحق من القرن:

الواقع أن الدسيريس، يتسمون بسلوك غير ضار. ولكنهم مثل وحوش

الغاية، يتحاشون الاتصال بالبشر. ورغم استعدادهم للدخول في التجارة، فإنهم ينتظرون وصولها إليهم بدلاً من السعى إليها... وبضائع [التجار الغربيين]... تُخزن على الجانب الآخر من نهر معين بجوار ما يعرضه «سيريس» للبيع. وإذا رضى هؤلاء بالصفقة حملوها ومضوا. وهم في الواقع يتصرفون وكأنهم يزدرون ذلك الترف الذي يقومون عليه، وكما لو كانوا يرون بعقولهم هدف هذه التجارة ومقصدها ونتيجتها.

ولا يحتمل أن يكون القوم الذين يمارسون هذا النوع البدائي من التجارة هم الصينيون. ويؤكد هذه الفكرة وصف بليني للقوم الذين يسمون «سيريس»، حيث يشير إلى أن المراقبين:

... وصفوا هؤلاء [السيريس] بأنهم يفوقون البشر العاديين شكلاً، حيث أن لهم شعراً أحمر وعيوناً زرقاء وصوتاً أجش وليس لهم لغة مشتركة يتفاهمون بها.

ومن الواضح أن هذا ليس وصف الصينيين وإنما ينطبق تماماً على الشعوب الهندو أوروبية التي تعيش في الجبال والسهوب الواقعة بين بارثيا والصين. لذلك يبدو أنه حتى أواخر القرن الأول الميلادي، كانت لاتزال لدى الرومان فكرة بسيطة عمن هم الصينيون.

وسمع الصينيون أيضاً بالتجارة الصامتة التي كانت تمارس في آسيا الوسطى. فالحوليات الصينية اللاحقة «تشاو چو كوا» تتحدث عن هذه الفترة مشيرة إلى أن:

بلاد تا تشين، وتسمى أيضاً لي كان، هي السوق العامة لسكان الجنة الغربية، وهي المكان الذي يجتمع فيه التجار الأجانب.

ولكن الكاتب يمضي قائلاً:

البحر الغربي به سوق يتم فيها الاتفاق [الصامت] بين البائع والمشتري علي أنه إذا جاء أحدهما ذهب الآخر. ففي أول الأمر يبسط البائع بضاعته. وبعد ذلك يبسط المشتري [المحتمل] مقابلها الذي يجب أن يظل بجوار السلع المعروضة للبيع إلى أن يأخذه البائع، حيث يحمل مشترياته ويمضي. وتسمى هذه «سوق الشياطين أو الجن».

واستناداً إلى هذه الرواية يتضح أن الصينيين أيضاً اعتبروا الوسطاء شركاءهم الحقيقيين في هذه التجارة طويلة المدى.

وفي نهاية الأمر اضطر الرومان والصينيون أن يرضوا بالتعامل خلال وكلاء كهؤلاء. وقد نفترض أن التجارة الصامتة لم تستمر طويلاً، على الأقل في الطريق الرئيسي. إذ سرعان ما أصبح للرومان والبارثيين والصينيين شريك كامل على طريق الحرير. ففي أوائل القرن الثاني الميلادي، وبعد فترة قصيرة من تقاعد بان تشاو ثم وفاته، أصبح الكوشان تحت حكم قائد بارز اسمه كانيشكا كان له أثر كبير على طبيعة طريق الحرير. وفي القرن السابق كان الكوشان، الذين يوصفون بأنهم رجال ضخام ذوو وجوه وردية يرتدون معاطف طويلة وأحذية ذات رقاب من الجلد اللين، قد اندفعوا عبر ممرات الجبال الضخمة في سلسلتى قره قورم وهندوكوش إلى الهند. وشيئاً فشيئاً وسعوا إمبراطوريتهم من بلخ، لتشمل أفغانستان والبنجاب، حتى بينارس في شمال الهند. وقد أخذوا الكثير عن الهنود، وخاصة مهاراتهم الإدارية وديانتهم. واعتنق كانيشكا، الذي تولى الحكم حوالى سنة ١٢٠ ميلادية، الديانة البوذية التي كانت قيد التغيير في تلك الفترة. وبعد أن كان بوذا^(١) معلماً مترفعاً بعض الشيء، وربما اتسم بالفتور، أصبح الناس ينظرون إليه على أنه مُخلص أو إله. وساهمت الأساليب الفنية الهلينستية التي سادت المنطقة منذ قرون بقدر كبير في رسم صورة إنسانية لبوذا أكثر جاذبية لعامة الناس.

وما تمخض عن ذلك في تلك الآونة كان إمبراطورية مسالمة إلى حد ما تتميز بحسن تنظيمها. وكانت تطمح إلى نشر رسالة بوذا. وفي بداية عهد كانيشكا، وربما قبل ذلك، انتشر الكوشان في جبال البامير ودخلوا حوض التاريم، مستولين بذلك على واحات يرقند وكاشغر وخوتان. وكانت سلطة الصين على تلك المنطقة مزعزعة دائماً. ففي سنة ١٠٧ ميلادية شن أهل التبت في كانسو والشيونج نو هجمات مشتركة على طريق التاريم الشمالى تسببت في قطع الاتصالات تماماً، مما أدى إلى إلغاء الصين منصب المدافع العام واستدعاء سفرائها من المناطق الغربية. وفي غياب قائد في مقدرة بان تشاو، لم يكن لدى الصينيين أمل كبير في السيطرة على الواحات الغربية. ويبدو أنهم سرعان ما قبلوا وجود الكوشان في

(١) كلمة «بوذا» معناها الحرفى هو «المستنير» أو «المستيقظ». أما اسمه فهو سد هارتا جوتاما. وُلد سنة ٥٦٣ ومات سنة ٤٨٣ قبل الميلاد. وعندما كان في التاسعة والعشرين قرر ترك حياة الترف والإمارة وتحول إلى ناسك، بعد أن رأى أن الإنسان يصيبه المرض والشيخوخة ثم يموت. وتقوم الديانة البوذية على التأمل للوصول إلى حالة إنكار الذات والتحكم في العواطف. (المترجم).

المنطقة. وربما كان ضمان وجود قوة تطمح إلى التجارة أراح الصين بعض الشيء من العبء الثقيل، الخاص بالدفاع عن تلك النقاط شديدة البعد. وعلى أية حال، فقد سارع الكوشان بإثبات وجودهم كقوة مؤثرة على طريق الحرير. وطوال الخمسة قرون التالية على الأقل، ظل حوض التاريم تحت التأثير البوذي القوى الذى أدخلوه.

وهكذا دخل طريق الحرير الإيقاع الذى سيكون عليه طوال القرن التالى، ولمدة ألف سنة أو يزيد على أقل تقدير. فسوف تقوم الإمبراطوريات وتنهار، ولكن التجار والحجاج لن تنقطع رحلاتهم على الطريق وهم يحملون بضائعهم وأفكارهم عبر مسافة تصل إلى خمسة آلاف ميل من أرض آسيا. وكلما اشتدت هذه القوى الأربعة، الصينيون والكوشان والبارثيون والرومان، كانت تشكل سلسلة عظيمة تمتد عبر القارة.

كانت الحرير تتدفق على الغرب من الصين على هيئة شلات من الخيوط ولفائف من القماش المنسوج بعروض معينة فى الورش الإمبراطورية. وإلى جانب ذلك، كان الصينيون يرسلون إلى روما الأدوات الحديدية الفاخرة. وكانوا تعلموا صناعة الأدوات الحديدية فى فترة متأخرة من الغرب. إلا أنهم ابتكروا طريقة لصنع الحديد الزهر ظل الغرب يجهلها لقرون عديدة^(١). لذلك كانت سلعهم الحديدية تلقى تقديراً عظيماً من التجار الآسيويين. وكان فراء مرتفعات التبت والتلال المنغولية يُجمع من أجل التجارة الغربية، حيث كان الصينيون لا يزالون يمارسون تجارة الخراج مع الشعوب الواقعة على حدودهم. وكان بان يياو والد بان تشاو قد علّق على التجارة مع الشيونج نو الموجودين فى الشمال قائلاً: «... ربما نقدم لها هدايا بلا مقابل، اعتماداً على قيمة ما يقدمونه هم لنا». وظلت لويانج عاصمة هان، إلا أن تشانج آن كانت المحطة الرئيسية لطريق الحرير، حيث كانت تتجمع بها كل البضائع المتجهة غرباً. ومن تشانج آن كانت القوافل، وهى فى هذا الجزء من الطريق عبارة عن أرتال من العربات فى بعض الأحيان، تسير فى الطريق الإمبراطورى نحو الغرب عبر ممر كانتسو إلى تونهووانج. وكان الصينيون يسيطرون على هذا الجزء من التجارة سيطرة تامة. إلا أنهم أخذوا يستأجرون الوكلاء ليقوموا بالتجارة الفعلية وظلوا هم فى بلادهم.

(١) بدأت صناعة الحديد عند الحثيين فى شرق الأناضول فيما بين ١٩٠٠ و ١٤٠٠ قبل الميلاد وعند انهيار إمبراطوريتهم سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد كانوا قد أتقنوا صهر الحديد. وبحلول سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد كانت الأدوات المصنوعة من الحديد والمعارف الخاصة بصناعة الحديد قد انتشرت فى الشرق الأدنى وعالم البحر المتوسط. وكانت بداية العصر الحديدي فى الصين حوالى سنة ٦٠٠ قبل الميلاد حيث ابتكر الصينيون أفراناً لإنتاج الحديد الزهر. (المترجم)

وتخصص الصغد^(١)، وهم رعايا كوشان من سمرقند، في تجارة القوافل في التاريم والبالامير. وكانوا من الكثرة بحيث أصبحت لغتهم، الصغدية، هي اللغة المشتركة في النصف الشرقي من طريق الحرير في تلك الفترة. وغالباً ما كان هؤلاء المتخصصون الذين يسوقون الجمال يتولون مسئولية التجارة من تونهوانج وما بعدها غرباً، إن لم يكن في تشانج آن. وكانت القوافل الضخمة التي تضم مئات الجمال، وتزيد أحياناً على الألف، تجتاز الصحراء متجهة نحو الغرب. وعندما كانت الظروف السياسية تسمح، كانت تسلك الطريق المتجه إلى هامى وتسير بمحاذاة الطرف الشمالى من التاريم. أما إذا ظهرت بعض القلاقل، كأن يكون الشيونج نو في حالة انتقال، أو كان مقصد القوافل هو بلخ أو الهند، فإنها قد تفضل الطريق الجنوبي الأشد جفافاً لكونه الأكثر أماناً. وكان اتجاه لولان أقل الطرق قبولاً، حيث كان ماء تلك المناطق ينضب سريعاً. وكما فعل الصينيون، أنشأ الكوشان خطوطاً من النقاط المتقدمة التي تقيم فيها الحاميات لحماية القوافل من قطاع الطرق لأقصى قدر ممكن.

وفى تلك الفترة، كما فى كثير غيرها من عصور التاريخ، كان الجنود والتجار يمثلون جُل المسافرين على طريق الحرير. إذ كانت مصاعب الطريق سبباً فى عدم قيام رحلات خاصة غير رسمية كتلك التي قد تقوم داخل الإمبراطوريات الكبرى عند أحد طرفي الطريق. إلا أنه كان هناك صنف مهم آخر من المسافرين قد بدأ فى الظهور على طريق الحرير فى تلك الفترة، وهم المسافرون على الطريق من المتدينين. ولم يكن هؤلاء قوماً عاطلين وإنما أصحاب هدف، سواء كان تنوير أنفسهم أو تنوير الآخرين. وكانت البعثات التبشيرية البوذية هى الأكثر نشاطاً فى تلك الفترة.

ظلت الدعوة إلى هذا الدين الجديد تتسرب إلى الصين من الغرب لمدة قرن على الأقل. وفى سنة ١٢١ قبل الميلاد استولى على تمثال ذهبى لبوذا من الشيونج نو ضمن غنائم الحرب. إلا أنه فى سنة ٦٥ ميلادية، عندما رأى الإمبراطور الصينى فى منامه «رجلاً ذهبياً» وقيل له إنه بوذا، طلب من البعثات التبشيرية الحضور من الهند إلى بلاط هان. وحضرت بعثتان ومعهما نصوص دينية ومخلفات مقدسة وجوادر أبيض أصبح أسطورة. وكان ذلك أول اعتراف رسمى بالبوذية فى الصين. أما البعثات التبشيرية البوذية فكانت تنشر دينها على امتداد النصف الشرقى من طريق الحرير، فى التاريم وفى جبال البالامير وماوراءها. إلا أن

(١) جاء فى «مروج الذهب» أن «الهياطلة هم الصغد، وهم بين بخارى وسمرقند». (المترجم).

نفوذها كان قاصراً عن الوصول إلى الهضبة الإيرانية، رغم مآذكره الحوليات الصينية عن زيارة شخص بوذى من بارثيا.

وإذا كانت هذه بعثات رسمية، فالصغد وغيرهم من التجار الكوشان كانوا مبعوثين غير رسميين. وربما كانوا هم الأكثر فاعلية في نشر دينهم بهذا القدر من العمق والاتساع في أنحاء التاريم وداخل الصين نفسها، حيث كانوا على علم بلغة شعوب آسيا الوسطى وأراضيها وعاداتها. كما أنهم كانوا قادرين على اجتذاب الآخرين إلى دينهم الجديد بنفس القدر الذي تعاملوا به تجارياً مع الصين والباير.

وفي مراكز القوافل بجبال البامير، أو المدن الواقعة في السهول التي وراءها، كان أفراد القوافل في كثير من الأحيان يعهدون بنقل بضائعهم لغيرهم. واستمر الصغد في التوجه بتجارتهم شمالاً من خلال تركستان الغربية إلى السهوب الأوراسية. في حين اتجه البلخيون أو الكوشان بتجارتهم في الغالب إلى الجنوب على الطريق الرئيسي إلى الهند. بينما تولى الهنود التجارة على الطرق الفرعية عبر ممرات قره قورم وكشمير.

وعبثاً حاول الرومان، وكانوا لا يزالون ممنوعين من عبور الأراضي البارثية، الحصول على صورة جلية للتجارة مع الشرق. وفي حوالي سنة ١٥٠ ميلادية يجمع الجغرافى اليونانى الرومانى بطليموس الشذرات التى كان الوكلاء التجاريون الذين أرسلوا لتقصى أخبار الشرق قد حصلوا عليها. وليس من المحتمل أن يكون هؤلاء الوكلاء من الرومان. وليس بالضرورة أن يكونوا من رعايا الإمبراطورية الرومانية. فقد كانوا أناساً يمكنهم الاتجاه غرباً دون أية عوائق. وأحد مصادره رجل مقدونى اسمه ماييس تيتيانوس وهو «تاجر مثل أبيه من قبله». ويشير بطليموس إلى أنه «... لم يقم بالرحلة بنفسه وإنما أرسل وكلاء من السيريس». وعلم بطليموس من وكلاء كهؤلاء بأمر اثنتين من مدن الشرق الكبرى: سيرامتربوليس (مدينة الحرير)، ويحتمل أن تكون تشانج آن، وسينى متروبوليس، وهى فى الغالب لويانج. كما سمع منهم عن «البرج الحجرى» الموجود فى مكان ما من جبال البامير ويلتقى فيه التجار من كل أنحاء آسيا للبيع والشراء. وهو يقول:

... من [باكتريا] إلى الشمال صعوداً لأراضى كميدى المرتفعة ثم الانحراف بعض الشيء إلى الجنوب عبر الأراضى المرتفعة نفسها والسير حتى الممر الجبلى الذى تنتهى عنده السهول... ويقع هذا البرج الحجرى فى طريق الذين يصعدون الممر. وعنده تمتد الجبال شرقاً

لتلتحم بجبال ايماموس [البامير] التي تمتد شمالاً حتى هذا المكان من الهند...

والخلاف شديد حول موقع البرج الحجري. ويرى كثيرون أن الوصف يشير إلى موقع في جبال البامير الشمالية، بالقرب من بلخ، في مكان ما عند منابع نهر يرقند. والأودية هناك سحيقة ويصعب الوصول إليها. لذلك يميل كثيرون غيرهم إلى الاتفاق مع تحديد أوريل ستاين لموقع البرج الحجري بأنه وادي نهر ألي بين كاشغر وفرغانة. وبغض النظر عن كون البرج الحجري (وهو بالتركية تاشكُرجان) اسماً شائعاً جداً في المنطقة، فإن تحديد موقعه مسألة معقدة، لأن معلومات بطليموس في أفضل الأحوال منقولة عن السند الثالث حسب علمه هو. وفي تعليق له على جغرافى استعمل نفس المصادر اختلف معه على عدد من النقاط يقول:

لم يصدق مارينوس نفسه [في مناسبات أخرى] إلا قدراً بسيطاً من روايات التجار... فهو يرى أن هؤلاء الناس لا يبذلون جهداً في تقصى حقيقة تلك الأمور، لكونهم مشغولين دائماً بأعمالهم. كما أنهم كثيراً ما يبالغون في المسافات بدافع التباهى. وبما أن الأمر كذلك، وحيث لا يبدو أن هناك شيئاً آخر يرون أنه يستحق أن يتذكروه أو يرووه عن رحلة السبعة أشهر تلك، فقد جعلوا من طول الوقت الذى استغرقته شيئاً عجيباً.

وهنا ينتقد بطليموس بشكل محدد قبول ماييس تيتيانوس القول بأن الرحلة من البرج الحجري إلى سيرا متروبوليس استغرقت سبعة أشهر. فبطليموس يعتبر ذلك ضرباً من المبالغة ويهبط بالرقم إلى أربعة أشهر وأربعة عشر يوماً، وإن كان يشير إلى أنه «لم يكن مفترضاً أن هناك ضرورة لاستمرار السفر دون توقف دائماً». وتخمينه يقترب بشدة من الواقع. فلو قلنا أن الطريق طوله ٢٥٠٠ ميل والقافلة تقطع في اليوم الواحد ٢٠ ميلاً، فإن المسافرين سوف يقضون بالفعل أربعة أشهر ونصف في الطريق. إلا أنه على المرء أن يصدق أن وكلاء ماييس تيتيانوس لم يتعدوا جبال البامير، وأنهم كانوا يرددون مجرد أقاويل. فمن المؤكد أن الرحلة الشاقة عبر التاريم كانت تستحق أن يروى عنها ما يتعدى مجرد طول المسافة.

ومعلومات بطليموس فيما يتعلق بالرحلة من البحر المتوسط مروراً بالهضبة الإيرانية تتمتع بقدر أكبر من الصدق:

... [يبدأ الطريق من] معدية الفرات عند هيرابوليس عبر بلاد ما بين النهرين وصولاً إلى دجلة، ومن ثم يمر بأرض آشور وميديا ليصل إلى إيكبتانا والبوابات القزوينية ليعبر بارثيا إلى هيكاتومبيلوس... والطريق من هيكاتومبيلوس إلى جرجان لا بد أن يتجه شمالاً... وبعد ذلك يمر الطريق في آريا ليصل إلى مرو، حيث يميل أولاً إلى الجنوب (إذ تقع آريا على نفس خط البوابات القزوينية) ثم إلى الشمال... ومن ثم يتجه الطريق شرقاً إلى باكترا...

كانت مدينة باكترا في ذلك الوقت تتمتع بنفس القدر الذي كان لها دائماً من الأهمية، وإن لم تعد عاصمة الكوشان (التي انتقلت إلى بيشاور شمال غربي الهند). ولكن بما أن الطريق الهندي في تلك الفترة كان به ما في طريق الحرير من حركة ونشاط، فقد احتفظت بدورها كمركز قوافل رئيسي وزادت من قدره. وكانت المدينة في سبيلها للحصول على اسم جديد. فقد سماها الهنود باليكا وتحرفت بمرور الوقت إلى بلخ، وهو الاسم الذي عرفت به في القرون التالية.

وكان اختفاء الاسم اليوناني القديم مؤشراً على الوضع في النصف الغربي من طريق الحرير. فسمع أن التجار اليونان أمثال مائيس تيتيانوس كانوا لا يزالون يمارسون تجارتهم، فاللغة والعادات والتقاليد اليونانية أخذت تتوارى على طول الطريق. ومن الهضبة الإيرانية نزولاً إلى بلاد ما بين النهرين وعبوراً إلى سوريا، كان أفراد القوافل في أغلبهم من اليونان أو السوريين أو اليهود. إلا أن اللغة التجارية أصبحت هي الآرامية، لغة بابل والمسيح، وهو ما كان قائماً قبل ظهور الاسكندر على الساحة.

وبذلك سارت الحرير والفراء والأدوات الحديدية ومعها الجواهر والتوابل والأقطان الآتية من الهند لتعبر الحاجز البارثي. واستمرت المدن المحصنة، التي وفرت الحماية للتجار الجوالين طوال ما يزيد على ألفي سنة، في إيواء أفراد قوافل طريق الحرير. فمع وجود القبائل المحلية، وربما أيضاً فرق الهجانة الحكومية، المكلفة بحمايتها من محطة إلى أخرى، شقت القوافل البارثية طريقها عبر المرتفعات الإيرانية نزولاً منها إلى بلاد ما بين النهرين.

وهناك كانت مدينة جديدة قد احتلت موقعاً متقدماً على طريق الحرير، وهي مدينة طيسفون البارثية التي أنشئت سنة ١٢٩ قبل الميلاد لتكون عاصمة شتوية. وأصبحت التجارة التي كانت تمر عبر العاصمة اليونانية القديمة سلوقية تعبر القوس الكبير في طيسفون، وهو

لا يزال قائماً بين أطلال المدينة الواقعة على بعد ٢٠ ميلاً جنوب شرقى بغداد. وكما كان يحدث فى الماضى، كانت القوافل تسير فى طريق يتجه إلى الشمال الغربى على حافة الصحراء السورية.

وبعد مسافة قصيرة يقطعها المسافر إلى أعالى نهر الفرات كانت تقع مدينة دورا أوروبوس، التى أنشأها السلوقيون سنة ٢٨٠ قبل الميلاد على ضفاف النهر. ولكنها فى ذلك الوقت، أى القرن الأول الميلادى، كانت معقلاً بارثياً مزدهراً يحمى طرق التجارة الحيوية. وكان السكان هناك يزرعون أراضى صحراوية تروىها قنوات تخرج من النهر. أما غلتها فكانت الخضروات والأعشاب، لصنع النبيذ، والزيتون، لاستخراج زيت، والقمح، لصنع الخبز. وكانت القوافل تشتري من هناك آخر ماتحتاجه من مؤن لرحلتها فى الصحراء، بما فى ذلك دواب الحمل وأهمها الجمال العربية. وكان الحكام المحليون يُحصلون آخر المكوس البارثية التى تُجبى على طريق الحرير. وبعد دورا كانت القوافل تدخل منطقة عازلة، لا هى رومانية ولا بارثية، وتتكون من أراضٍ تخلوا عنها لعدة دويلات عربية واقعة بين حدود الإمبراطوريتين^(١).

ومن دورا كانت بعض القوافل تتبع الخط القديم لطريق الصحراء الكبرى المتجه إلى الشمال الغربى نحو أنطاكية. ووصف الجغرافى اليونانى الروماني سترابو نمط الحياة على الطريق فى رحلة استمرت ٢٥ يوماً من سكيلى، وهى «مدينة بارزة تقع على قناة متجهة إلى حدود بابل»، وهيرابوليس شرقى أنطاكية:

وعلى ذلك الطريق جمالة لهم محطات تجدها فى بعض الأحيان مزودة بما يكفى من الخزانات، وهى فى الغالب صهاريج، وإن كان الجمالة يستخدمون أحياناً أخرى ماء جلبوه من أماكن أخرى. وكان الجمالة العرب (Scenitae) مسالمين ومعتدلين فى سلوكهم مع المسافرين أثناء جباية الخراج. وعلى هذا الأساس كان التجار يتحاشون الأراضى

(١) ظهرت ممالك عربية فى الصحراء الواقعة بين بلاد فارس والروم استخدمتها القونان الأعظم لتأمين طرقها ودعم القوى العسكرية فى وقت الحروب. كان هناك الأنباط وعاصمتهم البتراء التى ازدهرت فى القرنين الأول قبل الميلاد والأول الميلادى. كما ازدهرت تدمر فى القرنين الثانى والثالث الميلاديين. وظهرت فى القرن الأول الميلادى دولة الحضر جنوب غربى الموصل على حدود فارس. وكان هناك أيضاً المناذرة فى القرن الثالث الميلادى وعاصمتهم الحيرة. وفى القرن الخامس الميلادى اتخذت الفساسنة الجباية الواقعة فى الجولان عاصمة لدولتهم واعتنقوا المسيحية وظهرت فى عمان دولة الغوليين وعاصمتهم الرستاق. (المترجم).

الواقعة على طول النهر وكانوا يغامرون بالسفر فى الصحراء، تاركين النهر على يمينهم مسيرة ثلاثة أيام. ذلك أن زعماء القبائل الذين يقيمون على جانبي النهر ييسطون نفوذهم على أراض أقل جدباً من أراضى غيرهم، وإن لم تكن غنية فى مواردها. وهم يستثمرون أملاكهم تلك ويحصلون على خراج لا اعتدال فيه. فمن الصعب أن يكون بين هذا العدد الكبير من الشعوب، وكذلك بين الشعوب التى تتسم بالعناد، معيار مشترك من الخراج فى مصلحة التاجر.

ينطبق كثير من هذا الوصف على ماكان يعد الطريق الرئيسى فى تلك الفترة، وهو الطريق الصحراوى الذى يتجه غرباً من دورا أوربوس إلى تدمر ودمشق. وطوال ألفى سنة على الأقل قبل العصور الرومانية، كان بدو الصحراء يقصدون عيون تدمر الكبرى، التى كانت بمثابة مركز للقبائل فى وسط الصحراء. كما كانت محطة لرسل البريد السريع أو الجماعات الصغيرة العابرة للصحراء. ولم يكن ذلك طريقاً رئيسياً للقوافل، لأنه كى تحصل القوافل الكبيرة على كفايتها من الماء كان لابد من حفر الآبار على طول الطريق وصيانتها. والشئ الأهم هو أن عصابات البدو كانت تهاجم الطريق الذى يمر عبر الصحراء بعيداً عن الحصون التى تقيم بها الحاميات. ورغم ذلك استطاعت شيئاً فشيئاً أن تحقق قدراً بسيطاً من الرخاء، وإن ظل رخاءً غير مستقر مائة فى المائة. وبحلول سنة ٤١ قبل الميلاد كانت مدينة كبيرة بالقدر الذى أثار اهتمام مارك أنطونيوس. ولكنها لم تكن كبيرة جداً. ذلك أن سكانها عندما علموا بقدوم الجيش استطاعوا أن يجمعوا حاجياتهم ويرحلوا، تاركين القائد الرومانى الذى جاء للاستيلاء عليها أمام مدينة خالية (يفترض أنهم لجأوا مؤقتاً إلى دورا أوربوس).

ومع تطور طريق الحرير، أصبحت هناك رغبة أكبر فى وجود طريق أقصر إلى مدن التكرير على البحر المتوسط. وهكذا ازدهرت تدمر وسط الصحراء. وفى كتابه «مدن القوافل» وصفها ميخائيل روستوفتزييف بأنها «واحدة من أغنى مدن سوريا وأكثرها رفاهية وبهاء». واختص بالذكر طرقها الفريدة الواسعة المؤدية إلى أنحاء المدينة المختلفة، حيث تقوم على جوانبها مئات الأعمدة على الطراز اليونانى الرومانى. ويمضى روستوفتزييف قائلاً: «وكثيراً مايتخيل المرء أنها انبثقت من رمال الصحراء بحركة من عصا سحرية. فسرعان ماتحولت قرية تدمر القديمة وربما الصغيرة والبسيطة، [إلى بالميرا]».

وكانت علاقة بالميرا (تدمر) بروما معقدة بعض الشيء. فعلى الورق كانت تعد جزءاً من الإمبراطورية الرومانية. إلا أنها في الواقع كانت تحسّل المكوس الخاصة بها. ويبدو أنها كانت تتمتع بقدر كبير من الحكم الذاتي. وكانت لها قوة شرطة صحراوية نشطة من الرماة الراكبين الذين كانوا يطوفون بالمنطقة العازلة بين القوتين الأعظم، روما وبارثيا. إلا أنه اعتباراً من منتصف القرن الثاني الميلادي أقامت حامية رومانية هناك. وكان السبب الظاهري لذلك هو مساندة شرطة الصحراء. وتولى الرومان حفر الآبار في المنطقة التي خضعت مباشرة لسلطتهم وأقاموا أبراجاً للمراقبة للمساعدة في حماية الطريق عبر الصحراء.

أما بليني، الذي يقدر تعداد بالميرا بـ ٦٠٠ ألف نسمة في القرن الأول الميلادي، فيشهد على موقع المدينة الفريد، بصفتها مدينة دولة شبه متمتعة بالحكم الذاتي:

بالميرا مدينة تشتهر بموقعها وبخصوبة تربتها وبعيونها التي تسر النظر. حقولها تحيط بها من كل جانب دائرة شاسعة من الرمال، كأن الطبيعة عزلتها عن العالم، بحيث يكون لها قدرها الخاص بين الإمبراطوريتين القويتين في روما وبارثيا. وفي اللحظة الأولى من أي نزاع بينهما تجتذب اهتمام الجانبين.

ومع تزايد القوافل التي سارت عبر الأراضي القاحلة التي تسمى بالميرينا، توثقت صلات سكان المدينة، ومعظمهم من الساميين إلى جانب بعض اليونان، بالإمبراطورية الرومانية. واتخذ كثير من سكان المدينة ذوى الثروة والنفوذ أسماء رومانية (كما حدث قبل قرون حين اتخذ الناس أسماء يونانية). بل أصبحوا مواطنين رومان. وبعض تجار بالميرا، الذين اتبعوا مسار البضائع الشرقية التي كانوا يتاجرون فيها، انتشروا في أنحاء الإمبراطورية الرومانية فوصلوا إلى مصر وإلى وادي الدانوب وإلى روما نفسها، حيث كانت لهم مراكزهم التجارية الخاصة والمعابد التي تُعبد فيها آلهتهم.

وكانت ثروة بالميرا بالكامل تقوم على التجارة. كما أن قوانينها التجارية حددت الرسوم التي يجب دفعها عن كل السلع التي يحملها التجار شرقاً أو غرباً. وكانت هناك ضرائب على العبيد والعاهرات والأقمشة من كل نوع والسلع الجافة والعطور والزيوت والملح (وهو حيوى بالنسبة للصحراء) وحتى الماء، وهو سبب وجود بالميرا. وكانت هذه الضرائب موسمية في بعض الأحيان.

وفي سنة ١١٤ ميلادية تعكر الصفو عندما شن الإمبراطور الروماني تراجان هجوماً

على بارثيا واستولى على كل من دورا أوروبوس وطيسفون العاصمة، وكان بذلك يسير على خطى مارك أنطونيوس ويوليوس قيصر. إلا أن تلك الأراضي استُعِيدت في زمن خليفته أدريان وانتعشت التجارة من جديد. وزار أدريان نفسه بالميرا وأطلق عليها اسم أدريانا بالميرا وجعل منها مدينة حرة داخل الإمبراطورية. ولم تتحمل الخزانة الرومانية تكاليف الاستقبال الحافل الذي لقيه أدريان، بل دفعها أحد تجار بالميرا الموسرين. ومثل هؤلاء التجار وقادة القوافل، بل والجمالة، وهم من تحقق على أيديهم جزء كبير من ثروة المدينة، كانوا يكرمون في كثير من الأحيان بإقامة تماثيل لهم. وكان في شوارع بالميرا الرئيسية مايزيد على مائتي تمثال. وقد تحطم كثير من هذه التماثيل أو شوه ضمن حملة تحطيم الأصنام في العصور الإسلامية اللاحقة. إلا أن وصفها ظل باقياً في الغالب. على سبيل المثال كان أحد هذه التماثيل لتكريم قائد القافلة سوادوس بوليادو الذي تشير عبارات التكريم إلى أنه «في كثير من المناسبات المهمة قدم مساعدات سخية إلى التجار والقوافل و... مواطنيه». وتدل التماثيل التي كُتِبَ لها البقاء على أن أهل بالميرا كانت لهم علاقات قوية مع الشرق كما مع روما. وكانت كل ملابسهم، وهي سترات طويلة وسراويل واسعة ومعاطف طويلة لركوب الخيل لها أزرار لامعة ذات طابع بارثي. كما كانت النقوش التي على الحرير وغيرها من الأقمشة ذات طابع شرقي. ويشير إيان بروانج في كتابه «بالميرا» إلى أن «الزخارف المجدولة والمتكررة... المنسوجة بألوان زاهية، إلى جانب الأشرطة ذات النقوش الثابتة من الزهور والحيوانات المرعبة التي تشق طريقها عبر النباتات» كانت مختلفة تماماً عن النقوش التي سادت المنطقة الواقعة غرب بالميرا.

وبينما كان نجم بالميرا يبرز، كان نجم البتراء في طريقه إلى الأفول. إذ أدى الأمن المستتب على أرض آسيا في ظل الزعامة الرومانية إلى انهيار البتراء. كما أن الطريق الصحراوي عبر بالميرا كان في ذلك الوقت أقصر الطرق إلى دمشق والمدن الساحلية. ولم يعد من المجدى إرسال جزء كبير من السلع الشرقية حول الجزيرة إلى طريق القوافل البري. وعلى أي الأحوال، فلم تعد القوافل تحتاج في ظل الحماية الرومانية إلى المأوى الذي يوفره معقل البتراء الصخري. وبحلول القرن الثاني الميلادي نقل أنباط البتراء عاصمتهم إلى بصرى على طريق البخور الرئيسي. وشيئاً فشيئاً هُجرت البتراء، بل وطواها النسيان لعدة قرون.

وهكذا تدفقت الحرير من الصين واليشب من آسيا الوسطى والعاج من الهند، إلى جانب التوابل واللؤلؤ والجواهر والمعادن النفيسة غرباً، عبر بالميرا في أغلب الأحيان، إلى

مدن غرب آسيا وخاصة دمشق وصور وصيدا وبيروت (وكانت فى ذلك الوقت تسمى بيريتوس) وأنطاكية. وكان لدى كل منها ما يميزها عن سواها وما تقدمه لتجارة الشرق والغرب.

وكانت دمشق على الطريق المباشر من بالميرا. وكان نساجو دمشق المشهورون يصنعون تيلاً فاخراً من الكتان الذى يزرع فى السهول القريبة. وابتكر هؤلاء الصناع الخبراء نقوشهم المميزة لنسج الحرير. وكان القماش الذى يصنعونه يحمل اسم مدينتهم: الدمشق (damask). وكانت هذه الأقمشة تلقى قبولاً شديداً، حتى أن بعض أثواب الحرير المنسوجة فى دمشق كانت تعود عبر آسيا إلى الصين. كما أن الفواكه المجففة كانت تصدر إلى كل الأنحاء، وهى من إنتاج بساتين دمشق الياقة وحدائقها وكرومها. وربما تكون المدينة قد اكتسبت فى تلك الفترة المبكرة شيئاً من شهرتها الخاصة بالأشغال المعدنية الدقيقة (باستخدام الحديد والصلب من الهند والصين) التى تفوقت فى صناعتها فى العصور العربية اللاحقة.

وحظيت بيروت وصور وصيدا أيضاً بنساجيها الخبراء، وخاصة نساجي التيل والحرير. إلا أنها أضافت ميزة فريدة، وهى الصبغة الأرجوانية. وهنا أيضاً تقوم مراكز صناعة الزجاج (ويبدو أن طريقة نفخ الزجاج اكتشفت فى صيدا فى حوالى القرن الأول قبل الميلاد). والواضح أن الزجاج لم يكن جميلاً فحسب، وإنما تميز كذلك بقوته. فقد ظلت أسطورة «الزجاج غير القابل للكسر» متداولة فى المنطقة عدة قرون. والواقع أن وصوله سليماً إلى الصين عبر طريق الحرير قد يكون دليلاً على قوته.

وبما أن تلك كانت الموانئ الرئيسية فى غرب آسيا، التى تخرج منها الصادرات إلى أنحاء عالم البحر المتوسط، فقد كان لها دور فعال فى كل الأنشطة الصناعية والتجارية. وكما يشير أحد المعاصرين: «تموج صور بكل أنواع الأعمال التجارية». وكانت لصيدا أهمية خاصة لكونها ميناء دمشق القريب منها. ووضع الرومان حاميات إضافية بينهما، لأن عصابات اللصوص كانت لها معاقلها فى الجبال التى بين المدينتين.

وبخلاف كل هذه المدن كانت هناك أنطاكية، التى أطلقوا عليها بحق «تاج الشرق الجميل». وكانت تمتد على ضفاف نهر العاصى وسفوح الجبال المحيطة به. وهى عاصمة الشرق الرومانى. وكان الصينيون يعتقدون أنها روما. وفى هذه العاصمة التجارية والسياسية اتخذ التجار الكبار بيوتاً لهم. وفيها كانوا يمولون ويستأجرون أفراد القوافل الذين كانوا يصلون إلى أنطاكية من الصين والبحارة الذين يقطعون البحر المتوسط من أنطاكية (عبر

مينائها سلوقية) إلى روما، وإلى أسبانيا كذلك. ولم يكن أقل ما تتميز به المدينة هو مناخها الصبحى بنسيمه العليل القادم من البحر المتوسط ونهر العاصى جاعلاً منها منتجعاً صيفياً تهوى إليه أفئدة سكان المدن الأخرى.

وعندما كانت القوافل تدخل المدينة نفسها كانت تجد أنها تسير فى طريق عرضه ٣٠ قدماً مرصوف بالجرانيت يؤدي إلى مدخل ضخم عليه بوابات ثقيلة. وإذا مر أفرادها بحميرهم وجمالهم من البوابة - قال البعض «كما لو كانوا عرائس» - وجدوا أنفسهم على طريق عريض تحفه أعمدة ضخمة، تذكرنا بشوارع بالميرا ذات الأعمدة. وبين الأعمدة كان كثيرون من التجار يقيمون دكاكين صغيرة، رغم كون ذلك مرفوضاً من الناحية الرسمية. وأقيمت صناعات كبيرة، كالنسيج والأشغال الجلدية والأشغال المعدنية وغيرها، فى أماكن أخرى، كل فى قطاع خاص بها من المدينة. وإن كانت هذه الصناعات لا تضاهى تلك التى فى المدن الرئيسية الأخرى بالمنطقة. أما كبار التجار، وهم هؤلاء الذين يتحكمون فى تجارة الاستيراد والتصدير التى تمر عبر سوريا، فلم يقيموا فى شوارع المدينة تلك، رغم ما قد تكون عليه من جمال وإضاءة ساطعة. فقد كانت منازلهم الفخمة فى الضواحي على السفوح الباردة الظليلة التى تحيط بقلب المدينة يضاوى الشكل. وكما هو حال نظرائهم فى بالميرا، كان تجار أنطاكية (وغيرها من المدن القريبة) متواجدين فى سائر أنحاء الإمبراطورية الرومانية.

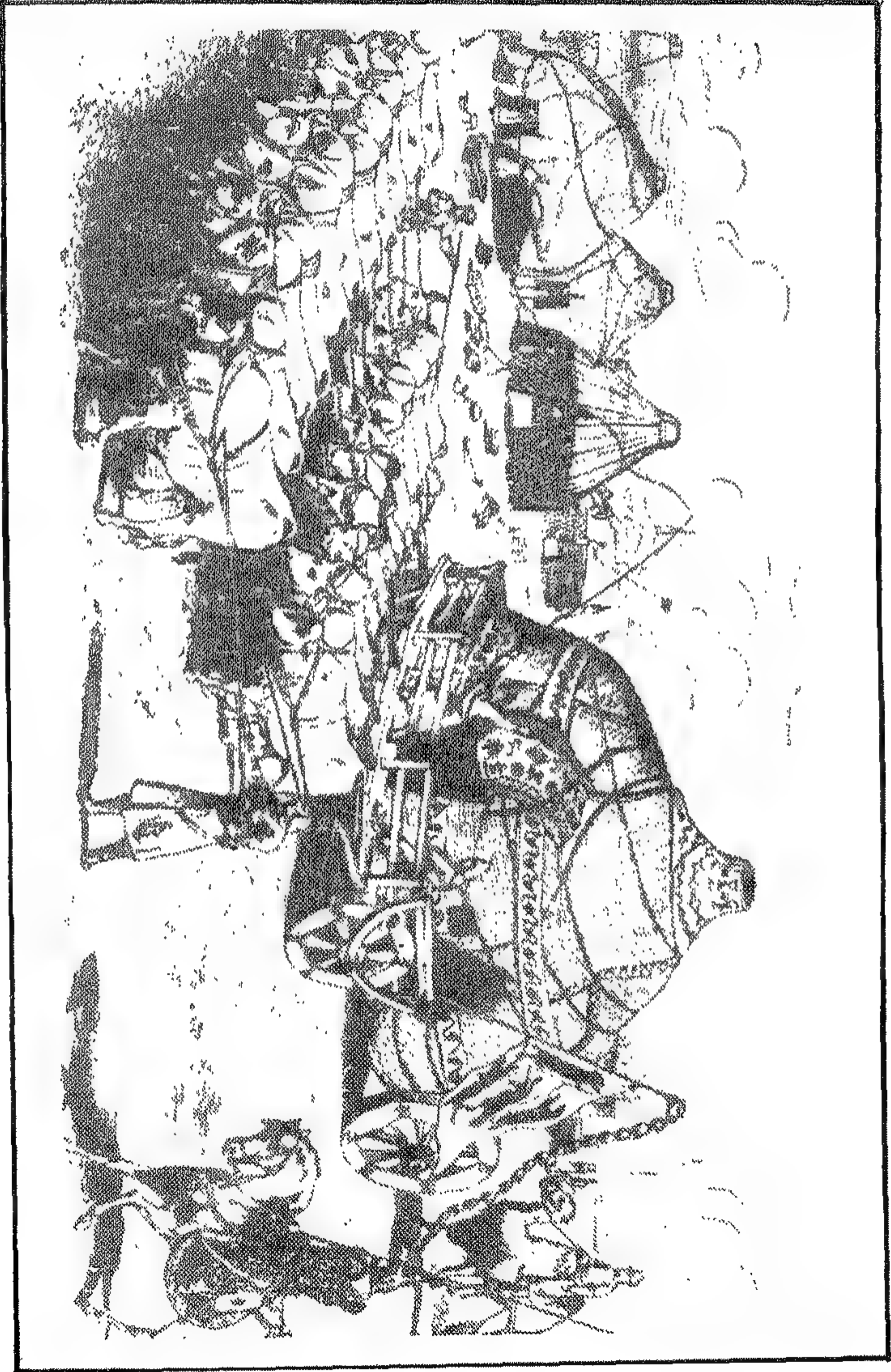
وفى ذلك الوقت كانت أنطاكية هى المدينة التى تتحكم فى التجارة عبر آسيا، حيث كانت بمثابة نهاية طريق الحرير والمحطة الأخيرة فى الطريق البرى. إلا أن رحلة الحرير لم تكن قد بلغت نهايتها عند وصولها إلى مدن آسيا الغربية، على الأقل عندما كانت الإمبراطورية الرومانية فى أوج مجدها. فمن موانئ الشرق الرومانى كانت الحراير المصبوغة والمنسوجة والمطرزة تُصدر إلى روما وإلى الأجزاء البعيدة من الإمبراطورية. وكانت فى بعض الأحيان تقطع الرحلة من المحيط الهادى إلى المحيط الأطلسى. وفى المقابل، كان الرومان يرسلون الذهب والفضة، إلى جانب مصنوعات غرب آسيا، وهو ما أدى إلى نزوب ثروات إمبراطوريتهم شيئاً فشيئاً من أجل ارتداء الحرير الثمين. وليس بمستغرب أن ينوح بلينى على ذلك قائلاً: «هذا هو الثمن الذى دفعناه لقاء ترفنا».

الحجاج والدعاة

... عندما تلى [السوترا] ، أصبح بالإمكان عبور الجبال والأنهار وأضحت الطرق سهولاً يمكن السير فيها. واختفت النمر والفهود. وانصرفت العفاريت والأشباح. وهكذا استطاع شيوان تسانج الوصول إلى أرض بوذا.

— من «تاي بنج كوانج تشي»

مجموعة صينية من أواخر القرن العاشر



خراكاهات مغطاه باللباد تنقل على عربات ضخمة أثناء الهجرة، كانت بيوت شعوب
السهور لقرون عديدة. (رسم كويتو سيني، من نسخة يول من «ماركو بولو»).

رغم ماتقوله قصص الصين في العصور الوسطى، لم يكن مجرد تلاوة «سوترا»^(١)، وهو نص من الكتابة البوذية المقدسة، كافياً لإبعاد الشرور والأخطار وتيسير سفر الحجاج المؤمنين عبر آسيا. فالواقع أن المخاوف والأخطار التي صاحبت رحلات الحجاج البوذيين الشجعان تتضح بشدة فيما كتبه عن رحلاتهم. وكان بعضهم قد أمضى مايزيد على العشر سنوات في رحلته إلى الهند والعودة منها. فالهند هي موطن محبوبهم بوذا. وبينما كان التجار وقوافلهم العلامات المميزة على طريق الحرير في أوج مجده في القرن الثاني الميلادي، فإن الحجاج الجوالين هم من ميزوا القرون المضطربة التي تلت ذلك. وقد واجه هؤلاء الرحالة المتدينون عالماً يختلف كثيراً عن عالم القوافل التي تحيط بها الحراسة الواجبة وكانت تشق طريقها بصعوبة عبر الصحراء في الفترة الأولى من ازدهار طريق الحرير. فالمعروف أن عالم الأمم القوية، التي كانت تملك القوة والموارد التي تمكنها من زرع الحاميات في أبراج المراقبة على بعد مئات الأميال من الوطن، انهار بعد عشرات معدودة من السنين.

وكما يحدث في منظار الأشكال الملونة (الكاليدوسكوب)، تغير وضع طريق الحرير بالكامل في حوالى سنة ٢٠٠ ميلادية. فالقوى التي اتسم حكمها بالعظمة والأبهة، وهم الرومان والبارثيون والكوشان والصينيون، سقطت سقوطاً مشيناً، كل بطريقتها ولأسباب تختلف عن أسباب الأخرى. وساهم الجفاف الذى تعرضت له صحارى آسيا وسهوبها في حدوث ذلك التغير الكبير. كما أدى إلى انتقال تلك الأعداد الضخمة من البدو، الذين عاشوا دائماً حياة غير آمنة وعكروا صفو الحضارات العظيمة التي قامت عند أطراف آسيا. وأضحت الأنشطة التي شهدتها الطريق العظيم الذى يمر عبر آسيا ذات مسحة دينية متزايدة، بعد أن ظلت زمناً طويلاً تتسم بطبيعة تجارية وعسكرية وسياسية. والواقع أن هناك قدراً كبيراً من الحقيقة فيما يقال عن كون عدم الأمان وتقطيع أوصال آسيا في القرون التالية سبباً جعل الكثيرين يتحولون إلى الديانات الجديدة نسبياً التي غيرت وجه طريق الحرير.

وفي حالة الفراغ التى نجمت عن ذلك، ازدادت الدول المحلية قوة. ومن بين هذه الدول تدمر، التى امتد نفوذ آخر ملكاتها، وهى زنوبيا (الزباء)^(٢)، إلى مصر. بل وقيل إنها

(١) كلمة سنسكريتية معناها «الخيوط» وتطور المعنى لتصبح «الخيوط المرشدة». وهى فى البوذية والهندوسية مجموعة من النصوص المرشدة. (المترجم).

(٢) تولت عرش تدمر بعد مقتل زوجها أذينة سنة ٢٦٨ ميلادية وقررت الاستقلال عن روما وطردت جيشها حتى أنقرة ليمتد حكمها من مصر حتى الأناضول. وبينما كانت تنتظر هجوم الساسانيين من الشرق، جاءها الرومان من البحر وهزموها فى حمص واستولوا على تدمر. (المترجم).

شربت من كأس كليوباترا. وكان الدمار والخراب هما مادفعته تدمر سنة ٢٧٣ ثمناً لتكبرها، وإن بقيت هي على قيد الحياة لتقيم في روما في سعة من العيش. ولم تقم قائمة لتلك المدينة العظيمة التي ازدهرت في الصحراء وكانت روما أحوج ماتكون إليها، حيث استولت على الثروات قصيرة الأجل التي كانت في خزائن تدمر وفقدت ذلك السيل الدائم من النفائس الآتية من الشرق عبر الطريق الذي يمر بـالميرا.

وظلت التجارة على الطرف الغربى من طريق الحرير غير منتظمة ولا مضمونة فترة من الزمن. وكانت مدن صور وصيدا وبيروت وأنطاكية لاتزال مراكز رئيسية للصباغة والنسيج والصناعة. إلا أن الطرق المتجهة غرباً إليها كانت غير مستقرة. وكذلك كان حال أسواقها الرئيسية. إذ كان مركز الجذب في الإمبراطورية الرومانية ينتقل شيئاً فشيئاً نحو الشرق. واتضح هذا الانتقال في تأسيس الإمبراطور قنسطنطين لعاصمة رومانية شرقية في القسطنطينية^(١) سنة ٣٣٠ ميلادية في نفس موقع المدينة اليونانية القديمة بيزنطة. وعلى مدى القرن التالى عانت الإمبراطورية الرومانية من الانهيار الحاد. وكمنت القوة التي بقيت للإمبراطورية في الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وخاصة في القسطنطينية.

وكان هناك تغير من نوع آخر يحدث في المنطقة، وهو ظهور المسيحية. فقد أدى اعتناق قنسطنطين لهذا الدين إلى إعطائه الصفة الرسمية في الإمبراطورية لأول مرة، بعد أن ظل ثلاثة قرون ينتشر في ظل الاضطهاد. وكانت مدن كثيرة على الطرف الغربى من طريق الحرير، خاصة أنطاكية وطرسوس، ذات أهمية في بدايات الدين الجديد وظلت مراكز مسيحية قوية. إلا أنه حتى ذلك الوقت لم تكن هناك كنيسة مركزية موحدة يعترف بها الجميع. لذلك قامت في غرب آسيا مدارس فكرية عديدة حول المسائل اللاهوتية الرئيسية. وبعض هذه المدارس كان لها دور مهم في تاريخ طريق الحرير.

ومع بداية القرن الثالث الميلادى كان البارثيون في حالة من الضعف. فقد عمت الفوضى بين العديد ممن يُفترض أنهم موالون للملك البارثى. وليس غريباً أنه قبل انقضاء الربع الأول من القرن كان البارثيون قد أقصوا عن الحكم. وكان ذلك على يد الفرس، الذين كانوا دائماً إحدى أقوى القبائل الخاضعة للبارثيين. ولأن ذكرى أمجاد الماضي كانت حية في أذهان الفرس، فقد هبوا لإحياء إمبراطوريتهم القديمة. وخلال سنوات قليلة أصبح

(١) أصبح اسمها بعد ذلك استانبول وتحول في عهد الدولة العثمانية إلى الآستانة ثم عاد مرة أخرى استانبول أو اسطنبول. (المترجم).

الفرس من جديد يسيطرون على الفرات وعلى اثنين من حصون بلاد ما بين النهرين، هما حران^(١)، الذى شهد هزيمة روما للبارثيين قبل عدة قرون، ونصيبين^(٢)، على الفرات، وقدّر له أن يكون مدينة رئيسية على طريق الحرير فى القرون التالية. إلا أن ذلك تحقق لهم بعد معارك شرسة مع الرومان.

وبعد ذلك اتجه الفرس الذين استعادوا نفوذهم شرقاً، حيث كان الكوشان يمثلون تهديداً للدولة الجديدة وثمره حان قطافهم لها، بعد أن زاد ثراؤهم من تجارة الحرير. وكأى قوة غاشمة، اجتاح الفرس الطريق الهندى العظيم من بيشاور عاصمة الكوشان حتى بلخ ومنها إلى سمرقند وطشقند. ودخلت جميعها الحظيرة الفارسية، فى الوقت الذى أصبح فيه الكوشان فى ذمة التاريخ. إلا أن تجار إمبراطورية الكوشان القديمة ظلوا يقطعون القارة جيئةً وذهاباً بقوافلهم. وكان للصُّغد بصفة خاصة تأثير متميز على آسيا الوسطى خلال القرون التالية التى اتسمت بالفوضى.

وبعد أن امتدت الأراضى الخاضعة للفرس إلى حدود البامير «الطبيعية»، عادوا مرة أخرى إلى الغرب. واعتماداً على ضعف الرومان، استطاع القائد الفارسى سابور أن يستولى بسرعة على بلاد ما بين النهرين وأرمينيا. وفى سنة ٢٦٠ ميلادية، وعند بلدة الرها المسيحية الكبرى، أُتيحت له فرصة مذهشة لأسر أسقف أنطاكية المسيحى إلى جانب ٧٠ ألف جندى والإمبراطور الرومانى نفسه. ومات الإمبراطور التعيس فاليريان فى الأسر، إلا أن الأسقف والجنود الرومان نقلوا إلى مدن جديدة منتشرة فى الأراضى الفارسية أُقيمت على نمط معسكرات الجنود الرومانية. ووُطِّن كثير منهم فى الأراضى الواقعة جنوبى بلاد ما بين النهرين، وخاصة مدينة جديدة كبرى أطلق عليها اسم جنديسابور (أى أنطاكية سابور الأفضل)^(٣). ووُطِّن آخرون فى مدن قديمة وجديدة تحيط بالأراضى الفارسية، منها مايقع

(١) يقول المقدسى فى «أحسن التقاسيم»: إن «عليها حصن من حجارة على عمل إيليا فى حسن البناء». وكانت تقع فى ديار مصر. (المترجم).

(٢) يقول الإدريسى فى «نزهة المشتاق» إنها «ذات سور عظيم... وبالقرب منها قلعة بناها حمدان بن الحسن وتسمى البازى الأشهب لا استطاع فتحها البتة لحصانتها ومنعة موضعها». ويقول المقدسى إن «عليها حصن من حجر وكلس». (المترجم).

(٣) هذا هو سابور الملقب بـ «ذو الأكتاف» وهو ابن هرمز بن نرسى ويقال إنه كانت له أكتاف عريضة. إلا أن المسعودى فى «مروج الذهب» يقول إنه «خلع... أكتاف العرب فسمى بعد ذلك سابور ذا الأكتاف». أما مدينة جنديسابور فقد أنشأها من قبل سابور بن أردشير، الذى يقول المسعودى إن «العرب تلقبه سابور الجند» وهو جد ذى الأكتاف. أما المدينة التى تنسب لذى الأكتاف فهى نيسابور بخراسان. (المترجم).

على طريق الحرير. وكان بين هؤلاء الأسرى الكثير من العمال المهرة والمعماريين والمهندسين والفنيين ومن على شاكلتهم. وبما أن الجنود الرومان كانوا في الحرب والسلم يقيمون الجسور ويشقون الطرق، عندما تدعو الحاجة إلى ذلك، فقد جعلهم الفرس يتولون مشروعات الأشغال العامة الضخمة في أنحاء الإمبراطورية الفارسية. وتكون عدد من المجتمعات المسيحية من هؤلاء المنفيين إجبارياً في أنحاء متفرقة من بلاد فارس.

وكان سابور نفسه يميل إلى ديانة جديدة، تجمع بين الزرادشتية والبوذية والمسيحية، دعا إليها نبي اسمه ماني^(١). وكما هو متبع في التقاليد الشرقية ابتعد ماني عن موطنه القريب من طيسفون عدة سنوات ليعيش كناسك متجول. ولأن الزرادشتيين اعتبروه كافراً، فقد جُرب البوذية على الطريق العظيم في الهند ثم عاد إلى طيسفون بعد أن جعلها سابور عاصمة الفرس الجديدة. وهناك دعا إلى دينه «العالمى» الجديد الذى عُرف بالمانيوية وأعلن نفسه أحد حوارى المسيح عيسى^(٢)، رغم رفضه للعهد القديم كله وبعض العهد الجديد. وتقوم المانيوية على ثنائية الخير والشر، والنور والظلام. وبعد وفاة سابور تعرض ماني وأتباعه للاضطهاد، حيث أصبحت الزرادشتية الدين الرسمى للإمبراطورية الفارسية المغرقة فى القومية. إلا أن أثر ماني امتد عبر القرون إلى أوروبا وأدى إلى ظهور طوائف اعتُبرت كافرة فى العصور الوسطى^(٣). كما امتد إلى آسيا حيث ظلت الجاليات المانيوية موجودة فى الصين بعد مرور ألف سنة من وفاة ماني.

وطوال القرون القليلة التالية كانت فارس تحتل موقعاً فريداً على طريق الحرير. ففي الوقت الذى كانت فيه القلاقل والاضطرابات تحيط بهم من كل جانب، وكانت بين الحلفاء والأعداء على حد سواء، كان الفرس أقوى الأمم على ذلك الطريق العظيم الذى يربط بلاد

(١) هو ماني بن فانتك (٢١٦ - ٢٧٤ ميلادية) وينتمى إلى عائلة مالكة بارثية. دعا إلى دينه الجديد وهو فى العشرين حيث أقنع عدداً من القادة المؤثرين بالدخول فيه. ونال ماني حظوة سابور ورافقه فى حروبه فى الغرب. ومات ماني وهو مكبل فى الأصفاد بعد أن تأمر عليه كهنة زرادشت المجوس. (المترجم).

(٢) مع أنه أطلق على نفسه اسم فارقليط الذى بشر به المسيح، كان إذا تحدث إلى المسيحيين فهو يسوع المخلص وإذا خاطب الزرادشتيين كان أهورامزدا الإنسان الأول. إلا أنه لم يكن يحب إله العهد القديم. (المترجم).

(٣) تُعرف هذه الطوائف التى ظهرت فى جنوب فرنسا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر بالمطهرين (Cathari) وكانت تؤمن بالثنائية التى فى المانيوية وتعتبر أن العالم المادى شر ولا بد من تحرير الروح من الجسد. وهى ترفض الزواج والجنس وتحرم تناول اللحوم والبيض والدواجن وترفض فكرة عذاب النار والمطهر والقربان المقدسة لوجود العنصر المادى فيها. وكانت هذه الجماعات هدفاً لمحاكم التفتيش فى القرن الثالث عشر. أشهرها «الأليجينيز» (Albigenses) و«البوجوميل» (Bogomiles) الذين كانت البوسنة مقرهم فى أواخر العصور الوسطى وقد دخل أغلبهم فى الإسلام بعد فتح الأتراك لها. (المترجم).

آسيا. وحيث إنهم كانوا يحتلون ذلك الممر الذي كانت قوافل الحرير مضطرة لعبوره، فقد كانوا يحتكرون بشدة التجارة على طريق الحرير. ومن خلال ذلك كان لهم أثر ضخم على مصير شعوب آسيا على الجانبين.

بل وصل الأمر بالفرس إلى التحكم في طريق التوابل. وكان ذلك الطريق يربط البحر المتوسط والصين عن طريق البحر، حيث يشكل مع طريق الحرير النصف الآخر من ذلك الطريق اليبضاوى العظيم الذى يربط أجزاء آسيا ببعضها. وعبر عن أهمية طريق التوابل وعلاقته بطريق الحرير أحسن تعبير الكاتب الرومانى كوسماس انديكوبليوستيس فى أوائل القرن السادس عشر:

أرض الحرير فى أقصى بلاد الهند. وهى تقع على يسارك عندما تدخل البحر الهندى. إلا أنها تقع على مسافة تبعد كثيراً عن الخليج الفارسى وعن الجزيرة التى يسميها اليونان تايرويان [سيلان أو سريلانكا]. وتزينستا [الصين] هو اسم هذا البلاد... ويقع على مسافة كبيرة إلى اليسار، حتى أن أعمال الحرير التى تمر عبر بلاد كثيرة مختلفة بالبر تصل بلاد فارس فى وقت قصير نسبياً، إلا أن المسافة بحراً أطول بكثير. فالمسافر إلى تزينستا عليه أن ينحرف من تايرويان والأقاليم التى وراءها [إشارة إلى الملايو]. والمسافة التى يقطعها بحراً بعد ذلك ليست بقصيرة، وتشمل البحر الهندى كله من الخليج الفارسى حتى تايرويان ومنها إلى المناطق التى وراءها. وبذلك يتضح أن أى إنسان يأتى عن طريق البر من تزينستا إلى بلاد فارس يقطع مسافة قصيرة جداً. وهذا يفسر وجود تلك الكميات الكبيرة من الحرير على الدوام فى بلاد فارس. وبعد تزينستا ليس هناك إبحار أو أرض مأهولة.

ومع أن حدود بلاد فارس الغربية مع الإمبراطورية الرومانية الغربية تغيرت على مر القرون، حيث كانت قوة إحداها تتعاضد أو تخبو مقارنة بالأخرى، فقد سيطر الفرس بقوة على الموانئ عظمى الأهمية جنوبى بلاد ما بين النهرين التى تقع على طريق التوابل. وعلى مر الزمن اتسع المدى الذى تبلغه السفن الفارسية، لتصل أولاً إلى الهند وبعدها إلى الملايو وأخيراً إلى الصين نفسها، حيث كانت تشتري الحراير والتوابل من الصينيين مباشرة فى ميناء كانتون. وكانت التجارة عن طريق البحر مع جنوب الصين، فى عصور الاضطرابات فيما

بين القرنين الرابع والسابع، أيسر ويُعَوَّل عليها أكثر من التجارة البرية، رغم كون المسافة بالبحر أطول كثيراً. فالصين أيضاً ضعفت وتقطعت في أعقاب انهيار أسرة هان العظيمة.

ويسجل التاريخ أن أسرة هان بقيت حتى سنة ٢٢٠ ميلادية. وهي السنة التي توفي فيها الإمبراطور الأخير. ولكنه اعتباراً من سنة ١٨٥ ميلادية أُصِيبَت الإمبراطورية بالشلل التام. فقد أدت الفيضانات والمجاعة إلى قيام الثورات الشعبية في الداخل، وكان يقود بعضها جماعة دينية عُرِفَت باسم العمامة الصفراء^(١). ومع أن التمرد أُحبط في نهاية الأمر، إلا أن المذابح والدمار على كل الجوانب كانت لها آثار بالغة السوء. ويصف الشاعر وانج تسان الذي عاش في تلك الفترة ما كان عليه الحال وقتها:

كانت العاصمة الغربية غارقة في فوضى محزنة؛

يأتى الذئب والنمر ليزعجا أهلها...

وتناثرت العظام البيضاء على السهل...

ألتفت لأنظر إلى تشانج آن،

وفكرت في عدد الذين باتوا تحت الأرض،

وتنهدت بعمق وتألم قلبي.

وعندما لم يتمكن أى حاكم إمبراطوري من استعادة النظام سادت فوضى العسكر، حيث استولى العديد من القواد على مناطق لأنفسهم. وعندما قرر أحد القواد أن يجعل مركزه في تشانج آن سنة ١٩٠، أطلق جنوده في العاصمة القديمة لو يانج فأضرموا النار في القصر الإمبراطوري والمكتبة الرئيسية التي يُحْتَفَظ فيها بسجلات أسرة هان والكنوز الفنية التي جُمِعت على مر العصور ودمروا كل ذلك تقريباً. ولم يبق القائد نفسه كثيراً بعد عملية التدمير الفظيعة تلك. وبعد استعادة قدر بسيط من النظام، قُسمت الصين إلى ثلاث ممالك، واحدة مركزها سيتشوان في الجنوب الغربي والثانية نانكنج في الجنوب والثالثة في لويانج في الشمال. وفي سنة ٢٨٠ أعيد توحيد الإمبراطورية لفترة قصيرة. ولم تدم الوحدة طويلاً لأن الصين، التي كان ضعفها واضحاً أمام الكل، كانت على وشك التعرض لأول غزو من الغزوات التي تعرضت لها على مدى القرون الثلاثة التالية من السهوب الشمالية والصحراء الغربية.

(١) بقيادة تشانج جياو. ورغم القضاء عليها في أول الأمر، فقد شاركت بقاياها قوات الانتفاضات الأخرى كفاحها حتى سقطت هان الشرقية. (المترجم).

وكان من بين أول الغزاة عشائر الشيونج نو التى سُمح لها قبل ذلك بكثير بالإقامة داخل السور العظيم عند منعطف النهر الأصفر (هوانج). فعندما لم تعد لدى الشيونج نو الرغبة فى القيام بدور الحليف والقوة العازلة التى تقف فى وجه الغزوات التى علموا أنها آتية، انقضوا على الصين. فبدأوا بتدمير لويانج، وكان قد أُعيد إعمار أجزاء منها، وأحرقوا القصر وقتلوا ما يربو على الثلاثين ألفاً من أهلها ونهبوا المقابر الإمبراطورية. كما دمروا تشانج آن. وتضمنت الحوليات الصينية أنه: «فى خرائب تشانج آن... تناقص عدد الأسر إلى مادون المائة أسرة. ونمت الحشائش والشجيرات فى كل مكان».

فى تلك الفترة، لجأ كثير من سكان شمال الصين، وليس الموسرين وحدهم، إلى الجنوب. وبينما انتقل مركز الإمبراطورية الرومانية الثقافى من روما إلى القسطنطينية، انتقل مركز الصين من تشانج آن ولو يانج إلى نانكنج. وترك الشمال للحكام المتعاقبين الذين أتوا من السهوب. كما تُركت الحقول بلا فلاحه وأُخليت المدن. وأصبحت الأرض على قدر كبير من الجذب، بحيث أضحى من تبقى من سكان وادى نهر وى، الذى كان بمثابة القلب من الصين، فرائس للذئاب والنمور. وكان اهتمام الحكام البدو قليلاً بالمزارع والمزارعين، بطبيعة الحال. وعندما كان الناس يشكون من هجمات الحيوانات المتوحشة كان رد واحد من هؤلاء الحكام (كما تسجله الحوليات) هو: «هذه الحيوانات جائعة. وعندما تشبع لن تأكل إنساناً آخر».

ولم يكن الشيونج نو، الذين عاشوا على امتداد السور العظيم، أسوأ هؤلاء الغزاة. فكثير منهم اكتسبوا صفات الصينيين لطول اتصالهم بهم. وكان أشد منهم بأساً وقوة تلك القبائل من الشيونج نو التى لم تبرح السهوب والشيان بى (أسلاف المغول) الذين هبطوا شمال شرقى الصين من منشوريا. وتصارعت قبائل عديدة من الشيونج نو والشيان بى على شمال الصين وسيطرت عليه طوال القرون الثلاثة التالية. وبينما اكتسبت إحدى المجموعتين الصفات الصينية بصورة أو بأخرى، كانت القبيلة الأخرى الأشد قسوة، التى لم تكن الحياة المستقرة قد ألانت طباعها، تتدفق بأعداد هائلة. وبنفس الطريقة، كانت تتدفق الموجة تلو الموجة من الغزاة البدو، ومنهم الهون وهم نظراء الشيونج نو الغربيون، على أوروبا فى تلك الفترة. وربما كان من بين أسباب انتقال كل منهما، حروب على الأرض وقعت بعيداً فى السهوب الأوراسية ولم تُسجل.

وليس بمستغرب، فى ظل تلك الظروف، أن يقل مانعرفه من تاريخ آسيا الوسطى فى

تلك القرون المضطربة عن أى فترة أخرى منذ الاستكشافات التى قام بها تشانج تشيان فى الغرب. ولا يمكن وصف الموقف السياسى فيما بين عمر كانسو وجبال البامير إلا بأنه فوضوى، حيث تحاول كل دولة مدينة الحصول على قدر من الاستقلال وتقيم أى تحالف تقدر عليه، فى الوقت الذى تُضطر فيه إلى دفع الخراج إلى كل قوة جديدة تظهر فى المنطقة. وكان ذلك خراجاً بحق، وليس تجارة تسمى بغير اسمها.

بسبب الفوضى السياسية، توحدت كثير من الشعوب الموجودة على طول الطرف الشرقى من طريق الحرير فى تلك الفترة من خلال شىء واحد، هو الدين. وكان إيمانها المشترك بالبوذية هو الذى أتاح مرور الحجاج، بأعداد قليلة أو حتى فرادى، فى أمان نسبى عبر الأراضي التى سادتها الفوضى فى آسيا الوسطى.

وكانت البعثات التبشيرية الأولى فى الصين قد أقامت ديراً بالقرب من لويانج أسموه معبد الحصان الأبيض، وهو اسم الحيوان الصبور الذى حمل النصوص والمخطوطات المقدسة من الهند فى رحلة طويلة وصعبة. وهناك بدأوا عملاً شاقاً لترجمة الكتابات البوذية إلى الصينية. وفى البداية، أى فى عهد أسرة هان، لم يكن لذلك الدين تأثير كبير فى الصين، وربما يعود ذلك إلى المعارضة القوية من جانب الكونفوشييين الذين كانت لهم السيطرة. إلا أنه خلال الفترة المضطربة التى تلت ذلك، دخل صينيون كثيرون فى الدين الجديد الذى وجدوا فيه راحتهم.

وأدى تداعى النظام السياسى إلى ندرة الاتصالات بين الصين والهند وعدم استقرارها، حتى أن كثيراً من البوذيين الصينيين المؤمنين أصبحوا يخشون خروج ممارساتهم الدينية عن الطريق القويم. ودفع هذا الخوف البعض إلى حج الهند قاطعين آلاف الأميال من الصحارى والجبال سعياً وراء تنوير أنفسهم وتنوير مواطنيهم البوذيين. وبدأت مثل هذه الرحلات فى منتصف القرن الثالث الميلادى. إلا أن أول تسجيل مهم لرحلة حج إلى الهند هو ذلك الذى يتحدث عن الرحلة التى قام بها فاشيان، الذى غادر تشانج آن مع عدة رفاق بوذيين سنة ٣٩٩. وكما يسجل فى موضع لاحق، يقول إنه «أسف لعدم اكتمال» الكتابات البوذية التى توافرت له باللغة الصينية، فذهب «إلى الهند للبحث عن قواعد وأحكام» البوذية الحقة.

وجد فا شيان وصحبه البلاد في حالة اضطراب. وكانت البلاد الواقعة غربى تشانج آن داخل السور العظيم «على قدر كبير من الاضطراب ولم تكن الطرق مفتوحة». وكان الأمير المحلى نفسه قلقاً على مصلحتهم و«أبقاهم هناك واستضافهم بنفسه». وكان ذلك نموذجاً قابله الكثير من المسافرين البوذيين. وكان الحكام المحليون والرعايا المعزولون، وليس الرهبان البوذيون وحدهم، تسعدهم صحبة الحجاج الضيوف. وكثيراً ما كانوا يحولون دون سفرهم بسرعة إلى الهند. وذكر فا شيان أنهم في هذه الحالة «أسعدهم تشابه أفكارهم، فظلوا معاً طوال موسم الأمطار». وبعد شهر اتجه فا شيان إلى تونهوانج حيث زوده الحاكم المحلى «بما يعين على عبور الصحراء [نهر الرمال]».

ولم تفقد الصحراء الواقعة غربى تونهوانج شيئاً من مظاهر الرعب التى تميزت بها، كما ذكر فا شيان:

في هذه الصحراء الكثير من الأرواح الشريرة والرياح الحارة. وعند مواجهتها يموت الجميع بلا استثناء. ليست هناك طيور تحلق في السماء ولا حيوانات تهيم في الأرض. عند النظر على امتداد البصر بحثاً عن الطريق، يستحيل على المرء أن يعرف الطريق ولا يرى سوى عظام الرجال المتحللة التى تحدد الطريق.

وحتى في تلك الأرض اليباب، كان المبشرون غير الرسميين من التجار يحققون نجاحاً مدهشاً في تحويل شعوب حوض التاريم إلى البوذية. وفي الدولة الواحة شان شان على سبيل المثال، وجد فا شيان حوالى ٤ آلاف كاهن «جميعهم من أصحاب عقيدة العربة الصغيرة». (يشير إلى الانقسام الذى امتد طويلاً بين العربة الصغيرة أو الهنايانا^(١))، وهى الفرع الأكثر تشدداً من البوذية، والمهايانا أو العربة الكبرى، وهى فرع أكثر تديناً يشمل عبادة آلهة عدة. والفرع الأول كان هو شكل البوذية الذى اعتنقه الناس عموماً في الصين ومناطق كثيرة أخرى شمالي الهند). وعندما كان فا شيان مسافراً إلى الغرب على طريق التاريم الجنوبي، وجد ٤ آلاف كاهن بوذى في مدينة أخرى. وبعد السفر في طريق «لا منازل فيه ولا ناس»، حيث كانت معاناتهم «فيما يتعلق بمشاق الطريق» ونقص الماء «تفوق قدرة البشر على المقارنة»، وصل إلى خوتان.

(١) أطلق أتباع «العربة الكبرى» هذا الاسم على الطوائف المحافظة من البوذيين. (المترجم)

وتمشياً مع وضعها كمركز رئيسى فى التاريم تربطه علاقات وثيقة بالهند، تركت خوتان انطباعاً قوياً لدى فا شيان:

هذه البلاد مزدهرة وسعيدة. الناس على قدر كبير جداً من الثراء وجميعهم بلا استثناء يعظمون شريعة [بوذا]. وهم يستخدمون الموسيقى الدينية للترفيه المشترك. ويصل عدد الكهنة إلى عدة آلاف ينتمون فى أغلبهم إلى العربية الكبرى. وجميعهم لديهم طعام قَدَم لهم... وقيم [الناس] أمام منازلهم أبراجاً صغيرة يبلغ ارتفاعها عشرين قدماً تقريباً. وهناك بيوت الكهنة لاستضافة الكهنة الأجانب وتزويدهم بما يحتاجونه.

ومن الاعتراضات التاريخية التى أثبتت ضد البوذية فى الصين وفى غيرها أن الكهنة، ولنقل الرهبان، كانوا مناهضين للأسرة بنبذهم الزواج، كما أنهم يستنزفون المجتمع لكونهم يعيشون على الصدقات. (أما كونهم ساهموا فى خفض عدد السكان ولم يضيعوا الأموال على الترف، فلم يكن موضع تقدير أعدائهم). إلا أن أهل خوتان وغيرهم من البوذيين المؤمنين عبّروا عن مشاعرهم تجاه هذا الأمر من خلال تلك الترتيبات المتقنة التى أعدوها للحجاج الجوالين.

وعند مغادرة فا شيان لخوتان، فى صحبة قافلة تجار على الأرجح، اختار الطريق الذى يعبر جبال البامير الجنوبية الوعرة التى سماها جبال تسونج لنج (البصل). وهناك بلغ بلاد الـ كى شا (ربما يكونون شعباً جبلياً سماه بطليموس كوسايوى)، حيث صادف وصوله الاجتماع العظيم الذى يعقده البوذيون كل خمس سنوات. وتقدم روايته صورة مذهشة لرفاهية مراكز القوافل الجبلية تلك وعمق تأييدها للبوذية:

فى وقت الاجتماع يرسل [الملك] فى طلب السرامانات [الكهنة البوذيون] من أنحاء المعمورة فيأتون معاً كالسحاب. وبعد أن يجتمعوا يزين مكان اجتماع الكهنة. فيعلق الأعلام الحريرية وينشر السراقات ويصنع زهور اللوتس من الذهب والفضة وينشر الحرير خلف العرش وينظم الأثاث الذى يجلس عليه الكهنة. ويقدم الملك والوزراء هداياهم الدينية لمدة شهر أو شهرين أو ثلاثة شهور. وغالباً ما يكون ذلك فى فصل الربيع. وبعد انتهاء الاجتماع الذى يدعو إليه الملك، يحث وزراءه

على إعداد قرابينهم فيقدمونها لمدة يوم أو يومين أو ثلاثة أيام أو خمسة أيام. وبعد الانتهاء من القرابين... يمتطي الملك [فرسه] ثم [يأخذ] التفتاه الأبيض والجواهر من كل صنف وأشياء يطلبها السرامانات ويقسم هو ووزراؤه على إعطائها جميعاً للكهنة. وبعد تقديمها يحصلون على ثمنها من الكهنة.

ليس ذلك فحسب، بل إن الملك في كل سنة «يستحث الكهنة على جعل القمح ينضج»، فهو محصول الحبوب الوحيد الذي ينمو في تلك البلاد الجبلية الباردة و«بعد ذلك يتلقى [الكهنة] حصتهم السنوية». وكما حدث في أجزاء كثيرة من رحلته، وجد فا شيان مخلفات ذاع أنها تخص بوذا، مثل صحن الصدقات أو إحدى أسنانه، وضعت في أضرحة أقيمت لتكريمها. وهو ما كان الأوروبيون يفعلونه مع المخلفات المسيحية في العصور الوسطى.

وبدلاً من أن يتبع فا شيان الطريق الرئيسي الأسهل ماراً ببلخ، يبدو أنه استعاض عنه بطريق جبلي يصل به إلى شمالي الهند. وكان ذلك خياراً شائعاً، حيث قيل إن بوذا نفسه تجول في تلك الجبال الشاهقة. وكان كثيرون من الحجاج يرغبون في السير على خطاه، بالمعنيين الحرفي والمجازي لذلك. ومن البامير سار إلى الجبال الثلجية، وهي في الغالب جبال هندوكوش المرتفعة، التي ترك وصفاً لها يتميز بالحيوية وإن كان يشوبه شيء من الخيال:

... الثلج موجود صيفاً وشتاء. بل إن هناك أنواعاً سامة من التنين التي إذا رغبت في الشر نفثت السموم والرياح والأمطار والثلوج والحصى والرمال التي تظمر كل شيء. ولا ينجو واحد من بين عشرة آلاف تواجههم تلك الكوارث والنكبات... والطريق صعب ومتقطع وبه صخور شديدة الانحدار ووهاد عميقة. والجبل عبارة عن جدار حجري ارتفاعه ١٠ آلاف قدم. إذا نظرت من عليّ لم تر بوضوح، وإذا مضيت في طريقك لا تظمنن لموطيء قدمك. في الأسفل نهر... وفي الأيام الخوالي حفر الرجال في الصخر ليشقوا طريقاً وينشروا سلماً له سبعمئة [درجة؟] بالتمام والكمال للنزول عليه. وبعد النزول على السلم، نسير على جسر معلق من الحبال ونعبر النهر...

وعلى امتداد الجبال، زار فا شيان ورفاقه الأضرحة والأديرة. وفي بعض الأحيان كانوا يقضون الشهور في زيارة أحدها، قبل أن يستأنفوا السير في قمم الجبال شديدة البرودة. وأثناء عبور فا شيان ورفاقه لأحد الجبال في الشتاء قابلوا أكثر من خطر غير مؤكد:

الجبال الثلجية تكثر فيها الثلوج صيفاً وشتاءً. وفي الجانب الشمالي من الجبال، في الظل، فاجأنا برد قارس فأصيب الرجال بالصمت رعباً. وعجز أحدهم، ويدعى هووى كنج عن الاستمرار في السير. خرج الزبد الأبيض من فمه وهو يخاطب فا شيان وقال: «لم تعد لدى القدرة على الحياة. ولكن بما أنه ماتزال هناك فرصة، أسرعوا بالسير قبل أن تهلكوا جميعاً». ومات بعد ذلك.

وهكذا مضى فا شيان ومن تبقى من رفاقه في طرقهم بشق الأنفس عبر الجبال، ليصلوا إلى أفغانستان. ثم ساروا على ضفاف نهر السند، حيث أثار ظهورهم قدراً من الاستغراب لدى الهنود:

عندما رأوا حجاجاً قادمين من الصين تأثروا كثيراً وقالوا: «كيف حدث أن رجالاً من الحدود استطاعوا معرفة دين إنكار الأسرة وجاءوا من بعيد سعياً وراء شريعة بوذا؟» وقدموا الضيافة الواجبة بسخاء تبعاً لما يأمر به الدين.

وأثناء سيرهم في الهند، في الطريق الذي سار عليه بوذا، حيث زاروا الأضرحة والأديرة، كانوا كثيراً ما يلقون ترحيباً كهذا. وفي أحد المعابد على نهر الجانج، تعجب الكهنة من قدوم الزوار من «بلاد هان» قائلين:

«عجيب أن يظن المرء أن رجالاً من أقصى الأرض يأتون من على هذا البعد رغبة في معرفة الشريعة... إن كثيراً من سادتنا وإخواننا، الذين جاءوا في إثر بعض إلى هذا المكان من قديم الأزل حتى الآن، لم ير أحد منهم رجال هان يأتون من على هذا البعد من قبل».

وهكذا استغرقت رحلة فا شيان ١٢ سنة تعلّم خلالها أخلاق بوذا ومنهاجه. وكأى مسافر قطع المسافات الطويلة، بدأ في نهاية الأمر يحن إلى وطنه:

مضت الآن سنوات طوال على غياب فا شيان عن بلاد هان. كان

سلوك الناس الذين تعامل معهم وعاداتهم غريبة تماماً عنه. وكانت المدن والناس والجبال والأودية والنباتات والأشجار التي تقع عليها عيناه غير تلك التي تعود عليها قديماً. كما أن رفاقه في السفر انفصلوا عنه الآن، حيث تخلف البعض ومات البعض الآخر. لم يبق له سوى التفكير في أطياف [الماضي]. وهكذا كان قلبه حزيناً على الدوام. وفجأة، وبينما كان يقف بجوار تمثال [بوذا] المصنوع من اليشب، لمح تاجراً يقدم له قرباناً من التفتاه الأبيض المصنوع في الصين. وهنا لم يملك فا شيان شيئاً حيال مشاعره الحزينة فإنهمر الدمع الذي اغرورقت عيناه به.

عندها شد فا شيان الرحال إلى الوطن. لم يذهب بالبر وإنما ركب البحر. وكان اختياره للبحر اختياراً وجيهاً لجأ إليه كثيرون غيره فيما بعد. كان الطريق البري خادعاً وصعباً، رغم ذلك الترحيب الحار الذي لقيه الحجاج في رحلتهم التي استمرت ست سنوات إلى أواسط الهند. إلا أن طريق التوابل في تلك الفترة كان لايعانى من تلك الفوضى التي عمت النصف الشرقي من طريق الحرير. والواقع أن الفرس اردادوا قوة فجعلوا طريق التوابل طريقاً تجارياً ذا أهمية متعاظمة. وكان جنوب الصين أيضاً مقصداً منطقياً للمسافرين. فها هو يصبح القاعدة الأساسية للثقافة الصينية لأول مرة في التاريخ.

وبذلك يكون فا شيان قد أكمل دورته العظيمة في آسيا بعودته إلى العاصمة الصينية الجنوبية نانكنج ليكتب مذكراته وينقل للآخرين ما تعلمه عن البوذية. ورغم أن الدين ظل دين أقلية في الصين، فكثيراً ما كان يحظى برعاية ملكية قوية، مما أوحى ببناء المعابد الكهوف التي اتسمت بضخامة حجمها وروعها في أنحاء الصين، كتلك التي أقيمت بالقرب من لونجمن وتونهووانج. وفي شمال غربي الصين، وهو الإقليم الأكثر اتصالاً بآسيا الوسطى وطريق الحرير، كان ٩٠ في المائة من الناس بوذيين بحلول أواخر القرن الرابع.

ولم يكن عدد الحجاج الذين ساروا على خطى فا شيان كبيراً جداً. فقد اتجه عدد قليل من المسافرين من كل نوع، فيما عدا التجار، إلى آسيا الوسطى. وبعد تعرض الصين لغزوات متكررة، أصبح نفوذها ضعيفاً في حوض التاريم. وتخبرنا السجلات الإمبراطورية الشيء القليل عن «المناطق الغربية» في تلك الفترة. وكانت قوافل الحرير تسير بصورة غير منتظمة على الطرق القديمة (فيما عدا طريق لولان، الذي اشتد جفافه وهُجر بحلول القرن

الثالث). فكثيراً ما كانت تعاني من الأخطار وأعباء رسوم العبور والضرائب و«أموال الحماية» التي تدفعها لدول كثيرة على طول الطريق. إلا أن التجارة كانت على قدر من الأهمية جعل فارس والصين تبقيان على تبادل السفارات بصورة مباشرة. على الأقل لفترة امتدت بين القرنين الرابع والسابع.

في تلك القرون كان اهتمام بلاد فارس بالحرير عظيماً. والإمبراطورية الرومانية الشرقية باتت لديها رغبة لاتقاوم في الحصول على الحرير. وكان الحكام وأفراد الطبقة الأرستقراطية ورجال الدين والتجار يرغبون جميعاً في ارتداء ثياب من الحرير. وبعد أن ابتعدت الكنيسة المسيحية عن بساطتها الأولى، أخذت تستخدم الأستار الحريرية المزركشة، وكان الكثير منها مطرزاً بالذهب والفضة. كما أن الحرير صار يستخدم كأكفان في الطريقة المسيحية الجديدة لدفن الموتى. وحتى في السنوات الأولى بعد تأسيس القسطنطينية، كان في المدينة خمس نقابات لاتتعامل إلا في الحرير، كتجارة أو صناعة.

ولم تكن الإمبراطورية الرومانية الشرقية وحدها في حاجة ماسة إلى الحرير. فعندما اكتسبت القوات الشرقية العادات الصينية عن طريق اتصالها بالصين، أصبح الغزاة الأوروبيون يتذوقون نفائس الشرق. وفي سنة ٤٠٨ ميلادية، عندما حاصر القوط الغربيون روما، طالب قائدهم ألياريك (ونال ما طلب) المدينة بدفع فدية قدرها ٤ آلاف سترة من الحرير، بالإضافة إلى ٥ آلاف رطل من الذهب و٣ آلاف رطل من الفضة و٣ آلاف رطل من الفلفل الأسود و٣ آلاف قطعة جلد مصبوغة باللون الأحمر الزاهي. وكما هو حال الصينيين في آسيا، وجد الرومان أن دفع الرشاوى من أجل السلم كان أمراً مفضلاً في كثير من الأحوال مقابل الحماية العسكرية. وعندما استقر الغزاة، استمر طلب رجال الدين والقصور الملكية في أوروبا على السلع الشرقية، بغض النظر عما قد تكون عليه حالة العامة من شظف.

وبينما احتكر الفرس تدفق الحرير براً عبر الهضبة الإيرانية، كان الرومان في وضع يسمح لهم بأن يكونوا الموردين الوحيدين إلى أوروبا. ولكي يؤكدوا أنهم كذلك، عقدوا مع الفرس اتفاقيات فرضت قيوداً صارمة على تجارة الحرير. وهكذا اتفقت القوتان سنة ٢٩٧ على أن تكون سوق الحرير الرسمية الوحيدة في غرب آسيا في مدينة نصيبين الفارسية شمالي بلاد ما بين النهرين على الطريق الذي يبدأ عند همدان. وفي سنة ٤٠٨ أكدت اتفاقية

أخرى القيود المفروضة على تجارة الحرير، إلا أنها أضافت مدينتين آخرين هما كالينيكوم، وهي مدينة رومانية على الضفة الغربية لنهر الفرات على طريق الصحراء الكبرى بين بلاد ما بين النهرين السفلى وأنطاكية، وكانت الثانية أرتكساتا (أرتشات)، التي حلت محلها فيما بعد دوبيوس (دوفين) في الطريق المار في أرمينيا، وهو طريق ازداد أهمية مع قيام الإمبراطورية الرومانية الشرقية. أما الطرق التي تقع في الصحراء السورية فقد هجرها الكثير من قوافل الحرير. ومن أسباب ذلك أن الأرض أصبحت أكثر جفافاً وخطورة من ناحية، كما أنه لا الرومان ولا الفرس كانت لديهم الرغبة في مشاركة العرب في التجارة الشرقية (وكان بعض العرب قد نجحوا في الوصول إلى طريق التوابل). علاوة على أن الحكومة الرومانية اتبعت سياسة فاشلة لم تلق أى استحسان، تتعلق بتحديد الأسعار، حين حدد الإمبراطور ديوقليسيان سعراً ثابتاً للحرير الخام سنة ٣٠١.

وعندما انهارت روما وأصبحت القسطنطينية المقصد الرئيسى للحرير الصينى، أخذت المدن السورية والفينيقية، وهي موطن أجيال من النساجين والصباغين، تخرج شيئاً فشيئاً عن الطريق. وأُصيبت الصناعة السورية بضربة موجعة سنة ٣٦٠، عندما نقل الفرس الذين حكموا سوريا فترة من الزمن الكثير من النساجين والصباغين إلى الورش الإمبراطورية في بلاد فارس حيث تولوا نسج وصباغة الكثير من الحرير الذى اتجه إلى الإمبراطورية الرومانية الشرقية. واعتباراً من القرن الخامس الميلادى، أدار الرومان البيزنطيون ورشهم الإمبراطورية الضخمة التى أطلقوا عليها gynaecea (ومعناها أعضاء التأنيث فى الزهرة)، لأن من يعملون فيها كانوا جميعاً من النساء. وما إن تقبل هؤلاء النساجات العمل ويتدربن على مهنة نسج الثياب والأستار المزركشة لعملائهن الأرستقراطيين، حتى يصبحن أسيرات بحق ولا يُسمح لهن بترك عملهن.

أما التجار والنساجون المستقلون فى أنحاء الإمبراطورية فكانوا يعانون من ظلم شديد، حيث كان موظفو الحكومة (commercarii) يشترون للورش الإمبراطورية (gynaecea)، معظم الحرير المتوافر فى الأسواق المحددة تاركين القليل للقطاع الخاص. كما صار استخدام الصبغة الأرجوانية قاصراً على الصباغين الإمبراطوريين فى القسطنطينية، مما جعل الصباغين فى صور وغيرهم من الصباغين الفينيقيين عاجزين عن ممارسة حرفتهم، خشية أن يُحكم عليهم بالموت. وفى سنة ٣٦٩ حُرِّم كثيرون من النساجين السوريين من الاستفادة بمهاراتهم عندما قُصر نسج الديباج - وهو من خيوط الذهب المنسوجة مع الحرير - على الورش الإمبراطورية سواء فى القسطنطينية نفسها أم فى بضعة مواقع اختُصت بذلك.

إلا أن المصانع الحكومية والمصانع الخاصة على حد سواء عانت من الحروب المتعاقبة بين الفرس والرومان، حيث كانت واردات الحرير تنقطع تماماً. وكان ذلك يحدث في بعض الأحيان بسبب الاختلاف حول السعر الصحيح للحرير. وبلغ الأمر بالفرس سنة ٥٤٠ أن غزوا سوريا، حيث نهبوا مدينة أنطاكية وأحرقوها. وعندما استعيد ما سمي بـ«السلام الدائم»، رفع الفرس أسعار الحرير الخام، في حين حاول الرومان إبقاء الأسعار على ما هي عليه. ويشرح لنا المؤرخ الروماني پروكوبيوس ما حدث:

منع [الإمبراطور] جوستينيان^(١) بيع [شراء] الحرير بما يزيد على ٩ كبريزو للرطل. وهو إجراء غير منطقي أو عملي، لكون هذا السعر دون ما يجب على التجار [الفرس] أن يدفعوه. وكانت نتيجة ذلك أنهم أحجموا عن التعامل في هذا الشكل من التجارة. كما أنهم سارعوا ببيع المخزون الذي تبقى لديهم سراً، لمن لمسوا لديهم رغبة قوية في ارتداء هذا القماش وكانوا على استعداد لتلبية رغباتهم، رغم كل العقبات.

وفي محاولة من الإمبراطورة تيودورا^(٢) (زوجة جوستينيان) لضرب السوق السوداء التي نشأت عن ذلك، جعلت تجارة الحرير تحت سيطرة أحد محاسبيها الذي «حقق ثروات ضخمة للإمبراطور، ولكنه اختص نفسه في الخفاء بمبالغ تزيد عما أعطاه للإمبراطور». كما أنه أوجد احتكراً ملكياً لتجارة الحرير كان له أثر مدمر، كما أوضح پروكوبيوس:

كل من مارسوا هذه التجارة، سواء في بيزنطة أم في غيرها، وسواء أكانوا يركبون البحر أم يسافرون بالبر، أضيروا بشدة من تلك التطورات. ففي المدن، بات كل من امتهنوا تجارة الحرير يسألون الناس الطعام. أما الصنّاع والعمال فكان مصيرهم الفقر. فما كان من الكثيرين إلا أن هاجروا والتجأوا إلى الفرس.

(١) يعرف جوستينيان الأول أو جوستينيان الأكبر. حكم الإمبراطورية البيزنطية من سنة ٥٢٧ إلى سنة ٥٦٥. وهو أحد أعظم أباطرة هذه الإمبراطورية. كان اسمه قبل توليه الحكم بثرورس سباتيوس. وكان لزوجته تيودورا دور مهم فيما قدمته له من دعم. وبعده حروب متكررة مع الفرس، قرر البيزنطيون شراء السلام منهم. اشتهر جوستينيان بتحسين القضاء وبناء كنيسة آيا صوفيا (Hagia Sophia) ومعناها باليونانية «الحكمة المقدسة» في اسطنبول. (المترجم).

(٢) يروي لنا پروكوبيوس أن تيودورا كانت في الأصل مدربة دبة في السيرك ثم عملت ممثلة ثم انحدر بها الحال فصارت مومساً. وقد عاشت فترة في الإسكندرية ثم عادت إلى القسطنطينية حيث تعرف عليها جوستينيان وتزوجها. وكان موت تيودورا سنة ٥٤٨ ضربة للإمبراطور حطمت شجاعته وأضاعته صفاء ذهنه وهدت قواه فأهمل شئون الدولة واهتم بشئون الدين. (المترجم).

وهكذا قُضى على صناعتى الصباغة والنسيج القديمتين فى الشرق الأدنى . أما البحارة ، الذين ظلوا طويلاً يأتون بواردات الحرير من موانئ الشرق الأدنى إلى الأنحاء المختلفة من البحر المتوسط ، فقد انهاروا وجعلهم اليأس يحرقون سفنهم .

وانتعشت صناعة النسيج فى بلاد الفرس من جديد بوصول النساجين والصباغين من السهول . وكان عمل النساجين السوريين من الدقة بحيث جعل بعض المراقبين يقسمون أن الحيوانات التى فى نسيجهم تبدو كأنها رسمت بالفرشاة . وكان لمهاراتهم تقدير خاص فى بلاد فارس ، التى تكثر فى نقوش نسيجها (التي تعكس جذور أهلها الذين جاءوا من آسيا الوسطى) الحيوانات . وهى غالباً ما تكون أزواجاً وتحيط بها الدوائر . فهناك الكباش والأفيال والأسود والعصافير إلى جانب الخيول (المجنحة أحياناً) . وهذه الأشكال المتشابكة ، التى كثيراً ما تُصور مع مذبح للنار أو شجرة ترمز للحياة ، كان لها تأثير ضخم على نقوش النسيج فى أنحاء أوراسيا . حيث انتقلت عن طريق القسطنطينية إلى أنحاء أوروبا . كما عبرت آسيا الوسطى إلى الصين ومن بعدها إلى اليابان .

إلا أن مشكلة التوريد عبر قفار آسيا الوسطى ظلت قائمة . فرغم قيام الفرس بتحسين الطرق فى المناطق الخاضعة لنفوذهم وإنشائهم المزيد من محطات القوافل وتوفير المزيد من مصادر المياه لقوافل التجار ، إلى جانب زيادة عدد نقاط التفتيش التى يتولى فيها مفتشو الجمارك وجباة الضرائب مراقبة التجارة المتجهة شرقاً وغرباً ، فقد استفحلت الفوضى فى الشرق .

واضطُر الهون البيض ، وهم بقايا الشيونج نو الذين كانوا قوماً عظاماً فى يوم من الأيام ، إلى الاتجاه غرباً تحت وطأة قوة جديدة فى آسيا الوسطى ، وهى الترك الذين سنسمع عنهم الكثير بعد قليل . فعندما جاء الهون البيض ليستريحوا على الجانب الغربى من جبال البامير ، كما فعل اليويه تشى قبل عدة قرون ، هددوا خطوط التجارة الفارسية . ورغم كون الرومان والفرس أعداء لدودين ، فقد عززوا تعاونهم التجارى بالقدر الذى يتيح للرومان تمويل إنشاء تحصينات جديدة أشد قوة على طول طريق الحرير فى الشرق ، وكذلك عند ممرات جبال القوقاز فيما وراء أرمينيا . وكان هدفهم من ذلك التصدى للهون .

وبالطبع لم يكن اعتماد الفرس على طريق الحرير وحده فى حصولهم على الحرير وغيره من البضائع الشرقية . إذ كانت تلك السلع تصل بلاد فارس عبر طريق البخور ، إما من الهند على الطريق الهندى العظيم ، أو بالبحر مباشرة عن طريق الخليج الفارسى . ورغم

ميلنا إلى الاعتقاد بأن الفرس كانوا قوماً لم يعتادوا ركوب البحر، فإنهم في تلك الفترة كانوا بحارة مهرة عرفهم الصينيون باسم «بو سه» وكانوا يتاجرون مباشرة مع الموانئ الصينية الجنوبية^(١). وعلى أقل تقدير يمكننا القول بأنهم استأجروا بحارة مهرة. وربما تذكر الفرس كيف نجح الرومان في التحايل على سيطرة البارثيين على الطريق البري باستخدام الطريق البحري. وفي بعض الأحيان كان الفرس يتاجرون بالقرب من بلادهم، في السوق الجزيرة تايرويان (التي سُميت بعد ذلك سيلان أو سريلانكا) قبالة الطرف الجنوبي لشبه جزيرة الهند. وهذا هو مقاله كوسموس إنديكوبليوستيس المراقب الروماني المعاصر:

كانت سفن كثيرة تأتي إلى هذه الجزيرة من الهند وبلاد فارس وأثيوبيا، وكانت هي بدورها ترسل الكثير من سفنها، لكونها في موقع متوسط. وكانت تايوريان تستورد الحرير والعود والقرنفل والصندل وغيرها من أماكن أخرى، هي تزينستا [الصين] وغيرها من البلدان، كل حسب إنتاجها.

إلا أن الرومان كانوا يشعرون دائماً بضيق من الاحتكار الفارسي. وقد حاولوا مراراً التحايل على الفرس (بالأخص عندما كانت تتوتر العلاقات الفارسية الرومانية، وهو الأمر الذي كان يحدث كثيراً). وكان قد حدث مع انهيار القوة الرومانية الغربية أن ظهرت، فيما يعرف حالياً بأثيوبيا، أمة تجارية مسيحية تسمى أكسوم^(٢). وأبحر أهل أكسوم (وهم من أصول عربية في معظمهم) من مملكتهم الواقعة على البحر الأحمر إلى سيلان، حيث تخصصوا في تجارة التوابل، بينما تركزت تجارة الفرس في الحرير. وكان الإمبراطور الروماني جوستنيان يأمل في إقامة تحالف مع أكسوم ضد فارس، مستغلاً في ذلك الدين المشترك الذي تدين به بلادهم. وبالفعل أبرم اتفاقاً يستطيع بمقتضاه تجار أكسوم شراء الحرير من سيلان وتسليمه إلى الرومان. إلا أن الأمر انتهى بعدم ورود أي كمية من الحرير. وربما يعود ذلك في الغالب إلى أن أهل أكسوم والفرس اقتسموا التجارة الشرقية فيما بينهم بشكل

(١) تحدث المؤلف الصيني لي شنج عن السفن الفارسية التي أتت إلى كانتون سنة ٦٧١. كما رأى المعلم البوذي فاج رابادي ما لا يقل عن خمس وثلاثين سفينة فارسية سنة ٧١٧ في سيلان التي أبحرت منها إلى كانتون. كما يذكر الزائر البوذي هوي تشاي زيارة البحارة الفرس الصين للتجارة سنة ٧٢٧. (المترجم).

(٢) تأسست مملكة أكسوم في القرن الأول الميلادي. وفي القرن الرابع دخل أهلها المسيحية. وحدث ذلك من خلال النفوذ الذي كان لليونان في بلاط ملوك أكسوم. وفي القرن السادس الميلادي استولى حكام أكسوم على أجزاء من جنوب الجزيرة العربية ولكن الفرس طردوهم منها. وبعد الفتح الإسلامي قطعت تجارتها في البحر الأحمر. وانهارت المملكة بعد ذلك باجتياح قبائل البدو لها. (المترجم).

ودى، ولم يشأ أهل أكسوم أن يفسدوا الترتيبات التجارية من أجل حظوة الرومان غير المؤكدة.

وفى تلك المرحلة بدأت جماعة دينية أخرى تبرز فى قصة طريق الحرير، وربما تقدم حلاً جزئياً لحاجة البيزنطيين الشديدة إلى الحرير. فرغم اعتناق الإمبراطور الرومانى رسمياً للمسيحية كدين للدولة فى القرن الرابع، لم يكن هناك بعد اتفاق بين أتباع المسيح على النقاط الأساسية للعقيدة. وفى الربع الثانى من القرن الخامس كان زعيم مسيحي يدعى نسطور، وهو أسقف القسطنطينية وموطنه الأصلى أنطاكية، متحدثاً بارزاً باسم وجهة النظر التى تقول إن المسيح كان شخصين، إلهاً وإنساناً، لكل منهما صفاته المميزة، ولكنهما متداخلان تداخلاً لا انفصال له. كما قال إن مريم هى أم الإنسان لا الإله. وفى مجالس الكنيسة^(١) التى كانت تضع القوانين فى القرن الخامس، اعتُبرت وجهة النظر هذه كفرًا. وهكذا نُفى نسطور ثم توفى سنة ٤٥١. إلا أن بعض أتباعه، وأغلبهم من مدن سورية مثل أنطاكية والرها، بدأوا رحلة طويلة نحو الشرق ليصلوا فى نهاية الأمر إلى الصين.

وجد اللاجئون المسيحيون النسطوريون ملجأ لهم فى ظل الحكم الفارسى، حيث أسسوا مدرسة لاهوتية فى نصيبين، مركز الحرير الفارسى، ومن ثم نشروا مذهبهم فى أنحاء فارس التى اعتنق مسيحيوها وجهة النظر النسطورية شيئاً فشيئاً. وكان كثيرون من هؤلاء المهاجرين أناساً على قدر كبير من العلم. فكان منهم، على سبيل المثال، الأطباء المهرة الذين ساهموا مساهمة كبيرة فى الثقافة الفارسية. إلا أن وجودهم فى الهضبة الإيرانية كان مزعزعا. ففى عهد بعض الحكام كان المسيحيون واليهود والمناويون وغيرهم يعاملون بتسامح، رغم أن غالبية الفرس كانوا يؤيدون الزرادشتية بقوة، بل ويشجعون عودة إحدى الديانات الإيرانية القديمة، وهى المزدكية. وكان أحد ملوك الفرس، وهو متزوج من يهودية، يتخذ موقفاً طيباً من أتباع المسيح، حتى أنهم أطلقوا عليه «الملك المسيحي»^(٢). إلا أنه فى عهود أخرى

(١) أوعز الإمبراطور الرومانى تيودوسيوس إلى الأساقفة أن يعقدوا هذا المجمع المسكونى فى مدينة إفسوس برئاسة الأنبا كيرلس من مصر ممثلاً لكل كنائس أفريقيا. كان كيرلس معارضاً لمذهب نسطور، إذ كان يقول بطبيعة واحدة للمسيح، هى الألوهية. ولم ينتظر كيرلس وصول أساقفة أنطاكية وعقد المجمع بدونهما وصدر قرار بسحب بدعة نسطور وعزله وحرمانه من الدين المسيحى. ولم تفلح مساعى خصوم كيرلس الذى سجنه الإمبراطور ثم أفرج عنه ليعود إلى الإسكندرية. (المترجم).

(٢) يقول الدكتور عبدالوهاب عزام فى تحقيقه لكتاب «الشاهنامه» للفردوسى إن «يزجرد الأول (٣٩٩ - ٤٢٠) ... كان ملكاً مسلماً يكره الحرب ... وقد سالم المسيحيين فى بلاد الفرس وأحسن إليهم ... وقد جاءه مروثا ... أسقف العراق ثم داوى الملك من علة كانت به فحظى عنده، وقوى سلطانه عليه حتى أمر سنة ٤٠٦م أن يمكن المسيحيين من العبادة جهاراً ومن إعادة كنائسهم، بل اضطهد المجوس فى هذا السبيل. ولعل المجوس لقبوه الأئيم الحشن من أجل سيرته فى محاسنة النصارى ومخاشنة المجوس ...» (المترجم).

استفحل فيها الخوف من الأجانب، لقيت الأقليات الدينية اضطهاداً شديداً. ولم يكن أحد يثق في المسيحيين، لأن مركز الكنيسة كان في الإمبراطورية الرومانية، رغم تحلل الكنيسة المسيحية في إيران، وتسمى كذلك الكنيسة الفارسية، من أى شيء يربطها بالرومان في منتصف القرن الخامس. وكان الشعور المتكرر بعدم الأمان لدى هؤلاء النسطوريين أو المسيحيين الفرس، إلى جانب الحماسة التبشيرية، سبباً دفعهم إلى الاتجاه شرقاً إلى آسيا الوسطى.

وهناك احتمال كبير أن يكون الغرب قد عرف سر تربية دود القز في نهاية الأمر من بعض مسيحيي آسيا الوسطى هؤلاء. ويقول بروكوبيوس:

... وصل بعض الرهبان من [بلد] الهند، وعندما علموا أن الإمبراطور جوستينيان عقد العزم على ألا يشتري الرومان الحرير من الفرس بعد ذلك، جاءوا إلى الملك ووعدوه بأن يحققوا أمراً بشأن الحرير بحيث لا يضطر الرومان إلى شراء هذه السلعة من الفرس أو من أى أمة أخرى. فقد عاشوا زمناً طويلاً في بلد كانت فيه أقوام كثيرة من الهند ويسمى سيريندا. وأثناء وجودهم هناك أصبحوا على علم تام بالطريقة التي يمكن بها إنتاج الحرير في الأراضي الرومانية.

ويروى مؤرخ روماني آخر هو تيوفانيس الذي عاش في القرن السادس قصة مشابهة، وإن كان بها اختلاف طفيف:

وفي عهد جوستينيان عرض فارسي في بيزنطة الطريقة التي يفقس بها دود [الحرير]، وهو أمر لم يكن الرومان قد عرفوه من قبل. فعندما قدم هذا الفارسي من بلاد سيريس أتى معه ببيض هذا الدود [وقد أخفاه] في عكاز، ونجح في إحضاره سليماً إلى بيزنطة. وفي بداية الربيع وضع البيض على أوراق القوت، وهي غذاؤه. وبعد أن تغذى الدود على هذا الورق تحول إلى حشرات مجتحة قامت بعملياتها الأخرى. وبعد ذلك، عندما عرض الإمبراطور على الترك الطريقة التي يفقس بها البيض والحرير الذي أنتج، كانت دهشتهم عظيمة.

وهناك احتمال كبير أن تكون سيريندا، التي تعلم فيها من قدموا المعروف لجوستينيان أسرار تربية دود القز، هي مدينة خوتان الواقعة على الحافة الجنوبية للتياريم. فقد تأثرت

زمناً طويلاً بكل من الصين والهند. ومن ثم يحتمل أن تكون هي المقصودة. (يرشح البعض مواضع أخرى أقل إقناعاً، مثل كاشغر، بل أيضاً مواضع على الطريق البحري مثل كمبوديا). ولكن إذا كان افتراضنا صحيحاً، فكيف تعلم أهل خوتان طريقة صنع الحرير، بينما ظل الصينيون يحفظون السر لما يربو على الألفى سنة؟ ويبدو أن الإجابة موجودة في الحوليات الصينية. فطبقاً لما ترويهِ إحدى القصص، اختُرِق أمن تربية دودة الحرير في الغرب حوالي سنة ٤٠٠ ميلادية على يد أميرة صينية أرسلت للزواج من أحد أمراء خوتان، في إطار نمط التحالفات القديم والمستمر عن طريق الزواج. (يبدو أن اليابانيين كانوا قد عرفوا السر حوالي سنة ٢٠٠ ميلادية).

يروى لنا شيوان تسانج، وهو حاج صيني كان مسافراً في التاريم بعد قرنين، كيف كان الناس في خوتان يذكرون هذا الحدث:

قديماً لم يعرف هذا البلد شيئاً عن أشجار التوت ودودة القز، وعندما سمعوا أن البلد الشرقي [الصين] يمتلكها، أرسلوا سفارة للبحث عنها. وفي ذلك الوقت كان أمير المملكة الشرقية يحتفظ بالسر ولا يقبل البوح به لأحد. وكان يحمي أرضه ولا يسمح لمخلوق بأن يرحل معه بذور التوت أو بيض الدود.

وخرج ملك كوستانا [خوتان] سعياً للزواج من إحدى أميرات المملكة الشرقية، كتعبير عن ولائه وخضوعه. حقق الملك رغبته. بعد ذلك أرسل ملك كوستانا رسولاً لمصاحبة الأميرة الملكية وأعطى التوجيه التالي: «تحدث هكذا إلى الأميرة الشرقية: بلدنا ليس فيه حرير أو أقمشة حريرية. ويفضل أن تأتي معكِ بعض بذور التوت ودود القز، كي يمكنكِ صنع أثواب لنفسكِ».

وعندما سمعت الأميرة تلك الكلمات، جمعت بذور التوت وبيض دود القز وأخفتها في غطاء رأسها... وعند الحدود بحث الحارس في كل مكان، إلا أنه لم يجرؤ على رفع غطاء رأس الأميرة.

وهكذا وصلت أسرار تربية دودة القز إلى المناطق الغربية. إلا أن الأميرة الصينية حمت وطنها حتى ذلك الوقت: فيبدو أنها لم تُبلِّغ مواطنيها الجدد أنه لابد من قتل الفراشة قبل أن

تثقب الشرنقة وتقطع الخيوط. وطبقاً لما قاله الرواة من خوتان، فقد فعلت العكس وأكدت على عدم وجوب قتل الفراشة:

... كتبت الملكة المرسوم التالى على أحد الأحجار: «ليس مسموحاً بقتل دودة القز! بعد خروج الفراشة يمكن قتل الحرير [من الشرنقة]. ومن يخالف هذه القاعدة قد يحرم من الحماية السماوية».

ورأى تيوفانيس أن دود القز الذى جىء به إلى بيزنطة تحول إلى حشرات مجنحة. وإذا كان الأمر كذلك، فإن الحرير الذى يؤخذ من الخيوط الممزقة سيكون من نوع أردأ كثيراً. وأنتج الرومان حريرهم، لكنهم ربما لم يستطيعوا معرفة تخليص الخيوط المتصلة اللازمة للحصول على حرير فاخر. وعلى أية حال، لم تكن لديهم المهارات التى اكتسبها الصينيون على مر القرون. لذلك فإنه حتى مع تطور صناعة الحرير لدى الرومان، فإنهم كانوا لا يزالون فى حاجة شديدة إلى حراير الصين الرقيقة.

فى ذلك الوقت اتجه تفكير الرومان إلى إمكانية استخدام طرق برية أخرى. وبما أن الهضبة الإيرانية كانت مغلقة فى وجههم، اتجهت أنظارهم إلى سهوب أوراسيا التى يمكنهم بلوغها بسهولة من نقاطهم التجارية المتقدمة على البحر الأسود، حيث وجدوا آخرين لديهم فكرة مماثلة.

وهناك فى آسيا الوسطى، كان الترك الذين بدأ شأنهم يعلو قد اضطروا الهون البيض للتحرك نحو الهند. وفى أوائل القرن السادس كان هؤلاء الترك، ويشير اسمهم إلى الخوذات التى كانوا يلبسونها وترمز إلى القوة والمهارة فى صنع المعادن، ما يزالون خاضعين للأفار^(١) (ويعرفون فى الشرق باسم چوچان). وفى سنة ٥٥٢ طرد الترك الأفار إلى أوروبا ونصبوا أنفسهم حكاماً لمنغوليا. وكان توسعهم سريعاً، وخاصة نحو الغرب. وبحلول سنة ٥٦٥ كانوا قد أقروا سلطانهم على نهر جيحون، حيث صارت مدن طشقند وبخارى وسمرقند وغيرها من مراكز القوافل الرئيسية فى تركستان، وهو الإقليم الذى استمد اسمه منهم، فى قبضتهم. وتشيد إحدى القصائد التركية، التى يعود تاريخها إلى سنة ٧٣٢، أى بعد قرنين تقريباً، بهذا النجاح المدهش:

(١) يرى بعض العلماء أنهم من الجنس السلافى ويرى آخرون أنهم ينحدرون من أصول أوغروفيينية، بينما يتفق عدد كبير منهم على أنهم من الشعوب التركية. (المترجم).

عندما فُطرت السماء الزرقاء فى الأعالي والأرض المظلمة أسفلها، خُلِق بين الاثنين أبناء البشر. وفوق أبناء البشر برز الخاقان [الخان]... وبعد أن صاروا السادة، حكموا مؤسسات الشعب التركى وإمبراطوريته. وكان لهم أعداء كثيرون فى كل أنحاء الأرض. ولكن بعد إرسالهم الحملات ضد أعدائهم، استعبدوا شعوباً كثيرة فى أنحاء الأرض وجعلوها مسالمة. إذ أجبروها على أن تحنى الجباه وأن تركع. وبذلك أمكننا العيش بين جبال خنجان فى الشرق والبوابات الحديدية فى الغرب. وكان كل ما بين هذين الموضعين خاضعاً لنفوذ الترك الزرق!

وكان ذلك الخليط، الذى كان يضم وقتها الشيونج نو القدماء وكثيراً من الشعوب الهندوأوروبية فى السهوب الأوراسية، هو الشعب الذى كانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية ترغب فى التعامل معه.

وكان الترك قد أقاموا تحالفاً مؤقتاً مع الفرس أثناء قتالهم مع الهون البيض. ولكن يبدو أن الفرس صاروا يخشون نفوذ حليفهم السابق، وكان معهم الحق فى ذلك. وعلى الفور أغلق الفرس طريق الحرير البرى، ربما لأنهم كانوا يخشون احتمال أن يكون التجار الصُغد جواسيس لسادتهم الجدد، الترك. وحاول هؤلاء الصُغد، الذين كانوا يتعيشون من تجارة الحرير، سدى أن يقنعوا الفرس بفتح الطريق من جديد. ويقول المؤرخ الرومانى ميناندر فى القرن السادس:

... توصل الصُغد إلى الملك [التركى] كى يرسل سفارة إلى الفرس، للحصول على إذن يسمح لهم بنقل حريرهم إلى بلاد فارس لبيعه هناك.

وافق الخان التركى ديزابلو على ذلك وأرسل زعيم الصُغد مبعوثاً منه. وكان هذا الرجل يدعى مانياه (أى شقيق ماني) ويدل اسمه على أنه كان من أتباع المانوية.

تأخر كسرى أنوشروان ملك الفرس فى الرد على السفارة. ولكن حدث أن مستشاراً من الهون البيض فى البلاط الفارسى:

... حث الملك الفارسى على السماح للحرير بالمرور بحرية، لا لشيء

إلا لتسعيه وشرائه بالكامل والأمر بحرقه في وجود السفراء. وسوف يبدو، رغم عدم اقترافه شيئاً من الظلم، أنه لا حاجة له إلى حرير الترك. وهكذا ألقى بالحرير في النار وعاد السفراء إلى بلادهم وهم غير راضين عما أسفرت عنه رحلتهم.

ورغم ذلك كان ما يزال لدى الترك بعض الأمل، فأرسلوا سفارة أخرى إلى البلاط الفارسي. ولكن ميناندر يقول:

... توصل الوزراء الفرس و [المستشار الهوني الأبيض] إلى أنه ليس في مصلحة الفرس أن تربطهم بالترك علاقات ودية، إذ لا ينبغي لأحد أن يثق في جنس السيث قاطبة. لذلك أمر بقتل بعض السفراء بالسم، منعاً لإرسال المزيد من هذه البعثات. وبناءً على ذلك قُتل كل المبعوثين الترك، عدا ثلاثة أو أربعة، بسم زعاف دُس في طعامهم. بينما أمر الملك [كسرى أنوشروان] بأن يُشاع بين الفرس أن السفراء الترك ماتوا بسبب المناخ الفارسي ذي الحرارة الجافة الخانقة، لأن بلادهم لا تعيش إلا في المناخ البارد.

ولكن ميناندر يقول إن «ديزابول [كان] إنساناً فطناً سريع البديهة غير جاهل بحقيقة الأمر».

وبينما كان الرومان أنفسهم يبحثون عن طريق برى شمالي، كان الترك مضطرين لأن يفعلوا الشيء نفسه. وهنا اقترح مانياء الصغد، وهو زعيم شعب يعمل بالتجارة، على ديزابول أنه:

... سيكون من مصلحة الترك أن يصادقوا الرومان وأن ينقلوا مبيعات الحرير إليهم، باعتبار أنهم يستهلكونه أكثر من أي قوم آخرين.

ومع أن سفارة مانياء كانت تحت أعين الجواسيس، فهي لم تصادف أي عقبات، حيث إن الترك باتوا يسيطرون على السهوب الأوراسية الشمالية غرباً حتى بحر آزوف إلى الشمال من البحر الأسود. كما كان بإمكانهم الوصول إلى المراكز الرومانية في شبه جزيرة القرم. وفي سنة ٥٦٨ وصلت بعثة مانياء إلى البلاط الروماني في القسطنطينية «حاملة التحية وهدية ثمينة من الحرير ورسائل إلى الإمبراطور الروماني».

ولنا أن نتخيل الشغف الذى استمع به الإمبراطور الرومانى للوعود الخاصة بتجارة الحرير السلمية مع الترك. وبعد أن قامت «الصدّاقة والتحالف» بين الأمتين، أرسل الرومان بدورهم زيمارخوس إلى الخان مع البعثة التركية عند عودتها إلى بلادها. وتقدم لنا روايته كما أوردها ميناندر صورة نادرة لشعوب آسيا الوسطى فى تلك الفترة. وبعد «مسيرة أيام كثيرة» وصلت البعثة إلى بلاد الصغد. وهناك التقوا ببعض الترك، الذين اشتهروا بمصنوعاتهم الحديدية، فعرضوا بعض الحديد للبيع. ويستمر ميناندر قائلاً:

بعض أفراد القبيلة الآخرين.... الذين قالوا إنهم يبعدون نذر الشؤم، جاءوا زيمارخوس وأخذوا كل أمتعة البعثة ووضعوها فى الوسط. بعد ذلك أخذوا يدقون ناقوساً ويقرعون نوعاً من الطبول فوق الأمتعة، فى حين جرى حولها بعضهم وهو يحمل أوراقاً من البخور المحترق الذى كان يتأجج ويطلق وكانوا يأتون بحركات سريعة كالمجانين وهم يشيرون بأيديهم كأنهم يدفعون أرواحاً شريرة. وبعد أن انتهوا من عملية طرد الشر، كما يرونها هم، جعلوا زيمارخوس نفسه يمر فى النار، وفعلوا هم أيضاً الشيء نفسه فيما يبدو أنه عملية تطهير لأنفسهم.

وهذا النوع من طقوس التطهير ظل يقوم به المسافرون من الترك لقرون طويلة. وبعد ذلك مضت البعثة «مع هؤلاء الذين عِينوا لاستقبالها» إلى معسكر ديزابول الذى يبدو أنه كان فى مكان ما من السهوب شرقى نهر سيحون، ربما على مقربة من عمر جونغاريا.

وما وجده زيمارخوس هناك يُعد شهادة مؤكدة على الثراء الذى أحدثته تجارة الحرير بين شعوب الشرق والغرب، ولولاها لكانت تلك البقاع قفاراً:

ما إن وصلت بعثة زيمارخوس حتى استدعيت لمقابلة ديزابول، الذى وجدته فى خيمته جالساً على كرسى ذهبى ذى عجلتين يمكن أن يجره حصان واحد عند الطلب... وكانت هذه الخيمة بها ستائر متعددة الألوان مطرزة بأسلوب فنى... [وكانت] خيمة أخرى مزينة بطريقة مشابهة بستائر ثمينة من الحرير مطرزة عليها أشكال مختلفة الأنواع. وكان ديزابول جالساً على أريكة من الذهب وفى وسط الخيمة كانت أوانى الشرب والأباريق والقوارير الضخمة، وكلها من الذهب...

[وكانت] خيمة [أخرى] بها أعمدة خشبية كُسيت بالذهب وعرش مذهب يقوم على أربعة طواويس ذهبية. وأمام مكان الاجتماع كان هناك طابور ضخم من العربات التي كانت بداخلها كمية هائلة من الأشياء الفضية عبارة عن صحون وصحاف إلى جانب العديد من تماثيل الحيوانات المصنوعة من الفضة التي لا تقل في شيء عما لدينا. إلى هذا الحد بلغ ثراء الملك التركي!

وهكذا أكمل زيمارخوس، وهو أول أوروبي منذ أريستياس يسافر إلى قلب السهوب الأوراسية ويعود منها حسب علمنا، التبادل الدبلوماسي بين الرومان والترك. وقد ضاع جزء من تأريخ ميناندر، ولكن يبدو أن زيمارخوس لحق بالترك عندما حلوا خيامهم واتجهوا غرباً إلى مدينة تالاس الغربية. وعندما اتجه الترك إلى الجنوب الغربي عبر نهر سيحون لمهاجمة الفرس، اتجه زيمارخوس وصحبه إلى الشمال الغربي عائدين إلى بلادهم، حيث أرسل رسولاً سريعاً يدعى جورج يصحبه اثنا عشر تركيا عبر أقصر الطرق «كى يُبلغ الإمبراطور [الرومانى] بعودة البعثة من بلاد الترك». ولم يعد زيمارخوس ومن بقى معه من هذا الطريق، لأنه «كان بلا ماء وفي صحراء جرداء». وبدلاً من ذلك «ساروا لمدة ١٢ يوماً على رمال شواطئ البحيرة [بحر آرال]»، وعبروها عند «بعض الأماكن شديدة الصعوبة»، ثم اتجهوا إلى شمالي بحر قزوين وعبروا نهري أورال والفولجا (وأطلقوا على الثاني اسم آتيل)^(١). وبعد أن دارت السفارة العائدة حول بحر قزوين سارت في جبال القوقاز حيث حذرها الحلفاء من أن «٤ آلاف فارسي يكمنون [انتظاراً] لإلقاء القبض على البعثة عند مرورها». وللتحايل على هذا الحظر، اتجه زيمارخوس إلى الساحل الشرقي للبحر الأسود «ومنه إلى طرابزون التي توجه منها إلى بيزنطة».

وكانت التجارة بين الرومان والترك تسير عبر هذا الطريق تقريباً لمدة عشر سنوات تقريباً، لم تخل من المزيد من محاولات الفرس للتدخل، إلى أن انهار التحالف عند موت ديزابول وانتشرت موجة من الشعور العدائي.

إلا أنه خلال تلك الفترة الوجيزة بدأ الرومان يسمعون الحكايات عن تلك الأرض العظيمة الواقعة شرقي بلاد الترك، وهي أرض تسمى توجاس وكان يطلق على حاكمها لقب ابن الإله. وهناك بعض الشك في أن توجاس هذه هي الصين. إذ يحتمل أن تكون

(١) ذكر في المصادر العربية «أتل» و «أتل». (المترجم).

كلمة تركية معناها «وى العظيم» (أسرة حاكمة صينية فى تلك الفترة) وأن «ابن الإله» هو الإمبراطور الصينى «ابن السماء». غير أن المعارف الجغرافية كانت قد انحدرت إلى حالة لم تسمح للرومان بالربط بين توجاس وأرض الـ«سيريس» والـ«سينى»، رغم أنه قيل أن توجاس بلد عظيم أثرى من التجارة ويتمتع بمهارة فائقة فى تربية دودة القز التى «تمر بتحويلات كثيرة وتأخذ ألواناً عديدة».

وتعد كتابات تيوفيللاكتوس سيموكاتا من القرن السابع نموذجاً للخلط بين الرواية الواقعية والتلفيق الخيالى، الذى تميزت به كتابات العصور الوسطى على نحو كبير. فعلى سبيل المثال ذكر تيوفيللاكتوس:

... إنهم يقولون أن الإسكندر المقدونى أسس مدينة توجاس هذه بعد أن استعبد أهل بلخ والصفد وأحرق اثنى عشر ألفاً من البرابرة.

وظلت الحكايات المتعلقة بمآثر الإسكندر تجوب آسيا عدة قرون. وكان الرومان وحدهم من يسعدهم تصديقها، حيث إن تراثهم كان فى واقع الأمر يونانياً أكثر منه رومانياً. بل إنهم نسبوا إلى الإسكندر تأسيس المدينة التى يطلق عليها تيوفيللاكتوس اسم خوبدان، وهى مدينة «بها نهران عظيمان يجريان فى أرضها وتنمو على ضفافهما أشجار السرو المائلة»، وهو ما يبدو أنه إشارة إلى تشانج آن. إلا أن أى أمل فى الاتصال المباشر بين الرومان والصينيين، وهو ما كان سيكشف عن حقيقة توجاس، قد تحطم بانهيار التحالف مع الترك.

واحتفظ الفرس باحتكارهم للتجارة على طريق الحرير وحققوا ثروات ضخمة من ذلك. وعن طريق مالىديهم من صناعة وما اكتسبوه من الصناعات الموهوبين الذى جاءوا من السهول، أصبح الفرس منتجين مهرة، خاصة فيما يتعلق بالمنسوجات. إلا أن ثروتهم كانت لاتزال كامنة فى التجارة بين الشرق والغرب التى جندوا لها النظام النقدى والمصرفى. ويعود الفضل إلى الفرس، بمساعدة اللاجئين اليهود الذين فر بعضهم (كما فعل النسطوريون) من اضطهاد المسيحيين، فى ابتكار استخدام الكميالة، وهى أصل الشيك الذى نستعمله حالياً (وهو أيضاً اصطلاح أصله فارسى). وعُرفت الكميالة على طريق الحرير طوال ألفى سنة تقريباً، إلا أنها صارت تستخدم على نطاق واسع وبشكل حديث. ونقل التجار السوريون هذه الكميالة، التى تعلموا استخدامها فى تجارة الحرير، إلى أوروبا حيث أصبحت بعد عدة قرون الأساس الذى قام عليه الهيكل المصرفى ذو الأهمية الكبرى فى عصر النهضة الإيطالية.

غير أن سيطرة الفرس على تجارة الحرير لم تدم طويلاً. ذلك أنه إذا كان الرومان عجزوا عن صنع حرير أشبه بأفخر البضائع الصينية، فإنهم سرعان ما تعلموا كيف يصنعون حريراً من نوعية مقبولة. وظل الطلب قائماً على الحرير الصيني لعشرات السنين، بل لقرون. إلا أن الصين لم تعد المصدر الوحيد لما يرد منه. ولم تكن تربية دودة القز الغربية قد قامت في العاصمة القسطنطينية، كما قد نظن، وإنما في مدن النسيج التقليدية في سوريا. وازدهرت مدن صور وصيدا وبيروت من جديد وصارت مراكز كبرى لتربية دودة القز وغزل خيوط الحرير. كما انتعشت صناعة النسيج أيضاً، وخاصة في دمشق. واستمرت هذه المدن في ازدهار وكانت توفر احتياجات كل من الإمبراطورية البيزنطية وأوروبا طوال القرون التالية، حتى بعد أن تحولت فيما بعد من بلاد مسيحية إلى بلاد مسلمة.



ربما يكون تدفق الحرير المستمر من الصين أحد ملامح طريق الحرير المدهشة في تلك الفترة. ورغم أن شمال الصين كان هدفاً لغزوات متعاقبة من السهوب، فإن صناعة الحرير ظلت قائمة وتسيطر عليها كل حكومة جديدة، لكونها مصدر كثير من عائدات الدولة.

وفي الوقت ذاته استمر انتشار البوذية في الصين. وبينما سيطر الحكام الجدد على صناعة الحرير، اعتنق كثيرون البوذية. وفي أول الأمر اضطهدت أسرة وي، التي أسسها في شمالي الصين الغزاة الترك في أوائل القرن الخامس، البوذيين معلنة أن هذه الديانة «قضت على الأسرة». كما أنها، وهو الأخطر، أتاحت للرجال الهروب من الخدمة في الجيش. إلا أن بحلول سنة ٤٧١ أصبح الحاكم من أسرة وي بوذياً مخلصاً، حتى أنه تخلى عن العرش رغم كون ابنه ووريثه في الخامسة فقط من عمره. وتخبرنا الحوليات أنه «اعتكف في معبد أقيم بالحديقة الملكية بصحبة الرهبان المتأملين ورفض سماع أي أخبار خلاف أحداث الجاذبية الاستثنائية».

ورغم أن كثيراً ممن خلفوه من أسرة وي كانوا متعطشين للدم، شأنهم شأن أي بربري عتيق، فقد ظلوا متمسكين بالعقيدة البوذية. وفي أوائل القرن السادس على سبيل المثال، اشتهرت الإمبراطورة الأرملة هو بقتلها لعشاقها السابقين، بل وابنها أيضاً. ومع ذلك فقد دعت إلى إنشاء الكهوف البوذية^(١) الرائعة في لونجمن بالقرب من لويانج. وهنا، كما هو

(١) في البداية كان الرهبان البوذيون يقيمون في الكهوف التي استبدلت شيئاً فشيئاً بالأديرة المبنية وإن ظلت بعض الكهوف تُستخدم كصوامع للعبادة. (المترجم).

الحال فى كهوف الألف بوذا بالقرب من تونهوانج، حفر الفنانون المتدينون مئات الكهوف الصغيرة، التى قُصد بها أن تكون صوامع ومعابد للرهبان، فى الوجه الطفلى من الصخور. (لم يكن ذلك أمراً غريباً، حيث أدت ندرة الأخشاب أو الحجارة المتاحة للبناء إلى قيام الناس فى شمال الصين بحفر بيوتهم فى سفوح التلال الطفلية. بل إنه فى القرن العشرين عاش ماو تسى تونج وأتباعه قبل أن يتولوا السلطة فى بيوت من الكهوف فى تلك المنطقة). وفى كهوف كهذه وصل امتزاج الفن اليونانى والهندي إلى الصين فى صورته المكتملة، بعد أن تطور فى أفغانستان قبل ذلك بقرون. وهكذا فإن تماثيل بوذا، ومنها الضخم الذى يصل ارتفاعه إلى ١٠٠ قدم، وأكثرها صغير الحجم، حُفِظت فى صوامع الرهبان الصغيرة. وهى تحمل ملامح تذكرنا بأبولو اليونانى، حيث تبدو هيئة ملابسه للعالم أجمع مثل ثنيات العباءة اليونانية.

وأظهرت الإمبراطورة الأرملة هو تدينها بإرسال حاج يدعى سونج يون فى مهمة إلى الهند «لإحضار كتب بوذية»، واستمر تقليد مثل هذه الرحلات فى عهد أسرة وى. وتظهر رواية لرحلة سونج يون، وإن كانت تتخللها حكايات عن المعجزات والهدايا الدينية، فى «تاريخ معابد لويانج» حيث تقدم لنا لمحات سريعة عن طريق الحرير كما كان يبدو سنة ٥١٨ تقريباً. وكان اجتياز «الرمال المتحركة» فى الشتاء تجربة مريرة:

**كان البرد على طول الطريق قارساً، بينما كانت الرياح العاتية والثلوج
المنهمرة والرمال والحصى المندفعة بسرعة من الشدة بحيث بات من
المستحيل أن يرفع المرء عينيه دون أن تملؤهما.**

كان أول ما قصده سونج يون ورفاقه هو بلاد الترك الشرقيين. فقد اتسعت الإمبراطورية التركية فى آسيا الوسطى اتساعاً كبيراً مما أدى إلى انقسامها إلى قسمين. وكانت حاضرة الترك الغربيين بالقرب من إيسيك قول (وكان هؤلاء هم الترك الذين أقاموا تحالفاً قصيراً مع الرومان البيزنطيين وحاربوا الفرس) وتركز وجود الترك الشرقيين على نهر أورخون، جنوبى بحيرة بيكال، وهو الجزء الأساسى من منغوليا. وفى المعسكر المتنقل الذى اتخذته الترك عاصمة لهم، لاحظ سونج يون بوضوح التأثير الصينى الذى ظل موجوداً فى آسيا الوسطى، رغم عدم استمرار النفوذ الصينى. و«رموز الكتابة فى هذا البلد تكاد تكون نفس رموز وى»، إلا أنه أشار بحزن إلى أن «العادات واللوائح التى يتبعها هؤلاء الناس تتميز بكونها بربرية فى أغلبها (فهى تتبع قواعد البرابرة الخارجيين أو الأجانب)».

وكان من الطبيعي أن يسلك الحجاج الطريق الجنوبي عبر حوض التاريم، شأنهم شأن أى مسافرين متجهين إلى الهند. وعند شان شان وجد سونج يون أن الترك الشرقيين لهم حامية قوامها ٣ آلاف رجل تحت إمرة ضابط من الجيش مكلف بـ «تهدئة الأوضاع» في الغرب. وبعد ذلك كانت هناك مدينة أطلق عليها تسو موه تضم ١٠٠ أسرة تقريباً. وهو يشير إلى أن «هذا البلد لا ينزل فيه المطر ولكنهم يروون محاصيلهم من جداول الماء»، وإن كانوا «لا يعرفون استخدام الثيران أو المحارث في فلاحتهم». وفي المدينة التالية، وهى موه، وجد أن «الزهور والفواكه» تشبه تماماً تلك التى فى لويانج، وإن ذكر أن المباني و«المسؤولين الأجانب» مختلفون فى مظهرهم.

بعد ذلك، وفى مدينة هان مو، وجد معبدًا كبيراً فيه ٣٠٠ كاهن تقريباً وتمثال لبوذا يصل ارتفاعه إلى ١٨ قدماً. وتعارف الناس هناك على أن التمثال «جاء فى الأصل من الجنوب طائراً بنفسه فى الهواء». وقد طمع فيه ملك خوتان نفسه وأراد أن يأخذه لمعبده. «ولكن فى منتصف الطريق، عندما توقفوا ليلاً، اختفى التمثال فجأة». وطبقاً لما يقوله أهل البلد، فإن التمثال «عاد إلى مكانه القديم». وإحياء لهذه المعجزة:

بنى الناس فى العصور التالية أبراجاً حول هذا التمثال... وكانت جميعاً مزينة بعدة آلاف من الأعلام والبيارق المصنوعة من حرير مختلف ألوانه... ربما تبلغ ١٠ آلاف ويخص بلاد وى أكثر من نصفها.

وما لدى سونج يون عن خوتان قليل، حيث ينصب جل اهتمامه على حكايات اعتناق الملك القديم للدين الجديد. ولم يذكر لنا سوى أن المملكة كانت تمتد لمسافة ٣ آلاف لى من الشرق للغرب.

ومن هناك سار سونج يون وصحبه فى الجبال، حيث «العادات واللغة التى يتحدثها الناس تشبه تلك التى فى خوتان، إلا أن رموز الكتابة المستخدمة هى رموز البراهمة»^(١). وكونه يشير إلى الهند بـ «البراهمة» يعد اعترافاً بالتغيير الذى بدأ يحدث فى الهند. فموطن بوذا الذى كانت تهوى إليه أفئدة هؤلاء الحجاج المتدينون كان يتعد عن البوذية ويعود إلى الديانة الهندوسية القديمة التى يعد البراهمة أعلى طوائفها. (كان بسوذا يسعى إلى إصلاح الهندوسية بالابتعاد عن نظام الطوائف).

(١) نسبة إلى براهما وهو الإله الخالق فى الهندوسية. ويقال إنه خرج من بيضة من ذهب وخلق الأرض والأشياء جميعاً. بينما تقول طوائف أخرى إنه خرج من زهرة اللوتس التى خرجت من سرة الإله فشنو. (المترجم).

ولا يتضح لنا الطريق الذى سلكه سونج يون فى جبال تسونج لنج (البامير) و«الجبال التى لا يوثق بها» من بعدها. إلا أن وصفه للمنطقة يتسم بالتشدد، وإن كان خيالياً فى بعض الأحيان:

هذه البقعة شديدة البرودة. والثلوج تتراكم صيفاً وشتاء. وفى وسط الجبل تقع بحيرة يعيش فيها تنين شرير... ومن هذا المكان الواقع غربى الطريق يبدأ طريق صاعد لا ينقطع شديد الانحدار. ولمسافة ألف لى تجد الصخور الناتئة على ارتفاع ١٠ آلاف قامة وتفوق فى ارتفاعها السماء نفسها. ومقارنة بهذا الطريق، لاتعد وعورة الممر العظيم المعروف بمانجمن شيئاً. وتبدو روابى جبال هيان المشهورة [المكانان كلاهما شمالى الصين] كأنها الأرض المستوية. وبعد دخول جبال تسونج لنج خطوة خطوة، زحفنا لأعلى طيلة أربعة أيام. وبعد ذلك وصلنا أعلى جزء فى الجبال. ومن هذا المكان، باعتباره المركز، إذا نظرت لأسفل يبدو لك كأنك معلق فى الهواء... ويقول الناس إن هذا هو منتصف الطريق بين السماء والأرض.

كان ذلك فى الشهر الثامن من سنة ٥١٩، بينما كانت البعثة قد تحركت من الصين فى الشهر الحادى عشر من العام السابق. ومع ذلك، وجد سونج يون أن «الجو قارس البرودة وأن الريح الشمالية تحمل معها الثلج المندفع لمسافة ألف لى». والأراضى المرتفعة فى هذه الجبال «لا تُنبِت أشجاراً أو شجيرات» ولكن الناس يفلحون الأرض مستخدمين مياه الأنهار فى الرى. وعندما قيل لهم إن الناس فى «البلد الأوسط»^(١) (الصين) يفلحون حقولهم التى تروىها الأمطار «ضحكوا وقالوا: كيف توفر السماء ما يكفى الكل؟» وحيث إنه من المحتمل أن هؤلاء الناس كانوا يعيشون على رافد نهر يسير نحو كاشغر، فمن المفترض أن سونج يون كان فى مكان ما بجبال البامير الجنوبية الوعرة. ويؤيد هذا قوله بأن أهل المملكة التالية، حيث «الجبال... عظيمة الارتفاع والوهاد شديدة العمق»، يعيشون شمال «الجبال الثلجية العظيمة [هندوكوش]، التى تقف وسط أبخرة الصباح والمساء كأنها أبراج من الجواهر».

وبحلول الشهر العاشر كان سونج يون وصحبه قد بلغوا أرض الهون البيض، التى يبدو أنها أيضاً فى جبال البامير. وكان الهون البيض متطفلين غير بوذيين يبدو أنهم مازالوا

(١) المملكة الوسطى. (المترجم).

يعيشون على أقل تقدير حياة شبه بدوية، ذلك أنه في هذه المنطقة التي عرفت المدن المحصنة منذ عدة قرون، يشير سونج يون إلى أنه «ليست لهم مدن ذات أسوار ولكنهم يحافظون على النظام عن طريق جيش دائم يتحرك دوماً هنا وهناك». إلا أن هناك رأياً يقول إن الهون البيض أثروا من مشاركتهم في تجارة الحرير. وذكر سونج يون «أنهم يتلقون خراجاً من كل الأمم المحيطة... التي يزيد عددها على أربعين بلداً». ألا يمكن أن تكون هذه هي الصيغة الصينية المخففة التي استخدمها الصينيون قديماً في حديثهم عن التجارة، وانطبقت على «السفراء» من بلاد وصلت إلى خوتان في أقصى الشرق وفارس في أقصى الغرب؟ يبدو أن هذا أمر محتمل. لكنه فضلاً عن وصف الثياب والسجاد والستائر الفخمة التي كانت العائلة الملكية تستخدمها (ومن الواضح أنهم حصلوا عليها من خلال التجارة مع الأمم النساجة شرقاً أو غرباً، لأن عامة الناس كانوا يرتدون ملابس من اللباد)، يساعدنا سونج يون بعض الشيء فيما يتعلق بهذه النقطة.

وفيما وراء بلاد الهون البيض كانت تقع أراض أخرى ذات طبيعة مختلفة. إذ كانت جذباء ولا تتمتع بأي جمال وتقع اسماً تحت النفوذ الفارسي. وفي هذا الإقليم «متناهي الصغر، الطريق الضيق الوعر خطير. فأى مسافر بحصانه يمر كل منهما وحده بالكاد». وفي المكان الذي ذكره فا شيان قبل قرن أن به جسوراً من الجبال تُستخدم في هذه الجبال وسفوح التلال الوعرة التي تليها، ذكر سونج يون أنهم:

... يستخدمون سلاسل حديدية كجسور. وهذه السلاسل معلقة في الهواء بغرض العبور [فوق هوى الجبال]. وعند النظر لأسفل لا يدرك المرء قراراً. ولا يوجد على الجانب ما يتشبث به إن هو انزلق. وفي لحظة واحدة يهوى من ارتفاع عشرة آلاف قامة. لذا فإن المسافرين لا يعبرونها، تحسباً لهبوب الرياح العاتية.

ولكن ما وجدته على الجانب الآخر من الجبال كان على العكس تماماً. إذ رأى ما يطلق عليه في الغالب بابل الشرق:

المناخ دافئ لطيف... الناس كثر والمنتجات وفيرة. وتعادل التربة في خصوبتها تربة [شانتونج] في الصين ولكن المناخ أكثر اعتدالاً... وفي الوقت المناسب يدعون الجداول تغرق الأرض، وبذلك تعود التربة خصبة وتكون رملية طينية. وكل المون الضرورية للإنسان موجودة

بوفرة. فكل أنواع الحبوب تنمو هناك والفواكه المختلفة تتضج بأعداد ضخمة. وفي المساء قد تسمع أصوات أجراس [المعبد] من كل جانب فتملاً الأرجاء. وتغطي الأرض زهور مختلف ألوانها تثبت من جديد في كل شتاء وصيف ويجمعها رجال الدين والعوام على السواء ليقدموها قرباناً لبوذا.

من هذه الأرض الغنية كان الحجاج يسرون إلى داخل الهند نفسها، حيث يتوقفون هنا وهناك لإقامة معبد بجزء من ميزانية الرحلة وليتركوا خداماً للقيام على نظافة وترتيب أحد الأضرحة «للأبد»، أو ليستأجروا فناً يصور قرباناً صينياً. وكانت الإمبراطورة قد أعطت قافلة سونج يون «ألف بيرق بطول مائة قدم بالألوان الخمسة وخمسمائة [دواسة؟] حرير مرقشة من العشب المعطر». كل هذه الأشياء، إضافة إلى الألفى راية التي أعطاها له الأمراء والحكام والنبلاء، وهو ما يعد إشارة واضحة إلى التأييد الملكي للبوذية، انتهى من توزيعها قبل بلوغه نهر السند. ومايؤسف له أن الكتب التي تؤرخ للرحلات لا تحمل لنا إلا مايزيد على ذلك قليلاً فيما يتعلق بهذه الرحلة، ولم تنقل لنا شيئاً عن عودتهم. إلا أن هناك ملاحظات مقلقة (للمتدينين) عن أناس كثيرين في هذا الإقليم «لم يؤمنوا بشريعة بوذا وأحبوا عبادة الجن والعفاريت».

وعاد سونج يون إلى الصين سنة ٥٢١، ولكن الإمبراطورة الأرملة هو ظلت على قيد الحياة فترة تقل عن عشر سنوات بعد ذلك. فقد أغرقت أثناء إحدى الثورات بعد محاولة فاشلة للجوء إلى أحد الأديرة البوذية. ولم تمض إلا بضع سنوات حتى انهارت أسرة وي نفسها. ولكن في سنة ٥٨١ نجحت واحدة من الدول التي خلفتها في توحيد كل الصين لأول مرة منذ ٢٥٠ سنة تحت حكم أسرة سوي^(١) الجديدة.

وسرعان ما بدأ أباطرة سوي عملهم لتكريس الفرقة بين فرعى الترك. وتحقيق لهم قدر كبير من النجاح في ذلك، حتى أن الحروب الأهلية صارت النمط الغالب على الحياة في السهوب. وبحلول أوائل القرن السابع كان الترك مشغولين في شئونهم الداخلية، مما أتاح للصين استعادة بعض من سمعتها المهلهلة في آسيا الوسطى. وبحلول سنة ٦٠٨ كان

(١) أسسها يانج جيان (٥٤١ - ٦٠٤) كبير وزراء تشو الشمالية بعد استيلائه على السلطة حيث عُرف بالإمبراطور ون دي الذي انتصر على إحدى الإمبراطوريات الجنوبية سنة ٥٨٩ ووحّد الصين. (الترجم).

إمبراطور سوي على قدر من الأمان سمح له بالتجول في ممر كانسو، حيث استقبل سفارات من عدة واحات غربية أهمها تورفان التي كانت تتعرض دائماً لعمليات السلب والنهب التي يقوم بها أهل منغوليا. بل إنه كان يقوم من حين لآخر بالوساطة بين الفصائل التركية المختلفة.

وتمشياً مع رغبتهم الواضحة في استعادة الأراضي الصينية الغربية التي ضاعت منذ زمن طويل، أعاد أباطرة سوي بناء تشانج آن جاعلين منها بداية طريق الحرير لتصبح مرة أخرى عاصمة الصين الموحدة. أما لويانج، التي جعلوها العاصمة الثانية، فكانت مرتبطة بطرق نهريّة وقنوات. ويوضح وصف لويانج في عهد الإمبراطور يانج^(١) (٦٠٥ - ٦١٦) مقدار خروج شمال الصين من الدمار الذي لحق به في القرون السابقة:

زَيْن [الإمبراطور يانج] ظاهرها بمنتهى محيطه ١٢٠ كيلومتراً جعل فيه بحيرة طولها تسعة كيلومترات تبرز فيها ثلاث جزر للخالدين مزينة بخيام رائعة. وعلى ضفتي الممر المائي الذي شقه للوصول إلى البحيرة شيد ست عشرة فيلا لمحاسيبه. وكانوا يصلون إلى هذه الدور بالقوارب. وكانت كل أشكال الأبهة موجودة في هذه المساكن والحدائق التي تحيط بها. وفي الخريف، حين تسقط الأوراق من على شجر القيقب، كانت الأشجار والشجيرات تزين بالأوراق والزهور المصنوعة من قماش لامع. وإلى جانب زهور اللوتس الحقيقية، كانت البحيرة تُزين بزهور اللوتس الاصطناعية التي كانت تجدد باستمرار. وكان الإمبراطور يستمتع بالإبحار في البحيرة أو ركوب الخيل في المنتزه في الليالي التي يضيئها القمر تصحبه كوكبة من الفتيات الحسان اللاتي تلقين الأشعار أو تصدحن بالغناء.

ولكن هذا لا يعني أن الصين عادت إلى سابق عهدها من العظمة التامة. فقد كانت الحياة الرغدة التي وُصفت هنا بوضوح سبباً في انهيار أسرة سوي وعودة الفوضى، حيث تقاتل قواد الجيش من أجل السيطرة على الأقاليم. وبعد سنة ٦١٨ أصبحت لويانج مأوى

(١) هو الإمبراطور يانج دي (٦٠٥ - ٦١٨) الذي حشد مليوني رجل لإعادة تعمير لويانج ومليوناً آخر لترميم سور العظيم وتطويره. كما حفر القناة الكبرى التي تربط بين هانجتشو في الجنوب وتشوجيون (بكين الحالية) في الشمال. وكان لها دور مرموق في ازدهار الاقتصاد والثقافة. (المترجم).

المشاغبين والصوص. وبعد أن كانت الزهور الحريرية تميز شوارعها، باتت تلك الشوارع مليئة بالجيف العفنة. وظل الأمر بعض الوقت وكان الناس نسوا كونفوشيوس وبوذا وكأنه لم تعد هناك فنون سوى فنون الحرب.

وفي الشمال الغربي أعلن الشاب لى يوان نفسه إمبراطوراً وقبلته مدينة تشانج آن، التي أسس فيها إمبراطورية تانج. إلا أن طريقه لم يكن واضحاً بالمرّة. فقد نازعه على اللقب قواد آخرون، أحدهم في لويانج. ولم يقتصر الأمر على ذلك. إذ كان هناك الترك الذين يتحينون اللحظة التي يضعف فيها جيرانهم. وبدأ هؤلاء بالهجوم ولم يرددهم مهزومين سوى الهجوم المفاجيء الذي شنه فرسان تانج عقب سقوط أمطار غزيرة نادرة. تراجع الترك إلى السهوب المغولية، في حين مضى إمبراطور تانج في توسعته وتدعيم حكمه في الصين.

وفي تلك الفترة التي كثرت فيها القلاقل دخل أشهر الحجاج البوذيين الصينيين التاريخ، حيث قدم لنا صورة لطريق الحرير في فترة التحول. وكان شيوان تسانج، وهو شاب شديد التدين، «رجلاً طويلاً وسيماً له عينان جميلتان. كما أن ملامحه كانت جادة، ولكنها رقيقة. وكان سلوكه هادئاً دون أن يكون متكلفاً». هذا مايرويه لنا كاتب سيرته. وقبل ذلك بسنوات كان قد جاء ليلحق بأخيه بدير الأرض الطاهرة في لويانج. ولكن في الفترة التي اتسمت بالفوضى في أعقاب انهيار أسرة سوي، قال لأخيه «سمعت أن أمير تانج^(١) قد نصب نفسه في تشانج آن عاصمته الجديدة. وتعتمد الإمبراطورية عليه اعتماد الطفل على أمه وأبيه. ليذهب معي أخى إلى هناك». وهكذا ذهباً معاً.

ولكنه رغم أن بعض النظام كان يسود تشانج آن، فقد كانت دراسة البوذية لاتزال ضعيفة، مما أصاب شيوان تسانج باليأس من معرفة الحقيقة. ويفسر لنا تشانج يويه مؤلف «سجلات تانج عن العالم الغربي»، الذي وصف رحلة حج شيوان تسانج، هذه المشكلة:

... بعد انتشار الديانة [البوذية] شرقاً كانت أصوات الكلمات التي تُرجمت غير صحيحة في كثير من الأحيان. وقد أسىء فهم عبارات الأقاليم المختلفة بسبب الأصوات الخاطئة. وهكذا ضاع المعنى.

وعندما أدرك شيوان تسانج ذلك «تألم قلبه. وعندما خشى العجز عن اكتشاف أخطاء

(١) في غمرة الانتفاضة التي قام بها الفلاحون أسس لى يوان (٥٦٥ - ٦٣٥) إمبراطورية تانج سنة ٦١٨ بعد احتلاله تشانج آن. وقد عُرف في التاريخ بالإمبراطور فاو تسو. (المترجم).

الترجمة جميعاً، اقترح فحص النصوص فحصاً دقيقاً...» ولهذه الغاية قرر الرحيل إلى الهند.

ولكن ما أسهل الأقوال وما أصعب الأفعال. ففي ظل الاضطرابات التي في الداخل، منع حاكم تانج السفر للخارج. ولكن ذلك لم يحل دون سفر شيوان تسانج أولاً إلى لانج تشاو (وويه) في أعالي نهر هوانج بالقرب من بداية ممر كانسو، حيث التقى بكثير من تجار آسيا الوسطى الذين كانوا يرتادون المدينة وتحدث معهم. وبلغ الحاكم المحلي إشادتهم بتدينه فأكد على الحظر الإمبراطوري المفروض على السفر. إلا أن شيوان تسانج استطاع بمساعدة الرهبان البوذيين المحليين أن يتسلل إلى الغرب. وكان يسافر في جنح الظلام ويختفي بالنهار، إلى أن بلغ آن شى وهى المدينة التي يتزود فيها المسافر على الطريق الشمالى إلى هامى بما يحتاجه من مؤن.

وهنا واجهت شيوان تسانج بعض العقبات الكأداء. كان لابد من عبور نهر سولو ذى الجوانب شديدة الانحدار والتيار المندفع. إلا أن المكان الصالح للعبور كان تحت حراسة حصن صينى. وبعد هذا الحاجز كانت هناك خمسة أبراج مراقبة صينية أخرى على أهبة الاستعداد، حيث كانت حكومة لانج تشاو قد أرسلت مندوبين راكبين لإلقاء القبض عليه. ولكى تكتمل الصورة القائمة، نفق حصان شيوان تسانج وتركه الراهبان المكلفان بإرشاده ليشق طريقه بنفسه.

وسواء كانت الصدفة وراء ذلك، أو بدا الأمر هكذا، فقد التقى شيوان تسانج بشاب «بربرى»، كان بوذياً مثله، وافق أن يكون مرشده للتغلب على تلك العقبات. وطبقاً للاتفاق، تقابل الرجلان فى اليوم التالى عند الغروب حيث قدمه الصديق الجديد باندا إلى رجل عجوز من الغرب أيضاً قائلاً إنه «ذهب إلى هامى وعاد منها أكثر من ثلاثين مرة». ارتاب الرجل العجوز كثيراً فى نوايا شيوان تسانج وحذره قائلاً:

الطرق الغربية سيئة وخطرة. ففي بعض الأحيان تحول أنهار الرمال المتراكمة دون سير المسافرين، وفي أحيان أخرى تكون العفاريت والرياح الحارقة هى السبب. وإذا لاقاها الناس لا ينجو أحد من غضبها. وفي كثير من الأحيان تضيع القوافل الكبيرة وتهلك هلاكاً تاماً. ما أسوأ أن تسير وحدك ياسيدى! أرجوك أن تفكر فى الأمر ملياً وألا تخاطر بحياتك.

ولكن شيوان تسانج ما كان ليثنيه أحد عما أراد. لقد قبل من الرجل العجوز حصانه الأحمر المسن، تلك المطية المدربة التي ذهبت إلى هامى وعادت منها ١٥ مرة، حيث استبدله بحصانه الذى اشتراه حديثاً. وكان ذلك قراراً سليماً كما سنرى.

وهكذا اتجه شيوان تسانج وباندا غرباً. صنع باندا جسراً خشبياً على نهر سولو، عند نقطة يقل عرضها عن اثنى عشر قدماً. ولكن عندما ناما على الجانب الآخر من النهر، استيقظ شيوانج تسانج ليجد باندا يقترب منه بهدوء شاهراً سكيناً. وعلى بعد عدة خطوات تردد الشاب وعاد إلى فراشه. وبحلول صباح اليوم التالى كان باندا يتحدث عن مخاطر الرحلة وعن عدم رغبته فى مخالفة قوانين البلاد. لم يكن فقط يريد العودة بمفرده، بل ود أن يأخذ شيوان تسانج معه، حيث كان يخشى إن هم ألقوا القبض على شيوان تسانج أن ييوح بدوره فى الهرب. ولم يقبل باندا أن يدع الحاج يمضى فى رحلته إلا عندما أقسم له شيوان تسانج قائلاً: «لو قطعوا جسدى قطعاً كذرات التراب لن أعود أدراجى».

وبذلك مضى شيوان تسانج فى طريقه غرباً بمفرده، ولم يكن له مرشد سوى علامات الطريق القديمة فى الصحراء وأكوام العظام البيضاء وبعر الجمال التى تسير على الطريق. وبعد فترة قليلة جداً وقع فريسة للسراب الذى يراه السائر فى الصحراء. إذ رأى على البعد جيشاً ضخماً «يسير حيناً ويتوقف حيناً» ويرتدى جنوده ماترتديه شعوب السهوب من لباد وفراء:

**كانت هناك جمال وخيول ذات سروج فخمة وكانت رماحهم تبرق
وأعلامهم تلمع. وبعد قليل تحول هؤلاء إلى أشكال جديدة وصور
مختلفة. كان هذا المنظر المزدحم يتغير كل لحظة وفى كل مرة يتحول
إلى ألف صورة جديدة.**

وسمع أيضاً أصواتاً تصيح «لاتخف». ولكنه ما إن وصل إلى جيش الصحراء حتى اختفى.

فى هذه الحالة المشوشة وصل إلى أول برج مراقبة. وبينما كان يحاول ملء قارورة الماء الخاصة به تحت جناح الليل إذا بالرماة يلمحونه على الفور ويأخذونه إلى قائد الحامية. ولكن شيوان تسانج كان محظوظاً، إذ كان هناك بوذى آخر. وبعد أن فشلت محاولات القائد لإثناء الحاج عن إكمال رحلته، زوده بالماء والمؤن. والشىء الأهم أنه أعطاه رسالة لأحد أقاربه فى البرج التالى. ومضى شيوان تسانج فى طريقه، حيث سُمح له بالمرور من برج

لآخر. إلا أنهم حذروه من الاقتراب من البرج الأخير، لأن قائده لم يكن متعاطفاً مع البوذيين. ونصحوه أن يستعيز عن ذلك باجتياز الصحراء مباشرة إلى نبع الخيول البرية على بعد ١٠٠ لى.

سار شيوان تسانج بحصانه المسن فى «نهر الرمال» حيث «لا طيور ولا حيوانات ذات أربع ولا ماء ولا مرعى». وهاجمه السراب ورؤى العفاريت من جديد. وبعد مسيرة ١٠٠ لى وجد أنه ضل الطريق. وبينما هو فى حالة فزع سقطت من يده قربة الماء، حيث رأى آخر أمل فى الحياة يضيع فى الرمال. فى هذه المرة بالذات فكر شيوان تسانج فى العودة إلى الصين. إلا أنه تذكر قسمه بألا يعود خطوة واحدة نحو الصين، حتى إذا كان موته على الطريق إلى الغرب.

وبناء عليه أسرج حصانه وردد بعض الأدعية الصادقة... وانطلق فى الاتجاه الشمالى الغربى. وعندما نظر حوله فى كل اتجاه لم ير سوى سهل لا حدود له ليس به أثر لبشر أو خيل. وفى الليل أشعلت الأرواح الشريرة مشاعل كالتجوم فى عددها. وبالنهار كانت الرياح الرهيبة ترفع الرمال وتبعثرها كأنها وابل منهمر. ووسط هذا الهجوم الشرس لم يعرف الخوف طريقاً إلى قلبه. إلا أن ما عاناه من نقص الماء كان شديداً. وفى نهاية الأمر كان عذاب العطش من الشدة بحيث أعجزه عن أن يخطو خطوة أخرى. لم تلمس شفتاه نقطة ماء طوال أربع ليال وخمسة أيام. كان هناك حريق مستعر فى أحشائه وأوشك على الهلاك. وعندما عجز عن الاستمرار، رقد فى مكانه على الرمال... وأخذ يدعو.

وفى منتصف الليلة الخامسة أفاق هو وحصانه عندما هب نسيم بارد واستأنفا سيرهما. وبعد ذلك ظهرت قيمة مقايضة الرجل العجوز:

عندما سار حوالى أربعة أميال غير حصانه اتجاهه فجأة ولم يفلح شئ فى إعادته أو إبقائه على الطريق الأصلى.

وبعد عدة أميال وجد حصانه شريطاً من المراعى الخضراء وكان وراءه بركة صافية من الماء العذب. هاقد نجا كلاهما ووصلا سالمين إلى واحة هامى العامرة.

وهنا أصبحا بعيدين عن السلطة الصينية المباشرة ولكنهما ليسا بمنأى عن النفوذ

الصيني. وبينما كان شيوان تسانج ينعم بضيافة الملك البوذي المحلي، وصلت من تورفان، الواحة الأكبر والأغنى (التي كانت تحكمها أسرة من أصول صينية منذ أوائل القرن السادس) مجموعة من الحرس لمرافقة الحاج إلى بلاط تورفان. إلا أنه كان هناك خط سير آخر في ذهن شيوان تسانج، حيث كان يعتزم زيارة أحد الأضرحة في مدينة بيشباليك التركية. ولكن بما أن طاعة الملك واجبة، كان لابد من الذهاب إلى تورفان. وهناك لقي ترحيباً من الملك وتوسلات ملحة بأن يبقى ليرأس الجالية البوذية في تورفان. وكانت التوسلات على قدر من الإلحاح جعله لا يتمكن من استئناف رحلته إلا بعد أن بدأ إضراباً عن الطعام.

ولكنه بعد اقتناع ملك تورفان بعزم شيوان تسانج، أعد مئونة سخية لرحلته وزوده بأقنعة للوجه وأحذية وقفازات وكل ما يلزمه من ملابس ثقيلة يحتاجها في عبوره المزمع لجبال تيان شان والباير. وكان هناك ٣٠ حصاناً و ٢٤ خادماً، إضافة إلى مسئول كبير يحمل الحرير والفاكهة، لمرافقة الحاج إلى الممالك المجاورة. وكانت هناك ١٠٠ أوقية من الذهب و ٣٠ ألف قطعة فضة و ٥٠٠ لفافة حرير، جميعها لاستخدام شيوان تسانج الخاص. وفوق هذا كله رسائل توصية للوك ٢٤ دولة في الطريق، كل منها مرفق بها لفافة كبيرة من الساتان على سبيل الهدية. وأرسل الملك، نيابة عن شيوان تسانج، لخان الترك الأعظم وحده «عربتين محمليتين بـ ٥٠٠ قطعة من الساتان». كان ذلك هو مقياس حب ملك تورفان، ومقياس الثراء الذي كانت عليه تلك الدول الواحات التي تبدو منعزلة. وأدت صداقة ملك تورفان وسخاؤه ونفوذه لدى الخان التركي (الذي كان تابعاً له في واقع الأمر) إلى وصول شيوان تسانج بسلام، بل وفي راحة نسبية، إلى حدود الهند.

ولا يعني هذا أن الرحلة كانت بالضرورة آمنة، كما اتضح لهم على الفور. ففي الطريق إلى قره شهر. وهى الواحة التالية، وجدت قافلة شيوان تسانج، وقد أصبحت له حاشية، جثث التجار الذين لم ينتظروا وسبقوهم فجعلهم حظهم العاثر يلتقون بعصابة من اللصوص.

وجد شيوان تسانج قره شهر واحة «تحيط بها التلال من كل جانب» وبها «طرق.. منحدره يسهل الدفاع عنها». إنها مكان لطيف غنى بفواكهه الكثيرة. وهى تتشابه مع الهند فى كتابتها وديانتها. وعلى بعد خمسين ميلاً كانت كوتشا التى يفصلها لسان جبلى من تيان شان. وكانت مشهورة بفاكهتها من الكمثرى والرمان والعنب والبرقوق، إلى جانب الكثير من المعادن النفيسة الموجودة فى أرضها. وكانت نساء كوتشا، اللاتى زاد سحرهن بالعطور

ومستحضرات التجميل التي ترد من بلاد فارس، يجتذبن التجار المسافرين في الصحراء. وكذلك الحال بالنسبة لعازفات الموسيقى اللائي قال عنهن شيوان تسانج إنهن «في ذلك الوقت كن على قدر كبير من المهارة جعلتهن يستطعن، بعد تدريب بسيط، أن يعزفن لحناً سمعته مرة واحدة فقط». وكان الكثير من سكان تلك المدن ينحدرون من أصول هندوأوروبية كانت في وقت من الأوقات تسيطر على آسيا الوسطى. وقد ظلت لغتهم هندو أوروبية، رغم كتابتها بالحروف الهندية التي أخذوها مع البوذية.

وأثناء سير القافلة نحو الغرب في المسار الشمالي لطريق الحرير، كانت ستمر على أكسو إن هي اتخذت الطريق المعتاد. إلا أن نفوذ الخان التركي، والحاجة لزيارته قبل المضي إلى الهند، أجبر شيوان تسانج على دخول جبال تيان شان قارسة البرودة. وفي الطريق واجه هو وقافلته خطرين. فبعد يومين من خروجهم من كوتشا لقيتهم جماعة تضم ٢٠٠ من اللصوص الترك، الذين سمحوا لقافلة الحاج بالمرور فقط لأنهم كانوا مشغولين في شجار حول تقسيم الأسلاب التي حصلوا عليها من قافلة تجار نهبها للتو. وبعد ذلك سار شيوان تسانج على الجانب الذي تغطيه الثلوج من جبال تيان شان:

جبل الثلج هذا... شديد الخطورة وتصل قمته إلى السماء. منذ بدء الخلق والجليد يتجمع هناك ويتحول إلى ثلوج لا تذوب في الخريف ولا في الصيف. وتمتد طبقات من هذه الثلوج الصلبة اللامعة على مدى البصر وتتداخل مع السحب. وإذا نظر المرء إليها أعماه بياضها الشديد. والطريق به صخور وصواعد الثلج التي يصل ارتفاع بعضها إلى مئات الأقدام وبعضها الآخر يبلغ عرضه عشرات الأقدام، بحيث لا يمكن للمرء أن يعبره إلا بشق الأنفس. يضاف إلى ذلك أن المسافر يواجهه دائماً هبوب الرياح والعواصف الثلجية. ورغم الأحذية والملابس المبطنة بالفراء فإنه لا يمنع نفسه من الارتعاش في هذا الجو البارد. وفيما يتعلق بالأكل أو النوم، لا يمكنه أن يجد مكاناً جافاً يرقد فيه. وليس أمامه خيار سوى تعليق قدر الطهي لإعداد طعامه وأن يبسط فراشه على الثلج.

كان هذا الممر قاسياً جداً حتى أن ١٤ رجلاً ماتوا من الجوع والتعرض للبرد، وربما من نهار الجليد. بل إن عدداً كبيراً من الشيران والخيل نفق متجمداً. وعلى الجانب الأقصى،

وصل شيوان تسانج إلى إيسيك قول، البحيرة الدافئة. وعلى مقربة منها، وفي هذا البلد المعتدل نسبياً، يقع معسكر الترك الشتوى. وصل شيوان تسانج إلى هناك سنة ٦٣٠. أى بعد ٥٠ سنة من الرحلة التى قام بها زيمارخوس إلى هذا الإقليم قادماً من الإمبراطورية الرومانية الشرقية.

وطبقاً لوصف شيوان تسانج، لم يفقد بلاط الخان شيئاً من عظمته. وهو يقول لنا إن الترك لديهم أعداد ضخمة من الخيل. وكان الجنود «يركبون الجمال أو الخيل ويرتدون الفراء وقماشاً فاخراً من الصوف ويحملون حراباً طويلة وأعلاماً وأقواساً مستقيمة». وكان الخان نفسه يلبس معطفاً من الساتان الأخضر ويربط شعره الطويل المرسل على جبهته بقطعة طويلة من الحرير تتدلى على كتفه. وكان يقوم على خدمته ٢٠٠ ضابط يرتدون معاطف من الديباج. وكان الحشد مجتمعاً فى سهوب القرغيز «التى كانت تمتد إلى ما لا يمكن للعين أن تدرك مداها».

ورؤية شيوان تسانج لهذا التجمع البدوى الكبير يحظى منا باهتمام خاص، بالنظر إلى ماوقع من أحداث فى الماضى. فعلى غمط إمبراطوريات السهوب، كان الترك على وشك أن يفقدوا وحدة شعوب السهوب التى كانت هشة على الدوام، وينقسموا إلى عدة فروع رئيسية تجعل لهم أسماء منفصلة فى أنحاء العالم.

ويقال إن الخان، شأنه شأن غيره من الحكام الذين على الطريق، سعد بسماع أن شيوان تسانج يؤمن بشريعة بوذا (رغم أنه لم يكن بوذياً) وحاول إثناءه عن الماضى فى رحلته إلى الهند، التى كان يظن أنها «شديدة الحرارة». إلا أنه عندما أصر شيوان تسانج على السفر زوده الخان بمترجم ليكون فى خدمته حتى أفغانستان، إلى جانب هدايا من الحرير والستان. بل إنه صاحبه مسافة من الطريق إلى الهند. وكان الإقليم الذى سارا فيه يسمى أرض الألف نبع. وشمالى جبال تيان شان، كانت «الهضبة المستوية» فى سهوب القرغيز لها من الجاذبية ما جعلها معسكر الخان المفضل فى الصيف، حيث:

**تحصل الأرض على كفايتها من الرى وتوفر الأشجار ظلاً وارفاً وتتنوع
الزهور فى شهور الربيع كأنها قماش مزركش. وهناك ألف نبع ماء
وبحيرة اشتقت منها اسمها... وهناك أيضاً عدد من الغزلان، كثير منها
مزين بالأجراس والحلقات...**

وبعد أن مضت قافلة شيوان تسانج فى طريقها، على الحافة الخارجية لجبال تيان شان،

وصلت إلى مدينة تالاس الواقعة على النهر الذى يحمل الاسم نفسه، حيث «يتجمع التجار من كل صوب ويعيشون مع أهل البلاد». ووراء تلك المدينة كانت تقع المدينة التى نعرفها باسم طشقند، وكانت مدينة بسيطة فى ذلك الوقت، وكذلك نهر سيحون. وكانت الأرض التى تحصل على كفايتها من الرى تنتهى فجأة عند قيزل قوم (صحراء الرمال الحمراء) الواقعة بين نهري سيحون وجيحون. وكانت تلك عقبة مخيفة وواحداً من العيوب الرئيسية فى هذا الطريق الواقع شمالى جبال تيان شان، التى لولاها لكان طريقاً لطيفاً:

... إننا مقدمون على صحراء رملية كبيرة، حيث لا ماء ولا كلاً. الطريق يضيع فى تلك القفار التى لا تبدو لها نهاية. ولم يسعنا معرفة الطريق الذى يجب أن نسلكه إلا بالنظر صوب بعض الجبال الضخمة والاسترشاد بالعظام المتناثرة هنا وهناك.

ولم تخرج قافلة الحاج مرة أخرى إلى أرض ذات زرع إلا بعد قطع عدة عشرات من الأميال فى الصحراء، وذلك عند مدينة سمرقند بالقرب من طرف أنف الجبل الذى يشكل أحد جوانب وادى فرغانة الفسيح. انبهر شيوان تسانج بهذه المدينة الواقعة على الجانب الغربى من جبال البامير وتعد مركز الشبكة التجارية الصغدية:

يبلغ محيط العاصمة ٢٠ لى أو نحو ذلك. وتحيط بها من كل جانب أرض وعرة. وهى مكتظة بالسكان. وتتجمع هنا البضائع الثمينة الواردة من بلاد أجنبية كثيرة. أما تربتها فخصبة وغزيرة الإنتاج وتغل محاصيل وفيرة. فى حين توفر أشجار الغابة خضرة كثيفة وتكثر فيها الأزهار والفواكه. وتربى هنا خيول شن [وهى النوع الذى يفضلونه دائماً]. وسكانها مهرة فى الفنون والحرف بقدر يفوق سكان البلاد الأخرى.

ويتفق مع ذلك ما جاء فى «تانج شو» (حوليات أسرة تانج):

يتفوق أهل هذا البلد فى التجارة ويعشقون الربح. وما أن يبلغ الرجل العشرين حتى يرحل إلى الممالك المجاورة... إنهم يذهبون إلى حيث يوجد الربح.

وأكد علم الآثار الحديث هذا التقدير، حيث حدد مواقع المستعمرات التجارية الصغدية بأنها على حدود الصين نفسها بالقرب من لوب نور. ورغم خضوع الصغد للترك، كانت

لهم روابط وثيقة، من اللغة والثقافة والتراث العرقى، مع الفرس. بل إنهم أخذوا أبجديتهم من آسيا الوسطى عبر بلاد فارس. وكان كثير منهم يدين بالزرادشتية. ولكن ربما كان إدراكهم لأهمية الصين الفريدة بالنسبة لتجارهم سنة ٦٣١، أى بعد سنوات قليلة من زيارة شيوان تسانج هذه، هو ما كان وراء سفر وفد صُغدى إلى الصين للمطالبة بأن تضع أسرة تانج يدها على بلادهم ويكون حكامها سادة عليهم. غير أن إمبراطور تانج، تاي تسونج^(١)، لم يقبل طلبهم مشيراً إلى بعد بلادهم الشديد:

«إنى أرفض أن أزيّن نفسى بألقاب لا طائل من ورائها على حساب شعبي. إذا أخضعت بلاد الصُغد لحكمى لأصبح لزاماً على أن أبعث بجنود للدفاع عنها. وهؤلاء الجنود عليهم أن يسيروا ١٠ آلاف لى كى يصلوا إليها.

كانت تلك بالفعل المشكلة القديمة التى واجهها حكام أسرة هان السابقة. إلا أنه رغم رفض تاي تسونج لهذا المطلب، فمن المحتمل أن يكون للعرض الصُغدى دور فى قراره اللاحق بمد نفوذه إلى آسيا الوسطى مرة أخرى.

ومن سمرقند حتى الهند، وجد شيوانج تسانج سلسلة من المناظر المحزنة التى وقع عليها بصره. فملك سمرقند ومعظم شعبه كانوا «عبّاداً للنار»، أى من أتباع زرادشت. وهذا نتيجة لروابطهم الوثيقة جداً مع بلاد فارس. كما أن المعبدى البوذيين كانوا خاويين وكان الزرادشتيون المحليون يطاردون الحجاج الزائرين بالمشاعل. ولا بد أن نتذكر أن هؤلاء التجار الصُغد كانوا ضمن أنجح المبشرين البوذيين فى آسيا الوسطى. وتمكن شيوانج تسانج من تغيير الاتجاه المضاد للبوذية. فقد أنقذه الملك من العامة بمشاعلهم المتقدة. كما أن حماسه التبشيرية أعاد الكثير من المواطنين إلى البوذية. بل إن الأديرة المهجورة جُددت وأقام بها رهبان تولى شيوانج تسانج ترسيمهم. ولكن ارتداد الصُغد عن البوذية لم يكن سوى نذير لما سيجده فى الهند نفسها، حيث لا يسع الحاج، مهما أُوتى من حماس، أن يغير مسار التاريخ.

وعندما غادر شيوانج تسانج سمرقند فى آخر المطاف، سلك طريقه فى اللسان الجبلى الواقع فى أقصى الغرب من جبال البامير، متوجهاً إلى بلخ:

... دخلنا الجبل. الطريق الجبلى شديد الانحدار ويطل على هاوية

(١) حكم بين ٦٢٧ و ٦٤٩ وكان حاكماً بارزاً أحرز نجاحاً كبيراً فى المجالين السياسى والعسكرى. (المترجم).

والمرور في الشعب خطير وشاق. لا ناس ولا قرى. والماء والخضرة قليلان. وبعد السير في الجبال مسافة ٣٠٠ لى أو نحوها إلى الجنوب الشرقى دخلنا البوابات الحديدية [ممر بوزجالا]. والممر الذى يحمل هذا الاسم تحده الجبال عن اليمين وعن الشمال. وهذه الجبال شاهقة الارتفاع. والطريق ضيق، مما يزيد الأمر مشقة وخطورة. وعلى الجانبين حائط صخرى فى لون الحديد. وهنا أقيمت أبواب خشبية مزدوجة قويت بالحديد وزُودت بأجراس كثيرة علقت بها. ومن الحماية التى توفرت للممر بهذه الأبواب، عند إغلاقها، جاء اسم البوابات الحديدية.

وبغض النظر عن شكل الأمن والأمان اللذين وفرتهما البوابات الحديدية، فإن النفوذ التركى لم يحل دونه شيء وأصبح له وجود راسخ فى بلخ. وبعد أن خرج شيوان تسانج عن الطريق لزيارة الأمير التركى المحلى، اتجه صوب مركز بلخ الدينى والتجارى (وكان اسمها باكترا من قبل). وفى هذه المدينة الجميلة «التي تحول كثرة زهورها دون حصرها» وجد شيوان تسانج «حوالى ١٠٠ دير و ٣ آلاف راهب». إلا أن الهجمات المتلاحقة، التى شنّها الهون والفرس الزرادشتيون والترك غير المؤمنين، كان لها أثرها الذى ألحق أضراراً شديدة بالممارسات البوذية المحلية. ولاحظ شيوان تسانج «أنهم غير منتظمين فى واجباتهم ضحى وعشية، حتى بات من الصعب على المرء أن يفرق بين القديسين والخطاة».

لقد اتجه الآن إلى الجنوب عبر الجبال الثلجية الرائعة (هندوكوش) فى طريقه إلى الهند:

هذه الجبال مرتفعة والأودية عميقة. والوهاد والفلوج خطرهما عظيم. ولا ينقطع هبوب الريح وتساقط الثلج. ويظل الثلج قائماً على مدار الصيف. ويسقط ركام الثلج فى الأودية ويسد الطرق. وترسل أرواح الجبال وعفاريثها شتى صنوف البلوى عندما تغضب. ويعترض اللصوص سبيل المسافرين ويقتلونهم... والطريق فى صعوبته وخطورته ضعف ما عليه الأقاليم الصحراوية والمناطق الثلجية. والسماء تخفيها على الدوام السحب المجمدة والعواصف الثلجية الكاسحة. وإذا تصادف أن بلغ المرء مكاناً لطيفاً، فإنه لا يتعدى بضع عشرات من الأقدام من الأرض المستوية.

وبعد أن سار شيوان تسانج فى تلك الأودية الجبلية المقفرة، خرج عند مدينة باميان التى اشتهرت كثيراً بما فيها من تماثيل بوذا العديدة المنحوتة فى الصخر ويزيد ارتفاع بعضها على ١٠٠ قدم، بما عليها من «زينة ثمينة يخطف بريقها الأبصار». وهنا كان يتبع أحد طرق القوافل والحجاج القديمة عبر جبال هندوكوش المتجهة إلى وادى نهر كابول. ومع أنه وجد سكان هذه الهضبة الأفغانية، التى أطلق عليها «القمة السوداء»، قساة غلاظا، فقد أعجبه إيمانهم القوى بالبوذية، وإن لم تكن دائماً مايعتبره هو العقيدة الصحيحة. وكان تقديره عظيماً لحماسهم الدينى وذكرى تلك التماثيل العظيمة، التى تعد من أروع أمثلة الفن البوذى اليونانى الهندى، عندما وصل إلى الهند نفسها.

وعندما خرج عن الطريق الرئيسى لزيارة المدن الواقعة على الجانبين ولها ارتباط قوى بالبوذية، وجد قدراً كبيراً من الخراب. ففى قندهار، التى تعتبر عادة موطن الفن البوذى اليونانى الهندى الذى وصل إلى حدود الصين، وجد أن المدن والقرى ليس فيها سوى عدد قليل من السكان:

هناك حوالى ألف سنجاراما [دير] مهجورة وخربة. وهى مليئة بالشجيرات البرية وموحشة إلى أقصى درجة. فى حين بليت النصب التذكارية. والمعابد الخارجة عن العقيدة، ويصل عددها إلى ١٠٠، يشغلها الهراطقة [غير البوذيين] حيث يختلط الحابل بالنابل^(١).

وفى بيشاور، التى كانت يوماً العاصمة الشتوية لملك الكوشان البوذى المؤمن، وجد:

ألف دير بوذى مهجورة وخربة. كما نمت فيها الحشائش ولم تعد سوى أماكن موحشة تثير الحزن.

تكررت القصة نفسها مرة بعد أخرى، عندما هبط شيوان تسانج من الجبال شديدة البرودة إلى سهول الهند شديدة الحرارة. وهناك وجد أنه رغم عدم ترك الناس لقراهم، فقد هجروا المعابد البوذية بعد أن صاروا يؤمنون بالهندوسية. وكمن سبقه من الحجاج، أمضى

(١) أدى الميل إلى العيش فى الأديرة دوراً فى تدهور الطقوس والإيمان البوذى. وقد صاحب زيادة عدد مراكز الأديرة الكبرى تناقص فى عدد الأديرة المحلية، التى ظلت تخدم البوذية كنقاط تجمع مركزية لأهل الريف والمدن الصغيرة. وبعد ذلك امتد الإهمال ليشمل الأماكن المقدسة الأربعة، وهى مسقط رأس بوذا (لومبني) والمكان الذى شهد الصحو (بوذا جايا) ومكان إلقاء موعظته الأولى (سرانات) والمكان الذى توفى فيه (كوشنجا). وكل هذا دليل على ما أصبحت عليه البوذية فى الهند. (المترجم).

شيوان تسانج الأعوام التالية سائحاً في الهند، حيث زار الأضرحة البوذية. بل إنه في بعض الأحيان اضطر للسفر بمفرده إلى الأدغال الكثيفة لهذا الغرض. وكثيراً ما كان يدخل في مناظرات مع أبناء دينه من البوذيين (ذوى المشارب المتعددة) وأيضاً ممثلي الديانات الأخرى. وكان يحضرها عدد كبير من الناس.

إلا أنه بعد سنوات من الترحال عاد إلى وطنه، بعد أن جمع مئات من السجلات البوذية، وهو ما كان يسعى إليه من قيامه بهذه الرحلة الطويلة. وكما قال شيوان تسانج نفسه لهؤلاء الذين حثوه على البقاء في الهند: «لماذا تعبر الشمس الأرض؟ كي تطرد الظلال. ولهذا السبب تحديداً أرغب في العودة لبلدي».

وشاءت الظروف أن تكتمل الصورة التي لدينا عن تلك الفترة، حين كانت عودة شيوان تسانج براً من طريق مختلف سار خلال الجبال الواقعة وراء وادي نهر كابول. ومن هناك اتخذ الفرع الجنوبي من طريق الحرير إلى الصين. وكان شيوان تسانج قد وصل في إحدى مراحل رحلته إلى أقصى الشرق من الهند، حتى أن أهل البلاد أخبروه بأن إقليم سيتشوان كان على مسيرة شهرين. ومن حسن حظه أنه لم يشأ تجربة الطريق الذي يمر بالأدغال الجبلية وتكثر فيه الملاريا والأفيال البرية.

وتكرر ما حدث عندما كان شيوان تسانج في طريقه إلى الهند، حيث حظى بحماية الأمراء وهو في طريق عودته لبلاده. فقد رعى الملك البوذي هارشا، وكانت عاصمته كانوج تقع على نهر الجانج شرقى الهند، واحداً من أكبر الاجتماعات الدينية التي حضرها شيوان تسانج. وفي أوائل سنة ٦٤٣ اجتمع آلاف من الزائرين المشاهير، ملوكاً ورهباناً، بوذيين وهندوس وجينيين، في كانوج. جاء بعضهم على أفيال وبعضهم على عربات، وجاء البعض الآخر محمولاً على المحففات. وكان الجميع يحمل رايات ومظلات ذات ألوان زاهية. وإذا كان كاتب سيرة شيوان تسانج يخبرنا بأنه جعل أعداداً كبيرة تتحول إلى شكل البوذية التي يؤمن هو بها، فإننا نعلم من مصدر آخر أن النزاعات كانت شديدة السخونة، حتى أن بعض المنافسين البوذيين «دبروا مؤامرة تستهدف حياته». كما أن برجاً أُقيم ليوضع فيه تمثال لبوذا كان هدفاً للحرق. وتعرض هارشا نفسه لمحاولة اغتيال. وانطلاقاً من شعوره الديني ورغبته في حماية الزائر الصيني، رغم عدم كونه مسئولاً رسمياً، أعلن هارشا على الملأ حمايته لشيوان تسانج وجعل ذلك مقروناً بأشياء ملموسة:

أعطى أستاذ الشريعة ألف قطعة من الذهب و ٣٠ ألف قطعة من

الفضة ومائة ثوب من القطن الفاخر. وأمر أحد ضباطه بأن يزين له فيلاً ضخماً بأشياء ثمينة ودعا سيد الشريعة ليركبه. وفي النهاية أمر أصحاب أعلى المقامات في البلاد بأن يصحبوه، حيث طاف على كل الخلق المجتمعين...

كان هارشا آخر الأمراء البوذيين العظام في الهند. وبعد فشله في محاولة الإبقاء على الحاج الصيني كمبشر بين الرعايا الهنود، ترك شيوان تسانج يمضى إلى حال سبيله في أمان. وانطلق رسل هارشا على جناح السرعة قبل شيوان تسانج حاملين رسائل «كُتبت على قطع من القطن الأبيض خُتمت بالشمع الأحمر» لتأمين الترحيب به على الطريق. وكانت الكتب والتماثيل التي عاد بها شيوان تسانج قد عُهد بها إلى أمير (راجا) تولى إرسالها بالخيول والعربات. أما هارشا فكان حزيناً لرحيل شيوان تسانج، حتى أنه بعد ثلاثة أيام من مغادرة الحاج انطلق الملك وأمير بودى، ومعهما عدة مئات من الجنود الراكبين، في إثر القافلة التي تسير ببطء ولازموها عدة فراسخ أخرى. وكان ذلك في أبريل من سنة ٦٤٣.

في تلك الفترة كانت عصابات اللصوص تكثر في شمال الهند. إلا أن شيوان تسانج أرسل قبله رهباناً ليقولوا: «نحن متدينون جئنا من بلاد بعيدة طلباً لتعاليم الشريعة. وما نحمله معنا كتب ومخلفات وتماثيل مقدسة. أيها الرجال ذوو القلوب الكريمة، نحن نطلب منكم العون والحماية». ويبدو أن رجاءه كان له بعض الأثر. فلم يتعرضوا لمضايقات اللصوص عبر البنجاب. ويا ليت به بعث بهذا الرجاء إلى نهر السند، الذي كان بمثابة خطر حقيقى لحمولة الحجاج الثمينة:

وُضعت الكتب والتماثيل مع المسافرين في قارب كبير وعبر سيد الشريعة النهر على ظهر فيل. وكان قد طلب من أحد رجاله أن ينتبه إلى الكتب وبذور الزهور الهندية النادرة التي في القارب. ولكن ما إن وصلوا إلى منتصف النهر حتى اهتز القارب اهتزازاً شديداً بسبب الإعصار وكاد أن يغرق. ملأ الرعب قلب حارس الكتب فسقط في الماء وأخرجه رفاقه، إلا أنه فقد خمسين مخطوطة ومعها بذور الزهور وتمكنوا من إنقاذ الباقي بشق الأنفس.

ولكنه اعترافاً بالشرف الذى يحظى به شيوان تسانج، جاء ملكا كپيسا وكشمير لتحيته عند نهر السند. وأرسل له الأول نسخاً من الكتب التي ابتلعها النهر. ولم تكن دوافعهما

دينية خالصة بالطبع. فجحافل البدو من آسيا الوسطى كانت تهدد دائماً باجتياح الحدود الهندية الشمالية الغربية. وكان بعض ملوك الهند يفكرون في الصين كحليف لهم في المستقبل.

وهكذا انطلق شيوان تسانج على الطريق الملتوى في جبال هندوكوش إلى كاشغر، حيث مر بأسوأ ما مر به من بلاد بما فيها من عواصف ثلجية ورياح باردة، بينما كانوا يسرون من قمة إلى أخرى:

... عندما أدى البرد القارس إلى تراكم الثلوج، صعدوا الهضبة يقودهم واحد من أهل البلاد راكباً جملة الجبل. وسار الجميع بصعوبة وسط الثلوج المتراكمة وعبروا الفلوج على جسور من الثلج. وأى إنسان لم يتتبع خطوات الدليل كان مصيره السقوط والهلاك. وكانت القافلة كلها، وتشمل سبعة رهبان وعشرين حملاً وفيلاً وعشرة حمير وأربعة خيول، تجد مشقة في عبور الممر... لم يكن هناك أثر للنبات. لم يكن هناك سوى كتلة من الصخور التي تكومت على بعضها بطريقة عشوائية. وكانت الصواعد الصخرية الرفيعة في كل مكان، حيث بدت كأنها غابة من أشجار سقطت أوراقها.

سمعت قافلة الحاج عن قافلة تعرضت لعاصفة ثلجية شديدة أدت إلى تجمد كل من فيها، وكانوا آلافاً من التجار والجمال، حيث هلكوا جميعاً. ومع ذلك كان هذا الإقليم القاسي، الذي تهب عليه العواصف الثلجية حتى في منتصف الصيف، أرضاً مقدسها الحاج. إذ يقال إن بوذا سار عليه. كما أن البوذية دخلت آسيا الوسطى عبر تلك الممرات.

وعندما سار الحاج من جبال هندوكوش ومنها إلى جبال البامير في طريقهم إلى كاشغر، واجههم خطر من نوع آخر، وهو عصابة لصوص. وعندما شن قطاع الطرق هجومهم نفق الكثير من دواب الحمل حين سقطت من علي. بينما فر بعض التجار الذين انضموا إلى القافلة في الجبال. إلا أن شيوان تسانج تمكن من النجاة من هذا الخطر وشق طريقه عبر جبال البامير إلى كاشغر، مع من تبقى من قافلته. والشيء المثير أنه في إحدى الممالك الجبلية التي مر عليها في طريقه كانت لدى أهل البلاد أسطورة عن ملك فارسي وعدته بلاد هان بزوجة. وعندما لقيت أميرة هان متاعب في طريقها إلى بلاد فارس توقفت في المملكة الجبلية. كان توقفها مؤقتاً في بادئ الأمر، ولكنها بقيت هناك للأبد بعد ذلك.

ولا ندرى إن كان هذا من بقايا الروابط القديمة جداً بين بلاد فارس والصين، أم أن له علاقة بمصير واحدة من أميرات صينيات كثيرات أرسلن كرهائن لطموح بلادهم السياسى.

وبعد مرور شيوان تسانج فى أرض اليشب وصل فى النهاية إلى كاشغر، وهى إقليم جميل. وهناك أسعده ازدهار البوذية. حيث كان فى كاشغر عدة مئات من الأديرة بها ١٠ آلاف تابع. وبعد أن هبط شيوان تسانج إلى حوض تاريم. وإن كان مازال يسير على حافة الجبال، اتجه جنوباً إلى يرقند، وهى المدينة التى قُدِّرَ محيطها بـ ١٠ لى:

تحيط بها الصخور شديدة الانحدار والحصون الجبلية. المساكن عديدة. وتلى الجبال والتلال بعضها فى خط لاينقطع. أما البرودة والرياح فلا تنقطع طوال السنة.

وفى المدينتين، بصرف النظر عما لهما من «إيمان صادق»، لم يكن حب شيوان تسانج للناس كبيراً. وهو يشير إلى أن: «أدبهم محدود ومعرفتهم بالفنون والآداب لاتزيد عنه». ورغم مرور القوافل التجارية فى الجبال فى ذلك الوقت، فإن تلك الممالك لم تكن على اتصال كافٍ بحضارات آسيا العظيمة.

وخرجت القافلة من سفوح جبال البامير لتسير فى الصحراء إلى خوتان. وكانت تلك الأرض فى أغلبها «رمال وحصباء». ومع ذلك كان الجزء الخصيب من تلك البلاد محل إعجاب شيوان تسانج، حيث استحسن ما فيه من فواكه وفيرة. وكان فى خوتان أيضاً صناعة نشيطة تشمل السجاد والتافتاه والجوخ والأقمشة الحريرية الفاخرة، إلى جانب استخراج أفخر أنواع اليشب الأبيض والأخضر. وهناك وجد شيوان تسانج قوماً أكثر تحضراً وثقافة ولديهم حب جم للموسيقى والرقص. ومع ذلك كان إيمانهم بالبوذية قوياً. كانوا يذكرون بقوة كيف جاءت لهم أميرة صينية بسر تربية دودة القز.

وفى هذا المكان وجد شيوان تسانج دليلاً جلياً عن كيفية جفاف حوض التاريم، حيث اختفت الجداول والأنهار. ووجد أن المدن التى كانت يوماً تعج بالحركة والنشاط باتت خرائب لايسكنها أحد، وكانت تقع فى أرض مضى عليها زمن طويل وهى «مهجورة وموحشة» ولم تعد قادرة على أن تحيا من جديد لنقص الماء. وفى بعض الأماكن كانت «أسوار المدن ماتزال تقف عالية، ولكن السكان تشتتوا وتبعثروا». وفى جهات أخرى كان لايدل على مواقع المدن القديمة سوى تلال ضخمة من الرمال. وعن أحد هذه التلال يقول:

فى مرات كثيرة، أراد ملوك البلاد المجاورة وأصحاب النفوذ من أماكن بعيدة حفر التل واستخراج الأشياء الثمينة المدفونة تحته. ولكن ما إن يصلوا إلى حدود المكان حتى تهب ريح عاتية وتتجمع فى السماء سحب سوداء تأتي من كل اتجاه فيضلوا الطريق.

وربما تناقل الناس مثل تلك الخرافات على مر القرون، مما أدى إلى بقاء كثير من المواقع القديمة على ماهى عليه حتى مجئ علماء الآثار المحدثين.

أمضى شيوان تسانج عدة شهور فى ذلك الإقليم، مترقباً وصول المخطوطات التى تحمل محل تلك التى ضاعت عند عبور نهر السند. ولم يكن ترحيب أهل البلاد به فقط لكونه معلماً بوذياً، بل أيضاً لأنه من رعايا الصين. وفى فترة غياب شيوان تسانج عن بلاده، استجمعت إمبراطورية الصين قوتها من جديد. وكان شديد الإعجاب بالحماس الدينى عند الناس، وبوجود العديد من الكهوف والأديرة والتماثيل اللوحات المرتبطة بالبوذية. وكان ملك خوتان نفسه يعيش فى منزل فخم «يزدان باللوحات».

ورغم الراحة التى شعر بها شيوان تسانج وهو بين البوذيين المتحمسين فى خوتان وشان شان وتونهوانج، فلا بد أنه كان قلقاً غاية القلق بشأن شكل الاستقبال الذى ينتظره. فقبل ست عشرة سنة غادر البلاد مخالفاً أوامر الإمبراطور المباشرة. وفى القرون السابقة (واللاحقة) كان المواطنون الصينيون يُخصّصون أو تقطع رؤوسهم لارتكابهم جرماً يقل كثيراً عن ذلك. ودعاه هذا إلى التوقف عند إحدى النقاط الحدودية بالقرب من تونهوانج، انتظاراً لوصول رد من الإمبراطور على طلبه دخول الصين دون أن يناله أذى.

والشئ الذى لم يعلمه شيوان تسانج هو أن العالم تغير فى تلك السنوات الست عشرة، التى شهدت نهاية عهد وبداية عهد آخر. وكان الاجتماع الذى شهده فى سهوب القرغيز آخر اجتماعات الترك الكبرى. ولم يعيش صديقه الملك هارشا سوى أربع سنوات بعد تركه له. كما أن تدهور البوذية فى الهند كان أشد حدة بعد وفاته. وفى آسيا الوسطى والصين كانت تبزغ شمس يوم جديد بقيام أسرة تانج. وذلك هو العالم الجديد الذى يدخله الآن.

الازدهار الثانى

منذ اليوم الذى أخذ فيه فرسان الغرب يثيرون السخام
والغبار،
وشيآن [تشانج آن] ولو [لويانج] تعجان بالفراء والصوف
برائحتها الزنخة العفنة.
والنساء يعلن من أنفسهن سيدات غربيات بتعلمهن
الزينة الغربية؛
والعازفون يقدمون ألحاناً غربية، إخلاصاً منهم لموسيقى
الغرب.

- يوان تشن
شاعر من عهد تانج
من القرن الثامن



نقشه طريق الحرير في عهد السلطان محمد الثاني
 "نقشه طريق الحرير" في عهد السلطان محمد الثاني
 على نسخة الطبعة وضع سنة ٨٦٨ ميلادية (١٤٦٨ م)
 على نسخة الطبعة وضع سنة ٨٦٨ ميلادية (١٤٦٨ م)

إذا كانت بلاد فارس أعظم قوة على طريق الحرير في القرنين الخامس والسادس، فإن صين تانج^(١) كانت ولا شك الدولة المسيطرة في القرون التالية. فبعد سنة واحدة من مغادرة شيوان تسانج للصين، وكانت وقتها بلداً تعم فيه الفوضى، واجه أول أباطرة تانج، وهو تاي تسونج، الترك الشرقيين بالحيلة والخداع ثم طاردهم حتى بلادهم في منغوليا الخارجية على نهر أورخون. وطوال نصف القرن التالي كانت بلادهم جزءاً من الإمبراطورية الصينية. ويخبرنا سجل تركي يتضمن هذه النتيجة أن:

أبناء أشراف الترك أصبحوا عبيداً للصينيين وأصبحت بناتهم العذارى إماء. وهجر أشراف الترك ألقابهم التركية واتخذوا بدلاً منها ألقاباً صينية. لقد خضعوا للخاقان الصيني، الذي عملوا وكافحوا نيابة عنه طوال خمسين سنة. فقاموا بحملات من أجله ناحية الشمس المشرقة وفي الغرب حتى بلغوا البوابات الحديدية [في تركستان]. ولكنهم أسلموا إمبراطوريتهم ومؤسساتهم للخاقان الصيني.

وبعد أن أعلن إمبراطور تانج نفسه حاكماً لكافة أراضي الصين، أسرع بفرض سيطرة الصين على آسيا الوسطى، مستغلاً القوات التركية كجيوش تابعة.

وفهمت بعض واحات التاريم دلائل ظهور النفوذ الصيني فهماً صحيحاً، وعرضت دفع الخراج لإمبراطور تانج. ومن بين هذه الواحات كوتشا سنة ٦٣٠ وخوتان وكاشغر سنة ٦٣٢ ويرقند سنة ٦٣٥. أما ملك تورفان، وكانت تجرى في عروقه دماء صينية لأنه وُلِدَ أحد التحالفات العديدة التي تمت مع آسيا الوسطى بالمصاهرة، فقد سافر إلى الصين لإعلان تأييده لحاكم تانج الجديد. ولكن واحات التاريم لم تسقط في حجر الصين كما يسقط التفاح الناضج. ففي سنة ٦٤٠ غير ملك تورفان رأيه وتحالف مع بعض القبائل التركية الغربية، التي تفرقت عقب وفاة خانها سنة ٦٣٠، أي بعد أشهر قليلة من رؤية شيوان تسانج لاجتماعهم الضخم. وربما فعل حاكم تورفان ما فعله كثيرون غيره من قبل، حين اعتقد أن الصحراء ستحول دون وصول الجيش الصيني إليه. ويُروى أنه عندما خرج الجيش الصيني بغتة من صحراء جوبي، مات ملك تورفان من هول الصدمة.

ولا يلوم أحد ملوك تلك الدويلات، إن هم استمروا على ما هم عليه من تغيير

(١) امتد حكم أسرة تانج من سنة ٦١٨ إلى سنة ٩٠٧. (المترجم).

لولا أنهم، بعد قرون من الضعف والفوضى عاشتها الصين وآسيا الوسطى. فمن كان يسعه القول بأن تاي تسونج سيكون مختلفاً؟ ونجد أن ملك قره شهر، الذي ساعد الجيش الصيني في تورفان، تحالف بعد ذلك مع ملك كوتشا وبعض الترك الغربيين. إلا أن الصينيين حققوا انتصارات رائعة مستغلين عنصر المفاجأة والاستراتيجية الذكية. وعبروا فيما بعد عن امتعاضهم من خلال إعدام الأعداد الضخمة. وعن ذلك تقول الحوليات الصينية: «عم الرعب المناطق الغربية». وبحلول سنة ٦٤٠ كان الجيش الصيني، بما فيه من جنود جاءوا من بلاد الترك الشرقيين ودول التاريم، قد تغلب على الترك الغربيين وأباد بعض القبائل التي قاومته. ولكي يحافظ الصينيون على مكاسبهم في التاريم، تركوا جنوداً على النمط القديم فيما أطلقوا عليها الحاميات الأربع: قره شهر وكوتشا (مقر قيادة المناطق الغربية) وكاشغر وخوتان. أما الأراضي التركية السابقة شمالى جبال تيان شان فكانت تدار من القيادة الصينية في بيشباليق (المدن الخمس).

وفي الجنوب أيضاً فرض إمبراطور تانج إرادته. وكانت القبائل الجبلية، التي كانت تُغير على شمال غربى الصين من القفار القريبة من كوكو نور، قد توحدت تحت حكم ملك قوى^(١) في مدينة لاسا التي أنشئت حديثاً في هضبة التبت. وعندما أدرك الملك مزايا التحالف مع الإمبراطورية الكبرى الواقعة في الشرق، طلب الزواج من أميرة صينية ونال مطلبه^(٢). وأصبحت التبت مملكة قوية في بوذيتها. وفي ظل رعاية الأميرة الصينية، ظهر بمرور الوقت طريق جديد للحجاج يخترق التبت ويهبط إلى نيبال ومنها إلى الهند. وإذا لم يكن هذا الطريق مقترناً منذ القدم برحلات بوذا نفسه وبالأضرحة التي أُقيمت لتكريم مخلفات بوذية عديدة، فيكفيه أنه أقصر من غيره بكثير.

ونظر إمبراطور تانج إلى ماهو أبعد من ذلك. ففي سنة ٦٤٣، أى قبل عودة شيوان تسانج من رحلة الحج، أرسل تاي تسونج مبعوثاً إلى الملك هارشا البوذي في الهند. وعندما هوجم سفير صيني كان في طريقه للهند بعد أربع سنوات فقط، استطاع تاي تسونج أن يطلب من القوات التبتية والنيبالية البحث عن الجناة والقبض عليهم، حيث جىء بهم

(١) حقق سونجسان قامبو، زعيم شعب توبو، وحدة القبائل المشتتة في هضبة التبت. وكانت هذه الفترة، أى النصف الأول من القرن السابع الميلادي، تتميز بازدهار التبت وقوتهم. (المترجم).

(٢) تزوج سونجسان الأميرة الهانية ون تنسج التي أخذت معها إلى توبو الكثير من الفنين إلى جانب مصادر خاصة بفنون الإنتاج. كما حملت معها بذور الخضروات والمنتجات اليدوية والأدوية. وساهم هذا الزواج في توثيق العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين قوميتي الهان والتبت. (المترجم).

مكبلين إلى تشانج آن . وأرسل أمراء من مناطق بعيدة، مثل سمرقند وبخارى وكبيسا فى وادى نهر كابول، الخراج إلى أسرة تانج الجديد. وكان تاي تسونج يزهو بحق بما حققه قائلاً (طبقاً لما أورده كاتب سيرته):

فى العصور القديمة لم يخضع البرابرة حاكمٌ سوى تشين شى هوانج دى وهان وو دى. ولكنى عندما حملت فى يدي سيفه الذى يبلغ طوله ثلاثة أقدام، أخضعت المائتى مملكة وأسكت كل من هو داخل البحار الأربعة. بينما جاء البرابرة من أقصى الأرض واحداً تلو الآخر يعلنون خضوعهم.

وحدث فى سنة ٦٤٥، التى عاد فيها شيوان تسانج من مهمته المحظورة، أن تمكن تاي تسونج من إظهار كريم أخلاقه وتجاوز عن التحدى المباشر لسلطته الذى دام ست عشرة سنة. ومن موقع السلطة التى تحققت له حديثاً، أدرك تاي تسونج أن شيوان تسانج أصبح له أصدقاء عديدون فى أرجاء آسيا، مما أكسبه وأكسب الصين شرفاً عظيماً. كما أن معرفته المباشرة بالبلاد البعيدة لها قيمة كبيرة.

كان هناك اهتمام شعبى ضخم بالرحلات التى قام بها ذلك الحاج المهاب. وفى عيد الربيع عندما وصل شيوان تسانج إلى تشانج آن فى نهاية الأمر، وجد أن:

... خبر وصوله انتشر كالبرق وكانت الشوارع مكتظة بأعداد هائلة من البشر المتشوقين لرؤيته. وبعد أن ترجل من على مطيته حاول عبثاً أن يشق طريقه فى ذلك الجمع وقرر أن يقضى الليل على القناة.

كان تاي تسونج نفسه خارج المدينة لأمر طارئ. ولكنه كان قد أمر بإعداد استقبال حافل له. احتشد أتباع البوذية فى الشوارع ليحملوا المخطوطات والتماثيل والأشياء المقدسة إلى الأماكن المشرفة التى أُعدت لها فى دير السعادة العليا. وبدأ الموكب من شارع الطائر الأحمر، حيث تجمع الرهبان والراهبات فى زيهم الدينى، ليطوف بأنحاء المدينة. «واصطف سكان العاصمة والدارسون والقضاة على جانبي الشارع، حيث وقفوا فى أوضاع تنم عن الحب والتعجب».

وبعد عدة أيام استقبل الإمبراطور شيوان تسانج بنفسه فى لويانج. واتفق الاثنان على أن مخالفة الحاج للمرسوم الإمبراطورى كانت بدافع من الحماس الدينى. وسأله الإمبراطور

أسئلة دقيقة عن الأقوام والأماكن التي رآها في رحلته. وربما يكون استخلاص المعلومات بهذه الطريقة الدقيقة هو أصل الوصف التفصيلي، الذي نجده فيما كتبه عن رحلته وفي الحوليات عن تلك الفترة. ووجد الإمبراطور أن معلومات الحاج عظيمة الفائدة، مما جعله يتمنى أن يتولى منصب مستشار الإمبراطور، وهو الشرف الذي رفضه بكل احترام. وبعد رفض إنعام الإمبراطور، أمضى شيوان تسانج بقية حياته في أحد الأديرة مترجماً لمئات الأعمال البوذية التي جلبها من الهند، من السنسكريتية إلى الصينية. ولكن الدير كان قريباً من القصر الإمبراطوري في تشانج آن، مما أتاح له الذهاب إلى البلاط لتقديم النصح عندما كان الإمبراطور يرسل في طلبه في كثير من الأحيان. وبالطبع لم تقدم زيارة شيوان تسانج إجابات عن كل التساؤلات الخاصة بالمعتقدات البوذية. إلا أن الكتابات والأعمال الفنية والمخلفات التي أتى بها من الهند حددت الشكل العام للبوذية في الصين، إلى أن استعادت الديانة قوتها هناك. ولحسن الحظ، أنه حتى بعد أن فقدت البوذية موقعها في الصين، ظل الكثير من ترجمات شيوان تسانج قابلاً في الصحراء ليُعاد اكتشافه في القرن العشرين^(١).

وإذا كانت دول آسيا الوسطى أسرع في نهاية الأمر بدفع الخراج للإمبراطورية الصينية، فلم يكن وراء ذلك إجبار الصينيين لهم كي يفعلوا هذا. ولكن حيث إن الاستغلال كان نوعاً من الترف الذي نادراً ما تناله الدول الصغيرة، فقد شعر كثير منها بالحاجة إلى مدافع جديد وقوى، حيث كانت أمارات الضعف في غرب آسيا كثيرة وتندر بالسوء.

وكما هو حال بارثيا قبلها، ابتليت بلاد فارس بالنزاعات العصبية. ووصل الأمر مع بداية القرن السابع إلى استيلاء أحد القادة على العرش الفارسي بانقلاب. مما اضطر الوريث الشرعي للعرش، وهو كسرى الثاني^(٢)، إلى اللجوء للرومان من بين كل الخلق. وأمد الإمبراطور الروماني الملك الفارسي بالجيش الذي احتاجه لاستعادة العرش، وإن كان الثمن هو التخلي عن أرمينيا^(٣). إلا أن الفرس استعادوا أرمينيا سنة ٦١٠ ونهبوا المدن السورية

(١) حصل عليها أوريل ستاين من «كهوف الألف بوذا» وسيأتي ذكرها بالتفصيل فيما بعد. (المترجم).

(٢) هو كسرى بروتز بن هرمز بن كسرى أنوشروان وهو آخر ملوك الفرس العظام. وبعد أن خلف أباه على العرش نازعه عليه القائد بهرام جيوين الذي حاربه بجيش قوامه ستة آلاف فارس، كما جاء في «الشاهنامه»، ففر كسرى إلى القسطنطينية حيث استقبله الإمبراطور موريقيس استقبالا حسناً وانتهز هذه الفرصة ليفرض سلطانه على بلاد فارس. وبعد أن أمد كسرى بجيش ييزنطى كبير استعاد به عرشه، روجه ابنته واتخذته ولداً له.

(٣) جاء في «مروج الذهب» للمسعودي: «... واشترط ملك الروم [موريقيس] على أبرويز شروطاً كثيرة منها النزول عن الشام ومصر...». (المترجم).

الكبرى، أنطاكية ودمشق وأورشليم (حيث أعدموا مايربو على ٥٠ ألف مسيحي وحملوا «الصليب الحقيقى» إلى طيسفون) وانطلقوا إلى مصر، التى لم يحكمها الفرس منذ ما قبل الإسكندر الأكبر. كما استولوا على أنقرة، حيث تلتقى طرق الأناضول، وحاصروا القسطنطينية نفسها^(١).

وفى ذلك الوقت الذى كان الخطر فيه شديداً، شاء حظ الرومان فى آسيا الوسطى أن يتلقوا مساعدة حليف جديد، هو مملكة الخزر. والخزر قوم مثيرون للدهشة لا يُعرف عنهم الكثير. وربما يكون اسمهم مشتقاً من الكلمة التركية تعنى «البدو»، وهذا هو حالهم بالفعل. وقد تكون من أصل آخر معناه «على الجانب الشمالى من الجبل»، وهذا أيضاً محتمل. فغالباً ما كان يُطلق عليهم «أهل الشمال» أو «مملكة الشمال» الواقعة وراء القوقاز.

وأصل الخزر أمر محير. فالبعض يرى أنهم ينحدرون من أصل هونى (شيونج نو). بينما يعتقد آخرون أنهم فى واقع الأمر قبيلة كوسا من الترك الأويغور^(٢) الذين رحل بعضهم إلى الغرب. وتوصف جماعة من هؤلاء القوم الغامضين، وتسمى الخزر السود، بأن «بشرتهم داكنة مثل الهنود». ويبدو أن منهم من هو أبيض البشرة. ويشير وصف عربى من القرن التاسع إلى أن: «... بشرتهم بيضاء وعيونهم زرقاء وشعرهم منسدل ويغلب عليه الاحمرار وأجسامهم ضخمة وطبائعهم باردة. واتجاههم العام وحشى». إلا أن هناك من يُقال إن بشرتهم بيضاء وعيونهم زرقاء ولكن شعرهم أسود. فى حين قد يكون بعضهم ذوى عيون منحرفة. خلاصة القول هى أن هؤلاء الخزر كانوا قوماً من أصول عرقية شديدة التنوع (مثل أغلب شعوب آسيا الوسطى) وقدر لهم أن يزدادوا تنوعاً بسبب توسعهم وإدخال قبائل أخرى تحت حكمهم.

ولكنه فى الفترة التى نحن بصدددها، كان الخزر خاضعين للترك الغربيين الذين كانوا لا يزالون على وحدتهم. كما أنه كان أمامهم وقت طويل كى يأخذوا منهم لغتهم وكثيراً من

(١) خلع الإمبراطور موريقيس وقتل سنة ٦٠٢ فصمم برويز على أن يثار لحليفه، وحقق الفرس انتصارات على الروم فاجتازوا الفرات واستولوا على حلب وغزوا أرمينيا وتوغلوا فى آسيا الصغرى. وبعد أن ثار الناس على الإمبراطور فوكاس الذى خلف موريقيس وتولى هرقل الملك، عاد برويز لحلف الروم واستولى على أنطاكية ودخل الفرس دمشق سنة ٦١٤. ودعا قواد الفرس إلى القضاء على المسيحيين وعاونهم اليهود فاستولوا على بيت المقدس وأخذوا الصليب الذى صلب عليه المسيح. ثم استولوا على مصر سنة ٦١٦. (المترجم).

(٢) قبائل تركية هاجرت إلى الصين تحت ضغط الفرغيز. وفى القرنين التاسع والعاشر ظهر الأويغور فى حوض بحر قزوين ومنطقة الأورال وأقاموا مملكة فى حوض نهر سيحون دمرها القبيجاق، وهاجر جزء منهم إلى الشرق الأدنى بقيادة سلجوق ليؤسسوا الدولة السلجوقية. (المترجم).

نظمهم الاجتماعية والسياسية. ومن المحتمل أن هؤلاء الخزر، الذين كانوا يشغلون جيلاً هاماً يمتد على بحر قزوين بين جبال القوقاز ونهر أتل (الفولجا)، كانوا أنفسهم الحلفاء المجهولين الذين حذروا، قبل عشرات من السنين، المبعوث الروماني زيمارخوس من الكمين الفارسي الذي كان ينتظره عندما يعبر الجبال. وكان الخزر يسيطرون على عمر دربند، وهو المدخل الرئيسى إلى سلسلة جبال القوقاز، وإن لم يكن الوحيد.

وعلى أية حال، فإن الخزر أمدوا الإمبراطورية الرومانية الشرقية بالمساعدة التى كانت فى أمس الحاجة إليها. وعندما طرد هرقل إمبراطور الرومان القوات الفارسية من الأناضول وأرمينيا، تدفق الخزر عبر القوقاز ليشاركوا فى الهجوم على بلاد ما بين النهرين. وخلال عدة سنوات كان كسرى^(١) ملك الفرس محاصراً فى طيسفون. وعندما رفض الصلح قتله أتباعه، ومن بينهم ابنه (وكانت أمه أميرة رومانية). ومن خلال ما أصبح كأنه حرب مقدسة، أعاد الرومان «الصليب الحقيقى» إلى أورشليم. وهكذا عقدت القوتان الغربيتان صلحاً لم يكن سهلاً.

واستعادت الإمبراطورية الرومانية الشرقية أراضيها فى آسيا وكسبت معها موضع قدم لها على طريق الحرير عند بحر قزوين. ورغم ما يتضح من عدم نجاح الرومان فى أن يكون لهم اتصال مباشر مع الصينيين، يبدو أن بعضاً من تجارتهم عبرت القارة. وتشير الحوليات الصينية إلى أنه فى عشرينيات القرن السابع أهدى ملك تورفان لابن السماء كلباً صغيراً من فولين فى مناسبتين مختلفتين. وفولين هو الاسم الذى عرف به الصينيون الإمبراطورية الرومانية الشرقية منذ ذلك الوقت. وشيئاً فشيئاً أخذت الإشارة إلى لى كان أو تا تشين تختفى، اعترافاً بانتقال السلطة من روما، وبالنسبة للصينيين من أنطاكية، إلى القسطنطينية.

وفى تلك الفترة أُعيد تنظيم الإمبراطورية الرومانية الشرقية. ومع أن كثيرين كانوا لا يزالون يعتقدون أنهم ورثة روما، وأطلقوا على لغتهم «روم»، فحقيقة الأمر هى أن الإمبراطورية كانت فى معظمها تتحدث اللغة اليونانية. وهى من ناحية تعد آخر دول خلفاء الإسكندر. وما يدل على ذلك أنه غالباً ما كان يُشار إلى الدولة بعد ذلك على أنها

(١) هو هرمز بن كسرى أنوشروان. وجاء فى «مروج الذهب» أن خالى ابنه برويز قتلاه خنقاً رغم طلب برويز منهما ألا يفعل ذلك. ولكنهما بررا فعلتهما بخوفهما إن هم ذهبوا إلى بلاد الروم ليستنجدوا بملكها أن يدخل عليه بهرام ويضع التاج على رأسه ويجبره على الكتابة إلى قيصر فيحملهم إليه ويقتلهم بهرام. وجاءت القصة نفسها فى «الشاهنامه»، حيث ذكر أن برويز اصفر وجهه عندما لحق به خاله وأحس بالحال ولكنه سكت. (المترجم).

الإمبراطورية البيزنطية . وبيزنطة هو الاسم اليوناني للمدينة القديمة التي حلت القسطنطينية محلها .

وفي حين ظلت الإمبراطورية البيزنطية السوق الرئيسية للسلع الشرقية ومُورِّدِها الأول لأوروبا، يبدو أنها كانت تمارس التجارة في المقام الأول شمالى البحر الأسود، من خلال الخزر الذين صاروا قوماً أثرياء، إلى جانب شبكة تجار آسيا الوسطى الذين كانوا يعملون في المدن التركية الواقعة شمالى جبال تيان شان، خاصة آمالك وبيش باليق اللتين كانتا يوماً تحت سيطرة الصين . وكما هو الحال دائماً، كان ذلك هو الطريق المفضل لدى المسافرين عندما حل السلام . ورغم الوجود المتواضع لليونان البيزنطيين على طريق الحرير، يبدو أنهم لم يعتمدوا عليه كمصدر رئيسى لما يردهم من بضائع شرقية، حيث كانت بلاد فارس لاتزال في حالة اضطراب .

ربما كان السلام مع الإمبراطورية البيزنطية وراء احتفاظ الفرس بأراضيهم الشرقية، إلا أن تتويج اثني عشر ملكاً في الأربع عشرة سنة التالية أظهر بجلاء الوضع السيئ الذى كان فيه الفرس . وبحلول سنة ٦٣٢، عندما تولى العرش يزجرد^(١) آخر ملوك الفرس، كان آخر أمل في الحفاظ على الإمبراطورية قد ضاع . ففي ذلك العام توفى النبی محمد (وكان تاجراً وقائد قافلة على طريق البخور بين جزيرة العرب وسوريا، قبل أن يُبعث رسولاً) .

وخلال عام واحد كانت جيوش المسلمين على الطريق لنشر عقيدة محمد في بلاد غرب آسيا . وخلال عقدين فقط أتمت فتح سوريا وبلاد ما بين النهرين ومصر وجزءاً كبيراً من أرمينيا ومعظم بلاد فارس . أما الشريط الجبلى، الذى يمر فيه طريق الحرير جنوبى بحر قزوين، فكانت القبائل الإيرانية فيه على قدر من القوة جعلها تحافظ على استقلالها لبعض الوقت من خلال مملكة أُطلق عليها طبرستان . وكما فعل دارا في مواجهة الاسكندر، هرب يزجرد من العرب شرقاً حتى بلغ مرو، حيث قُتل أيضاً على أيدى أتباعه . وكانت رسائله اليائسة، التى بعث بها إلى سائر ملوك آسيا يرجوهم مساعدته، غير ذات أثر . وهكذا انتهت الإمبراطورية الفارسية سنة ٦٥١ .

(١) هو يزجرد بن شهریار بن كسرى أبريز بن هرمز بن كسرى أنوشروان، واستمر ملكه حتى سنة ٦٥٢ وقُتل بمرور من بلاد خراسان في خلافة عثمان بن عفان . وكان قد ذهب إليها بعد هزيمته من جيش سعد بن أبى وقاص حيث اختلف هو وصحبه مع أهل خراسان وآوى إلى طاحونة لحقوه فيها وقتلوه . (المترجم) .

أما فيروز بن يزجرد فقد لجأ إلى بلخ (وكانت تسمى تخارى فى ذلك الوقت) حيث سارع بطلب العون من إمبراطور تانج. ولم يكن ذلك أمراً مستغرباً، حيث كانت هناك علاقات بين فارس والصين منذ قرون طويلة. وتحدث الحوليات الصينية عن وصول السفراء الفرس فى سنوات ٤٦١ و ٥١٨ و ٥٢٨ إلى جانب سفارة أخرى فى الربع الثانى من القرن السادس وسفارة فى العقد الثانى من القرن السابع. وأغلب الظن أن هذه مجرد أمثلة للاتصالات بين الصين وبلاد فارس. وهذا ماتوحى به هدية صينية أرسلت إلى كسرى أنوشروان ملك فارس قبل وفاته سنة ٥٧٩ وتوصف بأنها:

... ثوب حريرى صينى عسجدى فيه صورة الملك جالساً فى إيوانه،
وعليه حلите وتاجه، وعلى رأسه الخدم، وبأيديهم المذاب، والصورة
منسوجة بالذهب، وأرض الثوب لازورد، فى سبط من ذهب، تحمله
جارية تغيب فى شعرها، تتلأأ جماًلاً... (١)

وتمكن فيروز سنة ٦٦١ من دخول بلاد فارس بمساعدة الصينيين، حيث وصل إلى طيسفون على نهر دجلة. إلا أن استعادته لعرشه لم تدم طويلاً. فبعد سبع سنوات كان فى منفاه من جديد، وكان تشانج آن هذه المرة. وفى سنة ٦٧٤ منحه الصينيون منصباً شرفياً بقصر مدينة الحرير، ولكنه غادر الصين بعد سنة واحدة ليحاول مرة أخرى استعادة عرشه. وكان حظ هذه المحاولة من النجاح أقل من سابقتها. فبعد الهزيمة النهائية الساحقة التى ألحقها به العرب فى بلخ سنة ٧٠٧، عاد هو وابنه نرسى إلى تشانج آن ليموتا هناك كمنفيين بلا أرض يحكمانيها (٢).

ولم يكونا فى الصين وحدهما بلا أحد من أبناء بلدهما. فالكثيرون من فارس وتركستان فروا إليها من العرب. وأصبح طريق الحرير طريقاً للاجئين، إلى حد ما. والواقع أن ذلك بدأ فى زمن سابق. فأثناء حرب الفرس الأخيرة مع الإمبراطورية الرومانية اضطهدوا المسيحيين فى بلادهم اضطهاداً شديداً، إذ كانوا يتوقعون منهم الخيانة. وقبل كثير منهم اللجوء إلى القسطنطينية وساعدوا فى تحديد صورة الإمبراطورية البيزنطية بعد

(١) هذا هو وصف الهدية كما وجدته فى «مروج الذهب». (المترجم).

(٢) لم يأت ذكر لهذه القصة فى «الشاهنامه» أو «مروج الذهب» حيث جاء فى «الشاهنامه» أنه «... كانت فى انتهاء أمر يزجرد انتهاء أمر ملوك العجم. اصحار أسود العرب من الأجسم. فملك ديارهم أمير المؤمنين أبو حفص عمر بن الخطاب...» كما ذكر المسعودى أن يزجرد كان «آخر ملوك الساسانية». (المترجم).

إصلاحها. إلا أن كثيرين من المسيحيين الآسيويين الغربيين، وكانوا نسطوريين تعتبرهم كنيسة بيزنطة الأرثوذكسية هراطقة، لم يتجهوا غرباً، وإنما ساروا على طريق الحرير حتى دخلوا الصين. وكانوا يدعون إلى دينهم على طول الطريق إليها. وسُجل وصول أول مسيحي من بلاد فارس إلى الصين سنة ٦٣٥ بعد ذلك بـ ١٥٠ سنة على لوح فى تشانج آن (عُثر عليه فى القرن السابع عشر). ومكتوب على اللوح:

بينما كان الإمبراطور الباهر تاي تسونج يستهل عهده الميمون بجلال ومجد، ويحكم شعبه بحكمة ثاقبة، كان فى تا تشين رجل على قدر كبير من الصلاح يسمى ألوين، جاء إلى هنا بالكتابات الحقّة، حسب نبوءة السحب الزرقاء. وبعد دراسة حركة الرياح، سارع بمواجهة الأخطار والمصاعب ووصل إلى تشانج آن...

ومع أن شهرة تاي تسونج تعتمد فى المقام الأول على تفوقه العسكرى، فقد كان حاكماً متسامحاً فى كثير من الجوانب. وبعد ثلاث سنوات (وقبل استقباله الرائع لشيوان تسانج عند عودته بسبع سنوات) أعلن:

الطريق له أكثر من اسم، والحكماء لهم أكثر من طريقة، والمعرفة من الكثرة بحيث تناسب كل البلاد، لكى تنجو كل المخلوقات. والرجل الصالح ألوين جاء من بلاد بعيدة حاملاً كتباً وصوراً إلى عاصمتنا... إنها خلاص المخلوقات الحية وثروة البشرية. وصحيح أن هذه التعاليم ينبغى أن تنتشر بحرية فى أنحاء الأرض.. لذلك فليبن المسئولون المحليون ديراً لتا تشين فى حى آى ننج بالعاصمة يضم ٢١ راهباً منتظماً.

وهكذا وجد من ارتبطت عقيدتهم بأورشليم وطناً لهم فى تشانج آن.

وأمام تقدم الجيوش العربية، اتجه كثيرون غيرهم من الفرس شرقاً، خاصة إلى مدن القوافل المزدهرة فى بلاد الصغد ووصل بعضهم إلى الصين فى أقصى الشرق. وكان بين هؤلاء المانويون، الذين ظلوا يعيشون فى الإمبراطورية الإيرانية وكانوا ينتشرون أيضاً فى اتجاه الشرق. وعلى خلاف النسطوريين الذين لم يستقروا فى أعداد كبيرة على طريق الحرير، مما أدى إلى قلة نسبية فى عدد من اعتنقوا مذهبهم على طرق التاريم، كان المبشرون المانويون

يعملون بتؤدة على طريق التاريم الشمالى مؤكدين نفوذهم فى الواحة تلو الأخرى. وكما كان للبوذيين سلسلة من الواحات على امتداد طريق التاريم الجنوبى، سرعان ما أصبح للمانويين نفوذ على الطريق الشمالى، حيث تصارعوا مع البوذيين على السيادة الدينية. ويبدو أن الديانة المانوية وصلت الصين فى أواخر القرن السادس، وإن كان من الواضح أن أول مبشر مانوى وصل مباشرة من الغرب سنة ٦٩٤.

هرب الصغد أيضاً شرقاً فراراً من العرب. وكان التجار الصغد قد أقاموا فى القرون السابقة مستعمرات فى أنحاء مختلفة من التاريم، ليس فقط عند أعتاب الصين، وإنما أيضاً فى لويانج العاصمة الشرقية. وهاجر فى أعقابهم غيرهم، فيما يبدو أنه سعى وراء مزيد من الأرض، ليؤسسوا مدناً محصنة على مجارى المياه وفى الواحات من سمرقند حتى لوب نور. وكان انهيار الفرس ووصول العرب مجرد باعث على عملية الانتقال تلك. وساهم هؤلاء القادمون الجدد مساهمة مذهلة فى ثقافة شرق آسيا ووسطها.

وكان الصغد أيضاً هم من أدخلوا القنوات (وتسمى «كاريز») شرق آسيا، وهى أنفاق تحت الأرض تُستخدم فى الري أتاحت للزراع جلب الماء الباعث للحياة إلى حقول فى الصحراء تبعد عشرات الأميال فى بعض الأحيان، دون أن يضيع الماء كله فى الجو الجاف. وهذه القنوات، التى كانت تستخدم على نطاق واسع فى الأجزاء الجذباء من الإمبراطورية الفارسية (وإن تركت بعد ذلك نهياً لعوامل الفناء والإهمال)، أتاحت للصغد زراعة حدائق غناء وحقول خضراء فى أراض كانت قبل ذلك صحراء جرداء. وأصبح الشام والفاكهة الغضة من كل صنف منتجات شائعة فى الواحات الشمالية. وكان بين ذلك خوخ الصغد الأصفر الذى يتميز بحلاوة طعمه وكبر حجمه («فى حجم بيضة الأوزة»). وسر الإمبراطور الصينى بهدايا من «خوخ سمرقند الذهبى» هذا، حتى أن بعض أشجار الفاكهة الممتازة جىء بها عبر طريق الحرير وزرعت فى البساتين الإمبراطورية فى تشانج آن.

إلا أن معظم الصغد أحبوا العنب وأنواع النبيذ التى تُصنع من هذه الفاكهة. بل إن إحدى مدنها الواقعة فى لوب نور كانت معروفة لدى الصينيين بـ «مدينة محبى النبيذ». وكان الصينيون قد عرفوا العنب وزرعوه منذ زيارة تشانج تشيان الأولى للغرب قبل سبعة قرون، إلا أنهم لم يستخدموه فى صنع النبيذ. وربما يرجع ذلك إلى أن أشجار العنب التى استوردوها كانت تطرح عنباً صغيراً لم يكن صالحاً تماماً لصنع النبيذ. إلا أن عنب «حلمة الفرس» الصغدى كان كبير الحجم وافر العصير، مما جعل الصينيين يكتبون قصائد فى مدح

«عنب الأم الملكية [الغربية]» هذا. واعتباراً من عصر تانج أخذ الصينيون يصنعون النبيذ من العنب، وإن كان ذلك لا يعنى إلغاء أنواع النبيذ الوطنية كتلك المصنوعة من الأرز^(١).

وكان الصغد في الوقت نفسه صناعاً مهرة للمعادن. فخلال الفترة التي كانوا خاضعين فيها لحكم الترك تعلموا كل المهارات التي كان يتمتع بها صنّاع المعادن المهرة هؤلاء. كما أضافوا إلى ماتعلموه لمساتهم الخاصة، إلى جانب الأساليب الآسيوية الغربية التي وصلتهم عن طريق الفرس. وكانت المحصلة النهائية شيئاً خاصاً بهم. وكان الدرع الصغد، وهو ماثمير به هؤلاء الحدادون، مشهوراً في أنحاء آسيا. وأمد صانعو الدروع في سمرقند المحاربين الآسيويين قروناً طويلة بالسترات الواقية المرنة. وفي عهد تانج حل هذا النوع من الدروع محل الدرع المصفح المستخدم في الصين منذ عهد هان.

وجاء الصغد إلى الشرق أيضاً بأساليب صنع الزجاج التي كانوا يستخدمونها في دور الزجاج القريبة من سمرقند. وكان الصينيون يرغبون منذ زمن بعيد في معرفة كيفية صنع الزجاج عالي الجودة، خاصة الزجاج الملون الذي كانوا يرغبون بشدة في الحصول عليه من الغرب وظلوا يستوردونه منه. وفي نهاية الأمر تعلموا الأساليب السرية من الصغد في القرن الخامس. إلا أن الصينيين لم يشتهروا بصناعتهم للزجاج. وربما يكونون قد ابتكروا في القرن السابع أساليب صنع البورسلين الحقيقي الذي اشتهروا به في أنحاء العالم^(٢).

وجاء الصغد أيضاً بمهارات أخرى، كحفر الخشب والنسيج. وليس هناك ما يوضح إن كانوا قد جاءوا عبر طريق الحرير بأسلوب جديد للنسيج، كما يرى البعض، أم لا. إلا أنه من المؤكد أن الرسومات والأساليب التي جاء بها الصغد وغيرهم من المهاجرين الغربيين كان لها تأثير كبير على الفنانين والصناع الصينيين في عهد تانج، حيث بدأت الموتيفات الفارسية، كأزواج الطاووس المتكررة والخيول المجنحة، تظهر في الفن الصيني ورسوماته. كما أنهم أثروا بعد ذلك على رسومات أوروبا في العصور الوسطى.

كان تأثير الصين ككل أكبر بكثير من خلال اتصالها بأهل الغرب في عهد تانج منه في أي عصر سبقه. واستمرت الكتابات والمخلفات البوذية في التدفق عبر طرق الحج من الهند

(١) ما يُسمى بالنبيذ الصيني هو في العادة شراب حلو مخمر مصنوع من حبوب مختلفة منها الأرز يُسمى «الديراسون» أو «التاراسون» أو «التراسينا». (المترجم).

(٢) يُعرف في كل مكان بالصيني. (المترجم).

إلى الصين، عن طريق التبت وخوتان. وفي حين كان التأثير الهندي على أشده، عرفت كتابات سنسكريتية في الطب والفلك والرياضيات والموسيقى طريقها أيضاً إلى الصين. وتعاضم أثرها عندما ابتكر صناع تانج في أوائل القرن الثامن أساليب الطباعة بالقوالب الخشبية. وكانت صفحات كاملة من النصوص أو الأعمال الفنية تُحفر على قوالب خشبية يمكن استعمالها في طباعة نسخ عديدة، إما على هيئة أوراق منفردة أو كتب مكتملة باستعمال قوالب متتالية. ولم تكن تلك الكتب عبارة عن صفحات كما هو حال الكتب التي نعرفها، بل على شكل لفافات تطوى. وكان الصينيون قد تعلموا قبل ذلك بقرون صنع الورق من الخرق البالية، وهو وسيلة للطباعة أرخص من الحرير أو الرق أو البردي، كما في الغرب. وكانت توليفة الطباعة بالقوالب الخشبية والورق معناها سهولة نشر الأعمال الغربية، وكذلك الصينية، بين جمهور أكبر عدداً. وطبع الصينيون أيضاً أوراق اللعب (الكوتشينة) والنقود. وكلاهما كان مثار دهشة وتعجب أجيال من الزوار الغربيين.

ومع وجود كل هذه التأثيرات الغربية، كانت المدينتان العظيمتان تشانج آن ولويانج، الواقعتان عند طرف طريق الحرير، مدينتين عالميتين بحق. وكانت لويانج، التي يزيد سكانها على المليون، تقع عند التقاء طريق الحرير بطريق السفراء الذي يتجه جنوباً إلى ميناء كانتون (نان هاي). وكانت للفرس تجارة بحرية نشطة على طريق التوابل تصل إلى جنوبي الصين. وبعد فترة انقطاع قصيرة، ورث الفاتحون العرب، الذين أصبحوا بحارة مهرة، هذه التجارة ووسعوها. وسار مستولون محليون وسفراء أجانب وتجار من كل صنف ولون من الجنوب حتى لويانج، حيث اكتشفوا هناك قصوراً بديعة وحدائق جميلة ومجمعاً كبيراً للأسواق يُسمى السوق الجنوبية ومعابد للديانات الغربية عن المنطقة، سواء كانت زرادشتية أم بوذية أم كنائس مسيحية أم مساجد للمسلمين في وقت لاحق.

وكانت تشانج آن، وهي المحطة الأخيرة في طريق الحرير والمقصد الأساسي لمعظم تجار الغرب، في ضعف حجم لويانج ويسكنها مليونا نسمة تقريباً. وتجمع الصغد والترك والفرس والهنود والعرب وكل شعوب آسيا الوسطى في السوق الغربية الكبيرة، حيث كان التجار الأجانب يبيعون بضاعتهم في الغالب الأعم. (وكانت السوق الشرقية أقل حركة وأكثر هدوءاً وتتعامل في المقام الأول مع الصينيين الموسرين المقيمين في المساكن القريبة). وطبقاً للنمط الآسيوي، كانت الأسواق مقسمة إلى أسواق صغيرة لا حصر لها. وكان كل منها مخصصاً لسلعة مختلفة، كالحديد أو الحرير أو العقاقير أو الشاي، الذي كان قد أصبح منذ فترة وجيزة مشروباً شعبياً، أو السروج. وهنا أيضاً تجدد المزابين، وأغلبهم من الترك

الأويغور الذين اكتسبوا سمعة سيئة بسبب الضغائن التى تولدت فى نفوس المقترضين تجاه المرائين . وهكذا نجد أن عدد التجار الأجانب الذين كانوا يجتمعون فى تشانج آن من الكثرة بحيث عيّن حكام تانج «مسئولاً» خاصاً «عن السارتافاك» (وهى كلمة هندية معناها رئيس القافلة) لمراقبة نشاطهم فى الصين .

وفرضت الحكومة الصينية قيوداً كثيرة على الأجانب . إذ كانوا مجبرين على الإقامة فى أحياء معزولة داخل المدينة . ولم يكن هناك أى تشجيع للتأخى العابر مع أهل البلاد ، وخاصة أن الحكومة كانت تدرك أن التجار قد يقيمون روابط ثم يغادرون الصين . ولكى يحمى الإمبراطور ضحايا مثل هذه الترتيبات المؤقتة ، أصدر مرسوماً سنة ٦٢٨ يقضى بأنه فى حالة اتخاذ أى أجنبى زوجة أو عشيقة صينية لابد أن يبقى فى الصين ، ولا يجوز للزوجة أن تلحق به فى الغرب . كما لا يحق له أن يعود بمفرده . (يأتى هذا رغم إرسال الأميرات الصينيات إلى أنحاء آسيا على مر القرون ، لدعم التحالفات السياسية قصيرة المدى) .

وفى الوقت نفسه كانت هناك عراقيل تواجه التجار الأجانب بسبب احتكار الحكومة لكثير من السلع الأساسية . وفى سنة ٧١٤ ، على سبيل المثال ، حُظر على الأفراد الصينيين أن يبيعوا للأجانب أو يُصدّروا لهم ذبول بقر الياك أو اللؤلؤ أو الحديد أو الذهب أو الحرير الفاخرة ، ومنها أقمشة المفروشات والدمقس والغزى والأقمشة ذات التطريز الدقيق . كما فرضت الحكومة الصينية مراقبة صارمة على السلع التى تدخل البلاد . فالسلع التى يُعتقد أنها تضر الناس ، أخلاقياً أو مادياً ، كانت تُصادر . أما تلك التى يُعتقد أنها رائفة أو فاسدة فكانت تلقى نفس المصير ، وربما يُسجن مستوردها . بل إن الواردات المسموح بها لم تكن لتباع إلا فى أسواق خاصة تحت إشراف حكومى دقيق ، حيث كان المسئولون يأخذون حصة كبيرة منها على سبيل «رسوم الجمارك» .

ورغم كل هذا ، لم ينقطع وصول التجار الأجانب إلى الصين ، حيث حقق بعضهم أرباحاً ضخمة . لقد جعلوا أحياءهم الأجنبية فى جاذبية أى حى مشابه فى المدن الساحلية الحديثة . وكان البوذيون القادمون من الهند أو آسيا الوسطى يجدون فى المدن الصينية الشمالية رقصات وتسلية دينية . وكان الزوار القادمون من أماكن بعيدة يجدون فى الحانات مغنيات غريبات كن يسرين عنهم ويذكرنهم بمباهج الوطن . وكان يعمل فى تلك الحانات الكثيرات من الساقيات أو الغانيات الغريبات لجذب التجار الأعزاب والمساعدة فى سحب أموالهم .

إلا أن الأحياء الأجنبية كانت تجتذب أيضاً المواطنين الذين يبحثون عن متعة ما هو غريب عنهم، كما يجرى في كثير من المدن الحديثة. وهكذا انجذبت أعداد كبيرة من الصينيين إلى الحانات الغربية في تشانج آن وغيرها من المدن. وكان بين هؤلاء شعراء خلدوا في قصائدهم عن تلك الفترة أهل الفن من نساء جميلات وغلما ن جاءوا من كوتشا وكاشغر وسمرقند وفارس. وكتب أحدهم عن «الحرورية الغربية [التي] تلوح بيدها البيضاء دعوة للغريب كي يسكر بكأس ذهبية». ويبدو أن بعض هذه المخلوقات الفاتنة تعيش وتنفس في كلمات كُتبت قبل مايزيد على ١٢٠٠ سنة، كتلك المرأة الغربية التي وصفها الشاعر لى باي:

تلك الحرورية الغربية محياها كأنه الزهرة.
هاهى تقف بجوار دن النبيذ ضاحكة بأنفاس الربيع
إنها تضحك بأنفاس الربيع
وترقص فى ثوب من الغزى!

ولم يكن الوجهاء الذين يرتادون الحى الأجنبي هم وحدهم من تأثر بما هو غريب عن البلاد. فقد اجتذب البلاط الصينى نفسه أعداداً لا تحصى من الغربيين. وكان كثيرون من هؤلاء بالطبع مبعوثين وفدوا من دول أجنبية. إلا أن كثيرين منهم كانوا فى واقع الأمر «خراج بشرى» أرسله الحكام الغربيون أملاً فى كسب ود الإمبراطور الصينى وتقرباً إليه. وكان حكام الصين منذ زمن بعيد مفتونين بكل ما هو غريب وشاذ، فى البشر والجماد على السواء. ودعا هذا الملوك الغربيين إلى أن يرسلوا إلى تشانج آن أناساً يتسمون بالغرابة، كقزم من سمرقند أو امرأة قيل إن جلدتها المرقط يشبه التماثيل والمعابد البوذية. وأرسل آخرون «خراجاً بشرياً» يتمتع بمهارات خاصة، كحكاماء من الغرب وفرق موسيقية من البلاد المهزومة (وكان الصينيون يعتبرون موسيقاهم جزءاً من غنائهم) وأهل فن موهوبين من كل صنف، مابين مغنين وراقصين وعازفين ولاعبين يسيرون على الحبل وحواة يلعبون بالنار ولاعبى أكروبات وبهلوانات أصحاب أجسام لينة وسحرة.

وكثيرون من هؤلاء ذهبوا إلى الشرق بمحض إرادتهم، حيث وجدت فنون الغرب من رقص وموسيقى وألعاب حواة، جمهوراً كبيراً ومتحمساً داخل الصين. ولم يقتصر تقدير تلك المتع الغربية على الأثرياء وأبناء الأصول العريقة، إذ أتت انتصارات أسرة تانج الأولى إلى الصين بآلاف من أسرى الحرب من آسيا الوسطى الذين تزوج بعضهم أرا ملى الصينيين

الذين قُتلوا في الحرب. ومن أبرز الفنانين هؤلاء الموسيقيون والراقصون الذين أتوا من كوتشا وسمرقند، مثل «الفتيات الدوارات» الصُغديات اللائي يرتدين ثياباً من الديباج الأرجواني وسراويل واسعة من الدمقس الأخضر الزاهي وكن يرقصن على عدد من الكرات المتدحرجة.

ولم يكن الصينيون قانعين بمجرد كونهم متفرجين. فمنذ العقود الأولى من حكم أسرة تانج وهم يتبعون الأساليب الغربية بصورة متزايدة. وتعلم المغنون والموسيقيون الصينيون كيف يعزفون الموسيقى على الطريقة الغربية مستخدمين آلات ليست مألوفة لديهم. وعبر الشعراء وغيرهم من الكتّاب عن حبهم للمغنيات والراقصات ذائعات الصيت في صور بالكلمات كلها عشق وغرام. وتصف قصيدة «جيشا الشاش»^(١) للشاعر باي جيوى يى^(٢)، على سبيل المثال، راقصتين شابتين من الشاش (بالقرب من طشقند) ترتديان ثوبين عاريي الأكتاف من الغزى وحزامين من الفضة وحذاءين من الديباج الأرجواني وطرطورين عُلِق في قمة كل منهما جرس:

بُسُطت اثنتان متشابهتان - فُردت سجادتان مطرزان،
دقات متصلة لأصوات ثلاثية - الطبول الملونة تمضي في العزف.
الشموع الحمراء تَبْعَد، وتبرز زهور الخوخ.
يتحرك قميصان من الشبيكة القرمزية - [راقصتا] الشاش تأتيان!
حزامان يتدليان على أفخاذ مذهب، والخصران المزيّنان بالزهور
ممتلئان،
وقبعتان عليهما أجراس ذهبية تدوران، ووجهان في بياض الثلج
يلفان.

كما أن الفن^(٣) الذي تميزت به تلك الفترة يعكس الحب الشديد لكل ماهو غربي. فغالباً

(١) ذكر الإدريسي في «نزهة المشتاق» أن الشاش «ليس فيما وراء النهر [سيحون] إقليم على هيئتها أكثر منابر وقرى عامرة وسعة وبسطاً في العمارة. وحدها من نهر الشاش وحدها الآخر يتصل بباب الحديد... والشاش في أرض سهلة مستوية لا جبل فيها ولا أرض مرتفعة وبساتينها وخضرتها ومنتزهاتها كثيرة». (المترجم).

(٢) وُلِدَ سنة ٧٧٢ وتوفي سنة ٨٤٦ وتمتاز قصائده بسلاسة اللغة والجرأة على رصد العيوب الاجتماعية. (المترجم).

(٣) ظهر في عهد أسرة تانج عدد من النوابع في مجالى الرسم والنحت مثل وو داو تسي، المعروف برسم البورتريهات، و وانج وي المشهور برسم المناظر الطبيعية. وتنتمي إلى هذا العصر جداريات كثيرة في كهوف دونهوانج البوذية. وفي النحت اشتهر يانج هوى تشي بتماثيله النابضة بالحياة ومازال عدد ضخم من أعماله محفوظاً في كهوف دونهوانج. (المترجم).

ما كان الرسامون والنحاتون يصورون في أعمالهم أناساً من أصول عرقية غربية. أناساً يرتدون ملابس من آسيا الوسطى وملابس ذات طرز أجنبية، وبالتحديد يونانية هندية وفارسية. وحذا الأدباء في تلك الفترة حذو الفنانين بكتابتهم قصصاً عن رحلات في بلاد غريبة. وكان الكثير من تلك القصص يقوم على رحلات الحجاج مثل شيوان تسانج. وغالباً ما كانت ممزوجة بإشارات إلى شخصيات أسطورية من عصور أقدم مثل الأم الملكية الغربية.

ولم يتوقف التأثير الغربى عند هذا الحد. ففي مدن الصين الشمالية الغربية، وخاصة تشانج آن ولويانج، اتبع كثيرون من المواطنين أساليب آسيا الوسطى الخاصة بالأزياء. وارتدى الرجال والنساء من الميسورين أغطية الرأس التى تحجب جزءاً من الوجه، وكانت تُستخدم فى الأصل للوقاية من غبار آسيا الوسطى، وذلك أثناء تجولهم فى المدينة على ظهور الخيل فى أوائل القرن السابع. وبعد ذلك كانت النساء اللاتى جرى العرف على أن يركبن عربات تغطيها الستائر، يخرجن بمفردهن على ظهور الخيل وقد استبدلن الخمار الذى يغطى الوجه بأغطية للرأس تكشف عن الوجه أو بقبعات تركية أو بلا أى قبعات. وكانت أكثرهن جرأة ترتدى زى الصحراء، وهو سروال وحذاء ركوب الخيل. وكانت القبعات والقمصان والسراويل والتنانير وتسريحات الشعر تحمل جميعاً طابع الأساليب التركية أو الفارسية فى عهد أسرة تانج.

ولم يكن الرجال بمنأى عن الأساليب الغربية فيما يتعلق بملابسهم أو بأسلوب حياتهم. وقد فُتن الشاعر باى جيووى يى، الذى خلد راقصات الشاش، بأساليب آسيا الوسطى حتى أنه ترك منزله الفخم الكائن فى المدينة ليعيش فى خيمتين من اللباد الأزرق السماوى أقامهما فى فناء بيته. (عالم الآثار مارك أوريل فعل الشيء نفسه فى الهند بعد أكثر من ألف سنة). بل إن ابن الإمبراطور الشهير تاي تسونج كان مفتوناً بكل ماهو غربى، لدرجة أنه لم يكن يتحدث سوى التركية ويعيش فى معسكر أشبه بمعسكرات الترك أقامه خارج القصر.

وفى بداية عهد أسرة تانج، عندما كان طريق الحرير المتجه غرباً مفتوحاً بالكامل، كانت الصين أشد ماتكون تأثراً بثقافة آسيا الوسطى. أما الآداب والديانات التى جىء بها من الغرب ثم مزجت بالروح الصينية، فقد نقلوها إلى أقوام آخرين إلى الشرق منهم. ففي عهد أسرة تانج لم يكن طريق الحرير قد امتد إلى كوريا التى خضعت للحكم الصينى فحسب، وإنما وصل إلى اليابان. وهذان البلدان اللذان أقبلتا بحماس على البوذية، أرسلتا كثيراً من

الطلاب إلى الصين لدراسة الديانة والآداب معاً. لذلك فإنه بعد مرور زمن طويل على موت البوذية فى الهند وتحويرها فى الصين، وبعد خضوع راقصات آسيا الوسطى للحظر الذى فرضه الإسلام، فإن الطقوس البوذية ورقصات آسيا الوسطى كانت تؤدى فى اليابان، حيث نجد الآن فى شوشو إن واحداً من أجمل مابقى من مستودعات فن أسرة تانج، بما فى ذلك الصور البوذية المرسومة على الحرير الفاخر.

وطريق الحرير، الذى كان المعبر الرئيسى لهذه الغزوة الثقافية الضخمة من جانب الغرب، أدى أيضاً إلى اقتراب الصين من البحر المتوسط أكثر من أى وقت قبل ذلك. فقد سبق أن عجز الصينيون عن إقامة اتصالات مباشرة مع فولن، الإمبراطورية البيزنطية. إلا أنه فى سنة ٦٤٣، مع تولى أسرة تانج لعرش الصين، تسجل الحوليات أن فولن أرسلت للإمبراطور تاي تسونج سفارة تحمل هدية ثمينة. وليس واضحاً إن كان السفير قد سافر عبر الهضبة الإيرانية، خلال تلك العقود القليلة التى سمح فيها ضعف الفرس بأن يكون للرومان منفذ على طريق الحرير عند بحر قزوين، أم سار شمالاً حول بحر قزوين خلال أرض الخزر فى طريقه إلى الشرق (وهو الأمر الأكثر احتمالاً). ولكن يبدو أن هذا هو أول اتصال مباشر بين الصين والإمبراطورية الرومانية، التى كانت تسمى البيزنطية فى ذلك الوقت.

وأعقت هذه سفارات أخرى فى سنوات ٦٦٧ و ٧١١ و ٧١٩ كما تقول الحوليات. ولا تتيح لنا المصادر البيزنطية تأكيد هذا. وعلى أى الأحوال، ربما يكون السفراء قد جاءوا من حكومات إقليمية. بل قد يكونون من المغامرين التجار الذين يعملون لحسابهم الخاص، طبقاً للتقاليد الآسيوية القديمة. إلا أن الحوليات الصينية كانت، على أقل تقدير، من الدقة بحيث سجلت حصار العرب لعاصمة فولن، القسطنطينية، فى سبعينيات القرن السابع. ولا يمكن أن يكون سفراء فولن فى القرن الثامن قد جاءوا عبر الهضبة الإيرانية. ففى ذلك الوقت كان العرب قد استولوا عليها فيما عدا حصون طبرستان الجبلية. والاحتمال الأكبر هو وصولهم إلى الصين عبر أراضي الخزر، حيث ساروا فى طريق يبعد كثيراً إلى الشمال من غارات المسلمين. وأرسل الخزر أنفسهم سفراء إلى الصين. وليس هذا بمستغرب، فبحلول القرن الثامن كانوا قد أقاموا إمبراطورية تجارية لها شأنها.

وفى منتصف القرن السابع، أى فى ذلك الوقت الذى كان شيوان تسانج قد عاد لتوه

إلى الصين وكان تاي تسونج يثبت أركان حكمه في الشرق، أخذ الخزر يتشرون بسرعة انطلاقاً من ذلك الركن الصغير الذى يقيمون فيه على بحر قزوين. ولكى يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم بصورة أفضل ضد العرب، أقاموا لأنفسهم عاصمة جديدة شمالى بحر قزوين عند أتل، بالقرب من مصب نهر يحمل الاسم نفسه نعرفه الآن باسم الفولجا. ولأن التجارة، وليست الزراعة أو أى موارد طبيعية أخرى، هى دائماً المصدر الرئيسى لدخل إمبراطورية الخزر، فليس من المصادفة أن يحدث نمو الإمبراطورية السريع عندما كانت التجارة الآتية من الشرق تسير فى المقام الأول عبر طريق شمالى: من مدن السهوب التركية ثم جنوباً إلى ماوراء النهر فشمالاً حول بحر قزوين وغرباً عبر السهوب إلى القرم وبعد ذلك تحملها السفن إلى القسطنطينية، وكانت لاتزال السوق الرئيسية للسلع الشرقية.

والواقع أن توسع الخزر سار على هدى هذه التجارة التى تعبر أراضى آسيا. وبحلول سنة ٦٥٠ كان الخزر قد مدوا نفوذهم إلى الشرق فيما بين بحرى قزوين وآرال حيث المدن التجارية الصغدية التى لم تكن فى ذلك الوقت خاضعة خضوعاً مباشراً لنفوذ أى من العرب أو الصينيين، وإنما كان الطرفان يتربصان بها. وفى الشمال وصل الخزر إلى أنهار أتل ودنيبر والدون، حيث أخضعوا لنفوذهم شعوباً بائسة مثل البلغار^(١) والآلان^(٢) والهنغار^(٣). ولكن الأهم هو اندفاعهم غرباً على الساحل الشمالى للبحر الأسود ليسيظروا فى نهاية الأمر على الأرض الواقعة بين جبال القوقاز ونهر الدانوب، فيما عدا المراكز البيزنطية على الحافة الجنوبية لشبه جزيرة القرم. كما أصبحوا سادة الإقليم الخصيب الذى نعرفه الآن باسم أوكرانيا. وكان بحر قزوين يعرف باسم بحر الخزر.

وطوال هذه الفترة والقرون التالية أبقى الخزر على تحالفهم الوثيق مع الإمبراطورية البيزنطية، وإن لم يكن هذا التحالف خلواً دائماً مما يعكر صفوه. وكان اليونان البيزنطيون أضعف كثيراً مما قد توحي به عاصمتهم التى تنعم بالترف. وكانت تلك الشراكة فى مصلحتهم فى أى حال من الأحوال. وظلت القسطنطينية تحت حصار العرب من سنة ٦٧٤ إلى سنة ٦٧٨، ولم يخلصها منه سوى ابتكار استعمال المادة الكيماوية القاتلة، التى أطلق

(١) شعوب تركية عاشت على نهر أتل (الفولجا). (المترجم).

(٢) الآلان أو اللان شعوب تركية كانت تعيش على الجانب الغربى من بحر قزوين على المنحدر الشمالى بجبال القوقاز. والبعض يختلط عليه الأمر الآن فيعتبرهم الأبخاز أو الشركس. (المترجم).

(٣) الهنغار أو المايجيار هم أهل مايعرف الآن بالمجر وكان موطنهم الأصلى حوض نهر الفولجا ثم عبروا جبال الكربات واستقروا فى وسط حوض الدانوب فى القرن التاسع الميلادى. (المترجم).

عليها النار اليونانية وأمطروا بها رؤوس المحاصرين. (ظلت النار اليونانية سلاحاً سرياً من أسلحة القسطنطينية لعدة قرون، إلى أن سقطت المدينة سنة ١٤٥٣ حيث ضاعت التركيبة ومعها طريقة صنع الصبغة الأرجوانية الفينيقية وغيرها من أسرار العالم القديم). واستنفذت جهود الإمبراطورية ككل بشدة بسبب الحروب الدفاعية المستمرة في مواجهة المسلمين. وبسبب ذلك لم تكن القيادة مرغوباً فيها. وفي سنة ٦٩٥ أصبح الشعب ساخطاً على الإمبراطور چوستنيان الثاني مما اضطره للعيش في المنفى، حيث لجأ في بادئ الأمر إلى ميناء كيرسون جنوبى القرم وطلب حماية الخزر وتزوج أخت خاقان الخزر. إلا أنه عندما لم يتلق چوستنيان كل الدعم الذى أراد، اتجه إلى البلغار الغربيين، وكانوا لا يزالون مستقلين، فأعانوه على استعادة عرشه. وإن كان دخوله القسطنطينية مشيناً، لأنه دخلها زاحفاً في أحد أنابيب المياه.

وفي نهاية المطاف ساهم الخزر في إسقاط چوستنيان سقوطاً لم ينهض منه مرة أخرى. كما وضعوا خليفته على العرش البيزنطى سنة ٧١١. وبعد عقدين تزوج أمير بيزنطى آخر أميرة خزرية أطلق عليها اسم يونانى هو إيرين. وحكم ابنها بعد ذلك فى القسطنطينية باسم ليو الخزرى. وإذا وضعنا فى اعتبارنا التقارب الشديد بين هاتين الإمبراطوريتين ورغباتهما المتكاملة فيما يتعلق بنفائس الشرق، حيث ترغب إحداهما فى تلقيها والأخرى فى توريدها، فلن يكون مستغرباً أن ترسل السفراء إلى الصين فى محاولة لتيسير التجارة على طريق الحرير. وعدم وجود سجلات غربية لتلك السفارات هو أيضاً أمر غير مستغرب، إذ ظل غرب آسيا منطقة اضطرابات.

وعندما كان الخزر فى أوج نجاحهم اندفعوا عبر جبال القوقاز فى ثمانينيات القرن السابع لينهبوا أرمينيا، حيث استولوا على الغنائم والأسرى وعادوا عبر القوقاز. وأعقبت تلك غارات أخرى. والتقى الخزر وجيش المسلمين لقاءً مباشراً سنة ٧٢٣، حيث هزم ٣٠ ألفاً من الخزر المسلمين. بل إن الخزر وصلوا إلى الموصل على الطرف الشمالى من نهر دجلة. وشعر المسلمون فى عاصمتهم دمشق أنهم أمام تهديد خطير فجمعوا احتياطهم وشنوا هجوماً مضاداً أعاد الخزر إلى عاصمتهم عند نهر أتل. وهناك خير القادة المسلمون الخزر بين الدخول فى الإسلام والموت، فاختر خاقان الخزر العيش وأرسل له عالمان ليفقهاه فى الإسلام.

وما إن خرجت جيوش المسلمين إلى السهوب المفتوحة، وقد هُزم الخزر، حتى طوقت

الإمبراطورية الرومانية وأصبحت أوروبا كلها مفتوحة أمامها. وربما يكون عدم سقوط القسطنطينية ودخول أوروبا في الإسلام (وإن كان ذلك لوقت محدود وباستعمال القوة)^(١) إحدى غرائب التاريخ الكبرى. فقد عاد القائد المسلم عبر القوقاز دون أن يترك قوة احتلال. ويحتمل أن يكون ذلك خشية انقطاع خط إمداده. (وكان خوفه في محله، حيث كان الخلفاء الأمويون الذين يحكمون العالم الإسلامي من دمشق تهددهم الثورة عليهم. وبالفعل سقطت دولتهم بعد اثنتي عشرة سنة، في سنة ٧٥٠)^(٢). وسرعان ما تخلص الخزر من أي مظهر يدل على أنهم أمة مسلمة. وبعد استعادتهم لقوتهم ونفوذهم في المنطقة تصدوا لكل محاولة قامت بها الجيوش المسلمة بعد ذلك لعبور القوقاز.

لم يكن أثر الصراع الديني في المنطقة أمراً متوقعاً. ففي حوالى سنة ٧٢٠ أصدر الإمبراطور البيزنطي ليو السورى مرسوماً يقضى بدخول كل اليهود في الإمبراطورية المسيحية بالقوة. كما أن التسامح الديني الذى ساد العالم الإسلامى كان فى طريقه إلى الزوال. وكان النبى محمد نفسه تربطه علاقات وثيقة بالمسيحية واليهودية، اللتين يرتبط بهما دينه ارتباطاً قوياً. بل إن طبيبه الخاص كان يهودياً. وفى خلافة الأمويين الذين حكموا معظم القرن الذى أعقب وفاته، كان اليهود والمسيحيون يلقون قدراً من التسامح يفوق ما يلقونه من اضطهاد، رغم أنهم فى أفضل الحالات كانوا مواطنين من الدرجة الثالثة يدفعون ضرائب باهظة أعفى منها المسلمون^(٣).

وحتى الذين دخلوا فى الإسلام لم يكونوا إلا مواطنين من الدرجة الثانية، حيث لم يكن مسموحاً لغير المسلمين العرب بدخول الطبقة الأرستقراطية الحاكمة. وكان السخط الذى أثارته هذه التفرقة ضد المسلمين غير العرب أحد الأسباب التى ساهمت فى خلع الأمويين واستبدالهم بالخلفاء العباسيين. وكان هؤلاء (فى البداية) أصوليين مسلمين وإن لم

(١) إذا كانت الجيوش المسلمة فتحت البلاد فهى لم تجبر العباد على الدخول بالقوة فى الإسلام، والدليل على ذلك أن أهل تلك البلاد خيروا بين الدخول فى الإسلام ودفع الجزية. (المترجم).

(٢) دب الخلاف والشقاق داخل الدولة الأموية وانحاز شيعة على بن أبى طالب وآل بيته، الذين كانوا يطالبون بالخلافة، إلى بنى العباس الذين كانوا يهيمنون على جيوش فى العراق وخراسان وأسقطوا الخلافة الأموية. إلا أن العباسيين تنكروا للعلويين وأقاموا خلافة جديدة وشيدوا عاصمتهم الجديدة بغداد سنة ٧٦٢. (المترجم).

(٣) المعروف أن من كان يدخل الإسلام من أهل البلاد التى فتحها المسلمون كانت تسقط عنه الجزية، بينما يستمر من ظلوا على دينهم فى دفعها. وكان ذلك هو الخيار الذى ارتضوه. (المترجم).

يعودوا عرباً خلّص^(١)، بل كانوا يطمحون إلى إقامة حكم ديني وعالم لا ينفصل فيه الدين عن الحكم.

وأدى تزايد عدم التسامح الديني في كل من الإمبراطوريتين البيزنطية والإسلامية إلى موجة جديدة من الهجرات. إذ فر اليهود والمسيحيون، بل والمسلمون، إلى بلاد تقع عند أطراف تلك الأراضي الصحراوية. وشق عدد كبير منهم طريقه عبر القوقاز إلى بلاد الخزر، حيث كان لوصولهم إليها أثر واضح. وحاول كل من المسيحيين البيزنطيين والمسلمين العرب كسب الخزر إلى دينهم، دون أن يحرروا في ذلك نجاحاً كبيراً، رغم أن تلك البلاد كان بها مؤمنون بكلتا العقيدتين. ولكن يبدو أن الهجرة الجديدة أتت إلى بلاد الخزر بعدد ضخم من المؤمنين بديانة أخرى، هي اليهودية. وفي تلك الفترة، أي بعد ٢٠ سنة من مرسوم ليو ضد اليهود البيزنطيين ومايربو على ثلاث سنوات بعد محاولة المسلمين التي أجهضت لإدخالهم في الإسلام، يبدو أن بلاد الخزر اعتنقت اليهودية. وهي البلد الوحيد المعروف في التاريخ الذي أقدم على ذلك. وأشار المؤرخ العربي الدمشقي فيما كتبه حوالى سنة ١٣٢٧ إلى ما حدث في عهد العباسيين من أن الإمبراطور المسلم هارون الرشيد:^(٢)

... أجلى من كان في مملكته من اليهود فقصدوا بلد الخزر فوجدوا قوماً غفلاً ساذجين فعرضوا عليهم دينهم فوجدوهم أصلح مما كانوا فانقادوا إليه.

ولكن لم تدخل كل بلاد الخزر في اليهودية ولم يُجبر الناس على اعتناق اليهودية. بل يبدو أن كثيراً من أفراد الطبقة الأرستقراطية الحاكمة والتجار أصبحوا «دعاة». (هذه هي الصفة التي وصفتهم بها سجلات اليهود الأسبان الذين أصبحوا أكثر اهتماماً بهذه الدولة اليهودية وحاولوا في القرون التالية أن يعرفوا الكثير عنها، لتكون ملجأً يمكن أن يلجأ إليه اليهود من البلاد الأخرى المضطهدة).

والواقع أن بلاد الخزر أصبحت دولة متعددة الأديان. ويشرح ذلك الجغرافي العربي المسعودي في أربعينيات القرن العاشر قائلاً:

وفي هذه المدينة [أتل] خلق من المسلمين والنصارى واليهود

(١) كان هناك نفوذ فارسي قوي في مؤسسات الحكم والثقافة في عهد الخلافة العباسية. (المترجم).

(٢) جاء في «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» للمقدسي ما حكاه ابن الأثير عن الخزر وهو «أن صاحب قسطنطينية أيام هارون الرشيد أجلى من كان في مملكته من اليهود...» (المترجم).

والجاهلية؛ فأما اليهود فالملك وحاشيته والخزر من جنسه، وكان تهود ملك الخزر في خلافة هرون الرشيد وقد انضاف إليه خلق من اليهود وردوا عليه من سائر أمصار المسلمين ومن بلاد الروم، وذلك أن ملك الروم... نقل من كان في ملكه من اليهود إلى دين النصرانية وأكرهم... فتهارب خلق من اليهود من أرض الروم إلى أرضه...

وظلت بلاد الخزر متعددة الأجناس والأديان. وفي سنة ٩٣٢ تقريباً أشار المؤرخ المسلم الإصطخرى إلى أن معظم سكان بلاد الخزر من المسلمين أو المسيحيين أو «أهل الأوثان»، وهو ما قد يعنى البوذيين أو الزرادشتيين أو المانويين أو حتى عبدة الطبيعة. إلا أن أصغر الجماعات، أي اليهود، تشمل الملك وبلاطه. والواقع أن جيش بلاد الخزر في القرون التالية كان يتكون في معظمه من المسلمين.

وتعكس العاصمة أتل حقيقة هذا المجتمع متعدد الوجوه. وطبقاً لما يقول الإصطخرى:

النصف الشرقي من [أتل] فيه معظم التجار والمسلمين والمتاجر، والغربي خالصة للملك وجنده والخزر الخالص.

ولم تكن هذه مدينة كلاسيكية تخلف آثاراً تذهل الرحالة وعلماء الآثار في العصور الحديثة. بل إن أتل كانت مناسبة لأهلها ذوى الأصول شبه البدوية وأغلبهم من التجار الجوالين. وحتى في سنة ٩٣٢، أي بعد قرنين من وصول الخزر إلى بلاد ما بين النهرين، كانت مدينتهم لاتزال تعكس أصولها الوسط آسيوية كما يصفها الإصطخرى:

وأتل قطعتان قطعة على غربي هذا النهر المسمى أتل وهي أكبرهما وقطعة على شرقيه والملك يسكن في الغربي منهما... وهذه القطعة مقدارها في الطول نحو فرسخ ويحيط بها سور إلا أنه مفترش البناء وأبنيتهم خركاهات لبود إلا شيئاً يسيراً بنى من طين ولهم أسواق وحمامات وفيها خلق من المسلمين يُقال إنهم يزيدون على عشرة آلاف مسلم ولهم نحو ثلاثين مسجداً وقصر الملك بعيد من شط النهر وقصره من آجر وليس لأحد بناء من آجر غيره ولا يسوغ الملك لأحد أن يبنى بالآجر ولهذا السور أبواب أربعة منها مايلى النهر ومنها مايلى الصحراء على ظهر هذه المدينة.

وذكر آخرون أن قصر الملك كان على جزيرة فى النهر وأنه كان هناك جسر من السفن يمتد منها إلى إحدى الضفتين .

وكانت قوافل الخزر تدور حول بحر قزوين وتتجه جنوباً نحو نهر جيحون إلى الإقليم الذى أصبح يعرف فيما بعد باسم خوارزم . ومن هناك كان رجال القوافل من الصغد وغيرهم من أهل آسيا الوسطى لا يزالون ينقلون التجارة شرقاً إلى الصين . ويبدو أن هذه التجارة بلغت أوجها فى القرن الثامن ، بينما كان العرب لا يزالون منشغلين فى الحروب الأهلية وكان الصينيون يسيطرون على التاريم . وتغير ذلك ليُجعل بلاد الخزر حلقة أقل أهمية فى التجارة التى تمر عبر آسيا ، إلا أن دولة الخزر التجارية ظلت على قوتها قرنين آخرين لتحظى أوروبا من الغارات المنطلقة من الشرق الأدنى وآسيا الوسطى .

عندما حدثت تغييرات كانت مفاجئة وضخمة . ففي العقود الأولى من القرن الثامن ، كانت الممالك الصغيرة فى جبال البامير وماوراءها تتطلع إلى حماية الصين لها . وعندما عبر المسلمون السهوب واتجهوا إلى جبال البامير ، وقد استمدوا كثير من الغزاة القوة من البلاد التى فتحوها ، أعلن أمراء من مدن مثل بخارى وسمرقند وطشقند وبلخ عن ولائهم لإمبراطور الصين وطلبوا العون منه . وفى بعض الأحيان كانت الصين ترسل القبائل التركية الغربية الخاضعة لها لنجدهم . وفى مناسبات نادرة كانت ترسل جيشاً من الجنود الصينيين . بل إن نفوذ الصين ومساعداتها امتد إلى مناطق أبعد من تلك فى هذه العقود ، حيث أرسلت القوات لمساعدة بلدان صغيرة على طريق الحجاج البوذيين الرئيسى الذى كانت تقطعه عصابات متمردة من هضبة التبت . وحتى سنة ٧٥٠ كانت القوات الصينية تعمل نيابة عن الحلفاء فى كشمير وكابول ، حيث كانت تحاول أيضاً منع أهل التبت والعرب من تجميع قواتهم . وهو ما كانوا يهددون به . ويبدو أن ذلك كان أوج نفوذ الصين .

وفجأة انهارت إمبراطورية الصين . وبدافع من الأطماع الشخصية لقتل ملك طشقند ، عجل قائد صينى بارز بوقوع معركة مخيفة . وطلب وريث عرش طشقند من العرب فى بخارى وسمرقند أن يساعدوه فى الثأر لكرامة أسرته من الصينيين . وكانت النتيجة مواجهة مباشرة بين الجيش الصينى ، الذى أنهكته الحروب وأصابه الوهن ، وبين العرب الفتيان الأقوياء الذين يركبون موجة جديدة من النجاح العباسى . وتحالف العرب مع أهل التبت (والعرب هم من أطلقوا عليهم هذا الاسم) الذين عقدوا العزم على الخروج من حيز أرض

هضبتهم القاحلة وتحطيم النفوذ الصينى فى آسيا الوسطى. وانضم إليهم بعض الترك الغربيين الذين ثاروا على الجيش الصينى فى أعقاب حادثة طشقند.

وفى صيف سنة ٧٥١ التقى الجانبان عند ضفاف نهر تالاس شمالى تركستان. وهناك انكسر الجيش الصينى فى واحدة من أكثر هزائمه تدميراً. ووقع آلاف الجنود والصناع من المستوطنين الصينيين أسرى حيث نقل الكثير منهم إلى سمرقند. وكان لأسر هؤلاء مغزى خاص فى تاريخ الحضارة الغربية. إذ كان بين الصناع المهرة كثيرون من صناع الورق الذين علموا الغرب أساليب صناعتهم. وشيئاً فشيئاً أخذ الورق يحل محل الرق والبردى اللذين يكلفان الكثير ويتطلب إعدادهما مجهوداً ضخماً وكانا يستخدمان فى الغرب حتى ذلك الوقت. وكان ذلك بمثابة الأساس العلمى للانفجار التعليمى وانتشار المعارف الذى تَوَجَّه عصر النهضة الأوروبى.

والأمر الذى قد يكون أقل أهمية للتاريخ الإنسانى، ولكنه أكثر أهمية لموضوعنا، هو أن كثيرين من صناع الحرير الصينيين أسروا بعد معركة تالاس ونُقلوا إلى بلاد المسلمين. وكانت شعوب الشرق الأدنى مستمرة فى توريد بعض احتياجاتها واحتياجات أوروبا بما تنتجه محلياً من حرير. إلا أن نوعية الحرير لم تكن لترقى إلى مستوى حرير الصين، التى ظلت تورد الحرير الفاخرة التى يرغبها الغرب. ولسنا متأكدين من الوقت الذى تعلم فيه صناع الحرير الغربيون منع فراشة الحرير من تمزيق خيوط شرنقتها، أو إن كانوا تعلموا هذا الأمر أم لا. إلا أن هذه المسألة حُسمت الآن. فصناع الحرير المهرة الذين جاءوا من الصين نقلوا أساليب تربية دودة القز، التى تعلموها من آلاف السنين، إلى المسلمين الذين ضمت مناطق نفوذهم الكثير من النساجين السوريين والفرس المهرة.

وكان الحرير يُنتج على طول طريق الحرير حيثما كانت درجات حرارة الجو تسمح بذلك، كما فى طبرستان وبعض المدن الواحات فى بلاد ماوراء النهر. بل إن مرو تخصصت فى إنتاج بويضات دودة القز لتصديرها إلى المناطق المسلمة الأخرى. واعتباراً من ذلك الوقت، أنتج المسلمون معظم الحرير لبلادهم ولأوروبا الغربية. (أصاب الركود صناعة الحرير فى بيزنطة). ويرجع الفضل للمسلمين فى دخول تربية دودة القز ونسيج الحرير الفاخر أوروبا الغربية. وكانت البداية فى أسبانيا المسلمة وصقلية. أما حرير الصين فكان فى الغالب الأعم يلبي رغبات آسيا الوسطى. إلا أن كل المنتجين ظلوا زمنياً فى حالة من التعايش. وما أبعد المدى الذى قطعه الحرير! فقد عثروا على مخطوطة دينية فرنسية من عهد

الملك شارلمان وُضعت بين صفحاتها صفحات من الحرير لحماية الرق. وتوصل المحللون المحدثون إلى أن أربعاً من صفحات الحرير صينية وستاً مسلمة وثلاثاً على الأقل بيزنطية.

وبالنسبة للمسلمين كان الأثر الأكبر لمعركة نهر تالاس أثراً تقنياً، حيث مضوا إلى جبال البامير للاستيلاء على كاشغر. إلا أنهم لم يكونوا جادين فى محاولتهم اختراق حوض التاريم. فى حين كانت هزيمة الصينيين عند نهر تالاس مدمرة. فهاهى إمبراطورية الشرق العظيمة تصبح فجأة عاجزة ولا حول لها ولا قوة. وما إن حدث فراغ القوة هذا حتى اجتاحت قبائل التبت حوض التاريم وممر كانسو. وظلت مدينة تونهوانج التى استولوا عليها سنة ٧٦٦ زمناً طويلاً خاضعة لهم، حتى أنها ظلت قروناً عديدة تعرف بـ«التبت الصغرى». وعندما عبر أهل التبت التاريم إلى الواحات الواقعة على الطريق الشمالى، جاءوا معهم بالصورة اللامية للبوذية الخاصة بهم وهى التى أصبحت منتشرة فى آسيا الوسطى. وفى وقت من الأوقات وصل أهل التبت حتى تشانج آن، حيث رُدوا إلى ما وراء بوابة اليشب بشيء من الصعوبة. كما انقطعت طرق الحجاج إلى الهند. أما التجارة على الطريق الجنوبي بصورة خاصة فقد تضاءلت فى تلك الأوقات المضطربة.

ولم يقتصر الأمر على ذلك. ففي نفس السنة التى وقعت فيها هزيمة تالاس، تعرض الجيش الصينى للهزيمة فى الشمال على يد قوم يعرفون بالخيتان. وتنبؤاً بما سيحدث فيما بعد، كانت تلك قبيلة من المغول. وهى واحدة من أولى القبائل التى انطلقت من الشمال وأقضت مضاجع الصينيين. وربما يكونون معروفين لنا الآن بصورة أفضل من خلال النطق التركى لاسمهم، هو خطاي^(١). وبعد زمن طويل من طرد غزاة آخرين لهم، ظل هذا الاسم مرتبطاً بتلك المنطقة. وتحرف بعد ذلك بزمن طويل على لسان ماركو بولو ليصبح «كاتاي». وهو الاسم الذى ظلت الروايات تعرف به شمال الصين قروناً طويلة.

وصور شاعر البلاط لى باى الدمار الذى كان قائماً فى تلك العصور على حدود الصين، التى كانت مزدهرة فى يوم من الأيام:

السور العظيم، الذى يفصل الصين عن الصحراء،

يمضى متلوياً إلى ما لا نهاية.

على امتداد كل الحدود

(١) هذه هى الولايات الشمالية من الصين التى فتحها جنكيز خان وابنه أوجداى، حيث لم يتزعروها من الصينيين وإنما من جنس آخر من الترك ظلت تلك المناطق خاضعة له طول ١٢٠ سنة. (المترجم).

لم تُترك مدينة قائمة .
وتتناثر عظام آدمية هنا وهناك
تتم فيما يبدو عن كراهيتهم الأبدية .

شعرت البلاد شعوراً قوياً بالاستنزاف الناجم عن سنوات الحرب وضياع الثروات التي كانت تأتيهم من مناطق آسيا الوسطى . وعندما انقلب القائد الصغدى التركى ، الذى قاد الجيش الصينى إلى الهزيمة أمام الخطاى على الإمبراطور ، ووجد تأييداً كبيراً من الشعب . مما أدى إلى اشتعال الحرب الأهلية^(١) فى الصين من سنة ٧٥٥ إلى سنة ٧٦٣ . واضطُر إمبراطور تانج إلى ترك تشانج آن ولويانج للمتمردين دون قتال وفر فى اتجاه الجنوب الشرقى إلى معقل سيتشوان الجبلية .

وفى نهاية الأمر تمكن خلفه من استعادة تشانج آن ولويانج بمساعدة قوات من آسيا الوسطى ، بينها الترك الأويغور . بل إنه فى إطار التغيرات السريعة فى التحالف التى اتسمت بها المنطقة ، كانت هناك مساعدات من بعض العرب بعد سبع سنوات فقط من معركة نهر تالاس . واستقر بعض العرب فى الصين ليكونوا نواة لجالية مسلمة . أما الترك الأويغور الذين جاءوا حديثاً من منغوليا الخارجية فقد هجروا حياتهم البدوية بصورة جزئية واستقروا فى الإقليم الواقع شمال ممر كانسو .

وفى إطار تلك الحركات اعتنق خاقان الأويغور العقيدة المانوية . ومن خلال الأويغور استطاعت هذه الديانة - وهى خليط من عدة ديانات غربية له صبغة فارسية خاصة انتقل ببطء على طريق الحرير على مر قرون عدة - أن تنتشر لتصل إلى السهوب المغولية . وبينما اعتنق الصينيون الفن اليونانى الهندى مع البوذية ، اعتنق الأويغور أساليب الفن الفارسى مع الديانة ذات الأصل الفارسى . وهكذا نجد أن مدناً مثل تورفان ، التى كانت يوماً موطناً للبوذيين المتشددين ، صارت تقتنى اللوحات المانوية المرسومة بالأسلوب الفارسى .

وكان للأويغور دور فى الصين منذ زمن بعيد كمرابين أساسيين فى الأسواق الدولية . والآن وقد أعادوا أمراء تانج إلى عرشهم ، فإن حظوتهم صارت أكبر وسمح لهم ببناء المعابد المانوية فى عدة مدن كبرى ، مما ساعد على نشر دينهم الذى اعتنقوه حديثاً بين الصينيين .

(١) تزعم ذلك التمرد آن لو شان قائد القوات الإمبراطورية المرابطة فى يوتشو واحتل العاصمة تشانج آن . وهذا التمرد معروف فى التاريخ بتمرد آن شى . (المترجم) .

وطبقاً للتقاليد القديمة، كانت الأميرات الصينيات يتزوجن فى بعض الأحيان من أمراء الأويغور. واكتسب الأويغور سمات الصينيين بصورة كبيرة. وحتى بعد مرور زمن طويل على قطع صلاتهم الرسمية مع الصينيين، ظلت فنونهم وآدابهم وطريقة معيشتهم تحتفظ بآثار من تلك العلاقة الوثيقة بحضارة الشرق العظيمة. ولأن من يعرفون القراءة أو الكتابة من بين الشعوب البدوية قليلون جداً، أصبح الأويغور كذلك كتبة وتولوا مناصب إدارية فى آسيا الوسطى.

وربما تكون أسرة تانج قد استعادت العرش فى شمال الصين سنة ٧٦٣، إلا أنها لم تستعد نفوذها، رغم بقائها فى الحكم بعد ذلك قرناً ونصف القرن. وبعد وصول أهل التبت، هجرت تجارة المسافات الطويلة طريق التاريم الجنوبى إلى حد كبير. وبعون من الترك الأويغور احتفظ الصينيون بالمناطق الشمالية فترة أطول. إلا أنهم فى سنة ٧٩٠ فقدوا بيش باليق المركز الإدارى للأراضى الصينية الواقعة شمالى جبال تيان شان. كما انسحبت القوات الصينية فى اتجاه تورفان حيث قتل الأويغور قائدها فى الطريق «ليوفروا على أنفسهم مزيداً من المضاعفات»، كما تقول الحوليات. وكتب المؤرخ الصينى تسو تشى تونج تشيان عن أحداث سنة ٧٩٠ قائلاً:

بعد ذلك عزلت آن شى [كوتشا، مقر قيادة الحاميات الأربع] عزلاً تاماً ولم يعد أحد يعرف ما صار إليه حالها. إلا أن منطقة شى تشو [تورفان] ظلت تقاوم ببسالة كي تبقى مخصصة لأسرة تانج.

وهكذا اضطر الصينيون إلى أن يحتشدوا خلف سورهم العظيم، الذى لم يكن دائماً فعالاً فى درء الغزو. وفى سنة ٨٤٠ تقريباً أخرج الترك الأويغور، الذين هزمهم الترك القرغيز وأبعدوهم إلى الجنوب، أهل التبت من مستنقعات كانسو وظلوا يحكمون على حدود الصين حتى القرن الحادى عشر. وظلت التجارة تشق طريقها بصعوبة على الجزء الواقع شمالى التاريم من طريق الحرير وعلى طريق السهوب فى جبال تيان شان. إلا أنه بعد فقدان الصين للزعامة لم تعد كما كانت وتدهورت أحوالها مع تزايد حجم ما يسافر على طريق التوابل من تجارة الشرق والغرب.

وبعد تعرض الصينيين كثيراً للهجوم، أخذوا يتحولون شيئاً فشيئاً من أكثر المجتمعات تسامحاً وانفتاحاً إلى مجتمع يتميز بخوفه الشديد من الأغراب فى بعض الأحيان. ولا يعنى

هذا أن الصينيين فقدوا اهتمامهم بما هو غريب عنهم بهذه السرعة. فالواقع أن انقطاع الطريق إلى الغرب بهذا القدر الكبير جعلهم يدخلون أولاً في فترة من الحنين إلى الأشياء التي لم يعد وجودها ممكناً. وفي كتابه «خوخ سمرقند الذهبى» يقول إدوارد شافر:

... لم يعد التعطش إلى الأشياء العجيبة من وراء البحر وعبر الجبال، سواء كانت مخطوطات بوذية وكتباً طبية أم ديباجاً ثمينا أم كانت مجرد رؤية أحد الحواة الجوالين من تركستان، يجد ما يرويه. [وهكذا] اكتسبت حكاية الأعاجيب القديمة حياة جديدة تتسم بالقوة ووفرت للخيال الحالم ما لا يمكن أن توفره له الحواس.

وكانت النتيجة تدفقا غير عادى لقصص الرحلات الخيالية. ولم يكن الحجاج الذين ماتوا منذ زمن بعيد ولا الملوك الرحالة أنصاف الأسطوريين هم وحدهم من أوحى بتلك الحكايات. إذ أن أبسط التجار الذين اجتمعوا يوماً في أسواق تشانج آن أصبحت لهم الآن هبة. فواقع الأمر أنهم رأوا وفعلوا أشياء لم يكن بوسع صينيى القرن التاسع سوى أن يحلموا بها. وفي الأيام السوداء التي أعقبت سقوط أسرة هان قبل عدة قرون، ظلت سطوة الصين أمراً معترفاً به وكان العديد من دول آسيا الوسطى يسعى إلى الحصول على مساعداتها. أما الآن، فلأول مرة منذ فتح تشانج تشيان الطريق إلى الغرب تنقطع أسباب تعامل الصين مع المناطق الغربية انقطاعاً كبيراً.

كانت الهزيمة في الحرب وضياع التجارة وبالأعلى اقتصاد البلاد. وفي ثمانينيات القرن الثامن استقطع حكام أسرة تانج جزءاً من أموال كل تاجر للمساعدة في إعمار الخزائن، وكانت النتيجة، كما يقول رينيه جروسيه، هي أن تشانج آن «دمرت وكأنها تعرضت لهجوم من البرابرة».

ولم تشعر كل أجزاء الصين بفقدان التجارة البرية بنفس القدر. فالمناطق الجنوبية المحيطة بكانتون^(١) كانت في حالة ازدهار. حيث كان المسلمون ينقلون تجارة فارس على طريق التوايل. وفي كل سنة كان آلاف التجار يأتون من عالم البحر المتوسط إلى كانتون للتجارة. وكما هو حال تشانج آن إبان أوج نفوذ أسرة تانج، كان الأجانب من كل دين وجنسية يأتون إلى كانتون.

وربما كان التناقض الشديد بين الشمال المدمر والجنوب المزدهر هو ما حدا بالشوار سنة

(١) ميناء جنوب شرقى الصين على بحر الصين الجنوبى بالقرب من هونج كونج وماكاو. (المترجم).

٨٧٤ إلى توجيه أنظارهم إلى الموانئ الجنوبية. وقد نجحوا فى محاصرة كانتون وقتلوا أهلها، وبينهم (طبقاً للتقديرات الصينية) ١٢٠ ألف تاجر أجنبى. وهو عدد قد يكون مبالغاً فيه، إلا أنه يشير إلى أهمية جالية التجار الأجانب. كما نُهبت المستودعات. وتشير الحوليات إلى أن المتمردين «قطعوا أشجار التوت فى الإقليم، مما أدى إلى عدم إرسال الحرير إلى الإمبراطورية العربية زمناً طويلاً». وعند عودة الثوار إلى الشمال أحدثوا دماراً مشابهاً بكل من تشانج آن ولويانج وأهلهم. ومرة أخرى استعاد إمبراطور تانج عرشه ولم يقض على المتمردين إلا بمساعدة الحلفاء الترك. ولكن الدمار والخراب ظل قائماً كما يقول المؤرخون: «كانت الأعشاب والشجيرات تنمو فى شوارع العاصمة المهجورة التى أصبحت مأوى للثعالب والأرانب البرية».

وكان الخوف من الأجانب الذى عانى منه المتمردون انعكاساً لشعور أكثر انتشاراً فى البلاد. ففي الأربعينيات من القرن التاسع، ومع استعادة الأفكار الكونفوشية والتاوية لقوتها، أصبحت الصين معادية للأديان الأجنبية. وفى سنة ٨٤٥ فرض حظر إمبراطورى على البوذية، التى كانت دائماً محل انتقاد من الكونفوشيين. وأُغلق أكثر من ٤٦٠٠ معبد ودير وحُظرت الحياة الدينية على رهبانها. وفُرض الحظر نفسه على المسيحية النسطورية والمناوية، وكان أغلب المؤمنين بهما من أصول فارسية أو تركية. ومع أن إمبراطوراً جديداً، وكان بوذياً، رفع الحظر بعد عشرين سنة، فإن البوذية لم تعد إلى سابق عهدها. وبسبب انقطاع البوذية عن أصولها فى الهند (حيث كانت البوذية تلقى معاملة سيئة فى كل الأحوال) وعن آسيا الوسطى، فقد أصبح لها شكل صينى مميز باندماجها مع الديانات الشائعة الأخرى فى البلاد.

وسرعان ما أصبحت وحدة الصين أيضاً شيئاً من الماضى. بل إن حلفاء الإمبراطور الترك لم يمنعوا انهيار النظام، حيث انقسمت البلاد شيئاً فشيئاً إلى مناطق ذات حدود متداخلة يحكم كل منها حاكم ولّى نفسه حكمها. وكان أحد هؤلاء الزعماء لصاً سابقاً يدعى تشو ون، قتل من تبقى من أسرة تانج الملكية. وفى سنة ٩٠٧ أعلن نهاية حكم أسرة تانج وبداية حكمه^(١). إلا أنه لا هذا الزعيم المتعطش للدماء ولا أى من منافسيه استطاع

(١) أسس إمبراطورية ليانج اللاحقة التى تلتها إمبراطوريات أخرى هى على التوالى تانج اللاحقة وتشين اللاحقة والهان اللاحقة وتشو اللاحقة. وتعرف هذه فى التاريخ بالإمبراطوريات الخمس واستمرت جميعاً مايزيد قليلاً على الخمسين سنة (٩٠٧ - ٩٦٠). (المترجم).

توحيد الصين، التي اتجهت إلى نظام إقطاعي يشبه كثيراً ما شهدته أوروبا العصور الوسطى على الجانب الآخر من العالم.

وخلال عشرين سنة كان شمال الصين قد انتقل من حكم الصينيين إلى أيدي شعوب مغولية عديدة واستمر كذلك لمدة أربعة قرون. وكان واحد من الصينيين المتنافسين هو الذي جاء بالخطاي داخل السور العظيم^(١). ففي حين أقام هذا المنافس «أسرة» جديدة في كايفنج، استوطن الخطاي في الأراضي الشمالية الشرقية بالقرب من المنطقة التي تحتلها بكين الحالية. وعندما أرادت الأسرة الصينية الجديدة التخلص من الخطاي انقلب الأمر ضدها. فقد استولى الخطاي على كايفنج وأعلنوا أنفسهم حكاماً لها فترة من الزمن.

وفي سنة ٩٦٠ استولت أسرة صينية جديدة على عرش كايفنج. ولم تكن بذلك سوى واحدة من عدة دول صينية مستقلة. إلا أنه تحت ضغط من القبائل المغولية الجديدة على امتداد القرون التالية، انتقلت أسرة سونج^(٢) إلى الجنوب. وفي النهاية احتوت دولاً أخرى لتشكّل إمبراطورية صينية مركزها يبعد كثيراً عن الدولة القديمة المحيطة على نهري وي وهوانج. ولم تستعد العاصمتان القديمتان، تشانج آن ولويانج، نفوذهما السابق داخل الإمبراطورية. وعندما فُتح طريق الحرير مرة أخرى إلى الغرب، في عهد المغول، انتقلت المحطة الشرقية الأخيرة إلى إقليم بكين الذي صار مهماً.

وفي وقت ما من تلك القرون المضطربة، ربما سنة ١٠١٥، اتخذ بعض الرهبان أصحاب الفكر التقدمي قراراً شديداً الأهمية. ففي كهوف الألف بوذا، بالقرب من تونهووانج، احتفظوا في غرفة مغلقة بما يزيد على ١٠ آلاف مخطوطة ولوحة حريرية، الكثير منها عبارة عن ترجمات شيوان تسانج لنصوص بوذية. وقد نسخها الرهبان البوذيون بأناة وصبر وحفظوها. ويبدو أن ذكرى هذا المستودع الضخم ضاعت على مر القرون التالية. إلا أن تلك النفائس بقيت في أمان حتى القرن العشرين، حيث اكتشفها عالم يقدرها. وكان بين المخطوطات ما يمكن أن نعتبره أقدم كتاب مطبوع موجود بين أيدينا، وهو في الواقع على هيئة لفافة. ويعود تاريخ الكتاب، وهو «سوترا الماس» إلى سنة ٨٦٨. والشذرات

(١) قامت مملكة خطاي (٩١٦ - ١١٢٥) في حوض نهر لياوخي في الشمال الشرقي واستولت بعد ذلك على ١٦ ولاية في شانشي وشمالي خبي ثم استعادت اسمها، وهو إمبراطورية لياو واتخذت يانچنج (بكين الحالية) عاصمة لها. (المترجم).

(٢) تمرد تشاو كوانج ين القائد العام لقوات تشو اللاحقة واستولى على السلطة وأسس إمبراطورية سونج الشمالية متخذاً من كايفنج عاصمة لها. واستمر حكم هذه الأسرة من سنة ٩٦٠ حتى سنة ١١٢٦. (المترجم).

الوحيدة الباقية التى تعود إلى تلك الفترة فى أماكن أخرى، مثل رُقْية مطبوعة من كوريا تعود إلى سنة ٧٧٠، لدليل على أهمية قرار الرهبان بحماية خبيثتهم الثمينة.

ولكن إذا كان النصف الشرقى من طريق الحرير قد انهار، إلا فيما يتعلق بالتجارة المحلية بين القبائل، فإن الصورة كانت مختلفة تماماً فى نصفه الغربى. وكحال الدلوين فى مسرحية شكسبير «ريتشارد الثانى»، فاض ماء العالم الإسلامى فى الوقت الذى غاض فيه ماء الصين. ولم تكن إمبراطورية المسلمين فى غرب آسيا عربية صرفة، خاصة مع ظهور الحكام العباسيين سنة ٧٥٠. فالواقع أنها كانت أقرب إلى إمبراطورية فارسية جديدة^(١)، وإن كانت بدين رسمى جديد يدين به الكل. وكان العرب الأوائل الذين جاءوا بعقيدتهم إلى مدن ما بين النهرين وإيران وتركستان غير مؤهلين لحكم البلاد العظيمة القديمة التى فتحوها. إلا أنهم وجدوا هناك شبكة إدارية تكونت منذ زمن بعيد خلال إمبراطوريات متعاقبة، من دارا مروراً بالإسكندر حتى يزدجرد وفيروز التيمسرين^(٢). وهذه البنية الأساسية فى بلاد فارس وما بين النهرين توسعت فى ظل الحكم الإسلامى لتصل إلى مدن تركستان الغربية أيضاً. ونتيجة لذلك أصبحت اللغة الفارسية لغة البلاط والأدب فى العالم الإسلامى الشرقى بصورة مطردة، وإن اضطر كل المسلمين إلى تعلم بعض العربية على أقل تقدير (لم تكن ترجمة القرآن مسموحاً بها). وفى تركستان نفسها كان يُضاف إلى ذلك اللغة التركية، وهى لغة كثيرين من أهل البلاد.

وكان المسلمون فى غرب آسيا كذلك ورثة التراث الفكرى والعلمى لفرس. وإلى جانب تراث الفرس الخاص بهم، كانوا أيضاً يحفظون أعمالاً مكتوبة ذات قيمة لا تُقدر جاء بها إلى الهضبة الإيرانية اللاجئون المسيحيون النسطوريون. ومن خلال هذه الكتابات وصلت الأفكار والتقنيات من العصور الكلاسيكية عبر طريق الحرير إلى الصين، ووصلت بقوة أكبر إلى الهند من خلال الطريق العظيم. وتولى المسلمون مسئولية هذا التراث القيم، حيث أثروا ما سوف يكون ملهماً لقيام عصر النهضة فى أوروبا وحفظوه^(٣).

(١) بسبب تعاظم نفوذ الفرس فى مؤسسات الحكم العباسية كما ذكرنا من قبل. (المترجم).

(٢) ذكر من قبل أنهما آخر ملوك الفرس، وهو ما لم تذكره «الشاهنامه» ولا «مروج الذهب». (المترجم).

(٣) فى هذا العصر ظهر البيرونى الجغرافى وابن سينا الطبيب وابن الهيثم عالم الطبيعة والغزالي المتكلم والفيلسوف وابن يونس الفلكى والحجة فى حساب الثلاث. وهؤلاء جميعاً كتبوا بالعربية. وفى الوقت نفسه ظهر من كتبوا بالفارسية كالفردوسى المؤرخ والشاعر وعمر الخيام الشاعر وعالم الرياضيات ونظام الملك رجل الحكم وعالم السياسة وناصر خسرو الرحالة. (المترجم).

ولم يكن مسلمو تلك الفترة مجرد حفظة. بل كانت لهم إسهاماتهم المهمة في العلم والأدب. وكان كثيرون من المثقفين المسلمين يشبهون في تنوع اهتماماتهم الصورة الأوروبية لـ «رجل عصر النهضة». وعلى سبيل المثال كان الشاعر المسلم عمر الخيام معروفاً كذلك في عصره كعالم رياضيات وفلك ساهم في إصلاح التقويم الإسلامي.

وكانت نتيجة ذلك عالماً إسلامياً تجمعهم وحدة ثقافية لها شأنها. وفي القرن السابع تبع عشرات الآلاف من العرب جيوشهم الأولى المنتصرة ليستقروا في بلاد فارس وتركستان الغربية، في مدن مثل مرو وبلخ. واتخذ كثير من الفرس والترك والصغد، وغيرهم من أهل تلك المناطق، أسماء عربية واعتنقوا الإسلام، بعد أن تصالحوا مع حكم المسلمين ولم يعودوا يسعون إلى طلب العون من الصين. وربما يكون ذلك مرجعه أن من يدخلون في الإسلام يدفعون ضرائب أقل كثيراً من غيرهم. وأصبح للفرس الذين يقومون بأدوار رئيسية إداريين وكتبة أهمية كبيرة في البلاط. كما أنهم وضعوا الأساس لازدهار الإسلام ذي الصبغة الفارسية.

وفي عهد العباسيين، كانت بغداد (هبة الإله) هي مركز العالم الإسلامي. وقد أسسها الخليفة المنصور سنة ٧٦٢ على شاطئ نهر دجلة (وإن كانت هناك قرية تسمى بغدادو في نفس الموقع منذ زمن البابليين، أي منذ سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد). وجرياً على عادة الفاتحين العظام الذين سبقوهم، أسس هؤلاء المسلمون عاصمتهم الجديدة عند وسط بلاد ما بين النهرين، بالقرب من بابل وسلوقية وطيسفون على طريق الحرير. وبتخطيط سارت عليه كثير من المدن الإسلامية الأخرى الجديدة وتلك التي أعيد إنشاؤها في هذه الفترة، شُيّدت المدينة على هيئة دوائر متمركزة. وكانت حدودها سوراً به أربع بوابات تطل على الجهات الأصلية الأربع. في حين كانت الطرق التي تمر بهذه البوابات تلتقي في المركز. وفي هذا المركز كان الجامع والقصر والأسواق الرئيسية. وفي كثير من المدن كان تقاطع الطرق مغطى. ولكن ككثير من المدن الإسلامية الأخرى سريعة النمو، سرعان ما تعدت بغداد أسوارها الأصلية لتمتد إلى الضواحي على الضفة الشرقية للنهر (حيث تقوم المدينة الحديثة الآن). وفي أوج عظمة بغداد في أوائل القرن التاسع، قيل إن سكانها بلغوا المليونين. وكانت بلاد ما بين النهرين تفتقر إلى الأحجار المستخدمة في البناء. لذلك كان الجزء الأكبر من مباني المدينة من الآجر والقرميد، في أشكال هندسية ذات ألوان زاهية كان يفضلها المسلمون (الذين يحظر دينهم تصوير المخلوقات الحية).

وكانت بغداد عاصمة الإسلام بكل ما يتضمنه ذلك من معنى . فقد كانت العاصمة السياسية، فى تلك الأيام الأولى التى يسط فيها العباسيون نفوذهم على كل بلاد المسلمين . ويسبب تداخل السلطة الدينية والدنيوية، كانت أيضاً عاصمة الإسلام الدينية، لتصبح عند المسلمين بمثابة روما عند المسيحيين . بل إن اليهود الذين ظلوا يعيشون فترة من الزمن تحت حكم المسلمين فى الشرق الأدنى جعلوا بغداد مركزهم الإدارى . وكانت المدينة فى الوقت ذاته مركزاً تجارياً للعالم الإسلامى، تماماً كما كانت جاراتها بالنسبة للإمبراطوريات السابقة . ولم يكن اختيار موقع المدينة وليد الصدفة . فقد استولى المسلمون على شبكات المسافات البعيدة القائمة وكانت تعمل فى الشرق طوال قرون عدة . وكانت هذه الشبكات قد توقفت بسبب سنوات من الحروب . إلا أن المسلمين سرعان ما أعادوها سيرتها الأولى . وبحلول سنة ٧٢٠ كانوا قد نظموا خدمة بريد تصل إلى ما وراء النهر . كما جددوا محطات القوافل واستراحات الخيل على طول الطرق وأضافوا إليها محطات واستراحات جديدة .

والواقع أن تلك المنشآت خدمت كلاً من الأهداف التجارية والدينية . فقد كان على كل مسلم أن يحج إلى مدينة مكة المكرمة، فى جنوب غربى الجزيرة العربية، مرة فى العمر . وفى كل عام، وفى حدود شهر رمضان (الشهر التاسع من التقويم الإسلامى القمري) كان الحجاج من كل أنحاء البلاد الإسلامية يتجمعون للقيام برحلة الحج . وكما كان التجار الجوالون يفعلون على مر القرون، كان الحجاج يتجمعون فى قوافل كبيرة من أجل السلامة ثم يسرون فى الطرق الرئيسية . وهكذا عاد طريق الحرير ليصبح مرة أخرى طريقاً للحجاج . وفى هذه المرة كان الحجاج من المسلمين . وكان الحجاج من آسيا الوسطى وفارس يتجهون غرباً على الهضبة الإيرانية ويهبطون إلى بغداد . وكما أن التجار الأوائل، خاصة فى عهود الرومان، فتحوا طرقاً جديدة عبر الصحراء السورية، حفر المسلمون آباراً جديدة وأقاموا محطات للمؤن فى الصحراء كانت تُنقل إليها كميات كافية من الماء والطعام فى موسم الحج لتقديمها للقوافل الدينية . وعلى الطرف الأقصى من الصحراء السورية كان الحجاج يسرون على طريق البخور القديم، الذى صار يغلب عليه اسم طريق الحج، فى الجانب الغربى من شبه الجزيرة العربية ليصلوا إلى مكة .

وإذا كانت قوافل الحج تقوم برحلة واحدة ذهاباً وإياباً سنوياً فى موسم معلوم، فإن التجار، كعهدهم دائماً، هم الذين جعلوا طريق الحرير حافلاً بالحركة على مدار السنة . وبحلول القرن التاسع اتجه بعض العرب إلى الصين براً . إلا أن تجارة التاريم المتوقفة

والمضطربة كانت أبعد ماتكون عما كانت عليه في عهد أسرة تانج، وإن كانت سبباً في ثراء الترك الأويغور المقيمين فيه. ونتيجة لذلك كان النشاط الرئيسى على طريق الحرير في تلك الفترة ينحصر في حدود العالم الإسلامى نفسه، حيث كانت مدن تركستان الغربية ترسل بضائعها عبر الهضبة الإيرانية إلى بلاد ما بين النهرين. وكان بعضها يذهب بحراً إلى الهند. وفي المقابل كانت تتلقى السلع الثمينة عن طريق التوابل من الهند والصين.

ومع أن الثقافة والتجارة وحدثا مدن غرب آسيا المسلمة. فإن وحدتها السياسية لم تدم طويلاً. فمع حلول القرن التاسع كانت الإمبراطورية العباسية قد بدأت في الانقسام إلى إمارات صغيرة. وليس أمراً مستغرباً، إذا وضعنا في اعتبارنا الاستقلال التقليدى لشعوب بلاد فارس الشرقية، أن يكون أحد أول الأقاليم التى استقلت هو ذلك الشريط الواقع شرقى الرى (راجى سابقاً بالقرب من طهران) وعاصمته نيسابور، وهى واحدة من المدن الفارسية «الجديدة» على طريق الحرير التى صارت قديمة. وهناك إمارة أخرى استقلت، وهى تلك التى أقامها السامانيون الذين جاءوا من حول بلخ، وتركزت حول بخارى وسمرقند.

هذه العواصم المحلية وغيرها تصارعت فيما بينها. حيث كان البلاط فى كل إقليم صغير أو دويلة يدعى أحقيته فى العلم والأدب وفى العمارة والتقنية. ومن أمثلة لامركزية الثقافة فى آسيا المسلمة وتفككها فى تلك الفترة مدينة كاث فى دولة خوارزم الواقعة على نهر جيحون. لم تكن كاث مدينة عظيمة، وإن كانت أكبر من بخارى، وكانت تبعد تماماً عن طريق الحرير، ولكنها تقع على أنف الجبل الممتد شمالاً نحو بلاد الخزر. ووصف الجغرافى المسلم المقدسى لمدينة كاث يعطينا إحساساً بما قد تكون عليه تلك المدن فى ذلك الإقليم:

وهى شرقى النهر، لها جامع وسط الأسواق... ودار الإمارة وسط البلد، ولهم قهندز^(١) قد خربه النهر [كان النهر قد أتى على كل أثر للمدينة القديمة بنهاية القرن العاشر]، ولهم أنهار فى البلد، وهو نفيس ذو علماء وأدباء ومياسير وخيرات وتجارات، بناءون حذاق وقراء ليس مثلهم بالعراق وحسن نغم وجودة قراءة ومنظر وخبر.

ومع ذلك لا ينبغى أن نظن أن هذه المدينة أو غيرها على قدر كبير من الفخامة. فمعايير

(١) قلعة. (المترجم).

الصحة العامة، حتى فى المدينة الضخمة ذات الماء الجارى الوفير، كان بينها وبين الواقع شأو بعيد، حتى إذا قسناها بمقاييس العصور الوسطى، كما يشهد بذلك المقدسى:

أوسخ من أردبيل كثيرة الميازيب إلى الطريق عامة تغطوهم^(١) فى الشوارع ويجمعون البلاذات^(٢) فى الحفائر ثم ينقلونها إلى السواد^(٣) فى المشافل^(٤). لا يمكن للغريب أن يظهر إلا أن يضىء النهار وهم يدوسونها^(٥) بأرجلهم إلى الجماعات.

كسائر الأديان الأخرى، ابتلى الإسلام بالطائفية. السنة هم أغلب المسلمين. وهم الذين يقبلون الخلافة التاريخية التى أعقبت موت محمد. إلا أن أقلية كبيرة (١٥٪ فى الوقت الراهن) من المسلمين، هى الشيعة التى تعتقد أن صاحب الحق فى خلافة محمد هو ابن عمه على. وحول مسألة إن كان الحكم الدينى، والسياسى فى هذه المجتمعات الثيوقراطية، ينبغى أن يكون بالوراثة فى إطار أسرة واحدة تبدأ بـ محمد، أم أنه ينبغى اختيار خلفاء من جماعة المسلمين، نشأت أجزاء كاملة من النظرية الدينية. وبعد انهيار الخلافة الأموية كان الشيعة يتركزون فى المناطق المسلمة الغربية، وخاصة فى مصر. إلا أن بعض أتباعهم وجدوا أيضاً فى البلاد السنية الشرقية. وكان بعض هؤلاء الشيعة المغالين، الذين تتقاذفهم أمواج بحر من الخصوم المؤمنين، هم الذين ابتكروا أسلوباً قاتلاً للدعوة والتعامل مع أعدائهم. وهذه الطائفة المحددة، التى اندرجت تحت أسماء عديدة، أبرزها الإسماعيلية، يعرفها الغرب بالحشاشين.

وفى أواخر القرن الحادى عشر عاد رجل مسلم اسمه حسن صباح من زيارة للبلاط المصرى كمبعوث مفوض من البعثة التبشيرية الإسماعيلية إلى بلاد فارس. ويبدو أنه نجح فى وعظه بالعراق وبلاد فارس حيث اجتذب عدداً لا بأس به إلى مذهبه واقترب ماتبدو أنها أول عملية اغتيال تقوم بها جماعة، وهى قتل مؤذن رفض الانضمام إلى المذهب. وسرعان مابدأ حسن صباح وأتباعه فى الاستيلاء على سلسلة من الحصون فى الجبال الوعرة بطبرستان على طول الجزء القزوينى من طريق الحرير. وأشهر تلك الحصون هو الموت الذى

(١) قضاؤهم للحاجة. (الترجم).

(٢) الفضلات. (الترجم).

(٣) الحقول. (الترجم).

(٥) أى الفضلات. (الترجم).

(٤) الأكياس. (الترجم).

يقوم على صخرة وعرة شديدة الانحدار شمال غربي طهران الحالية، حيث كان زعيم الطائفة شيخ الجبل يفرض سطوته.

ومن بين الطبقات التي تندرج تحت نظام الطائفة مجموعة تسمى «الفدائيين». وكان أفراد هذه المجموعة ملتزمين بقتل كل من يحكم عليه شيخ الجبل بالموت. وبعد عدة قرون ذكر ماركو بولو أن هؤلاء الفدائيين كانوا يتعاطون الحشيش كجزء من طقوسهم الدينية. ومن هنا جاءت كلمة حشاشين التي تحولت في اللغة الإنجليزية إلى assassins^(١). وبغض النظر عن الدور الذي كان للمخدرات في حياة هؤلاء المتدينين، فهم لم يكونوا قتلة عاديين. كانوا يحصلون على تدريب موسع في اللغة والطقوس والمراسم التي في القصور والديانات الأخرى، حيث كانت مهمتهم كسب ود ضحاياهم وثقتهم. وربما يظل الحشاش على هيئته المصطنعة شهوراً، بل وسنين، قبل أن يضرب ضربه بعد أن يكون قد احتل مكانة خاصة لدى الضحية. وإذا ما قبض على الحشاشين وأجبروا على الاعتراف كانوا في كثير من الأحيان يذكرون أسماء ضحاياهم المستهدفين على أنهم زملاؤهم في التآمر. وفي ذلك الجو من الشك الذي كانوا يثيرونه يتمكنون من تحقيق مهامهم.

ولم يقتصر وجود الحشاشين على فارس وحدها. إذ انتشرت الطائفة فيما بعد في الهند وفي أجزاء كثيرة من سوريا، وخاصة في حلب ودمشق، رغم عدم وجود ما يشير إلى خضوع هؤلاء لسيطرة شيخ الجبل. ومن المفارقات أنه في أواخر القرن الثاني عشر أرسل حشاش اسمه رشيد الدين إلى حصن الموت. وهناك كانت له حظوة لدى شيخ الجبل الحاكم، الذي لم يدرك أنه أرسل ليحل محله إلا وهو على فراش الموت.

وفي فترة من الفترات كان الحشاشون يسيطرون على ما لا يقل عن عشرة حصون على الهضبة الإيرانية، إلى جانب بعض أراضي سوريا. ومع أنهم لم يحكموا يوماً منطقة شاسعة من الأراضي، فإن وجودهم كان يثير الرعب في قلوب هؤلاء الذين يحكمون ما حولهم من بلاد. وفي بعض الأحيان كان الرعب وحده هو كل ما يحتاجونه لتحقيق مآربهم. وعندما قام حاكم فارسي في القرن الحادي عشر بحملة ضد الحشاشين، عاد إلى خيمته التي يفترض أنها مؤمنة ليجد رسالة مثبته في الأرض بخنجر تقول: «هذا الخنجر الذي شق الأرض الصلبة قد يخترق كذلك صدرك اللين. فكن على حذر!» فعادت الحملة من حيث أتت. وكان الحكام المسلمون على طول طريق الحرير، من جبال البامير إلى البحر المتوسط،

(١) تستعمل هذه الكلمة في اللغة الإنجليزية بمعنى القاتل الذي يقوم بعملية اغتيال سياسي. (المترجم).

يخشون بأس الحشاشين . كما أن الرعب الذى كانوا يثون به استمر بعد قيام كثير من الدول فى المنطقة وسقوطها، بما فى ذلك موجة جديدة من الترك الذين تركوا بصمتهم على المنطقة منذ بداية القرن الحادى عشر، وهم السلاجقة .

وقيل ظهور الترك السلاجقة^(١) المباغت على طريق الحرير، كان يبدو أنهم على علاقة وثيقة بالخزر . وتشير إحدى الحكايات أن سلجوقاً، ومعناها زعيم القوم، تيم ونشأ فى بلاط الخزر . إلا أن هناك مصدراً تاريخياً آخر، كتبه عميد الملك حوالى سنة ١٠٤٥ ، يسجل هذا الأمر كما رآه السلاجقة المتأخرون^(٢) :

وفيما يتعلق بنسب السلطان - نصره الله - فإنه يكفيه شرفاً أنه ليس كنسب غيره من المماليك أصحاب الأنساب المجهولة والغامضة . ومن بين أسلافه سرجوق [سلجوق] الذى ضرب ملك الخزر بسيفه وهزمه بالرمح الذى كان فى يده، حتى كبا فرسه وسقط على وجهه . وهذه الفعلة لا تفعلها سوى نفس حرة وروح تطمح إلى ما هو أسمى من نجم العيوق وأعلى . وبه بدأت الإمبراطورية...

وبغض النظر عن حقيقة أصل الترك السلاجقة، فإنهم سرعان ما اتجهوا غرباً . وعند ظهورهم فى أواخر القرن العاشر عند الجزء الأسفل من نهر سيحون استولوا على غربى تركستان بحلول سنة ١٠٤٠ ، ثم بدأوا زحفهم عبر الهضبة الإيرانية . وخلال عدة عقود كانوا قد وصلوا إلى بلاد ما بين النهرين . وفى سنة ١٠٧١ سحقوا الجيش البيزنطى عند منزىكرت^(٣) بآسيا الصغرى . وفى النهاية فقدت الإمبراطورية البيزنطية الأناضول . وكان السبب الأول لبقاء هذه الإمبراطورية هو موقع العاصمة الذى يصعب اقتحامه على الجانب الآخر من مضيق البسفور . ولم يمر وقت طويل حتى استولى الترك السلاجقة على الشرق الأدنى والساحل الغربى من شبه جزيرة العرب من الخلفاء الفاطميين الذين كانت مصر مقر حكمهم . وبذلك صار السلاجقة يحكمون طريق الحرير من كاشغر إلى البحر المتوسط . وفى هذه الفترة، وفيما يعد التصدى للاجتياح السلجوقى بين أسبابه، شهد طريق الحرير

(١) فرع من الترك الأويغور . بلغت عظمة السلاجقة أوجها فى عهدى السلطان ألب أرسلان (١٠٦٣ - ١٠٧٢) والسلطان مالك شاه (١٠٧٢ - ١٠٩٢) اللذين تمكنا بمساعدة وزيرهما نظام الملك من إصلاح المؤسسات الإدارية والدينية كما كونا جيشاً من المماليك ليحل محل جيش البدو . وشجع السلاجقة التعليم وأنشأوا المدارس . (المترجم) .

(٢) هذه ترجمة للنص الإنجليزى حيث لم أتمكن من الحصول على الأصل رغم البحث والتقصى (المترجم) .

(٣) تُسمى أيضاً ملار جرد . (المترجم) .

وصول مجموعة ذات عقيدة مختلفة تمام الاختلاف. كانت صغيرة في عددها قوية في تأثيرها. إنهم الصليبيون.

ومنذ قيام الدولة العباسية في منتصف القرن الثامن والمسلمون والمسيحيون البيزنطيون يربطهم اتفاق على مصالح كل منهما في الشرق الأدنى. فرغم التوترات واندلاع الحروب من حين لآخر، ظل الجانبان يتعاملان تجارياً. وكان ذلك في كثير من الأحيان من خلال طريق عبر تلال أرمينيا إلى طرابزون التي كانت البضائع تُنقل منها عبر البحر الأسود إلى القسطنطينية أو العكس. وكانت القسطنطينية لاتزال وقتها سوقاً رئيسية لبضائع الشرق والموردين القادمين من أنحاء كثيرة من غرب أوروبا. كما أن الحجاج المسيحيين كانوا قد بدأوا يشقون طريقهم إلى الأراضي المقدسة بأعداد كبيرة وكان الخلفاء الحاكمون يسمحون لهم بزيارة بيت المقدس والأماكن المقدسة القريبة منها. إلا أن وصول الترك السلاجقة إلى المنطقة أدى إلى وقف العمل بتلك الاتفاقيات. فقد صارت بيزنطة معرضة للخطر وانقطعت طرق الحجاج.

واستجابة لطلب بيزنطي للعون قام المسيحيون الأوروبيون بحملة مقدسة في نهاية القرن الحادي عشر، استطاعوا من خلالها إقامة عدد من الإمارات والممالك المسيحية على ساحل البحر المتوسط. وتركزت تلك الإمارات حول أنطاكية (وكان قد مضى زمن طويل على أفولها عقب تفضيل العرب لحلب عليها) وطرابلس على ساحل لبنان والرها شمالي الفرات وبيت المقدس. وما إن استقر المقام بالصليبيين في حصونهم التي أنشئت حديثاً حتى لم تقتصر مواجعتهم على الترك السلاجقة وحدهم، وإنما شملت معهم الحشاشين. ويبدو أن كونت طرابلس وملك بيت المقدس، الذي أعطى نفسه هذا اللقب، قد قُتلا على أيدي الحشاشين (الذين يُحتمل أنهم تنكروا في هيئة رهبان) في القرن الثاني عشر، وإن لم يتضح إن كان ذلك تم بأوامر من شيخ الجبل أم لا. ورد الداوية في طرابلس على ذلك بغزو أرض الحشاشين في سوريا وأخذوا منها خراجاً. وظل الحشاشون يشكلون خطراً رغم ذلك. فالواقع أنه في وقت لاحق كان الحكام الغربيون وكذلك الشرقيون، ومنهم أباطرة بيزنطيون، يستغلون الحشاشين في تحقيق أغراض شريرة.

وكان لقدوم الصليبيين إلى الشرق الأدنى أثره البالغ بالطبع. فقد انكمشت الإمبراطورية البيزنطية إلى مايزيد قليلاً على نتوءين مستديرين، هما اليونان وآسيا الصغرى، يمتدان نحو بعضهما فيما يشبه اليدين على جانبي البحر. وهكذا عاد الأوروبيون إلى طريق

الحرير الذى غابوا عنه قروناً، وهو المكان الصحيح الذى يستطيعون منه الوصول مرة أخرى إلى ثروات الشرق. ولم يكن أقل تلك الثروات قدراً هو ذلك التراث الكلاسيكى الأوروبى، الذى حفظه الكتبة والعلماء والباحثون المسلمون، وبدأت فى ذلك الوقت رحلة العودة عبر البحر المتوسط، مروراً بإيطاليا، ليُشرى أوروبا. ورغم شدة الخلافات الدينية واحتدام المشاعر فى بعض الأحيان، استؤنفت التجارة شيئاً فشيئاً عبر الحدود المسلمة المسيحية. وكما استمر السوريون واليونانيون والأرمن واليهود فى عملهم كتجار ورجال قوافل على طريق الحرير فى ظل حكم المسلمين، هاهم يعملون (ومنهم كثيرون اعتنقوا الإسلام) كوسطاء فى التجارة مع المسيحيين الذين وفدوا حديثاً. وكان الأوروبيون فى ذلك الوقت لهم سلطان على الطرف الغربى لطريق الحرير، وهو المكان المناسب للانفتاح المدهش على الشرق الذى سوف يحدث فى وجود المغول المرعبين دون سواهم من البشر.



أسطورة «الحمل النباتي»^١، وهو النبات الحيواني الذي أنتج القطن، في أنحاء أوراسيا أثناء السلام المغولي وبعده (من أرشيف المؤلف).

عصر الخانات العظام

غابات اللوز في سمرقند بخارى،

حيث تزهر الزنايق.

وجيخون، الذى يسير على رماله الصفراء التجار العظام

ذوو العمائم البيضاء.

— أوسكار وايلد

فى سنة ١١٦٢ ، وهى السنة التى وُلد فيها الرجل الذى نعرفه باسم جنكيز خان^(١) ، لم يكن هناك الكثير من الشواهد التى تدل على أنه سيكون أعظم من عرفتهم آسيا من الفاتحين والغزاة. فالحق يقال أنه حسب مجريات الأمور كان الوقت قد حان تقريباً لظهور إمبراطوريات بدوية محكوم عليها بالزوال السريع. وفى الشرق، وبينما كانت أسرة سونج مزدهرة فى جنوب الصين، شهد شمال الصين سلسلة من الحكام أصحاب السيادة معظمهم من أصل مغولى. وفى آسيا الوسطى كان أهل التبت قد تشتتوا جنوبى التاريم واستولى الترك الأويغور على طرق التاريم الشمالية، فى حين دارت حروب بين قبائل من الترك والتبت على ماتبقى. وفى غرب آسيا، كانت بلاد المسلمين آخذة فى الانفصال، حيث استقلت بعض الدول الإقليمية استقلالاً لم يدم طويلاً ولمعت لمعاناً سرعان ما خبا.

لم يكن هناك ما يشير إلى أن الصبى الصغير تيموتشين سيصير بطلاً (رغم اسمه الذى يعنى الحداد ويرمز للقوة). وربما حكم أبوه وجده كخانين، ولكن من جاءوا بعدهما انكمشوا ليصبحوا مجرد قبائل مغولية صغيرة معدودة. وعندما تيمت وهو فى التاسعة هرب إلى أطراف بلاد المغول مع أمه وإخوانه وعدد قليل من الأتباع والخدم وبعض الماشية الجرباء. وبعد عدة سنوات أسره الخان المحلى، الذى خشى أن يصبح منافساً له. إلا أنه بالدهاء واستقطاب الحلفاء بمهارة، إلى جانب قوة الإرادة، استطاع تيموتشين على مدى العشر سنوات التالية أن يجمع تحت رايته قبائل شتى، حتى أنه بُويع سنة ١١٩٦ ليكون جنكيزخان، أى حاكم شعوب منغوليا الأعلى القاهر للجميع.

وحتى ذلك الوقت كان حكم جنكيزخان قاصراً على المنطقة الواقعة حول نهر أورخون، وهو أحد روافد بحيرة بيكال. وكان معسكره الرئيسى فى قره قورم، بالقرب من المنطقة التى اتخذها الشيونج نو والترك الشرقيون مقراً لقيادتهم. إلا أنه فى السنوات الأولى من القرن الثالث عشر كان المغول يسيطرون على شمالى الصين من المحيط الهادى إلى عمر كانسو. وبعد استيلاء المغول على المتخصصين التكنولوجيين الذين أسروهم فى غاراتهم الأولى واستخدمهم ضد حكامهم الأول، اخترقوا السور العظيم وطرّدوا حكام تشين جنوباً إلى كايفنج ليستولوا فى نهاية الأمر على العاصمة الشمالية بكين سنة ١٢١٥. واستعانة بالخبرة التى حصلت عليها جيوش جنكيزخان حديثاً، اتجهت غرباً لتستولى على معظم أراضي آسيا بما فى ذلك جزء كبير من طريق الحرير وطريق السهوب الأوراسية.

(١) اسمه الأصلى تيموتشين (تيموجين) وحصل على لقب جنكيز خان، أى ملك البحار عقب توحيد القبائل المغولية تحت لوائه. (المترجم).

وربما يرجع بعض ما حققه المغول من نجاح فى البداية شرق آسيا الوسطى إلى تفتت القوى، حيث لم تكن هناك جبهة قوية موحدة راغبة فى التصدى لهم أو قادرة على ذلك. إلا أنه فى تركستان الواقعة خلف جبال البامير بدا أن المغول سيلقون حتماً خصوماً أشد بأساً.

كان بعض الخطاى، الذين كانوا يسيطرون يوماً على عمر الصين التجارى فى كانسو، قد طُردوا إلى الغرب. وربما كانت خبرتهم بتجارة طريق الحرير وراء إقامتهم فى تركستان الشرقية. وفى الأراضى الواقعة بين كاشغر وإيسيك قول أمام هؤلاء القره خطاى (الخطاى السود) مملكة على النمط الصينى. وفى منتصف القرن الثانى عشر أصبحوا على قدر من القوة مكنهم من صد المسلمين والاستيلاء على مدينتى القوافل الرئيسيتين بخارى وسمرقند وإقامة أول مملكة غير مسلمة فيما وراء النهر دامت أربعة قرون. وبما أن حاكم القره خطاى بوذى متأثر بعض الشيء بأساليب الحياة الصينية، فقد حوّل المساجد إلى معابد بوذية فى حين أتاح للمسيحيين النسطوريين حرية العبادة.

وكانت تلك هزيمة مباغته للترك السلاجقة المسلمين. وأسعدت الصليبيين الأوروبيين الذين كانوا يقاتلون من أجل وجودهم فى قلعة الرها التى يسيطرون عليها بالقرب من الطرف الغربى من طريق الحرير. وبما أن الشائعات كثيراً ما تقلب الحقيقة إلى خيال، فمن الواضح أن أمل الصليبيين جعل عقلهم يصور لهم زعيم القره خطاى جورخان وقد تحول إلى أمير مسيحي عظيم من آسيا الوسطى اسمه پريستر (وتعنى كلمة Presbyter الشيخ أو الكاهن) يوحنا (وهى تحريف لجورخان).

واعتماداً على ذكر «يوحنا الشيخ» فى العهد الجديد وذكريات المسيحيين النسطوريين الذين أبعدوا شرقاً فيما وراء فارس وأرمينيا، انتشرت أساطير پريستر يوحنا بين الأوروبيين طوال عدة قرون حيث كانت وراء انجذاب المستكشفين. بل إنه عندما حاول بارثلميو دياز سنة ١٤٨٧ الوصول إلى آسيا بالدوران حول رأس الرجاء الصالح أطلق «عملاء» (هم فى الواقع عبيد أفارقة سبق أسرهم) على طول الساحل لكى ينبهوا پريستر يوحنا إلى وصولهم الوشيك. ولكن أمل الصليبيين فى العون الذى يستمدونه من هذا الشيخ الجليل الأسطورى سرعان ما انهار. فقد طردهم الترك السلاجقة من الرها سنة ١١٤٤، الأمر الذى قصر الوجود الأوروبى على الشريط الساحلى للبحر المتوسط.

وسرعان ما هُزم القره خطاى كذلك على يد قوة أكبر منهم هى مملكة خوارزم التجارية

المزدهرة التي قامت عند أسفل نهر جيحون، حيث كانت بخارى وسمرقند درتى تاجها. وأعلن حاكم خوارزم عن ادعاءاته باستعماله اللقب الفارسي «شاه». ولم يكن يرضى بأقل من استعادة النفوذ الإسلامى فى بلاد ما وراء النهر ثم حكم العالم الإسلامى كله من بغداد فى نهاية المطاف. وعندما أشرف القرن الثانى عشر على نهايته، أسرع خوارزم شاه بتقليص القره خطاى إلى مجرد تابع ثم تَوَجَّهَ إلى الهضبة الإيرانية حيث قتل آخر حكام السلاجقة فى الرى سنة ١١٩٤ وهدد خليفة بغداد نفسه. وبعد أن استولى ابن الشاه وخليفته على بلخ من حاكم مسلم آخر سنة ١٢٠٤، زحف نحو بغداد التي أنقذتها منه عاصفة شتوية أعاقت تقدم القوات الخوارزمية وجعلتها هدفاً سهلاً للجنود الأكراد المحليين فى التلال. وبذلك بدا الأمر وكأن على مملكة خوارزم أن تواجه جنكيزخان بشيء من المعارضة الرائعة عند تقدمه غرباً على طريق الحرير.

وكان جنكيزخان على قدر كبير من المهارة والذكاء والبطش. وكان من هذه الصفات ما هو جديد على المغول. فقد كان المغول قبل ما حققوه من نجاح فى بادئ الأمر قوماً بسطاء يعيشون على مطاياهم وقطعانهم وقوتهم هو اللبن الزبادى والكوميس (حليب الفرس المخمر) والدخن. ورغم كون المغول أميين وغير متقدمين، فإن مفتاح نجاح جنكيزخان كان اعترافه بأهمية أصحاب المهارات والعلم وبحثه عنهم فى المدن التي فتحها. وقد نجح أصحاب المهارات الخاصة، سواء كانوا صاغة وكتبة أم مهندسى حصار وصانعى دروع، من حمامات الدم المعتادة حيث سيقوا إلى خدمة البلاط الإمبراطورى. وهكذا صارت معسكرات المغول المتنقلة تشبه إلى حد ما عاصمة الإسكندر المتنقلة فى الصورة التي كانت عليها قبل ١٥٠٠ سنة تقريباً. وكان لاستيلاء المغول على أصحاب التخصص من أهل الشرق أهمية خاصة عند تقدمهم غرباً. فقد ضرب هؤلاء حصاراً على كبرى مدن آسيا الوسطى، فى حين كانت تلك التقنيات جديدة على المغول الذين عاشوا فى السهوب.

وجاء جنكيزخان إلى حملاته بقدر كبير من الذكاء، الذى قد تكون السنوات التي عاشها فى البرية قد صقلته، والملاحظة الواعية التي نَمَّأها صعوده إلى السلطة ولم يكن معه سوى عقله وإرادته. وبصفته حاكماً لمعظم الشعوب المغولية والتركية التي تعيش فى السهوب المغولية وحوض التاريم، استخدم هذا الرجل العجيب آخرين كى يزودوه بالمعلومات المهمة التي يحتاجها لتخطيط حملاته وتنفيذها. كما أنه زرع الجواسيس فى قوافل التجار، التي كانت لا تزال تسير على مسالك طريق الحرير القديمة، ليأتوا له بالمعلومات. وبحلول وقت توجيه اهتمامه لتركستان الغربية، كانت تلك الحيل معروفة على نطاق واسع. لذلك عندما

وصلت بعثة من التجار المغول تضم مبعوثاً دبلوماسياً إلى مدينة أترار على نهر سيحون سنة ١٢١٨ قتلهم الحاكم الخوارزمي المحلي جميعاً، الأمر الذي عجل بوقوع حرب كانت واقعة لا محالة.

وهنا ظهر بطش جنكيزخان على حقيقته، حيث كان أشد مما كان عليه في حملاته السابقة في السهوب الأوراسية وفي شمال الصين. صحيح أن العاصمة بكين دُمرت وذُبح عدد كبير من السكان، ولكن مع تزايد قوة جنكيزخان اختارت كثير من شعوب آسيا الوسطى الانضمام إليه بدلاً من قتاله. ومن هذه الشعوب الترك الأويغور الذين كانوا يقيمون في بيش باليق. ولجأ بعض أعداء جنكيزخان القدامى لجوءاً مؤقتاً إلى مدن تبعد كثيراً إلى الغرب، مثل خوتان وكاشغر وبالا ساغون غربي إيسيك قول وكانت عاصمة بقايا القره خطاي. ولكن هؤلاء المغتصبين تسببوا في كره الناس لهم مما جعل المواطنين المحليين يهبطون ضدهم، وخاصة المسلمين المضطهدين الذين رحبوا بالمغول كمحررين لهم.

ولكن هاهم المغول يواجهون مدن تركستان ذات التحصينات القوية التي شُيّدت وحُصنت بكل ما أوتى العالم الإسلامى من مهارة. ولعدم ثقة جنكيزخان في الأساليب المستعارة وحدها للتعامل مع هؤلاء الخصوم المسلمين الذين تصعب هزيمتهم، بدأ عهداً مرعباً لم تشهده المنطقة من قبل، ولا حتى على أيدي الحشاشين الذين يبدون إلى جانبه على قدر كبير من الرقة فيما قاموا به. وكانت البداية خادعة. إذ اتجه جنكيزخان نحو خوارزم في أوائل سنة ١٢١٩ على رأس جيش يقدر بـ ٢٠٠ ألف رجل. وكان ذلك في السنة التالية لمقتل البعثة المغولية في أترار. وأرسل فرقتين بقيادة ولديه إلى خوجنده وأترار (حيث صُب الذهب المنصهر في حلق الحاكم عقاباً له على ما اقترفت يده).

أما جنكيزخان نفسه قد اتجه إلى كبرى مدن المنطقة، وهى بخارى. وعقب قيامه ببعض أعمال السلب والنهب والحرق في المدينة، صعد منبر الجامع ليعلن أنه «مقرعة الإله» أرسله عقاباً لهم على خطاياهم. وازداد الأمر سوءاً بالهجوم الذي تعرضت له سمرقند في بداية سنة ١٢٢٠. وقد أُعدمت الحامية التركية بعد حصار دام خمسة أيام، وهو نفس مضير نسبة كبيرة من السكان، وإن كان رجال الدين قد نجوا من ذلك واستثنى ٣٠ ألفاً من الصنائع المهرة أرسلوا إلى القيادة المغولية في منغوليا.

وفى ظل هذه الخسائر الرهيبة، هرب خوارزم شاه على طريق الحرير إلى بلاد فارس طالباً للعون. وتعقبه الفرسان المغول على طول الطريق عبر الهضبة الإيرانية من الرى حتى

همذان (التي كانت تسمى إكبتانا من قبل). ولقى الشاه الشارد حتفه على جزيرة في بحر قزوين كان قد لجأ إليها. وبينما بقي جنكيزخان في تركستان، استمرت هاتان الفرقتان المغوليتان في تحقيق سلسلة مذهلة ودموية من النجاح. وبعد أن دارتا حول بحر قزوين مروراً بالمنطقة التي نعرفها الآن باسم أذربيجان، اتجهتا نحو القوقاز وهزموا مملكة جورجيا (الكرج) في تفليس سنة ١٢٢١. إلا أن حدوث تمرد في مؤخريتهما دفعهما إلى العودة حيث قامتا بدك همذان المتمردة وإعدام سكانها. وبعد ذلك استأنفتا جولتهما حول بحر قزوين حيث اقتحمتا ممر دربند الذي كان يوماً على قدر كبير من التحصينات الدفاعية.

ولم يعد الخزر أصحاب الكلمة العليا فيما وراء القوقاز. ففي أواخر القرن العاشر اتخذ الروس (وهم قبائل من الفايكنج السويديين التي أقامت حول كييف) والبيزنطيون، ربما بدافع من غيرتهم من نجاح الخزر، كي يدمروا المملكة وينهبوا عاصمتها على نهر أتل. ورغم استمرار نشاط التجار الخزر في المنطقة (وربما يكونون أسلاف كثيرين من اليهود الروس في العصور الحديثة)، فلم تحتل دولة قوية الإقليم الحيوى الواقع شمالى القوقاز كي تحول دون وقوع غزو كهذا من الجنوب أو من الشرق، يأتى من السهوب الأوراسية. وهكذا استمر الجناحان المغوليان فى سيرهما حول بحر قزوين حيث هزما كل الجيوش التي تصدت لهما هزيمة سهلة ليعودا فى نهاية الأمر إلى تركستان الغربية منتصرين.

فى ذلك الوقت كان جنكيزخان يُتم فتح خوارزم وتدميرها. وظلت مدينة الجرجانية الواقعة على نهر جيحون صامدة سبعة أشهر عصيبة كبدت خلالها المغول خسائر كثيرة. إلا أن انتقام المغول كان شاملاً. فباستثناء الصناع الذين نُقلوا إلى منغوليا، كان مصير ماتبقى من أهلها، وقد يصل عددهم إلى مائة ألف نسمة، إما السبي أو القتل. كما دُمرت السدود الواقعة أعلى المدينة فأغرقتها المياه ودمرتها تدميراً تاماً. وكان الانهيار على قدر كبير من الشدة جعل نهر جيحون، على ما يبدو، يُحوّل مجراه ليصب فى بحر قزوين، ليستأنف مسيرته إلى بحر آرال بعد ثلاثة قرون. ولم تنهض المدينة من جديد، وإن كانت هناك مدينة تجارية جديدة أُقيمت على نفس الموقع فيما بعد واسمها أرجنيج.

وكان الدافع وراء ذلك التدمير بعضه الانتقام والبعض الآخر حملة إرهاب قُصد بها دفع المدن الأخرى على الاستسلام بلا قتال. ويبدو أن هذا التكتيك أفلح فى بعض الحالات، ولكن الدم والتدمير كانا النمط الأعم. فقد دُمرت بلخ ومرو ونيسابور وهراة شمال غربى فارس وكابول القريبة من الهند تدميراً تاماً وذُبح أهلها، وإن كان بعضهم ترك

حياً فترة من الزمن بعد استسلامهم. ويقدر أحد المؤرخين عدد من قُتلوا في مرو بـ ٧٠٠ ألف نفس. وفي نيسابور كانت هناك تلال من رؤوس الضحايا، إلى جانب أكوام منفصلة من الرجال والنساء والأطفال. بل إن القطط والكلاب كان مصيرها هي الأخرى هو الذبح. وذكر المؤرخ المسلم الجويني أن بساتين الورد صارت محارق. ولم ينج من أهل مرو سوى بضع عشرات من الصناع، يقول المؤرخ إنهم ٨٠ صانعاً، انتقاهم جنود جنكيزخان بعناية كي تنتفع بهم الإمبراطورية فيما بعد. وانطلق المغول بهذه الطريقة إلى أن بلغوا نهر السند ولم يتعدوه، إذ كانت السهول الحارة غير ملائمة للمغول ولخيولهم التي ألفت الجو البارد.



وبينما كان جنكيزخان يلحق بقلب طريق الحرير أشد ما ألم به من التدمير دموية، كان في الوقت نفسه يفكر جدياً في الطريقة التي تمكنه من حكم الإمبراطورية العظيمة التي أقامها حكماً صحيحاً. ومع أنه لم يكن متعلماً، فقد كان إدراكه واضحاً لقوة الأفكار وقيمة من يحملونها وضرورة وضع أسس الإدارة التي تمكنه من حكم قارة بأكملها. لذلك استدعى إلى معسكره حكماء من ديانات مختلفة وفلسفات عدة موجودين في أنحاء الإمبراطورية المتنامية. ومن حسن حظنا أن بعض هؤلاء خلفوا سجلات عن رحلاتهم وأمدونا بلمحات نادرة عن السفر عبر طرق آسيا الوسطى في بداية العصور المغولية. ومن هؤلاء الحكماء تاوى يدعى تشانج تشون سجل حتى الاستدعاءات التي تلقاها. وهي تعطينا فكرة عن الرجل الذي أرسلها. فقد كتب كاتب جنكيزخان الصيني معبراً عن عزم سيده:

على مدى سبع سنوات نجحت في إنجاز عمل عظيم. ألا وهو توحيد العالم كله في إمبراطورية واحدة. أنا نفسي ليست لي صفات مميزة، غير أن سمو دافعي جعل الواجبات المقروضة علىّ ثقيلة هي الأخرى. وما يخيفني هو أنه قد يكون هناك نقصان في حكمي. ولكي نعبر نهراً نصنع القارب والدفة. وبالمثل ندعو الحكماء ونختار معاونين للحفاظ على نظام الإمبراطورية.

لم يرفض تشانج تشون الدعوة، رغم تقدمه في العمر. وبذلك بدأ رحلته سنة ١٢٢٠ ومعه ١٩ من تلامذته يصحبهم ٢٠ مغولياً إلى بلاد المغول. وقد أصابه الحزن وهو في بكين، التي لقي فيها ترحيباً حاراً، فور علمه بأن الخان لم يكن موجوداً في منغوليا، التي كانت على مسافة بعيدة، وإنما كان في حملة في خوارزم في أقصى الغرب. ولم يكن هناك

بد من اللحاق به. وكان ذلك معناه السير عبر السهوب المغولية وسهوب جونغاريا شمالى جبال تيان شان. وكما هو الحال دائماً عندما يوفر الحكام الأقوياء الأمن المطلوب، كان ذلك هو الطريق المفضل، وكان مفضلاً أكثر عندما يتولى الحكم شعب شمالى.

وبينما كان تشانج تشون يعبر السهوب الشمالية وجد دلائل كثيرة على التغيرات التى حدثت فى المنطقة على مدار القرون السابقة. فشمال تورفان وهامى وشرقيهما رأى أول مسلم، وكان هذا الدين قد بلغ ذلك المكان القصى. وعلى مسافة من تلك البقعة كانت هناك مستوطنة منقولة للصناع الصينيين، وكانوا من نساغى الحرير والصوف البارزين، فرحبت بتشانج تشون ترحيباً سره وطاقوا به فى مدينتهم وهم يحملون باقات زهور ملونة حلوة الرائحة وبيارق زاهية ترفرف. وبعد أن ترك تشانج تشون تسعة من تلامذته هناك انطلق فى إثر جنكيزخان عابراً سلسلة من التلال فى طريق جبلى شديد الانحدار، مما اضطرهم إلى إنزال عربتى القافلة من عليه بالحبال.

وعندما اتجه تشانج تشون إلى مدينة بيش باليق التى كانت لاتزال على أهميتها، مر بأرض الترك الأويغور الذين كانوا وقتها يحكمون تحت إشراف جنكيزخان. وهناك أيضاً خرج أناس كثيرون من المدينة لتحية الضيف ذائع الصيت. وكان بين مستقبله كونفوشيون وكثيرون من الرهبان البوذيين والتاويين (ولكن ما قاله عن كون التاويين يرتدون أغطية رأس تختلف عن تلك التى يرتدونها فى الصين قد يجعل من رأهم كهنة مانويين). ونصبت القافلة خيامها فى كروم العنب بالمدينة، حيث انهالت عليهم الفاكهة وتدفق عليهم نبيذ العنب. كما قدموا لتشانج تشون كذلك كتاباً صغيراً عن تاريخ المدينة علم منه أنه فى عهد أسرة تانج كانت بيش باليق مقر حاكم المناطق الشمالية الصينى وأن بعض المدن الحدودية التى أقامتها الأسرة كانت لاتزال موجودة.

وتكرر الشئ نفسه فى مدن أخرى على الطريق إلى الغرب. وكان تكريم تشانج تشون لشخصه ولكونه حكيماً فى حماية جنكيزخان. لذلك كان يلقي عناية فائقة وتحييه فرقة من الحرس من كل مدينة وتقدم له الفواكه، وخاصة الشمام والعنب شديد الحلاوة، إلى جانب النبيذ. وفى المدن التالية لبش باليق التقى بالزرادشتيين والمسيحيين النسطوريين إلى جانب البوذيين، حيث لاحظ أن تلك البلاد جميعاً كانت تابعة للصين فى عهد أسرة تانج. إلا أنه بمجرد ابتعاده عن مدينة تشان باليق وجد أنه «لا يوجد غربى هذا المكان بوذيون ولا تاويون. فليس هناك سوى المسلمين، هؤلاء القوم الذين يعبدون الغرب [يقصد أنهم يولون وجوههم فى الصلاة إلى مكة غربى الجزيرة العربية]».

وبعد أن يمضى تشانج تشون فى سيره على سفوح جبال تيان شان يصل إلى أرض صحراوية:

... حيث الرمال المتطايرة التى تذررها الرياح تكون مرة تلاماً ومرة مستوية، كأنها أمواج المحيط. وهى خالية تماماً من أى نبات. وكانت العربات تغوص فى الرمال وتسير فيها الخيل بمشقة...

كانت تلك هى الصحراء التى حذروا منها تشانج تشون. وكانوا يسمونها حقل العظام البيضاء، لسقوط العديد من الجنود صرعى فيها، إما فى ساحة القتال أو بسبب العطش. وكان يقال إن محاولة اجتيازها فى ساعات النهار معناها الهلاك. ولكن يبدو أن هذا لا ينطبق على الوقت الذى اجتازتها فيه قافلة تشانج تشون، حيث كان عبورها لتلك الصحراء نهراً. وعندما كانوا يتوقفون للراحة «كان الليل قارس البرودة ولا نجد ماء». وتأثر تشانج تشون وتلامذته تأثراً شديداً بتلك العظام الكثيرة التى لم تكن تلقى التكريم الواجب. وفى رحلة العودة كانوا يقيمون صلوات جنازة خاصة للموتى.

وبعد اجتياز القافلة للإقليم الجبلى الذى تتوافر فيه مياه الرى، وإن كان يتميز بالوعورة، وشق فيه أبناء جنكيزخان طريقاً، وصلت فى نهاية الأمر إلى مدينة المالك بما فيها من بساتين كثيرة للفاكهة. إلا أن تشانج تشون وصحبه كانوا أقل اهتماماً بالفاكهة من اهتمامهم بشيء لم يكن معروفاً لهم بالمرّة، وهو القطن.

وكان الصينيون منذ زمن بعيد يستوردون سلعاً قطنية من الهند يشتبهونها. والواقع أن شيوع الحرير فى الصين وندرة القطن فيها جعل المشترين الصينيين يفضلون أقمشة الغزى القطنية على سواها باستثناء أفخر أنواع الحرير. وتبعاً لطول المسافة والاتصالات غير المضمونة وما كان عليه الأمر من اضطراب فى التجارة، فلم يكن مستغرباً أن نجد الصينيين لا يعرفون عن القطن أكثر مما كان الرومان الأوائل يعرفونه عن الحرير. فكما وجد الرومان أنه من الصعب عليهم تصديق أن الحرير منتج حيوانى، لم يقبل الصينيون فكرة أن القطن يُستخرج من أحد النباتات. وفى القرن السادس اخترع الصينيون أسطورة عن «الحمل النباتى»، وهو مخلوق غريب كان يُزرع فى الأرض لتنبت منه حملان أخرى يُفترض أن القطن يؤخذ منها. وشاعت هذه الفكرة المخترعة فى آسيا قروناً عديدة، حيث التقطها الرحالة الأوروبيون السذج بعد ذلك ونقلوها إلى الغرب. إلا أن تشانج تشون كانت لديه فى ذلك الوقت احتياجات أكثر أهمية، وخاصة أن الشتاء كان على الأبواب:

حصلنا على سبع قطع من هذا القماش لنصنع منها ملابس شتوية. ويشبه شعر هذه المادة الوبر الذى تكون بداخله بذور الصفصاف. إنه شديد النظافة والنعومة والليونة ويستخدم لصنع الخيوط والحبال والأقمشة والحشو.

وما إن عبر تشانج تشون نهر إيلي حتى وجد نفسه فى أرض تنبت فيها أشجار التوت. وكان قد لاحظ من قبل أن أهل المدن الواحات يستخدمون قنوات الري لجعل الأراضي البور صالحة للزراعة. ولاحظ هنا كذلك أن كثيراً من المزارعين تخصصوا فى زراعة أشجار التوت لتربية دودة القز. كما علم أن تلك البلاد كانت ضمن الأراضي التى يسيطر عليها القره خطاي، وهم الحكام السابقون لشمال الصين الذين طُردوا إلى أماكن بعيدة من القارة. إلا أنه بعد انتشار الإسلام، نمت إمبراطورية خوارزم حول نهري سيحون وجيحون. وهذا هو الإقليم الذى توقع تشانج تشون أن يجد فيه جنكيزخان. ولكن الرسول السريع الذى تقدمهم إلى المعسكر الإمبراطورى لإعلان وصول القافلة المرتقب وجد أن جنكيزخان قد رحل ليتعقب خوارزم شاه المنسحب.

وبعد أن تركت القافلة الصغيرة إحدى العربتين اللتين كانتا معها، سارت على سفوح جبال تيان شان ذات المياه الوفيرة «إلى أن استداروا ناحية الجنوب». وهناك وجدوا مدينة تالاس، بالقرب من الموقع الذى لقي فيه الصينيون هزيمة نكراء على يد العرب فى منتصف القرن الثامن، حيث كان بالإمكان رؤية آثار الحجارة الحمراء التى استُخدمت فى بناء أحد معسكرات الجند. والآن وقد اتجهوا ناحية الجنوب، كانت فرق الحراس المسلمين هى التى تخرج من المدن لتحية قافلة تشانج تشون وتصحبهم إلى مقر إقامة الضيوف. وعندما كانوا قريبين من طشقند عبروا نهر سيحون على جسر عائم وبعد ذلك ساروا بمحاذاة الجبال إلى سمرقند. وفى إحدى المدن التى مروا عليها وجدوا «شجرة توت عظيمة تكفى فروعها لأن تظل مائة رجل». وكان النبيذ لا يزال يمثل جزءاً كبيراً مما يُقدم للضيوف (وكانوا يتحايلون على تحريم الإسلام له بغليه)^(١) وكان أهل الفنون، مثل الراقصين بالسيف ولاعبى الأكروبات، يؤتى بهم لتسليةهم.

وأخيراً، وفى ديسمبر من سنة ١٢٢١، وصلت القافلة إلى مدينة سمرقند الكبرى،

(١) هناك شك فى كون هذا السبب الحقيقى وراء غلى الخمر. فربما كانوا يفضلونها ساخنة أو يستشيغونها بعد غليها. (المترجم).

حيث رحّب وزير جنكيزخان بيه لو تشو تساي، الذي كتب خطاب الاستدعاء، بتشانج تشون. وعلى الفور أرسل نبأ وصول تشانج تشون إلى جنكيزخان، إلا أنه اقترح بقاء تشانج وصحبه عدة شهور في سمرقند، حيث كان الشتاء على الأبواب وكان «قطاع الطرق» على ما يبدو قد دمروا الجسر العائم والقوارب التي يحتاجونها لعبور نهر جيحون. وافق الحاج بعد تردد ودخل «مدينة القنوات». وهناك وجد أدلة كثيرة على تغير أحوال سمرقند. كما لاحظ أن المدينة التي كانت تسكنها في يوم من الأيام مائة ألف أسرة لم يبق فيها سوى ربع هذا العدد بعد قدوم المغول. وكان المسلمون يملكون معظم الحقول والبساتين، التي كان يفلحها العمال الصينيون والخطاي والتانجوت (التبت).

وحتى قبل وصول جنكيزخان شهدت المدينة خصومات واضطرابات. وكان خوارزم شاه قد بنى لنفسه قصراً جديداً على تل ارتفاعه مائة قدم داخل حدود المدينة. ولكن هذا الجزء من المدينة تعرض لأعمال إرهابية من جانب اللصوص، مما جعله يهجره إلى مسكن آخر في حي أكثر أماناً. (والواقع أن حماسه الديني جعله غير محبوب حتى من المسلمين الذين يُفترض أنه «حررهم» من القرى خطاي الكفار). وكان ذلك القصر الشاغر هو مقر إقامة تشانج تشون في الشتاء، حيث كان يعتمد على سمعته كحكيم في حماية نفسه من اللصوص. وجاءته أعداد كبيرة من الزوار. ولم يكونوا فقط من الساسة المطلوب منهم رعايته والعمال الصينيين الذين تربطهم به روابط عرقية، وإنما كان منهم أيضاً علماء من المنطقة. كما راجع معه أحد علماء الفلك ما كتبه عن خسوف الشمس الذي كان قد شهدته قبل عدة أشهر في منغوليا.

ومع انتهاء الشتاء ومقدم الربيع، عرف تشانج تشون السبب الذي اشتهرت من أجله سمرقند بأنها أجمل مدن الإمبراطورية الإسلامية، كما يقول لنا كاتب سيرته:

في الشهر الأول [منتصف فبراير إلى منتصف مارس] أزهرت أشجار اللوز. وفاكهتها صغيرة في حجم الخوخ وطعمها أشبه بالجوز. وهي تُجمع وتؤكل في الخريف. وفي اليوم الثاني من الشهر الثاني، وهو وقت الاعتدال، بدأت زهور المشمش في السقوط. ودعا عالم الفلك وآخرون الأستاذ لنزّهة قصيرة غربي المدينة... كان الجو لطيفاً والهواء لذيذاً وكانت الزهور والأشجار نضرة يانعة. وحيثما ولينا فثمة مناظر بهيجة من البحيرات والبساتين والمعابد والمدرجات المزروعة والخيام.

وفى نزهة أخرى بعد أسبوعين لم يجدوا «سوى الحداثق والأحراج الظليلة لمسافة تزيد على مائة لى. وحتى البساتين الصينية لا يمكن مقارنتها بها...».

وجاء الربيع ومعه استدعاءات مجددة من جنكيزخان، ولبى تشانج تشون النداء حيث صاحبه ألف جندى ليعبروا به البوابات الحديدية (مضيق بوزجالا)، وهو واد ضيق فى لسان الجبال التى تفصل فرغانة عن بلخ. كانت فيه بالفعل بوابة حديدية فى يوم من الأيام (كما ذكر شيوان تسانج قبل ذلك بعدة قرون). وبعد عبور تشانج تشون لنهر جيحون وأنهار أخرى أصغر منه بالقوارب، وكانت جميعاً تفيض بالماء فى فصل الربيع، وصل فى نهاية الأمر إلى معسكر جنكيزخان. ولكن الخان كان لا يزال فى حملة. وبدلاً من الانتظار، عاد الحكيم التاوى إلى سمرقند. وهذه المرة اتخذ طريقاً جبلياً مختلفاً، حيث حدث عند أحد الجسور على نهر هائج أن:

**سقط العديد من حمير الحمل ليغرق بينما كانوا يقودونها عبر الجسر
[المصنوع من الحجارة] وعلى الشطآن التى أسفله حيث توجد جيف
حيوانات أخرى نفقت وهى تحاول العبور.**

وحتى فى هذا الإقليم الذى يصعب السير فيه ويكاد يكون الوصول إليه مستحيلاً، التقى تشانج تشون وصاحبه بقافلة تجارة عائدة «من الغرب بحمل كبير من المرجان»، وكان على هيئة قطع طول الواحدة منها قدم، اشترى منها الجنود المرافقون مقابل سبائك من الفضة زنة رطلين. وبعد أن أمضى تشانج تشون بعض الوقت فى سمرقند، حيث استمتع بموسم جمع الفواكه والخضروات مثل الباذنجان اللذيذ، توجه مرة أخرى إلى الجنوب صوب معسكر جنكيزخان، وكان هذه المرة فى الجبال الثلجية (هندوكوش). وفى الطريق مروا بمدينة بلخ، التى ذبح المغول سكانها قبل عدة أسابيع. وأثناء مرور مراقبنا التاوى على هذه المدينة، التى كانت يوماً عظيمة، لا يذكر لنا عنها شيئاً سوى أنهم سمعوا الكلاب وهى تنبح فى شوارع المدينة وقد خيم عليها الظلام.

وبعد انتهاء تشانج تشون الذى ييزه أحد من تدريس تعاليم تاو لجنكيزخان، عاد إلى الصين. وقد سار تقريباً على نفس الطريق المؤدى إلى دائرة العرض الواقعة عليها هامى، إلا أنه بدلاً من أن يتجه شمالاً كما جاء، قرر أن يسير مسافة أطول إلى الجنوب الشرقى مباشرة. وقد حذروه من أن:

الطريق الجنوبي أرضه جدياء شديدة الوعورة والكأ والماء ينذر

وجودهما. عددنا كبير. وسرعان ما يصيب الخيل الإعياء لعدم كفاية الماء والعلف. وهى قد تبطئ فى السير بنا. وأى تأخير قد يكون فيه هلاكنا.

ولكن كما فعل الصينيون قبل قرون فى حملة خيول فرغانة السماوية، تغلب تشانج تشون على عدم كفاية المؤن بتقسيم القافلة إلى مجموعتين جعل بينهما أسبوعاً بحيث لا يكونون عبئاً على موارد الصحراء القليلة جداً.

إلا أنه فى تلك الأقاليم الموحشة كانت هناك محطات أتيح لتشانج تشون أن يستبدل الخيول فيها أثناء سيره. وعندما أصبحوا على مقربة من الصين نفسها بعد ذلك، كانت محطات البريد أوفر عدداً. وما أن ودعوا الأراضى الصحراوية حتى «بدأنا نرى الأكواخ والخيام ولم نجد مشقة فى الحصول على خيول مستريحة». ومن الواضح أنه رغم كون جنكيزخان لا يزال يوسع حدود إمبراطوريته، كانت محطات البريد المعدة إعداداً جيداً، وهى ماسيتميز به أوج عظمة العصر المغولى، موجودة بالفعل. والواقع أنه بمجرد وصول المعلم التاوى إلى الصين جاءتته رسالة من جنكيزخان يسأله فيها إن كان قد «رُود بما يكفى من المؤن والمطايا» فى الطريق وإن كان المسئولون قد قدموا له «المؤن الكافية لمأكله ومبितه».

كان نظام الاتصال الذى وضعه جنكيزخان فى هذه الفترة هو الذى وحد الإمبراطورية بعد وفاته وحال دون انهيارها على الفور، كما حدث مع كثير غيرها من إمبراطوريات البدو فى الماضى. وكان جزء من نظام الاتصال هذا يعود إلى اعتراف جنكيزخان بالمستشارين الموهوبين والاستفادة بهم. ونخص من هؤلاء ييه لو تشو تساي، وكان عالماً شاباً ينتمى إلى آخر أسرة مالكة (الخطاى أو أسرة لياو) حكمت شمال الصين قبل المغول. وقد ضم إلى خدمة المغول سنة ١٢١٥ حيث صاحب الخان الأعظم فى حملاته الغربية وبدء العملية البطيئة التى استهدفت تمدين سكان السهوب البدو. ولا شك أنه هو الذى أقنع جنكيزخان بالتحدث مع تشانج تشون التاوى، كى يتعلم أفضل طرق الحكم. وكان جنكيزخان نفسه قد اعترف بأهمية الكتابة حيث استخدم فى بداية حكمه كاتباً من الأويغور كى يضع أسس كتابة اللغة المغولية وتدریس الكتابة للأسرة المالكة. (وليس واضحاً إن كان جنكيز نفسه تعلم الكتابة أم لا. والأمر المحتمل هو أنه لم يتعلمها).

واستناداً على هذا التقدير الفطرى، أقنع ييه لو تشو تساي جنكيزخان شيئاً فشيئاً بقيمة

الخدمة المدنية، كتلك التى استفادت منها الصين بنجاح على مدى القرون. وذات مرة اقترح قائد مغولى ذبح كل الفلاحين فى أحد الأقاليم الصينية التى فتحوها حديثاً، لأنهم لا يصلحون أن يكونوا جنوداً ولأن أرضهم - حسب التفكير المغولى - تكون أفضل لو تحولت إلى مراعى للخيل التى يقدرها المغول أكثر مما سواها. وحال ييه لو تشوتساي دون حدوث هذه المأساة بأن أوضح للخان أنه فى حالة الإبقاء على النظام الإدارى الصينى، سوف يدر هذا الإقليم على الخان فى كل سنة نصف مليون أوقية من الفضة و ٤٠٠ ألف كيس حبوب و ٨٠ ألف قطعة حرير. وإذا كان جنكيزخان قد أعجب بهذا الوعد، فالواقع كان يستحق إعجاباً أكبر. وبعد ذلك تشجع الوزراء على تطبيق نفس الأساليب على أجزاء الإمبراطورية الأخرى.

لذلك فنحن ندين فى المقام الأول ليه لو تشو تساي فيما يتعلق بشبكة السفر والاتصالات التى أدهشت الزوار الأوروبيين الذين جاءوا بعد ذلك، أمثال ماركو بولو. إذ أقيمت محطات البريد من الصين حتى الحدود الغربية للإمبراطورية المغولية. وكانت تلك المحطات لخدمة الرسل الإمبراطوريين، لإدراك جنكيزخان للضرورة الحيوية للاتصالات عبر إمبراطوريته الشاسعة، إلى جانب ماتقدمه من خدمات للتجار والمبعوثين. والمغول، الذين لم يكونوا يوماً أهل تجارة، أصبحوا الآن يمدون التجار برؤوس الأموال الضرورية للتجارة بعيدة المدى. وفى المقابل كانوا يحصلون على أرباح ضخمة جعلتهم يعفون هؤلاء التجار أصحاب المكانة الرفيعة من الضرائب المعتادة. وكان من مصلحة المغول أن تكون الطرق آمنة وخالية من اللصوص. وكان مطلوباً من الحكام المحليين أن يوفرُوا الأمن للمسافرين بصورة مشروعة وللتجار والمبعوثين. وأعاد المغول بناء التجارة وعملوا على تنميتها فى الأماكن التى سبق لهم تدميرها، وخاصة فى مدن تركستان وفارس. ولم يشهد طريق الحرير أو طريق السهوب الأوراسية سلاماً كهذا من قبل. وكما يقول هنرى يول، «لم يكن لكلب أن ينبح دون إذن من المغول» فى المنطقة التى امتدت حتى حدودهم الغربية فى الأراضى التى كانوا يسيطرون عليها من فارس.

وعملت التجارة الدولية التى بدأت من جديد فى التدفق على طريق الحرير، بعد أعمال السلب الرهيبة التى قام بها المغول، على توحيد الإمبراطورية الوليدة وجعلتها تبقى بعد موت جنكيزخان سنة ١٢٢٧. وظلت الإمبراطورية بلا خان أعلى لمدة عامين، إلى أن اجتمعت كل القوى التى فى الإمبراطورية فى قره قورم وانتخب المجلس الأعظم العرفى، ويسمى «قوريلتاي»، قائداً جديداً.

وفى حياة جنكيزخان، كان أولاده يحكمون كخانات لأقاليم شاسعة خاضعين لسلطان أبيهم. فقد حكم جوتشى، وهو الابن الأكبر، السهوب الروسية من جبال ألتاي غرباً حتى أوروبا. وعندما توفى قبل والده بعدة أشهر، قُسم ميراث الأب بين ولديه؛ أوردا، مؤسس «القبيلة البيضاء»، وباطو، مؤسس «القبيلة الذهبية». أما الابن الثانى لجنكيزخان، وهو چغتاي، فقد حكم الخانية الكبرى التى امتدت تقريباً من تورفان إلى نهر جيحون، بما فى ذلك طريق الحرير على جانبى جبال تيان شان ومدن القوافل فيما وراء النهر التى أُعيد بناؤها. كما أنه ظل مستشاراً يرجع إليه ومفسراً للقانون المغولى. وجرياً على العادة المغولية، تولى الابن الأصغر، تولوى، حكم البلاد الإمبراطورية الواقعة إلى الجنوب من بحيرة بايكال وقام مقام الحاكم إلى أن انتُخب الخان الأعظم الجديد. وبما أن كثيرين من حلفاء جنكيزخان الأوائل كانوا من غير المغول، فلم يكن مستغرباً أن تكون زوجة تولوى مسيحية نسطورية. وحكم اثنان من أولادهما، هما مانكو وقوبيلاي^(١)، كخانين أعظمين للمغول. وأسس ثالث، وهو هولاكو، خانية جديدة فى غربى آسيا. ولكن الذى اختاره جنكيزخان لخلافته هو الابن الثالث أوجداى، حاكم البلاد الواقعة شرقى بحيرة بلخاش. فما كان من القوريلتاي إلا أن خضع لرغبة القائد الأعظم.

وفى عهد أوجداى استمر نفوذ المستشارين الصينيين، وبينهم ييه لو تشو تساي الذى احتفظ بنفوذه، حيث ظهر ذلك فى تحويل قره قورم^(٢) من موقع موسمى لمعسكر متنقل إلى مدينة دائمة يحيط بها سور سنة ١٢٣٥. ورغم تمتعه بقدرات والده، فقد مضى فى تنفيذ خطة شاملة وضعها جنكيزخان. وكانت هذه الخطة تدعو إلى استكمال فتح شمال الصين، الذى تم فى عهود لاحقة بالاستيلاء على صين السونج فى الجنوب أيضاً. إلى جانب القضاء المبرم على ماتبقى من نفوذ خوارزمى فى غرب آسيا. كما توسعت الإمبراطورية غرباً فى أوروبا فى سهول المجر وبولندا الشاسعة. وكان العمالان الأخيران بمثابة كماشة عملاقة تمسك مرة أخرى ببحر قزوين والأراضى المحيطة به.

وكان القواد المغوليون منصفين عند اجتياحهم لآسيا وأرمينيا بصورة ملحوظة، حيث هاجموا المسلمين والمسيحيين على السواء. وكما حدث من قبل، كان المغول يقتلون كل سكان المدن التى تقاومهم. وفى مواجهة ذلك قررت بعض الممالك المسيحية فى أرمينيا

(١) سيأتى ذكره بالتفصيل. (المترجم).

(٢) بناها أوجداى واتخذها مانكو مقراً لحكمه. (المترجم).

ومرتفعات القوقاز إنقاذ نفسها بالاستسلام دون قتال. كما أنهم وجدوا تشجيعاً على التحالف مع المغول لوجود المسيحيين النسطوريين الذين يحتلون مكانة كريمة بين أبناء الإمبراطورية من البدو، وتطبيقاً لما ينص على التسامح الدينى فى القانون المغولى المسمى «ياسا» الذى أعلن فى عهد جنكيزخان واستمر خلفاؤه فى العمل به. والواقع أنه عندما شعر المسيحيون فى مملكة الكرج القوقازية سنة ١٢٤٠ بالظلم فيما يلقونه من معاملة، أرسلوا سفارة إلى أوجداى فى قره قورم يلتمسون منه رفع الظلم. ورداً على ذلك أرسل أوجداى مبعوثاً نسطورياً لإبلاغ القواد المغول بعدم تدمير الكنائس المسيحية. ورأى كثيرون من المسيحيين أنه لم تكن هناك سوى خطوة واحدة بين هذا التسامح الدينى وحلم التحالف المسيحى المغولى ضد المسلمين، ذلك الحلم الذى أوجده النفوذ المتزايد للنسطوريين فى بلاط أوجداى وقوته تلك الشائعات الخاصة ببريستر يوحنا، الحليف والمخلص المنتظر.

وتحطمت تلك الأحلام تحطماً شديداً عندما بدأ المغول اجتياحهم المدمر لأوروبا سنة ١٢٣٦. وربما كان أوجداى وبلاطه فى الشرق أكثر تحضراً لاتصالهم بالصينيين والمسيحيين النسطوريين، ولكن الخانات والقواد المغول فى الغرب، وخاصة فى روسيا، لم يتعرضوا إلا لقدر يسير من تلك المؤثرات التى هدأت من حدة طباعهم. وهؤلاء المغول، الذين يمتازون بمهارات حربية عالية وتحركهم فى الوقت نفسه رغبة جامحة فى التدمير، شنوا على أوروبا هجوماً لم يشن مثله أحد من قبل، ولا حتى سلفهم آتيل الهونى. إذ ذبح الآلاف وسويت المدن بالأرض ودُمرت المزروعات. وتحديث مؤرخ فى إحدى المدن نيابة عن كثيرين قائلاً: «لم تبق هناك عين لتبكي على الأموات». وبعد عبورهم لأنهار الفولجا والدون والدينير والدانوب، حيث فضلوا أن يكون ذلك شتاءً وقد تحولت الأنهار إلى طرق، دمروا مملكة كييف الروسية وبعدها المجر وبولندا.

وفى سنة ١٢٤١ باتت أوروبا كلها مفتوحة أمامهم. وكانت الممالك المسيحية مشغولة فى الاقتتال فيما بينها، فلم تتمكن من إقامة دفاع مشترك. وإذا كانت أوروبا قد أنقذت، فلم يكن ذلك بجهد أبنائها. فما حدث هو نقص إمدادات المغول. وكانت تلك مشكلة ضخمة، لعدم قدرة جيوشهم الحصول إلا على القليل من الدعم من البلاد التى دمروها. يضاف إلى ذلك تمزق المغول بسبب الغيرة والانشقاق. وليس من الواضح إن كان المغول قادرين على المضى غرباً أكثر من ذلك فى الشتاء التالى أم لا. وصارت هذه المسألة محل جدل عقب وفاة أوجداى سنة ١٢٤١. وعاد أحفاد جنكيزخان إلى أوكرانيا، ويعنى هذا الاسم «التخوم» وهو يعود إلى ذلك الوقت، وجكموا الأراضى الروسية التابعة لهم من

المدينة المعسكر التى أنشئت حديثاً عند سراى على نهر الفولجا الأسفل بالقرب من الموضع الذى اتخذته الخزر عاصمة لهم، وهو أتل. وكان ذلك هو مركز القبيلة الذهبية. بينما كانت القبيلة البيضاء تقع إلى الشرق منها فى السهوب القرغيزية.

ظل المغول بلا خان أعظم طوال أربع سنوات تلت وفاة أوجداى. وقامت أرملته بأعمال الحاكم بينما انسحبت القوات من كل تخوم الإمبراطورية واجتمعت فى قوريلتاي لاختيار زعيم جديد. وانضم إلى هؤلاء مبعوثون من كل أنحاء أوراسيا، حيث كان لكل منهم مصلحة فيما سيسفر عنه المجلس. وكان من بين هؤلاء أرشيدوق من روسيا وسلطان من آسيا الصغرى مثلاً لسلاجقة الروم وحاكم أرمينيا واثنان من المطالبين بعرش مملكة الكرج وأمير من كوريا ومبعوث من الخليفة فى بغداد. كما أرسل بابا روما إنوسنت الرابع، وكان هو الآخر قد انتُخب حديثاً، مبعوثه الراهب چون دى پلانو كاريينى، الذى صحبه فى مهمته راهب آخر، هو بينيدكت البولندى.

هؤلاء المسافرون جاءوا من أوروبا من طريق السهوب الأوراسية لحضور المجلس المغولى. وأثناء سيرهم فى البلاد الروسية المدمرة رأوا أطلال المدن وأكوام العظام البيضاء. وعندما دخلوا الأراضى المغولية، «اندفع نحونا التتار [المغول] بصورة مخيفة وهم مسلحون وسألونا أى صنف من الرجال نحن؟»، كما قال چون دى پلانو كاريينى. ولكن ما إن أظهرنا أوراق اعتمادهم حتى سُمح لهم بالمرور من قبيلة لأخرى إلى أن بلغوا موقع القوريلتاي. وإذا كان من بين هؤلاء المسافرين من رأى قره قورم نفسها فهم قليلون. فقد أقامت أرملة أوجداى معسكراً خاصاً على بعد أميال منها أعد خصيصاً للمجلس الأعظم الذى ضم (حسب رواية الراهب چون) أربعة آلاف مبعوث. وعند وصول المسيحيين لم يجدوا قدراً كبيراً من الراحة. فبفيه تشو تساي الذى ظل زمناً طويلاً أحد قوى التسامح كان قد أعفى من منصبه ومات بعد ذلك بقليل. أما الرجل الذى حل محله، وهو تاجر مسلم اسمه عبدالرحمن، فكان مهتماً فى المقام الأول بمضاغفة عائدات المغول من الضرائب.

وفى أواخر أغسطس من سنة ١٢٤٦ عندما كانت السهوب لاتزال تملؤها الزهور والأعشاب الطويلة، انتخب المغول زعيماً جديداً، هو كويك بن أوجداى. وحيث أنه لم يكن له أى ميل نحو المسيحية، فقد اعتقد أن ما حققه المغول من نجاح كان دليلاً على سمو الإله المغولى تنجرى، أى السماء الخالدة. ولم يملك مبعوثا البابا أن يفعلوا ما يغير رأيه. بل

إنه بينما انحنى كل السفراء القادمين من أوراسيا، جرياً على العادة الصينية، أمام عرش كويك، لم يمتنع عن القيام بذلك سوى الراهبين چون وبنديكت. وفي حين اكتظت خيام كويوك بهدايا من الفضة والذهب والحرير والجواهر والفراء، حمل ٥٠٠ عربة، بالإضافة إلى ٥٠ جملاً عليها سروج مطرزة تطريزاً ثميناً، لم يكن لدى الراهبين المسكينين ما يقدمانه بعد أن باعوا القليل الذي كان معهما، وهو بضع قطع من الفراء في الغالب، في رحلتهم التي امتدت ثلاثة آلاف ميل من سراي ليحصلوا به على خدمات القبائل على طول الطريق وليشتريو طعاماً قليلاً. وبعد أن أعلن كويك أنه ما كان لبشر أن يحكم تلك البلاد الشاسعة إلا بمشيئة الإله قال إنه إذا كان البابا يريد أن يُعمد مسيحياً فعليه أن «يأتي بنفسه ليجري لنا الطقوس. وساعتها سوف أعلن كل أوامر الياسا».

رحل الراهب المحبط چون إلى أوروبا، حيث قطع جزءاً من الطريق في صحبة سفير سلطان مصر، ليعود إلى ليون بفرنسا بعد ستين ونصف من بداية رحلته. وكانت مثل هذه الرحلة أمراً نادراً وشاقاً، حتى أنه عند ظهوره في كيف حيّاه الناس هو ومن معه «وكأننا عدنا من عالم الموتى». وتشير بعض الروايات إلى احتمال تعمد كويك، ربما تلبية لرغبة أمه، ولكن الراهب چون لم يأت معه بما يريح المسيحيين الأوروبيين، باستثناء ما قاله عن رؤيته لبوادر انشقاق في معسكرات المغول قد تؤدي إلى إضعاف قوتهم وتحول دون زحفهم نحو الغرب. وكان چون بعيد النظر فيما قال. ففي السنوات التالية تولى أمر المغول العديد من الخانات الأعظم، إلا أن أيّاً منهم لم يبق طويلاً في الحكم. فقد اقتتل ورثة جنكيزخان فيما بينهم من أجل السيادة. وفي تلك الأوقات المضطربة كان المسيحيون لا يزالون يرغبون في إدخال المغول المسيحية. وكان يشجعهم على ذلك أهمية النسطوريين التي ظلت قائمة في البلاط المغولي.

في سنة ١٢٥٣ خرج راهب أوروبي آخر اسمه ويليام الدوبروكي في مهمة مشابهة لتلك التي قام بها الراهب چون. وبعد زيارته للملك لويس التاسع عاهل فرنسا، وكان وقتها موجوداً في الممالك الصليبية على البحر المتوسط، ركب البحر من القسطنطينية إلى القرم. وروى أنه عند بلوغه السهول الواقعة شمال البحر الأسود «بدا لي الأمر وكأنني أدخل عالماً آخر». فقد وجد عند نهر الفولجا معسكراً ضخماً، سراي، «بدا كأنه مدينة ضخمة تمتد مسافة طويلة وتزدحم بالناس في كل جنباتها». ولكن وجود الشقاق في البلاط

جعل السفر أمراً ليس بالسهل. فمن كان يفترض أنهم مرشدو قافلته سرقوهم وأساءوا إليهم، ورغم ذلك كله وصل الراهب ويليام وبعثته الصغيرة إلى قره قورم في السنة التالية وصحبهم إلى داخل المدينة موكب من المسيحيين النسطوريين خرج للاحتفاء بهم. وويليام هو أول من قدم لنا العاصمة المغولية برؤية غريبة:

ويخصوص مدينة قره قورم، لا بد أن تعرف أنها بدون قصر الخان لا تزيد في حجمها على قرية سان ديني [وهي جزء من باريس الآن]. كما أن دير سان ديني يساوي عشرة أمثال مساحة القصر... وهي تنقسم إلى شطرين: حي المسلمين، وفيه المتاجر ويفد إليه تجار كثيرون بسبب البلاط القريب منه دائماً وبسبب عدد المبعوثين. والآخر هو حي الخطاي وجميعهم من أصحاب الحرف. وبخلاف هذين الحيين هناك القصور الكبيرة الخاصة بكتابة البلاط. وهناك اثنا عشر معبداً وثنياً تتعبد فيها أمم شتى ومسجدان تقام فيهما شريعة محمد وكنيسة واحدة للمسيحيين عند الطرف الأقصى من المدينة. ويحيط بالمدينة سور من الطين له أربعة أبواب. عند الباب الشرقي يباع الدخن وغيره من الحبوب، إلا أنه نادراً ما يشتريه الناس هناك. وعند الغربي تباع الأغنام. وعند الجنوبي الثيران والعربات. وتباع الخيول عند الشمالي.

وتعد المدينة برهاناً ساطعاً على سياسة جنكيزخان الخاصة بتجميع الصناعات الأسرى وترحيلهم إلى منغوليا. وعند زيارة الراهب ويليام لقره قورم كان ضمن الكثيرين الذين التقى بهم وتحدث معهم معلم صائغ من باريس أسره المغول في غاراتهم على المجر. وكان ذلك هو الصائغ ويليام بوشيه الذي صنع النافورة الشهيرة في قره قورم ووصفها الراهب ويليام:

رأى المعلم ويليام الباريسي أنه من غير اللائق وضع قرب الحليب وغيره من المشروبات عند مدخل قصر [الخان] فصنع له شجرة كبيرة من الفضة جعل أسفلها أربعة أسود من الفضة لها أنبوب وكل منها يخرج حليب الفرس الأبيض. وداخل جذع الشجرة أربعة أنابيب تصل إلى أعلاها حيث تنثني أطرافها لأسفل وجعل على كل طرف حية مذهبة يلتف ذيلها حول جذع الشجرة. أحد هذه الأنابيب يصب نبذاً

وآخر قره قوسموس [كوميس]، وهو حليب الفرس المكرر، والثالث شراب عسل النحل والرابع بتع الأرز، الذى يسمى تيراسينا. وكل منها له وعاء فضى أُعدَّ لتلقيه أسفل الشجرة بين الأربعة أنابيب الأخرى. وعند منتهى ارتفاع الشجرة جعل ملاكاً يمكس نفيراً. كما جعل تحت الشجرة سرداباً، يمكن لرجل أن يختبئ فيه، وأنبوباً يصعد إلى الملاك من وسط قلب الشجرة... وتوجد خارج القصر حجرة تُخزن فيها المشروبات حيث يقف الخدم استعداداً لصبها عندما يسمعون الملاك ينفخ فى النفير. وللشجرة فروع وأوراق وفاكهة من الفضة.

وعندما تقل المشروبات يطلب رئيس السقاة من الملاك أن ينفخ نفيره. وعندما يسمع الرجل المختبئ فى السرداب ذلك ينفخ فى الأنبوب الواصل إلى الملاك بكل قوة. وهنا يضع الملاك البوق على فمه وينفخه نفخة شديدة الصوت. وعندما يسمع الخدم الذين فى الغرفة ذلك يصب كل منهم شرابه فى الأنبوب الخاص به، حيث تصبها الأنابيب من أعلى وأسفل فى الأوعية المعدة لذلك. وهنا يأخذ السقاة المشروبات ويدورون بها فى أنحاء القصر على الرجال والنساء.

حيّاً المعلم ويليام، مخترع تلك الآلة العجيبة، مواطنه القادم من أوروبا بـ«فرح شديد»، كما قد نتخيل. ودعى الراهب ويليام إلى العشاء، حيث التقى بـزوجة المعلم ويليام، التى وُلدت فى المجر لأب فرنسى. وانضم إلى ذلك الحفل الحلو المر رجل إنجليزى اسمه بازل، وُلد أيضاً فى المجر. ولم يكونوا سوى قليل من الصناع المهرة الكثيرين الذين بدأوا حياتهم على نهر الدانوب أو نهر هوانج أو نهر سيحون ليجدوا أنفسهم الآن مستخدمين فى معسكر المغول الرئيسى، أو جوالين فى أنحاء آسيا فى بعض الأحيان كجزء من حاشية الخان الأعظم العسكرية.

‘بقى الراهب ويليام بعض الوقت فى قره قورم، إلا أنه لم يحقق أى نجاح يزيد عما حققه الراهب چون لتحويل المغول إلى المسيحية. وكان له راهب يرافقه عجز عن مواجهة أهوال رحلة العودة فأثر أن يقضى مابقى له من عمر فى قره قورم. ولكن الراهب ويليام عاد إلى أوروبا بتقرير يبعث على الحزن. (ورأى البعض أنه أتى معه بتركية البارود وأعطاها خفية لزميله العالم روجر بيكون. ولكن إذا كان الأمر كذلك، فهو لم يذكره فى تقريره

الرسمى، ربما لأنه رأى القوة المدمرة لهذا الخليط المتفجر من ملح البارود والكبريت والفحم). إلا أن مواطنى الراهب ويليام الأوروبيين كانوا بحاجة إلى تأكيد عجزه عن تقديمه لهم. فقد كانوا شديدي الخوف من تجدد الهجوم على أوروبا نفسها. وكان الراهب ويليام قد رأى عند بداية رحلة العودة جيشاً مغولياً ضخماً تحت قيادة هولاكو حفيد جنكيزخان ينطلق غرباً. ولكن بدلاً من الاتجاه نحو أوروبا عبر الأراضى التى يسيطر عليها آخرون من ورثة الخان الأعظم، اختار جيش هولاكو أن يسلك طريق الحرير إلى فارس. وكان ما حققه من نجاح وراء تغيير وجه غرب آسيا.

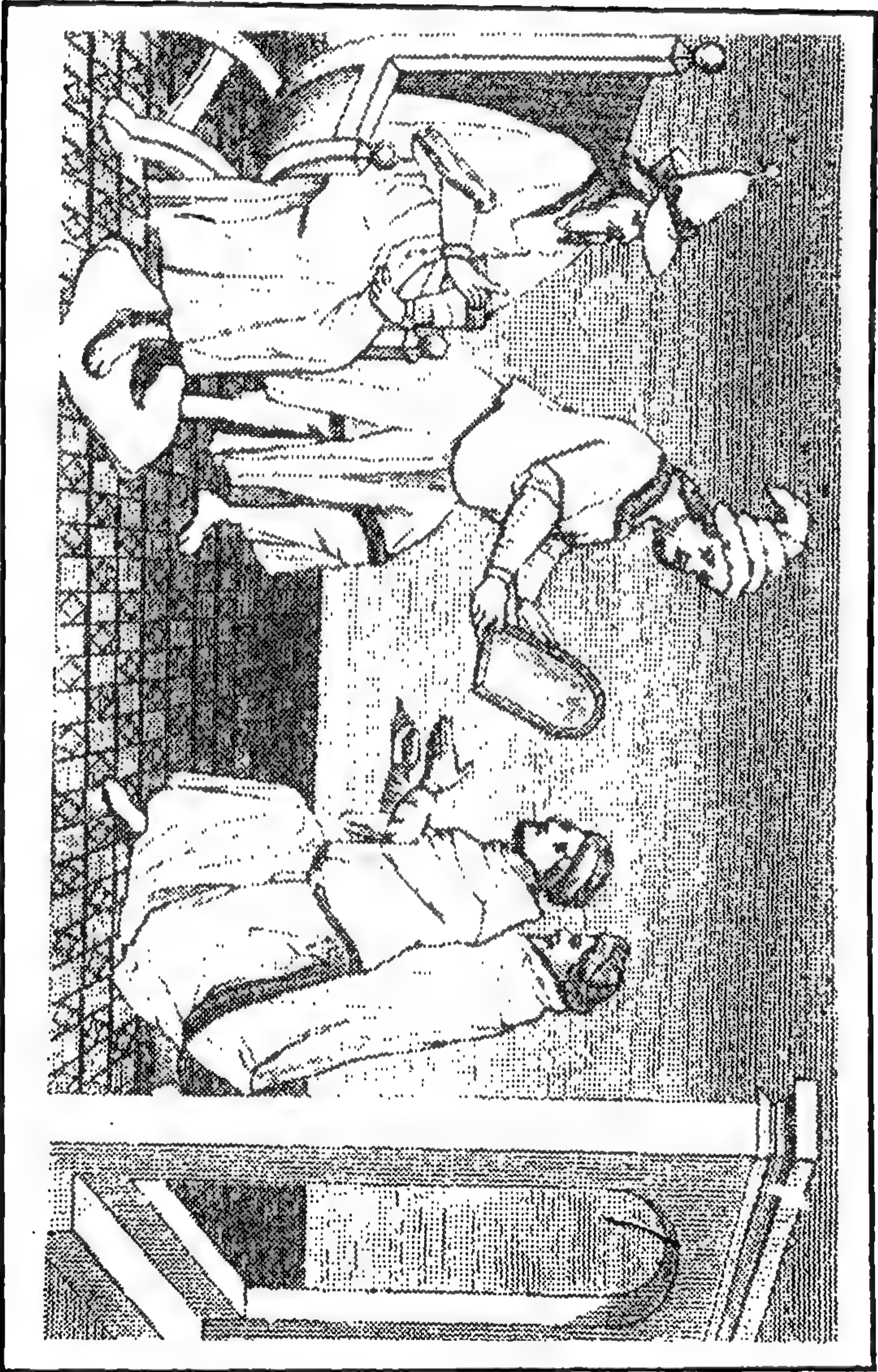
ففى سنة ١٢٥٦ بلغ جيش هولاكو معقل الحشاشين. وهذا النظام المخادع، الذى صمد أمام كل الهجمات التى تعرض لها طوال ٢٠٠ سنة، سقط أخيراً تحت وطأة أعداد المغول الساحقة ومهارة من معهم من مهندسى الحصار الصينيين. وهكذا استسلمت الحصون واحداً تلو الآخر، وإن كان آخرها وأقواها، وهو حصن الموت، صمد ثلاث سنوات. وكان مصير سكان الحصون جميعاً هو القتل. كما أحرقت مكتبتهم، فيما عدا بعض المصاحف والكتب التعليمية، لما فيها من هرطقة. وهكذا تطهرت الدنيا، كما قال المؤرخ الجوينى. وتحرر هذا الجزء من طريق الحرير من نفوذ الحشاشين الخبيث. إلا أن بعضاً من أبناء مذهبهم كانوا موجودين فى أماكن أخرى، مثل سوريا، حيث ظلوا يعملون قروناً عديدة فى المنطقة، ولكنهم لم يعودوا قط إلى ما كانوا عليه من منعة.

وأثناء تقدم هولاكو غرباً جعل مركز قيادته فى همذان التى أعيد بناؤها (وكانت تسمى يوماً ايكتانا وهى عاصمة الميديين القديمة). إلا أن هدفه الفعلى كان بغداد. ولم يكن تدهور هذه المدينة التى كانت يوماً عظيمة وقوية دليلاً فقط على ضعف آخر الخلفاء العباسيين^(١) الذى يحكم من هناك، بل كان أيضاً دليلاً على تدهور طريق الحرير فى أقصى غرب آسيا. فعلى امتداد نهر دجلة كانت المستودعات والأسواق خالية. إلا أن بغداد كانت لا تزال قلب العالم الإسلامى. ولهذا السبب كانت هدفاً محدداً للمغول. ولم تكن تلك هى المرة الأولى التى تخلق فيها الحرب تحالفات غريبة. ففى هذا الهجوم لقى المغول عوناً من جنود مسيحيين من الكرج وأرمينيا ومن المواطنين الشيعة الذين يكرهون حكم الخليفة السنّى. وفى النهاية، وبعد أسبوع من القصف بالحجارة التى جاءت بها القوافل من على

(١) المستعصم بالله هو آخر الخلفاء العباسيين وكان حاكماً ضعيفاً أهمل شئون الحكم وتركها لوزيره الشرير الذى خانته وأسلمه لعدوه. (المترجم).

مسيرة ثلاثة أيام، استسلمت المدينة. نُهبت قصور بغداد وبيوتها وحملت القوافل كنوزها وتوجهت في الغالب إلى قره قورم. أما المدينة نفسها فأُضرمت فيها النيران ولم تستعد ما كانت عليه من بهاء. ورغم نجاة كثيرين من المواطنين المسيحيين من القتل، كان الذبح مصير معظم أهلها من المسلمين. وكانت رائحة العفن الصادرة من الجثث من الشدة بحيث اضطرت المغول إلى الرحيل عنها. وهكذا انتقل مركز العالم الإسلامي إلى القاهرة ولم يعد مرة أخرى إلى بغداد.

وسيراً على طريق الحرير، وصل المغول إلى حلب التي استولوا عليها سنة ١٢٦٠. وهكذا دُمّرت المدينة التي ازدهرت في ظل حكم المسلمين وذُبح أهلها أو سُبوا. وبعد ذلك لم يبد أن هناك شيئاً يمكنه وقف المغول. ولعدم قدرة مسلمي غرب آسيا ومسيحييه على الوحدة، إلى جانب وجود طوائف متصارعة داخل الدين الواحد، بدا من المحقق أن المغول سرعان ما يستولون على ما تبقى من إمارات صليبية وبلدان مسلمة خاضعة لمصر في ذلك الوقت. ولكن مرة أخرى يكون السبب المحتمل لإنقاذ البلاد الغربية وفاة إنسان على الجانب الآخر من الأرض. فعندما علم هولاكو بموت الخان الأعظم مانكو تخلقى عن خطته لمهاجمة دمشق واستعد لقوريلتاى جديد. واستمرت الإمبراطورية الفرعية التي أسسها باسم الإمبراطورية الإيلخانية (إيلخان معناها الحاكم التابع)، وكانت عاصمتها مقر هولاكو الشتوى تبريز وامتدت من نهر جيحون إلى حلب ومن البحر الأسود إلى الخليج الفارسي والمحيط الهندي. وهذه الوحدة التي فرضها حكم هولاكو لها أهميتها في انتعاش طريق الحرير الوشيك.



هذا الرسم الذي يعود إلى القرن الرابع عشر بين الخان الأعظم يقدم اللوح الذهبي لنيقولا وماثيو بولو. (من Livre de Merveille du Monde، أعيد طبعها في نسخة بول من إماركو بولو).

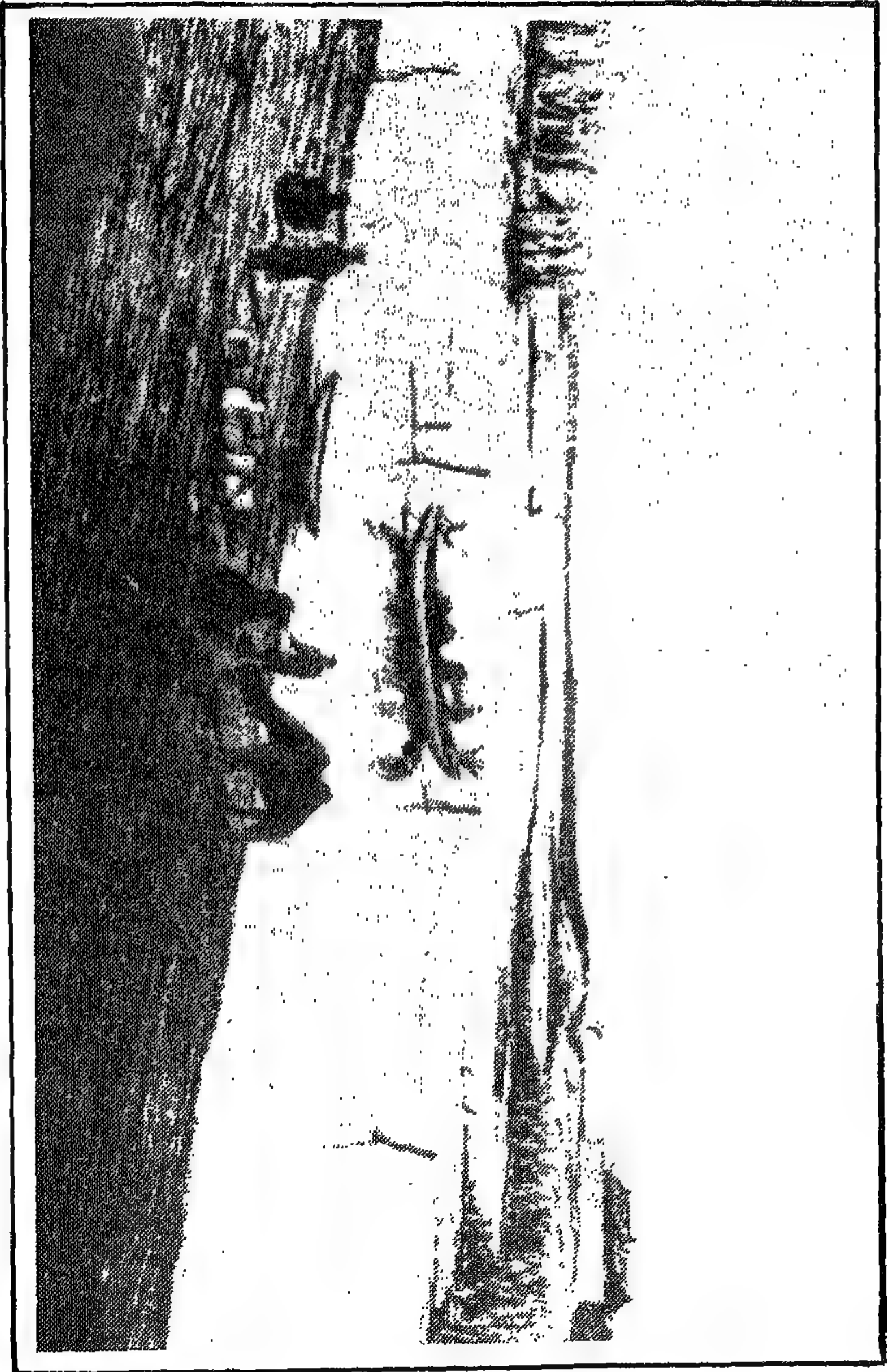
السلام الخفولسى

فى زانادو أمر قويللاى خان بإقامة قبة عظيمة
لمتعهته...

فأحيطت أرض خصبة مقدارها ضعفا الخمسة أميال
بالأسوار والأبراج،

وكانت هناك حدائق تتلأأ فيها الجداول الملتوية
حيث أزهرت أشجار كثيرة تفوح منها رائحة البخور؛
وكذلك غابات قديمة قدم التلال،
تحتضن المواضع الخضر التى أضاءتها الشمس.

— صمويل تايلور كوليردج



على الأنهار الصغيرة، مثل هذا الراكد الجنوبي لنهر التاريم. غالباً ما كانت هناك مديات
حديثة يستخدمها المسافرين عبر آسيا. (رسم سفن هيلدن، من كتابه *Through Asia*.
١٨٩٩).

اضطّر المغول لانتخاب خان أعظم جديد. ولم يكن ذلك بالأمر الهين، حيث أدت التوترات العائلية، التى ازدادت فى بعض المرات بسبب الانتماءات الدينية المتعارضة، إلى اقتتال الورثة الخصوم أربع سنوات. وفى النهاية برز الفائز، وهو قوبيلاي^(١) خان حاكم الصين المغولية الذى أسس أسرة يوان. وفى عهده كثر تردد الأوروبيين على طريق الحرير بحيث أصبح السفر أمراً روتينياً تقريباً. وهكذا بدأ السلام المغولى (Pax Mongolica) الذى دام قرناً اتسم بالأهمية من ١٢٦٠ إلى ١٣٦٨.

وفى ظل التقليد الغربى الذى بدأ منذ زمن بعيد وظل قائماً، وهو تجارة البضائع الشرقية التى يرغبونها بشدة، لن يكون مستغرباً أن تغرى بشرى قيام اتحاد سلمى يضم الإمبراطورية المغولية تحت قيادة حاكم واحد التجار الغربيين بالذهاب إلى آسيا الوسطى. ربما كان هناك غير هؤلاء، إلا أنه من حسن حظنا أن نعرف الكثير عن مجموعة من التجار الجوالين، هم نيكولو بولو وابنه ماركو وأخوه مافيو، وجميعهم من البندقية. وفى الخمسينيات من القرن الثالث عشر، قبل مولد ماركو أو تولية قوبيلاي خان، أبحر الأخوان بولو من البندقية إلى القسطنطينية، وكانت وقتها مقصداً معتاداً لتجار البندقية.

حدث أن تجار الدول الإيطالية التجارية، وخاصة البندقية، كانوا فى وضع يتيح لهم التوجه إلى الشرق. ومنذ الحملة الصليبية الأولى فى أواخر القرن الحادى عشر، أصبح لدى الدول المدن الواقعة على البحر المتوسط، مثل البندقية وجنوا وبيزا، تجارة مزدهرة فى البضائع الشرقية. وما إن قامت الإمارات الصليبية حتى تولت تلك الدول نقل الحجاج والفرسان إلى الأراضى المقدسة. وتكون لدى هؤلاء الحجاج والفرسان تذوق للسلع الشرقية من خلال التجارة السلمية أو النجاح فى سلبها. وكانت النتيجة انتشار تجارة متواضعة من الإمارات الصليبية عبر البحر المتوسط إلى إيطاليا وإلى أسبانيا إلى حد ما. إلا أن الحروب المستمرة بين المسيحيين والمسلمين، ناهيك عن المغول، جعلت ذلك الطريق غير مضمون، الأمر الذى حدا بتجار البحر المتوسط إلى فتح طرق إلى الشرق عبر البحر الأسود الذى أقاموا عليه محطات تجارية. ومن بين الأماكن التى نهبها المغول، عندما اجتاحتها شرق أوروبا، المحطات التجارية الإيطالية فى القرم.

(١) أصبح إمبراطوراً للصين سنة ١٢٨٠ بعد قضائه على أسرة سونج الجنوبية حيث أسس أسرة يوان. وظل أبناء الصين من الهان والقوميات الأخرى يعانون من الاضطهاد العنصرى لمدة ٨٩ سنة هى فترة حكم المغول. فقد قسم حكام يوان السكان إلى أربع درجات: المغول فى الدرجة الأولى وشعب سمو (من المناطق الغربية) فى الثانية وشعب الهان فى الثالثة وشعب الهان الجنوبي فى الأخيرة. (المترجم).

وما إن بدأ القرن الثالث عشر حتى كانت البندقية من القوة بما أتاح لها إبعاد جنود الحملة الصليبية الرابعة عن أعدائهم المسلمين وتوجيههم إلى حلفائهم السابقين، المسيحيين البيزنطيين. وفي سنة ١٢٠٤ استولى البنادقة على القسطنطينية ونهبوا المدينة التي كانت عظيمة يوماً ما، ونقلوا ما لا يحصى من المتجات إلى البندقية (بما في ذلك خيول القديس مرقس). واستمرت الإمبراطورية اللاتينية التي أقاموها في القسطنطينية حتى سنة ١٢٦١، عندما استرد اليونان البيزنطيون، الذين اجتاحتها المناطق البعيدة عن الساحل، مركز إمبراطوريتهم.

وهكذا، فعندما بدأ نيكولاس ومافيو بولو ما أصبح رحلة تاريخية، ذهبوا أولاً إلى القسطنطينية بـ«بضائعهما». ويبدو من الحكاية التي رواها ماركو بولو فيما بعد أنه لم يكن في ذهنهما خط سير محدد أو مقصد معلوم، شأنهما في ذلك شأن كثيرين من التجار الجوالين. وفي القسطنطينية «تشاورا» بشأن عبور البحر الأسود. ويعد أن توافر معهما قدر من الجواهر توجهوا إلى صولدايا في القرم، وكانت مدينة لاتزال في يد اليونان البيزنطيين. وهناك «تدارسا الأمر» مرة أخرى ومضيا إلى سراي، وهي المدينة العسكرية المغولية على نهر الفولجا بقيا هناك سنة واحدة. وبعد أن أهديا الجواهر للخان المحلي حصلا على «ما لا يقل عن ضعف قيمتها» رداً على ما قدموه له. وهكذا كانت تجارتهم رابحة. ولكن الحرب نشبت وهُزم الخان المحلي. وكانت النتيجة أنه:

... بسبب هذه الحرب لم يستطع إنسان السفر دون أن يكون معرضاً لخطر الأسر. وكان الحال كذلك على الطريق الذي جاء منه الأخوان على الأقل، وإن لم تكن هناك أية عقبات في طريق سيرهما قُدماً.

وسواء كانت تلك إرادتهم أم لا، فبعد أن دخل الأخوان بولو في منعطف عند أعالي النهر توجهوا شرقاً حيث عبروا نهر الفولجا وسارا في الصحراء ١٧ يوماً، «حيث لم نجد مدينة ولا قرية ولم نصادف سوى خيام التتار الذين يرعون ماشيتهم في المراعى». والواقع أنهما لم يسيرا في خط مستقيم إلى الشرق، وإنما مالا على طريق التجارة المعتاد الذي أوصلهما إلى بخارى، المدينة التي وجدوا أنها «أفضل مافي بلاد فارس قاطبة». ومرة أخرى وجدوا نفسيهما محاصرين واضطراً للبقاء هناك ثلاث سنوات. وحدث أن مبعوثين من بلاد المغول الغربية كانوا يعبرون بخارى. وعندما أدركا أن «شرفاً عظيماً وربحاً سوف يعودان من ذلك» اقترحوا أن يسافر الأخوان بولو معهم إلى بلاط الخان الأعظم الذي «لم يسبق له رؤية أحد

من اللاتين ولديه رغبة شديدة فى أن يراهم». فى ذلك الوقت، أى فى حوالى سنة ١٢٦٥، كانت قد مضت خمس سنوات على تولى قوبيلاي خان الحكم كخان أعظم.

والواقع أن قوبيلاي خان سرُّ أيما سرور برؤية زائريه الأوروبيين ووجه لهما العديد من الأسئلة وثيقة الصلة بوطنهما وحكامه. وفى النهاية أرسلهما كمبعوثين له إلى البابا فى روما وبصحبتهما واحد من كبار موظفيه (الذى أصابه المرض فى الطريق ولم يكمل الرحلة). وبالتحديد:

التمس من البابا أن يرسل ما عددهم مائة رجل يدينون بعقيدتنا المسيحية. رجال أذكىء على علم بالفنون السبعة مؤهلين للدخول فى جدال مع الوثنيين وغيرهم من الناس كي يثبتوا لهم بقوة البرهان أن شريعة المسيح هى الأفضل وأن ماعداها من الأديان باطل ولا قيمة له. وإن هم نجحوا فى إثبات ذلك فسوف يدخل هو وكل من يحكمهم فى المسيحية... (١)

أعطى الخان الأعظم الأخوين بولو لوحاً ذهبياً نُقش عليه أمره بأن يُقدم لهما «كل ما يحتاجان إليه فى كل البلاد التى يمران بها»، بما فى ذلك الخيول والحرس الذى يرافقهما. وهكذا انطلقا إلى إيطاليا ومعهما تكليف إضافى بأن يأتيا لقوبيلاي خان «بشئ من زيت المصباح» (٢) المضء فوق ناووس سيدنا فى أورشليم.

ما قاله ماركو بولو بعد ذلك لايوضح لنا على وجه الدقة الطريق الذى سلكاه. ولكن الاحتمال الأكبر هو أنهما اتخذتا طريق التاريم الشمالى عبر آسيا الوسطى وطريق الحرير عبر النضبة الإيرانية. وكانت الرحلة البرية شاقة واستغرقت ثلاث سنوات:

... لأن سيرهما لم يكن متصلاً، إذ كانت الثلوج تحول دونه أحياناً ويمنعهم سقوط الأمطار من المضى قُدماً أحياناً أخرى. وفى بعض المرات كانوا يجدون السيول الشديدة فى حالة يستحيل معها عبورها.

وبدلاً من أن يسيرا فى الطريق القديم الذى يهبط بهما إلى السهول متجهاً إلى بغداد، وهو ما كان سيوردهما إلى طريق مسدود عند الصحراء السورية، وكانت لاتزال داخل البلاد

(١) هذا هو الكلام الذى وضعه كاتب رحلات ماركو بولو على لسان قوبيلاي. (المترجم).

(٢) زيت مقدس يزعمون أنه يشفى المرضى وكان بطريرك بيت المقدس وحده صاحب الحق فى بيعه للأساقفة والقسس. (المترجم).

المسلمة المعادية، بقيا في طرق السفر الرئيسية الواقعة في البلاد الصديقة حيث دارا حول بحر قزوين عبر أذربيجان وأرمينيا إلى عاصمة الإيلخان في تبريز. وبعد ذلك سارا في اتجاه الشمال الغربي إلى ملتقى الطرق الجبلية في أرضروم. وكانت في تلك الفترة في سبيلها لأن تصبح مركز قوافل كبيراً. ومن هناك كانت المسافة قصيرة نسبياً، ١٢٠ ميلاً، إلى طرابزون على البحر الأسود، وكانت دولة تجارية مستقلة بلغت أوجها في العصور المغولية.

ولكن الأخوين بولو اتخذوا طريقاً بديلاً من أرضروم، حيث اتجهوا إلى الجنوب الغربي على هضبة الأناضول ليخرجوا على السهول القريبة من خليج إيسوس، حيث ألحق الاسكندر يوماً الهزيمة بدارا. وكان الميناء الرئيسي هناك هو لاياس الذي يخدم كلاً من أنطاكية وأرمينيا الصغرى الدولة التي تكونت حديثاً. وقد سُميت بهذا الاسم بسبب العدد الكبير الذي هاجر إليها من البلد الواقع في المرتفعات ويسمى في الغالب بأرمينيا الكبرى. وبعد أن تحالف الأرمن مع المغول، لحماية أنفسهم وكرد فعل مضاد للمسلمين، كان ذلك هو الطريق المنطقي الذي يسلكه تجار البر مثل الأخوين بولو. وكما ذكر ماركو بولو فيما بعد، كانت لاياس:

... بها تجارة عظيمة. فلا بد أن تعرف أن كل التوابل والعطارة والحرير والذهب وغيرها من البضائع الثمينة الآتية من داخل [آسيا] تصب في هذه المدينة. ويأتيها تجار البندقية وچنوا وغيرها من البلاد ليبيعوا بضائعهم وليشتروا ما يحتاجون إليه. وكل من يسافر إلى الداخل، سواء كان من التجار أم من غيرهم، فإنه يمر على مدينة لاياس هذه.

نحن الآن في سنة ١٢٦٩، وبينما كان الأخوان بولو في طريقهما إلى معقل الصليبيين في عكا، علما بموت البابا^(١) ويات عليهما أن ينتظرا ليحققا مطلب الخان الأعظم بعد أن يتمكن المسيحيون الأوروبيون من حل مشكلتهم الخاصة بمن يخلف البابا^(٢). وفي الوقت نفسه رأيا أنه «بينما تجرى عملية انتخاب البابا» يمكنهما زيارة بيتيهما في البندقية. وهناك وجدا أن زوجة نيكولو قد توفيت وأنه رُزق بولد لم يره منذ مولده وكان وقتها يافعاً اسمه

(١) البابا كليمنت الرابع الذي توفي في التاسع والعشرين من نوفمبر سنة ١٢٦٨. (المترجم).

(٢) ظل كرسي البابوية شاغراً لمدة ثلاث سنوات تقريباً لصعوبة الاتفاق على البابا الجديد بسبب ما يحاك من مكائد داخل مجمع الكرادلة. (المترجم).

ماركو. ظل الأخوان بولو فى البندقية سنتين إلى أن شعرا بأنه لم يعد فى وسعهما انتظار انتخاب البابا فتوجهوا إلى عكا. وفى هذه المرة كان بصحبتهما ماركو ابن نيكولو. وهناك أعطاهم القاصد الرسولى تصريحاً لدخول بيت المقدس، حيث يمكنهم على أقل تقدير أن يأتوا بالزيت الذى طلبه قوبيلاي خان. وعندما عادوا إلى عكا استفسروا عن الأمر من القاصد الرسولى مرة أخرى فبدأ أن البابا الجديد لم يُنتخب بعد، فانطلقوا ببركته إلى قوبيلاي خان.

وما كادوا يبلغون لاياس حتى استدعوا إلى عكا. وكانت مفاجأة القاصد الرسولى أنه هو من وقع عليه الاختيار ليكون بابا المسيحية ويصبح اسمه جريجورى العاشر. وبذلك أعد الردود اللائقة على رسائل قوبيلاي خان وأرسل راهبين ليصحبوا عائلة بولو فى رحلة عودتهم إلى قره قورم. وكان هذان أبعد مايكونان عن العدد مائة المطلوب. إلا أن المسيحيين فى أوروبا، ودونهم بكثير فى الإمارات الصليبية، لم يكن لديهم الكثير من الرجال المهوبين الذين يمكنهم الاستغناء عنهم. وفى ظل الاتصالات السابقة من خلال السفراء مع المغول، ربما تكون السلطة الكهنوتية المسيحية قد أدركت أن الخانات يفضلون الاستفادة من المهوبين وأنه لا يبدو أنهم قابلون للتحويل إلى المسيحية. وقال كثيرون إن المسيحيين فى هذه الحالة ضاعت عليهم فرصة كسب المغول، وبالتالي آسياء، إلى المسيحية. ومهما كان الأمر، فإن راهبين اثنين فقط قد أرسلوا ثم عادوا أدراجهما مع أول بادرة مشاكل. حدث ذلك فى أرمينيا الصغرى التى شن المسلمون هجوماً عليها. وكانت تلك هى أولى المشاكل فى رحلة العودة إلى قره قورم التى استغرقت ثلاث سنوات ونصف.

وهكذا سافر أفراد عائلة بولو بمفردهم إلى أرمينيا الكبرى، عبر أرزنجان الشهيرة بنسجها للبوكرام، وهو قماش من القطن أو الكتان ربما يكون اسمه مشتقاً من اسم مدينة بخارى. وهنا قد تكون الأنباء التى وصلتهم عن أهل الجبال المشاغبيين، الذين وُصفوا بأنهم «خلق شريريون متعتهم سلب التجار»، وراء عدم مضيهم شرقاً أبعد مما وصلوا إليه. وكما ذكر ماركو بعد ذلك:

هناك العديد من المدن والقرى [فى بلاد الكرج]. وهم ينتجون الحرير بقدر كبير من الوفرة. كما أنهم ينسجون أقمشة من الذهب وكل أنواع الأقمشة الحريرية الفاخرة. وينتج هذا البلد أفضل أنواع صقر الباز فى الدنيا. وهى بحق لاينقصها شيء ويعيش الناس على التجارة والحرف.

والإقليم الذى تقع فيه جبلى وبه الكثير من الشعاب الضيقة والحصون.
الأمر الذى أعجز التتار [المغول] تماماً عن إخضاعه.

وفى تلك المناطق التى لم يُشَبَّ فيها المغول قواعد حكمهم، كانت التجارة لاتزال معرضة للخطر. وكان ذلك ينطبق على أجزاء كثيرة من بلاد فارس، التى لاحظ فيها ماركو بولو أنه:

إن لم يكن التجار مسلحين تسليحاً كافياً، فسوف يتعرضون للقتل، أو على الأقل سرقة كل مامعهم. ويحدث أحياناً أن تهلك قافلة بالكامل لعدم وجود حراسة.

وكانت نتيجة ذلك أن عائلة بولو اتجهت على ما يبدو إلى الجنوب من هضبة الأناضول إلى مركز القوافل فى الموصل (بالقرب من نينوى) فى أعالي نهر دجلة. وذكر ماركو أن «كل الأقمشة المصنوعة من الذهب والحرير التى تسمى موسولين تصنع فى هذا البلد. وأن هؤلاء التجار العظام الذى يُسمون موسولين، ويبيعون تلك الكميات الكبيرة من التوابل والعطارة واللؤلؤ والأقمشة الحريرية والذهب، هم أيضاً من هذه المملكة».

بعد ذلك اتجهوا جنوباً مع النهر حتى بلغوا مدينة بغداد التى «كانت فى الماضى مقر خليفة كل المسلمين فى العالم، شأنها شأن روما التى هى مقر بابا كل المسيحيين». ومنذ أن نهب المغول بغداد لم تعد قط إلى ماكانت عليه من رفعة فى الماضى، ولكنها كانت لاتزال معروفة بأنها «أشرف وأعظم مدينة فى تلك الأصقاع» حيث «تمر أعداد كبيرة من التجار ومعهم بضائعهم». وسمع ماركو بولو إشادة بأقمشة بغداد الحريرية وديباجها و«كثير غيرها من الأقمشة الجميلة التى عليها نقوش حيوانات وطيور». وبعد أن ساروا مع دجلة فى اتجاه الخليج الفارسى ثم ركبوا السفينة إلى ميناء هرمز، اتخذوا طريقاً برياً يوصلهم إلى طريق الحرير شرقى بلاد فارس.

ورغم ذلك كانت الرحلة محفوفة بالمخاطر. فما إن عبروا البلاد التى خربها المغول حتى وجدوا كثيراً من القرى والمدن ذات الأسوار، التى أثرت يوماً بالتجارة، وقد سكتها عصابات اللصوص. وعن إحدى هذه العصابات قال ماركو بولو:

عندما يريد هؤلاء شن غارة للسلب والنهب، فإن لهم سحراً شيطانياً يغطشون به النهار، بحيث لايمكنك رؤية رفيقك الذى يسير بجانبك. وهذه الظلمة يجعلونها تمتد إلى مسيرة سبعة أيام. وهم يعرفون البلاد

معرفة وثيقة ويسيرون بخيولهم جنباً إلى جنب، حيث يصل عددهم فى بعض الأحيان إلى عشرة آلاف، قد يزيدون أو ينقصون فى أوقات أخرى. وبهذه الطريقة ينتشرون فى كامل السهل الذى ينون سلبه ويأخذون كل شىء حى يجدونه خارج المدن والقرى، سواء كان رجلاً أم امرأة أم بهيمة. فلا شىء يفلت منهم! والرجال المسنون الذين بأسروتهم بهذه الطريقة يذبحونهم. أما الشبان والشابات فيبيعونهم رقيقاً فى بلاد أخرى؛ وهكذا تدمر الأرض كلها وتصير إلى مايشبه الصحراء.

ولم تكن الأخطار التى تحدث عنها مجرد حكايات أُلقيت على مسمعيه. وهو مايتضح من وصف روستيكييلو، الكاتب الذى أملى عليه ماركو حكايته بعد ذلك فى أحد سجون جنوا:

... وكادت عصاياتهم أن تمسك بالسيد ماركو نفسه فى واحدة من تلك الظلمات التى حدثتكم عنها. ولكنه نجا بمشيئة الرب واختبأ فى إحدى القرى القريبة منه... ومع ذلك فقد كل من كانوا فى صحبته ماعدا سبعة أفراد فروا معه. أما الآخرون فأمسكوا بهم وبيع بعضهم وقُتل البعض الآخر.

ورغم ما نجده من خيال فى الحديث عن «الظلمة» وغيرها من أعمال اللصوص السحرية، لابد أن نتذكر أنه إذا كان التاريخ قد كُتب بأقلام المنتصرين فإن كتب الرحلات كتبها الناجون. فمقابل كل من ماركو بولو أو تشانج تشون، كم من الرحالة لقوا حتفهم على طريق التحرير العظيم دون أن يسجل أحد وفاتهم؟

وبعد اجتياز آل بولو «صحراء شديدة الجذب»، بلغوا طريق التحرير شرقى بلاد فارس حيث وجدوا «العديد من المدن والقرى» التى «يتوافر فيها كل شىء طيب. فالمناخ غاية فى الاعتدال». وهناك سمعوا عن شيخ الجبل وحشاشيه، وكيف أنهم ذاقوا الهزيمة على أيدى المغول. إلا أن ذلك حدث فى طبرستان الواقعة خلفهم ناحية الغرب. وهام آل بولو يمضون عبر تركستان الغربية إلى بلخ:

... يسير المرء فى سهول غناء وأودية جميلة وعلى سفوح بهية تنبت

عليها مراعى الكلاً الوفير وتكثر فيها الفواكه وغيرها من الخيرات، وتسعد الجيوش بالإقامة هنا لوفرة ما بهذا المكان. وهذا النوع من الأرض يمتد لمسيرة ستة أيام ويتخلله عدد كبير من المدن والقرى وأهلها يعبدون محمداً^(١). وفي بعض الأحيان قد تقابلك أرض صحراوية تمتد لمسافة ٥٠ أو ٦٠ ميلاً أو أقل. وفي هذه الصحارى لاتجد الماء الذى لا بد أن تحمله معك. وتظل الدواب بلا شرب حتى تجتاز الصحراء وتصل إلى مواضع الماء.

وبعد سفر ستة أيام، كما أسلفت، تصل إلى مدينة تسمى سابورجان [غربي بلخ]. كل شيء متوافر فيها، وخاصة أفضل شمام فى العالم. وهم يحفظونه بتقطيعه إلى رقائق ثم يجففونه فى الشمس. وعندما يجف يكون أحلى من العسل ويحملونه إلى أنحاء البلاد لبيعه. وهناك أيضاً وفرة من حيوانات الصيد وطيوره.

أما بلخ نفسها فوجدتها مدينة شهدت أيام عز قبل أن يعمل فيها المغول «التخريب والتدمير». ومن بين «الكثير من الأماكن الجميلة والمباني الرخامية» لم يتبق إلا الأطلال. وهناك زائر آخر للمدينة، هو الرحالة المسلم العظيم ابن بطوطة^(٢) الذى رآها بعد ٦٠ سنة وأضاف هذا إلى وصف المدينة التى لاحياة فيها: «ومساجدها ومدارسها باقية الرسوم حتى الآن، ونقوش مبانيها مدخلة بأصبغة اللازورد». بل إن القرى والريف الذى يلى بلخ كان شاهداً على ما حدث من تدمير، حيث وجد ماركو أن:

... المرء يسير حوالى ١٢ يوماً إلى الشمال الشرقى والشرق، دون أن تقابله مساكن للبشر. فالناس قد لجأوا إلى الحصون التى فى الجبال تحسباً لهجوم اللصوص والجيوش التى تتحرش بهم. والماء كثير على الطريق، كما أن الصيد وفير. وهناك أيضاً السباع. ولكن لايمكنك

(١) هذا التصور سببه الفهم الخاطيء للإسلام وهو الذى جعل بعض الأوروبيين ينسبون دين الإسلام لمحمد صلى الله عليه وسلم، الذى لم يفعل المسلمون معه كما فعل النصارى مع عيسى عليه السلام من إضفاء صفة الألوهية عليه. (المترجم).

(٢) محمد بن عبد الله اللواتى المكنى بأبى عبدالله. أما اسم ابن بطوطة فقد اشتهر به هو وعائلته. وُلد فى ٢٥ فبراير سنة ١٣٠٤ ميلادية فى مدينة طنجة شمالى المغرب. وكانت عائلته تشتهر بالقضاء وتنتمى إلى قبيلة لواتة البربرية. بدأ رحلته سنة ١٣٢٦ حتى وصل إلى الصين شرقاً. (المترجم).

الحصول على أى مؤن وأنت فى الطريق، إذ لابد أن تحمل معك مايكفيك ١٢ يوماً.

وعندما دخلوا جبال البامير مروا فى إقليم بذخشان (حيث يقع الموطن الأصلى لـ«الغربيين» الذين يُعزى إليهم إدخال الزراعة والنسيج الصينى فى منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد) وتعجبوا من حكايات الياقوت واللازورد الفاخر الثمين الذى يُستخرج من هناك. ولاحظ ماركو أن ذلك البلد البارد تُربى فيه خيول ممتازة «تجربى بسرعة كبيرة حتى فى المنحدرات، حيث لا يستطيع سواها من الخيول أن يحذو حذوها»، وهى صفة مميزة لأن الطرق الجبلية كانت غاية فى السوء. وبينما كان ماركو فى بلخ سمع عن زواج الإسكندر من روكسانا. لذلك سمع هناك أن بعض خيول بذخشان تعود أصولها إلى «نسل فرس الإسكندر بوسيفالوس».

وبينما كان الرحالة على مر العصور يشكون من المشاق والمخاطر التى يجدونها على جبال البامير، كان ماركو بولو بليغاً فى مدحه للجبال. ربما لأنه أمضى وقتاً هناك يستجم فيه بعد المرض الذى ألم به، مما جعله يتعود على هواء المرتفعات الذى يقل فيه الأوكسجين:

تلك الجبال شاهقة الارتفاع، الأمر الذى يجعل الصعود إلى قممها يستغرق نهاراً كاملاً، من الصباح حتى المساء. وعندما تصعد تجد سهلاً فسيحاً ذا كلاً وأشجار وفيرة ونباتات غزيرة ينساب ماؤها الزلال بين الصخور والوهاد. وفى تلك الجداول تجد أسماك السلمون المرقط وغيره من الأنواع اللذيذة. والهواء فى تلك الأقاليم شديد الصفاء والإقامة فيها تجلب الصحة، حتى أنه إذا وجد من يعيشون أسفلها فى المدن، وفى الأودية والسهول، أنهم أصيبوا بالحمى، أو أى علة أخرى قد تلم بهم، هبوا على الفور إلى التلال. وبعد قضاء يومين أو ثلاثة أيام هناك يستردون عافيتهم بسبب جودة الهواء.

وبعد أن سار آل بولو فى «كثير من المضائق المحفوفة بالمخاطر التى بلغت وعورتها حدّاً جعل الناس لا يخشون غزواً»، وصلوا الهضاب العالية التى اشتقت الجبال اسمها منها:

يطلق على السهل اسم بامير ويمكنك أن تسير فيه بالفرس اثنى عشر يوماً متصلة دون أن تجد شيئاً سوى الصحراء التى تخلو من المساكن

أو أى شيء حى، مما يضطر المسافرين إلى حمل كل ما يحتاجون إليه. وتلك الأرض شديدة الارتفاع والبرودة بحيث لا ترى طيراً محلقاً. [أشار العديد من علماء الطبيعة إلى أنه من المحتم أن آل بولو عبروا هذه المنطقة فى الشتاء، لأنها فى الشهور الدافئة تعج بالطيور]. ولاحظت أيضاً أنه بسبب البرد القارس [وهو فى واقع الأمر هواء المرتفعات الذى يقل فيه الأوكسجين] لا تشتعل النار اشتعالاً قوياً ولا تصدر عنها حرارة شديدة كالمعتاد، إلى جانب أنها لا تطهو الطعام طهواً تاماً.

وهكذا ساروا ٤٠ يوماً على الأقل وهم يشقون طريقهم بصعوبة بين الجبال متجهين إلى الشمال والشمال الشرقى:

... سائرين دوماً فى الجبال والتلال أو خلال الأودية ومجتازين الأنهار والفيافي. وطوال هذا الطريق لا تجد سكناً لبشر ولا أى شيء أخضر. ولا بد أن تحمل معك كل ما يلزمك.

والإقليم الذى مروا فيه، عند منابع نهر يرقند، قد يكون هو نفسه موقع تاشكرجان التى كان يلتقى فيها التجار الهنود والصينيون والبارثيون فى زمن الرومان. وليست البلاد كلها شديدة الجذب وخالية من الحياة، فعبورها مرة أخرى فى وقت لاحق من السنة سوف يفسر ذلك الوصف بعض الشيء.

وفى آخر المطاف خرج آل بولو إلى الجانب الشرقى من جبال البامير عند كاشغر، التى وجدها ماركو بلداً ذا «بساتين جميلة وكروم وضياع لطيفة» ومنها «يخرج تجار كثيرون يجوبون الدنيا فى أسفار تجارية». وبعد أن أشار إلى أن سكان غالبية المدن التى مروا عليها أكثرهم مسلمون، يبدو أنه سرُ لاستطاعته القول بأنه فى كاشغر كان هناك «مسيحيون نسطوريون كثيرون لهم كنائسهم». كما أشار إلى أن سمرقند (التى لم يزرها وزارها أبوه وعمه فى رحلتها السابقة) كان يسكنها كذلك «كل من المسيحيين والمسلمين».

وسجل ابن بطوطة، الذى سافر عبر تركستان بعد ما يقرب من ٦٠ سنة من عبور ماركو بولو لآسيا، دمار سمرقند التى كانت يوماً مدينة عظيمة، رغم إدراكه أن المغول لم يكونوا السبب الوحيد، أو حتى الرئيسى، وراء ذلك. ورغم أنها كانت لا تزال فى ذهنه «من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالاً»، وهو مديح له شأنه لأنه صادر عن رجل طاف بأنحاء العالم الإسلامى والمغولى. ومع ذلك تحسر على أنه:

فيما مضى كانت على شواطئه قصور عظيمة وعمارة تُنبئ عن علو همم أهلها، فدثر أكثر ذلك. وكذلك المدينة خرب معظمها، ولا سور [يحتمل أنه لم يعاد بناؤه بعد تدمير المغول له] ولا أبواب عليها وفي داخلها البساتين [قد يعنى بذلك السوق وليس حدائق للمتعة].

وفى يرقند، وهى المدينة الكبرى التالية التى مر عليها آل بولو، وجدوا مسيحيين أيضاً. كما لاحظوا شيئاً مازال يلفت نظر المراقبين المحدثين، وهو أن عدداً كبيراً من الناس مصاب بالجوتر (تضخم الغدة الدرقية). وقد رأى ماركو بولو أن هذا مرجعه «إلى بعض ما يتميز به الماء الذى يشربونه». ولكننا نعرف اليوم أن السبب فى ذلك هو نقص اليود فى الغذاء. وبعد أن هبط آل بولو إلى حوض التاريم وساروا بمحاذاة حافته الجنوبية، بلغوا خوتان. ورغم أنهم وجدوا هناك أن الناس لديهم كروم وبساتين وضياع «ويعيشون على التجارة والصناعة»، فقد ذكروا تغييراً كبيراً واحداً حدث منذ تلك الأيام التى كان فيها هذا الطريق هو المفضل لدى الحجاج البوذيين المتجهين إلى الهند. فها هو ماركو يقول «إنهم جميعاً ممن يعبدون محمداً».

وتساءل البعض عما إذا كان ماركو قد خلط بين عبادة الأوثان (وهو رأى الغربيين فى البوذية) والإسلام لكون الكلمتين الإسلاميتين اللتين تدلان على الاثنين تشبهان بعضهما من حيث الصوت^(١). وسواء حدث ذلك أم لا، فإن وصف ماركو كان على الأقل تنبؤاً دقيقاً لما أصبح عليه الأمر فى المستقبل. فخوتان كانت بالفعل فى سبيلها لأن تصبح مركزاً إسلامياً كبيراً فى آسيا الوسطى.

وفى هذا المكان وإلى الشرق منه كانت هناك أنهار يغوص فيها الغواصون منذ آلاف السنين لاستخراج اليشب. وعن شرشان^(٢) (شان شان)، حيث الناس أيضاً «يعبدون محمداً»، قال:

يضم هذا الإقليم أنهاراً تأتى باليشب والعقيق الأبيض الذى يُنقل إلى خطاي حيث يباع بأثمان غالية.

وبعد ذلك وجد آل بولو أن:

(١) ربما يقصد «الإسلام» و«الأصنام» اللتين قد يخلط بينهما من لا يتحدث العربية لتقاربهما صوتياً وخاصة عندما ينطق بهما أهل تلك البلاد من غير العرب، حيث يتأثر نطق الكلمات العربية باللسان الأصلي لهؤلاء المسلمين. (المترجم).
(٢) اختلفت المصادر بشأن موقعها. إلا أنها قد تكون إلى الجنوب من واحة هامى بالقرب من لوب نور (المترجم).

أرض الإقليم كلها رملية وكذلك كل الطريق الذى يبدأ من بين، وكثير من الماء الذى تجده مر ولا يصلح للشرب... وبعد مغادرة شرشان تسير خمسة أيام فى الرمال حيث لا تجد سوى الماء المر. ثم تصل بعد ذلك إلى مكان الماء فيه حلو. وهناك تقوم مدينة... تسمى لوب... وهى عند مدخل صحراء [لوب] الكبرى. وهنا يستريح المسافرون قبل دخولهم الصحراء.

وهكذا وصل آل بولو إلى حافة الصحراء المالحة التى كانت مصدراً لشقاء المسافرين عبر آلاف السنين. وقد تعاملوا مع هذه الصحراء العجيبة بحرص وحذر واستعدوا استعداداً خاصاً للرحلة:

... هؤلاء الذين يعتزمون عبور الصحراء يستريحون أسبوعاً فى هذه المدينة ليجددوا نشاطهم ونشاط دوابهم. وبعد ذلك يستعدون للرحلة ويأخذون معهم من المؤن ما يكفيهم والدواب شهراً.

وعلى الطرف الأقصى من الصحراء كانت تقوم مدينة ساتشيو (مدينة الرمال) التى نعرفها باسم تونهوانج. وهنا وجد آل بولو أن «الغالبية من عبدة الأوثان. ولكن هناك أيضاً بعض المسيحيين النسطوريين وبعض المسلمين». والوثنيون يتحدثون «لغة خاصة بهم». وربما يكون ذلك إشارة إلى أهل التبت الذين وفدوا على هذا الإقليم مع انهيار أسرة تانج. ولكن الشيء الأكثر غرابة هو ما قاله عن كونهم «ليسوا تجاراً». وربما ما كان يريد قوله ببساطة هو أن البوذيين من أهل التبت تركوا التجارة لغيرهم. ولكن التعليق يعكس كذلك تلك الأيام المظلمة التى عاشها ذلك الجزء من طريق الحرير.

إن آل بولو الآن فى تونهوانج عند رأس عمر كانسو، وهو المدخل إلى الصين نفسها. وحتى إذا كان آل بولو، كسفراء للخان، مضطرين للذهاب إلى بلاطه أول ما يذهبون، فلا بد أن تتوقع منهم بعض الكلمات التى تنم عن إعجابهم بمدن الحرير العظيمة. أما كونهم صامتين، فهذا تأمل حزين فيما آلت إليه مدينتا تشانج آن ولو يانج - سيرا متروبوليس وسينى متروبوليس. والواقع أنهما تعرضتا للدمار فى عهود أسرات متعاقبة من البدو ثم انحرف الطريق ليعبد عنهما. ورغم إعادة بنائهما، فإن أياً منهما لم تستعد ما كانت عليه من عظمة.

أما الأسرات الشمالية فجعلت عواصمها فى أماكن أخرى إلى الشرق، حيث يمكن حمايتها بشكل أفضل، أو إلى الشمال، حيث تكون أقرب إلى موطنها فى السهوب. واسم بكين (بيه چنج)، ومعناها «العاصمة الشمالية»، شاهد على نقل مركز الحكم. وكان الاسم البديل للمدينة على مر العصور هو بيه بنج ومعناها «السلام الشمالى». (وأطلق المغول عليها خان باليق أى «مدينة الخان»). إلا أن هاتين كانتا عاصمتين صينيتين. أما المغول فاتخذوا لبلاطهم الرئيسى مكاناً آخر، فى قره قورم فى الشتاء وفى شانجتو (البلاط العالى) فى الصيف، وهى التى خلدها كوليردج^(١) باسم زانادو، وتقع شمالى بكين وشرقى قره قورم. وذهب آل بولو إلى هاتين المدينتين الشماليتين لإتمام مهمتهم.

وخط سيرهم ليس واضحاً وضوحاً تاماً، حيث يذكر ماركو بولو عدداً من المدن التى زارها فى غير هذه الرحلة فى فترة إقامتهم بعد ذلك فى الشرق المغولى، مرتبة ترتيباً جغرافياً. وربما كانت مغادرتهم لمر كانسو عبر الواحة النهرية المسماة إتسين جول. ومن المحتمل أنهم استعدوا مرة أخرى لرحلة فى الصحراء فى نقطة عسكرية تسمى إتسينا أقامها قوبيلاي خان:

**فى هذه المدينة لابد أن تعد مؤناً تكفى أربعين يوماً. فعندما تغادر
إتسينا تدخل صحراء تسير فيها أربعين يوماً إلى الشمال دون أن تجد
أحداً يعيش فيها...**

هذه هى صحراء جوبى المخيفة. ولابد من اجتياز جزء كبير منها للوصول إلى المدن المغولية. وليس لدى ماركو الكثير مما يقوله عن قره قورم نفسها سوى أنها مدينة «محيطها ثلاثة أميال... حولها سور قوى من الطين»، وبها قلعة عظيمة وقصر لطيف للحاكم.

أما شانجتو فهو التى استحوذت على مخيلته. ومن الواضح أن وصفه لها هو ما أوحى للشاعر كوليردج بقصيدته عن «قبة المتعة العظيمة» التى أمر بإقامتها قوبيلاي خان:

**هذا المكان [شانجتو] فيه قصر من الرخام غاية فى الجمال. غرفه
جميعاً مطلية بالذهب وعليها صور للإنسان والحيوان والطيور وأنواع**

(١) صمويل تايلور كوليردج شاعر رومانسى إنجليزى (١٧٧٢ - ١٨٣٤) وكان أيضاً فيلسوفاً وناقداً أدبياً. وتعد «قوبيلاي خان»، التى تجردون مقطعاً منها فى صدر هذا الفصل، إحدى ثلاث قصائد كانت السبب فى شهرته كشاعر. كما أنها أبرزت الجانب الغامض فى الرومانسية البريطانية. (المترجم).

كثيرة من الأشجار والزهور. وجميعها مرسومة بأسلوب فنى رائع يسرك إن أنت نظرت إليها وتتملكك الدهشة.

وشيد حول القصر سور يحيط بأرض مساحتها ١٦ ميلاً. وهناك نافورات داخل المنتزه وأنهار وجداول ومروج جميلة. وفيه أيضاً كل أنواع الحيوانات البرية (ماعدا ذات الطبيعة الشرسة) ، التى جمعها الإمبراطور ووضعها هناك لتكون غذاء لصقوره وسناقيره التى يحفظها هناك فى أقفاص. ومن بين هذه ٢٠٠ من السناقيير وحدها، بخلاف الصقور الأخرى. ويذهب الخان نفسه كل أسبوع لرؤية طيوره وهى جالسة فى أقفاصها. وفى بعض الأحيان يجوب المنتزه على فرسه وخلفه فهد يحمله على كفلها. فإذا ما استهواه حيوان رآه أطلق عليه فهده. وبعد ذلك يؤخذ الصيد ليكون طعاماً للصقور فى أقفاصها. وهو يفعل ذلك من أجل اللهو والتسلية.

وله فى جزء من المنتزه به غابة ساحرة قصر آخر بنوه بالغاب الهندى (البامبو) ... وهو مطلق بالكامل بالذهب وداخله أبدع مايكون من حيث التمسات الفنية. فيه أعمدة مطلية بالذهب واللؤلؤ على كل منها تتين مطلق كله بالذهب وذيله متصل بالعمود فى حين تسند الرأس عارضة السقف، بينما تمتد مخالبه يميناً ويساراً لتحمل العارضة. والسقف، شأنه شأن سائر القصر، مصنوع من الغاب المغطى بطبقة سمكة من الورنيش القوى كى لايبليه ماء المطر. والواحدة من هذا الغاب محيطها ثلاثة أشبار ويتراوح طولها بين ١٠ أشبار و١٥ شباراً. وهى تُقَطَّع بالعرض عند كل كعب ثم تُشَقُّ هذه القطع بحيث تتكون منها بلاطتان مجوفتان. وهذه البلاطات يُسَقَّف بها المنزل ... خلاصة القول أن القصر بكامله مُشيد بهذا الغاب الذى ... يُستخدم أيضاً فى العديد من الأغراض المفيدة. وروعى فى تصميم القصر أن يكون فكّه وتركيبه على قدر كبير من السهولة. فهو يُفَكُّ إلى قطع وينقل متى أمر بذلك الإمبراطور. وبعد نصبه يؤمنونه ضد نوايب الريح بأن يثبتوه بأكثر من ٢٠٠ حبل حريرى تُشد إلى أوتاد فى الأرض.

ويقيم الخان فى متنزهه هذا، حيث ينزل أحياناً فى القصر الرخامى وفى أحيان أخرى فى قصر الغاب، ثلاثة أشهر من السنة، هى يونيو ويوليو وأغسطس. وهو يفضل هذا المقر لأنه ليس حاراً بالمرّة. وهو بحق مكان بارد. وما إن يحل اليوم الثامن والعشرون من أغسطس حتى يرحل ويفك قصر الغاب.

أقام آل بولو فى الصين (الجزء الشمالى منها يُسمى خطاى والجنوبى مانزى) مايقرب من ١٦ سنة قضوها فى التنقل فى أنحائها خدمة للخان. وبما أن قوبيلاي خان وخلفاءه كانوا حديثى عهد بالبلاد الأجنبية التى استولوا عليها، فقد كانوا فى ريب من المستشارين الصينيين الذين استعاضوا عنهم بالأجانب فى الإدارة، كلما أمكن ذلك. ولو كان البابا المسيحى أرسل ١٠٠ راهب لصاروا بالدرجة الأولى موظفين فى جهاز الخان الإدارى، بغض النظر عن حبه للتنازع الدينى. ولم يكن بمقدور آل بولو أنفسهم الحصول على إذن بالرحيل لولا مرافقتهم لأميرة مغولية إلى زوجها المنتظر فى إيلخانية فارس. وعودتهم بطريق البحر حول الهند، وليس بطريق البر، اعتراف بصعوبة السفر على طريق الحرير. وقد حذر مستشارو الخان من «عظم مشقة تلك الرحلة البرية الطويلة على سيدة».

وبعد رحلة فى طريق التوابل نزلوا فى ميناء هرمز الفارسى وعبروا جنوب غربى فارس ليصلوا تبريز التى كانت وقتها العاصمة الفعلية لإيلخانية فارس، حيث أوصلوا العروس بسلام، بينما «بكت حزناً على الفراق». ورغم الاضطرابات التى كان الجزء الفارسى من طريق الحرير يشهدها، وجد آل بولو أن تبريز والإقليم الواقعة فيه فى حالة ازدهار:

التجارة والصناعة هما مصدر رزق أهل تبريز. فهم ينسجون أنواعاً جميلة وثمانية من الحرير المُقَصَّب بالذهب. وللمدينة موقع ممتاز جعل البضائع تأتىها من الهند وبغداد وهرمز [فى فارس] وأقاليم كثيرة غيرها. وهذا يجتذب كثيرين من التجار اللاتين، وخاصة أبناء جنوا، كى يأتوا لشراء البضائع والقيام بأعمال تجارية أخرى فيها. وهى أيضاً سوق كبيرة للأحجار الكريمة. إنها بحق مدينة يجنى منها التجار أرباحاً كبيرة.

وذكر ماركو بولو أن أهل جنوا كان لهم نشاط كبير فى بحر قزوين، الذى أخطأ عندما قال إن نهر الفرات يصب فيه. وهذا دليل على ضآلة المعلومات الجغرافية التى كانت لدى

الرحالة الأوائل . كما أشار إلى أن تجار چنوا «بدأوا مؤخراً فى السفر بالبحر، حيث يُحملون سفنهم إلى الجانب الآخر ويدشنونها فيه». وهذا النوع من التجارة البحرية (الذى بدأ قبل عدة قرون كنوع من الإغارة البحرية، عندما نجح الروس فى الوصول إلى بحر قزوين بالقرب من الخزر) يُعد شاهداً على دور چنوا المتزايد فى التجارة الشرقية فى ذلك الوقت . وعندما استعاد البيزنطيون القسطنطينية سنة ١٢٦١، كان ذلك بمساعدة چنوا التى استفادت من الاتفاقيات التجارية التفضيلية التى نتجت عن ذلك . وكانت الجاليات التجارية الإيطالية، وخاصة أهل چنوا، موجودة فى أنحاء الإقليم .

وهكذا عبر آل بولو أرمينيا الكبرى إلى أرضروم (التي أطلق عليها هذا الاسم تخليداً لحكم البيزنطيين الذى دام فيها عدة قرون قبل مجيء الترك السلاجقة) . وأثناء عبورهم، ذكر ماركو ينايغ النفط الشهيرة فى بلاد الكرج قائلاً:

هذا الزيت لا يصلح فى الطعام، ولكنه صالح للحرق . وهو يستخدم كذلك فى طلاء الأجرى من الجمال .

وفى العصور الحديثة، هذه هى حقول البترول الغنية التى تحصل منها روسيا على ما تحتاجه وتتركز فى ميناء باكو على بحر قزوين . وخرجت القافلة من التلال عند طرابزون، وهى ميناء على البحر الأسود أبحروا منه إلى القسطنطينية ولجرو بونتي (وهى جزيرة فى بحر إيجه من محميات البندقية) ومنها إلى موطنهم البندقية .

وبذلك يكون آل بولو قد أكملوا رحلتهم، التى لم يسبق لها مثيل، من أوروبا إلى الصين براً ثم العودة . والواقع أنها الرحلة الثانية غير العادية، ذهاباً وعودة، لكل من نيكولو ومافيو . ولكن إذا كان آل بولو هم أول من قاموا بتلك الرحلة، فهم ليسوا آخرهم . ولا ندرى إن كان الآخرون اتخذوا نفس الطريق الذى ساروا عليه أثناء إقامتهم فى الشرق أم لا . ولكن ما إن عاد آل بولو بما يروونه عن ثروات الشرق حتى انطلق كثيرون من تجار أوروبا، وخاصة الإيطاليين منهم، يسرون على خطاهم .

كما أنهم لم يكونوا وحدهم على طريق الحرير . ففى فترة السلام النسبى الذى حل بآسيا على يد المغول، استطاع ورثة المهن التجارية أن يشقوا طريقهم فى الصحراء والجبال . واستمر الخانات فى دعمهم للتجار كى يعملوا فى تجارتهم بعيدة المدى، إذ كان ذلك يحقق

لهم أعظم الفوائد. فكثيرون من التجار وقتها صاروا مسلمين، وإن اختلفت أصولهم العرقية. وكان الإسلام يشجع التجار ويضعهم فى مكانة اجتماعية أعلى من تلك التى يضعهم فيها أى دين آخر. واستمر أصحاب الديانات الأخرى فى العمل على طريق الحرير فى الوقت نفسه. وكما اعتمد قوياى خان على المستشارين الأجانب لعدم ثقته فى رعاياه الصينيين، أثر أوائل إيلخانات فارس استخدام المسيحيين واليهود كلما أمكن ذلك، تحسباً لخيانة رعاياهم المسلمين. وينطبق ذلك بصورة خاصة على طبرستان التى كانت لاتزال متأثرة بالأفكار التى ساهمت فى ظهور طائفة الحشاشين.

وبما أن التجارة كانت تحقق فائدة للخانات، فقد سعوا إلى توفير الأمن للتجار وغيرهم من المسافرين على الطريق. فعلى سبيل المثال، كان على عامة أهل فارس أن يعملوا بالسخرة على الطرق وفى الحصون التى تحميها. وكان عليهم أيضاً رعاية الخيول والحمير اللازمة لشبكة الاتصالات الواسعة التى تربط الإمبراطورية المغولية. وبلغت الخدمة البريدية فى الأراضى الصينية فى عهد المغول أقصى اتساع لها وكانت فى أكمل حالاتها. وعلى سبيل المثال، وصف ماركو بولو بشيء من التفصيل الخدمة البريدية الممتدة بين عاصمة المغول خان باليق (بكين) والأقاليم القريبة منها:

والآن فلتعلم أنه يخرج من مدينة خان باليق طرق كثيرة تؤدى إلى أقاليم عديدة، طريق إلى إقليم ما وآخر إلى غيره. وكل طريق يسمى باسم الإقليم المؤدى إليه. وهذه طريقة معقولة. أما رسل الإمبراطور المنطلقون من خان باليق متخذين ما شاءوا من هذه الطرق، فيجدون كل خمسة وعشرين ميلاً من سفرهم محطة يطلقون عليها يامب، أو لنقل «دار الخيل والبريد». وفى كل محطة من هذه المحطات التى يستخدمها الرسل بناء كبير جميل المنظر يأوون إليه، كل غرفة بها أسرة لطيفة كل لوازمها من الحرير الثمين. ويقدم لهم فيها كل ما يحتاجون إليه. بل إنه إذا نزل ملك فى واحدة من هذه المحطات لوجد أنه نزل منزلاً لائقاً.

وفى بعض هذه المحطات وضعت نحو أربعمئة فرس معدة لاستعمال الرسل. وفى غيرها وضع مائتين. كل ذلك حسب الحاجة وتبعاً لما أمر به الإمبراطور فى كل حالة. وبعد كل خمسة وعشرين ميلاً، كما

أسلفت، وربما كل ثلاثين ميلاً، نجد واحدة من هذه المحطات على الطرق الرئيسية المؤدية إلى الحكومات الإقليمية المختلفة. والحال كذلك في كل أنحاء الأقاليم الرئيسية الخاضعة للخان الأعظم. وحتى في حال اضطرار الرسل إلى المرور في أصقاع لا طرق فيها وليس بها منزل أو نُزل، هناك أيضاً الدور المحطات التي أقيمت بنفس الطريقة، غير أن المسافات التي تفصل بينها أكبر. كما أن المرحلة التي يقطعها الفارس في اليوم الواحد تتراوح بين خمسة وثلاثين وخمسة وأربعين ميلاً، بدلاً من خمسة وعشرين إلى ثلاثين. إلا أن بها خيولاً وكل اللوازم التي سبق وصفها، بحيث إذا ما جاء رسل الإمبراطور من أي صوب وجدوا كل شيء معداً لهم.

والواقع أن هذا ما هو إلا شيء واحد من بين أكبر آيات العظمة التي لم يشهد مثلها أحد. ولم يكن يوماً لإمبراطور أو ملك أو زعيم ما يدل عليه هذا كله من ثروات! فحقيقة الأمر أن مافي محطات البريد مجتمعة يزيد على ٣٠٠ ألف فرس مخصصة لاستخدام الرسل. والأبنية العظيمة التي ذكرتها يزيد عددها على ١٠ آلاف جميعها مؤثث تأثيثاً فاخراً كما أسلفت. وهذا أمر من العجب وعظم التكلفة بحيث يصعب على المرء وصفه...

واعلم أنه بناء على أوامر الخان الأعظم أقيم بين دور البريد هذه وبعد كل ثلاثة أميال نقطة للجنود يحيط بها نحو أربعين منزلاً يقيم فيها عداءو الإمبراطور. وكل واحد من هؤلاء العداءين يتمنطق بحزام عريض عليه أجراس، فما إن يجرى مسافة الثلاثة أميال التي بين نقطة وأخرى حتى تُسمع أجراسه وهي تجلجل من على بُعد. وعند وصوله إلى النقطة يجد رجلاً آخر على هيئته مستعداً لأن يحل محله وعلى الفور يحمل عنه المهمة المكلف بها ويأخذ بذلك ورقة من الكاتب الموجود دائماً لهذا الغرض. وهكذا ينطلق الرجل الآخر ثلاثة الأميال الخاصة به. وفي المحطة التالية يتم ما حدث في سابقتها. وهكذا يمضي البريد مع التبديل كل ثلاثة أميال. وبهذه الطريقة يتلقى الإمبراطور، الذي يعمل لديه عدد ضخم من هؤلاء العدائين، رسائل تحمل أخباراً

من أماكن على مسيرة مائة يوم فى عشرة أيام بلياليها. وهذا ليس بالأمر الهين! (والواقع أنه فى موسم الفاكهة كثيراً ما تقطف ذات صباح فى خان باليق لتكون فى مساء اليوم التالى عند الخان الأعظم فى شانجتو، وبينهما مسيرة عشرة أيام. وفى كل محطة يسجل الكاتب موعد وصول العدائين ومغادرتهم. وهناك موظفون آخرون عملهم هو القيام بزيارات تفقدية كل شهر لكل النقاط، حيث يعاقبون العدائين الذين يتهاونون فى عملهم). ويعفى الإمبراطور هؤلاء الرجال من كل أنواع الضرائب ويدفع لهم رواتب.

وعلاوة على ذلك، هناك أيضاً فى تلك المحطات رجال آخرون منطلقون بأحزمة شبيهة تتدلى منها أجراس يتولون أعمال البريد السريع، عندما تكون هناك ضرورة لوصول رسالة ما إلى حاكم أحد الأقاليم على وجه السرعة، أو الإبلاغ عن تمرد أحد كبار الموظفين أو ما شابه ذلك من حالات الطوارئ. وهؤلاء قادرون على الجرى مسافة مائتى ميل تقريباً بالنهار ومثلها بالليل. وسوف أفسر لكم ذلك. فالواحد منهم يأخذ فرساً من تلك التى فى المحطة تكون مسرجة ومستريحة ويمتطيها وينطلق بأقصى سرعة وبأشد ما أوتى من عزم. وعندما يسمع من هم فى المحطة التالية الأجراس يعدون فرساً ورجلاً على شاكلته يأخذ منه الرسالة أو ما معه ثم ينطلق إلى المحطة الثالثة حيث توجد فرس مستريحة على أهبة الاستعداد. وهكذا تمضى الرسالة بأقصى سرعة من نقطة إلى أخرى مع التبديل المنتظم للخيول. والسرعة التى ينطلقون بها مذهلة. (إلا أنهم لا يستطيعون السير ليلاً بنفس سرعتهم بالنهار، حيث يصحبهم عداؤون يحملون المشاعل لا يمكنهم مجاراتهم فى السرعة).

وهؤلاء الرجال يقدرّون تقديراً عظيماً. وهم لا يمكنهم القيام بذلك إن هم لم يشدوا على بطونهم وصدورهم ورؤوسهم أربطة قوية. وكل منهم يحمل معه لوحاً عليه صورة صقر، إشعاراً بأنه مكلف بمهمة عاجلة. فإذا تصادف أن أصيبت فرسه أو واجهته أية مشكلة أخرى وهو فى الطريق، فإنه مخول بأن ينزل من على فرسه ويستبدلها بغيرها. ولا

يجرؤ إنسان على الرفض فى مثل هذه الحالة . وبذلك يكون لدى الرسول دائماً المطية المستريحة التى تحمله . ومع ذلك فكل خيول البريد هذه لا تكلف الإمبراطور شيئاً . وسأروى لكم كيف ولماذا . فكل مدينة أو قرية أو دسكرة تقع بالقرب من إحدى تلك المحطات عليها أن تقدم لها عدداً معلوماً من الخيل ، حسب استطاعتها . وبهذه الطريقة تحصل كل مراكز المدن على حاجتها من الخيل ، وكذلك مراكز القرى والدساكر المحيطة بها . وفى الأصقاع غير المأهولة وحدها يكون توفير الخيل على نفقة الإمبراطور .

(ولم تكن المدن تُبقى عدد الخيول بالكامل ، ولنقل ٤٠٠ فرس ، فى محطاتها على الدوام . بل إنها فى كل شهر تجعل ٢٠٠ فى المحطة وتترك ٢٠٠ أخرى ترعى ، كى تحل فى الشهر التالى محل الأولى لتريحها . وإذا تصادف أن هناك نهراً أو بحيرة فى طريق العدائين وخيول البريد ، يُفرض على المدن المجاورة إبقاء ثلاثة أو أربعة قوارب فى حالة استعداد دائم لهذا الغرض) .

ومع أن محطات البريد فى السهوب أو الصحراء لم تكن بكل تأكيد فى جمال تلك التى فى الصين ، فإن محطات الغرب الأقصى من آسيا كانت على قدر كبير من هذا الجمال . وهذا صحيح رغم أن إيلخانات فارس اعتنقوا الإسلام حوالى سنة ١٢٩٥ ، وفى الوقت نفسه تخلصوا من كل شىء فيه تبعية للخان الأعظم فى خان باليق . إلا أنه فى بعض الأوقات والأماكن انفرط عقد النظام . وكما أشار أحد المؤرخين المسلمين فى إيلخانية فارس^(١) :

جاء زمن كان فيه الأمراء والأميرات ورجال البلاط وأمراء العشرة آلاف والألف والمائة وقادة الأقاليم ومربو الصقور ومربو الفهود وقيمو الاصطبل الإمبراطورى وصانعو الدروع والمشرفون على المطبخ الإمبراطورى وغيرهم من الناس يرسلون رسل الدولة بكل شىء ، عظم شأنه أو صغر ، إلى الأقاليم وكذلك إلى المستوطنات المغولية البدوية ، لأى سبب من الأسباب ...

(١) هذه ترجمة للنص الإنجليزى ، إذ لم يذكر المؤلف اسم المؤرخ . (المترجم) .

وزاد عددهم إلى حد أنه إذا وضعت خمسون ألف مطية فى كل محطة بريد ما كانت لتكفى. وبعد ذلك بدأ الرسل يتشاجرون فيما بينهم. واستغل اللصوص الموقف لتحقيق مآربهم، حيث قاموا هم بدور الرسل وكانوا يتريصون بمن هم أصغر حجماً ويستولون على خيولهم وشاراتهم التى ما إن حصلوا عليها حتى ينهبوا القوافل فرحين. ولم يكن رسل الدولة يطالبون بالخيول والطعام فحسب، بل كانوا يسرقون من الناس عمامتهم وملابسهم وغيرها من متعلقات. وبينما يسرون فى طريقهم كانوا يبيعون ما يفيض عن حاجتهم من طعام تسلموه، بمهارة وحذق يفوق ما عليه التجار الصينيون والهنود. وكانوا يعدّون الناس ويجلدونهم بالسياط ويشنقونهم ويؤذونهم بشتى الطرق. وليس مستغرباً أن يقل الزرع وينشغل الفلاحون بحماية ممتلكاتهم من السرقة. وساءت سمعة هؤلاء الرسل المزيفين لدى مأمورى البريد والحكام. وبناء على ذلك، كان إذا سافر رسول فى عمل مهم وسرى يتعلق بأمر الدولة اعتبره الناس مساوياً لهؤلاء الأوغاد. ولذلك تكون سمعته سيئة. الأمر الذى يجعل رحلته تستغرق وقتاً يزيد مرتين أو ثلاث مرات عما هو متوقع، حيث تُعطى له خيل عجفاء أو لا تُقدّم له خيول بالمرة عندما يمر على محطات البريد وغيرها. وحتى إذا كان هناك ما يصل عدده إلى خمسين فرساً فى محطة البريد، لم يكن بينها اثنتان عُلفت علفاً كافياً ليركبها رسل البريد السريع. أما المال المخصص لدور البريد فكان الحكام يحتفظون به لينفقونه على أغراضهم الخاصة. وكانت المكوس والضرائب، التى هى أكثر مصادر موارد الدولة تدفقاً، تُستخدم فى تغطية نفقات رسل الدولة. وحتى هذه لم تكن كافية. وكان الحكام يكتبون الحوالات ويجدون لأنفسهم مهرياً. وعندما لم يكن ذلك كافياً أيضاً كان موظفو المكوس والضرائب يختفون ويبدأ الرسل فى الاقتتال فيما بينهم، وأقواهم هو من يستولى لنفسه على حصيلة الضرائب. وكان الأوباش الذين انضموا إلى الرسل قد بلغ عددهم المائتى، بل الثلاثمائة، رجل من الركبان فى حال الرسل الذين يسافرون بأوامر بسيطة. وكان بعض من هم على قدر أكبر من الشهرة معهم ما يربو

على خمسمائة أو ألف رجل من الركبان. وفي نهاية السنة كان كل هؤلاء الرسل يعودون إلى البلاط دون أن يحققوا شيئاً سوى استهلاك مبالغ ضخمة من النفقات.

وكان هؤلاء الرسل يقيمون على نفقة السكان المحليين. وكانت إقامتهم تمتد شهوراً في بعض الأحيان، يخربون أثناءها الحياة المحلية، كما يشير المؤرخ نفسه:

... الأبواب التي كانت على قدر كبير من الجمال صارت تُستخدم وقوداً للنار. والحدائق التي نمت بعد سنين من الكد والتعب دمرها الرسل في يوم واحد، حيث تركوا بهائمهم ترعى فيها.. المشرفون على رسل الدولة حطموا أسوار البساتين واتخذوا من أشجار الفاكهة وقوداً لنيرانهم في الشتاء. وإذا كانت شجرة من الأشجار على قدر كبير من الاستقامة كان الحكام يأمرون بقطعها لتصنع منها الرماح.

وبلغت الأمور مبلغاً جعل الناس «يغيرون مداخل بيوتهم ويخفونها تحت الأرض جاعلينها ملتوية إلى أقصى حد ممكن، لكي يمنعوا رسل الدولة من النزول فيها». وفي بعض القرى كان أهلها يتفقون على أنه «إذا اقترب أي إنسان ورآوه عن بُعد، فإنهم طبقاً لإشارة معينة يختبئون جميعاً في قناة الري أو الرمال» إلى أن ينصرف الدخلاء.

وفي تلك الظروف انتعش نشاط قطاع الطرق. ويمضي المؤرخ الحزين قائلاً:

في إحدى المرات كانت هناك أعداد كبيرة من اللصوص، المغول [والفرس]، فضلاً عن العبيد الآبقين وفتوات المدن. وفي بعض الأحيان كان ينضم إليهم الفلاحون والمستوطنون الأفراد ويصبحون مرشدين لهم. وكان لهم جواسيس في كل المدن يخبرونهم في الوقت المناسب بموعد مغادرة القوافل. واشتهر بعض هؤلاء اللصوص بشجاعتهم. وكانوا إذا وقعوا في يد قبيلة من القبائل يتركون لحال سبيلهم بسبب شجاعتهم وإقدامهم. وعند حدوث أي كمين كانت القاعدة بالنسبة للقوافل والرسل والمسافرين من الأفراد أن ينضموا جميعاً إلى بعضهم البعض لقتال اللصوص. ولكن الحال لم يعد كذلك الآن. فقد أصبح مبدأ اللصوص هو أن يسرقوا فقط من هم على قدر معين من الثراء. وبهذه الطريقة انفصل الفقراء عن غيرهم ممن أصبحوا فريسة سهلة.

وكان اللصوص قد اتخذوا أصدقاء لهم من أكابر القوم فى كثير من القرى. وكان لهم أيضاً أصدقاء من بين تجار المدن يبيعون لهم ما استولوا عليه من ملابس. وفى بعض الأحيان كان اللصوص يمضون شهراً معهم، حيث ينفقون الأموال المسروقة معاً بطيش وعدم اكتراث.

... وعموماً كان خوف المسافرين من اللصوص أقل من خوفهم ممن يحمون الطريق، حيث كانت الفئة الأولى تسرقهم أحياناً، أما الثانية فكانت لا تتوقف عن سرقتهم حيثما حلوا.

مثل هذا الموقف ما كان ليستمر فقد كانت التجارة تأتى بأرباح كثيرة لكل الخانات. وشيئاً فشيئاً أعادوا الأمور إلى نصابها مرة أخرى.

أصبح السفر على طريق الحرير مرة أخرى مريحاً وآمناً بشكل نسبى. كان اللصوص أقل ميلاً للقتل والسلب خوفاً من بطش الإمبراطور. وفى أغلب الأحيان كانوا يرضون بتحصيل «مال الحماية» مقابل «مرافقة» القافلة إلى حدود مناطق نفوذهم. وتلك المبالغ المدفوعة أخذت شكلاً يكاد يكون رسمياً. فبعد عدة عقود من زيارة آل بولو لأرمينيا، على سبيل المثال، كتب مواطن إيطالى مثلهم أنه فى الطريق بين لياس وتبريز «قد تدفع نحو ٥٠ أسبرى عن كل حمل، بسبب أعمال السلب التى يقوم بها على الطريق المغول، أى التتار الجوالين».

الكاتب هنا يدعى فرانشيسكو دى بالدوتشيو پيجولوتى، وكتب ذلك فى فلورنسا بإيطاليا بعد عدة عقود من عودة آل بولو إلى البندقية سنة ١٢٩٥. وأصبح السفر إلى الشرق أمراً شائعاً فى تلك الأيام، حتى أن پيجولوتى أصدر كتاباً بعنوان «ممارسة التجارة»، وهو كتاب إرشادى للتجار يتناول كل ما يحدث فى إحدى الرحلات إلى الصين. وربما لا يكون پيجولوتى نفسه قام بمثل هذه الرحلة. فالظاهر أنه جمع معلوماته من هؤلاء الذين قاموا بها ثم صاغ كتابه باقتدار.

ويفضل پيجولوتى الطريق الشمالى. وفى عهد السلام المغولى وصل كثيرون من التجار، على ما يبدو، إلى الجزء الأوسط من طريق الحرير عن طريق السهوب الأوراسية التى فضلوا أرضها الواسعة المنبسطة، إلى جانب إمكانية استعمال العربات، على السير الطويل المرهق فى مرتفعات الأناضول وأرمينيا وإيران. وأكثر ما يلفت النظر فيما ذكره

يجولوتى عن «نصائح خاصة بالرحلة إلى خطاي بالطريق المار بتانا» (مدينة بالقرب من مصب نهر الدون على بحر آزوف شمالى البحر الأسود) للتجار «الذين يروحون ويعودون بالبضائع»، هو أنه جعل الأمر يبدو وكأنه خط سير:

أولاً، من تانا إلى استراخان [أتل سابقاً] تستغرق المسافة خمسة وعشرين يوماً بالعربات التى تجرها الثيران، ومن عشرة أيام إلى اثنى عشر يوماً بالعربات التى تجرها الخيل. وعلى الطريق يقابلك مغول كثيرون، وهم رجال مسلحون.

ومن أستراخان إلى سراى يوم واحد عن طريق النهر، ومن سراى إلى سراى تشوك ثمانية أيام عن طريق النهر. ويمكنك أن تسافر بالبر والنهر، إلا أن الناس يسافرون بالنهر كي يدفعوا أقل [على نقل] البضائع.

ومن سراى تشوك إلى أورچنش [على نهر جيحون] تستغرق المسافة عشرين يوماً فى العربات التى تجرها الجمال - وبالنسبة لمن يحملون معهم بضائع يكون من الأفضل لهم الذهاب عن طريق أورچنش، لأنها سوق رائجة للبضائع - ومن أورچنش إلى أترار [على نهر سيحون] تحتاج المسافة إلى مابين خمسة وثلاثين إلى أربعين يوماً بالعربات التى تجرها الجمال. وإذا كنت مغادراً سراى تشوك ومتجهاً مباشرة إلى أترار، فسوف تقطع المسافة فى خمسين يوماً. أما من لا يحمل معه بضائع فسوف يكون أفضل له من السفر عن طريق أورچنش.

ومن أترار إلى آماليك خمسة وأربعين يوماً على الحمير. وتلتقى بالمغول كل يوم.

ومن آماليك إلى خان تشو [فى الصين] سبعين يوماً على الحمير.

ومن خان تشو إلى نهر يدعى [يانجتسى؟] خمسة وأربعين يوماً على ظهور الخيل.

ومن النهر يمكنك أن تسافر إلى كوينسى [هانج تشو] وتبيع هناك ما معك من سبائك الفضة. فهذه سوق رائجة للبضائع. وتسافر من

كوينسى بالنقود التى بعت بها الفضة، أى بنقود ورقية^(١). وهذه النقود تسمى balisci الأربعة منها تساوى سبيكة فضة واحدة فى أنحاء خطاى.

ومن كوينسى إلى خان باليق [بكين]، وهى كبرى مدن خطاى، ثلاثين يوماً...

وخطاى إقليم به مدن كثيرة وقرى كثيرة. ومن بين الكثير من المدن مدينة كبيرة يتجمع فيها التجار وبها معظم التجارة. وهذه المدينة هى خان باليق. والمدينة المذكورة محيطها مائة ميل وعامرة بالبشر والمنازل، وبسكان المدينة المذكورة.

والطريق الذى وصفه ييجولوتى يسير بالتجار من بحر آزوف، شمالى البحر الأسود، عبر السهوب الروسية إلى أستراخان على بحر قزوين، فى ذلك الإقليم الذى كان الخزر يحكمونه يوماً ما. ويبدو أن بعض التجار آثروا اتخاذ الطريق البرى الأقصر طولاً إلى العاصمة المغولية الإقليمية سراى فى أعالى نهر الفولجا، ربما ليقوموا ببعض الأعمال التجارية هناك (كما فعل آل بولو) ثم يشحنون بضائعهم فى النهر، قبل استئناف رحلتهم البرية من أستراخان. وكانت التجارة على طول الطريق أمراً مهماً لهؤلاء التجار، ذلك أنهم لم يأخذوا الطريق الأسهل الذى يتجه بشكل مباشر أكثر عبر السهوب إلى قره قورم (وإن كان الرسل والمبعوثون قد يفعلون ذلك). وبدلاً من ذلك يتجهون جنوباً بين بحرى قزوين وآرال إلى المدن الأسواق مثل أورجنج وكثيراً ما يتجاوزون ذلك جنوباً إلى بخارى وسمرقند، قبل أن يعاودوا الاتجاه شمالاً إلى أترار ثم يتجهون شرقاً ليسيروا فى الطريق الواقع إلى الشمال من جبال تيان شان. وفى الصين كذلك كانوا يلفون حول الريف - وهو ما لم يكن يقدر عليه التجار الأجانب بهذه السهولة فى العصور السابقة - ليصلوا إلى ميناء هانجتشو العظيم على الشاطئ الشرقى للصين، وهى مدينة قال عنها ماركو بولو وبعض المراقبين الثقة إنها تساوى أى ميناء أوروبى آخر فى ذلك الوقت أو تفوقه، وربما كانت أعظم ميناء فى العالم. وكانت العاصمة الجنوبية خان باليق مجرد واحدة من أماكن كثيرة يقصدها التجار.

(١) تشير المصادر إلى وجود العملات الورقية فى الصين فى عهد إمبراطورية يوان التى أنشأها قوبلاى خان فى الصين، حيث ظهرت لأول مرة سنة ١٢٣٤. (المترجم).

وذكر ييجولوتى أيضاً لقرائه أنه ينبغي عليهم أن يرتبوا أمورهم لرحلة إلى خطاي. وفي أول الأمر نصحهم بعدم حلق ذقونهم وإطلاق لحاهم. وعليهم ثانياً وهم في تانا أن يستأجروا التراجمة والمرشدين الذين يتولون الترتيبات على الطريق. كما ينصحهم نصيحة مهمة وهي أن استئجار المترجمان الجيد يستحق ما يدفع له من مال، حيث أن المترجمان الضعيف شره وطماع. علاوة على توصيته التجار بأن يستأجروا خدماً يتحدثون اللسان الكوماني، لكون الكومان القبيلة المغولية السائدة في الإقليم في ذلك الوقت. كما أن الواحد منهم سوف «ينظر إليه على أنه رجل رفيع الشأن» إذا أخذ معه امرأة من تانا. وكما أشار ماركو بولو وآخرون غيره، كان في كثير من مدن القوافل نساء يعرضن أنفسهن كـ«زوجات مؤقتات» وبعد أن يبقى «أزواجهن» معهم عدداً محدداً من الأيام، وليكن ٢٠ يوماً، تكون حرة في «الزواج» مرة أخرى^(١). وذكروا أنه في بعض المدن كان أهلها يؤجرون في بعض الأحيان زوجاتهم وبيوتهم، بحيث تكون ملكاً للتجار الجوالين مدة إقامتهم بها. وكان لابد أيضاً من حمل الطعام من تانا، أي مايكفى من الدقيق والسمك المملح لـ ٢٥ يوماً، «ذلك أنكم ستجدون اللحم غير كاف في أي مكان تنزلون فيه على الطريق». وهناك ترتيبات مشابهة كان عليهم القيام بها في كل مدينة تموين على الطريق.

وفيما يتعلق بالأمن، قال ييجولوتى:

الطريق الواصل بين تانا وخطاي آمن تماماً بالليل والنهار، حسب ما قاله التجار الذين سافروا عليه. غير أنه إذا مات التاجر وهو في الطريق، أثناء ذهابه أو إيايه، فإن كل شيء معه يذهب إلى سيد البلد الذي يموت فيه، حيث يأخذ موظفو السيد كل شيء. والأمر كذلك إن هو مات في خطاي. وإن كان له أخ أو رفيق قريب منه يقول إنه أخوه، أعطيت له أملاك المتوفى، وبذلك تكون أملاكه قد أنقذت. إلا

(١) جاء في «رحلات ماركو بولو» أن أهل كامول، وهي واحة هامي، من الرجال يغادرون بيوتهم عند وصول الغرباء الراغبين في السكن والراحة في تلك البيوت. كما أنهم يعطون زوجاتهم وبناتهم وأخواتهم أوامر بإمتاع الضيوف وتحقيق كل رغباتهم. وبذلك يعيش الغريب معهن معيشة الرجل مع زوجته. وفي الوقت نفسه يرسل الرجال كل ما يحتاجه البيت ولا يعودون إلا بعد انصراف الغريب. ورغم تحريم مانكو خان لهذه العادة المشينة وإقامته الدور العامة التي ينزل فيها الضيوف لم يستمر توقفها طويلاً. فقد تصادف أن انقطع المطر وقل الزرع فأرجع أهل هامي ذلك إلى إقلاعهم عن عادة إكرام الضيف. وعندما أرسلوا إلى الخان يلتمسون موافقته على إعادتها سمح لهم على مضض كي يعودوا إلى عاداتهم الدنيئة والسماح لزوجاتهم بتلقي تلك الأجور الحقة عما يمارسه من بغاء. والمعروف أن قانون المغول كان يحرم البغاء. وقد وردت روايات تؤكد ما قاله ماركو بولو عن تلك الممارسات. (المترجم).

أن هناك خطراً آخر، وهو أنه إذا مات سيد عمت الفوضى فى الفترة الفاصلة بين وفاته ووصول السيد الجديد. وكان ذلك موجهاً فى بعض الأحيان ضد الإفرنج وغيرهم من الأجانب. وهم يطلقون اسم «إفرنج» على مسيحيى الإمبراطورية البيزنطية وما هو إلى الغرب منها. ويظل الطريق غير مأمون إلى أن يرسل السيد الجديد الذى يتولى الحكم بعد من مات.

ويذكر أنه فى المسافة من تانا إلى سراى يكون الطريق أقل أمناً من سائر الرحلة. ولكن ينبغى أن يكون هناك ستون رجلاً [فى القافلة]، [حتى] إذا كان الطريق فى أسوأ حال أمكنكم السفر فى أمان كما [لو كنتم] فى بلدكم.

وكانت الفوضى التى تحدث أثناء خلافة الحكم مشكلة دائمة، وقد واجهها آل بولو أنفسهم فى رحلتهم الأولى داخل الأراضى المغولية. وكانت هناك أيضاً حالات متفرقة من الفوضى على الطريق عندما يتدمر السكان المحليون تحت وطأة إعداد الطرق وتوفير المطايا للرسل الإمبراطوريين والتجار. وفى بعض الأحيان كانت إحدى المناطق يهجرها سكانها، كما حدث عندما ندم أحد خانات فارس على إعفائه الناس من الضرائب لمدة ثلاث سنوات فطالبهم بتسديد ضرائب أربع سنوات دفعة واحدة وفرض عقوبات رهيبة على من لا يدفع. فى تلك الحالة لم يكن مستغرباً أن كثيراً من السكان فروا إلى التلال.

وأثناء إشارة بيجولوتى إلى أن «التجار فى سفرهم قد يركبون فرساً أو حماراً أو أى مطية» حدد تكلفة كل منها، بما فى ذلك ما يتقاضاه الخدم والتكاليف المتفاوتة تبعاً لنوع الدابة التى تجر العربات المحملة بالبضائع، أهى ثيران أم جمال أم خيول. وفيما يتعلق بما يُباع ويُشترى، كان لدى بيجولوتى نصائح محددة:

كل من يرغب فى السفر من جنوا أو من البندقية إلى الأماكن المذكورة ثم يسافر منها إلى خطاي فإنه يحسن صنعاً إن هو حمل كتاناً واتجه إلى أوريچنش واشترى سبائك فضة من أوريچنش ومضى بها دون أن يستثمرها فى أى بضاعة، إلا أن تكون معه بضع بالات من قماش الكتان الفاخر التى لاتعد كبيرة الحجم ولا تحتاج إلى تكلفة [حمولة] تزيد عما يحتاجه أى كتان من نوع أردأ.

ويبدو مما ذكره بيچولوتى عن الأوزان والتكاليف أنه مهما كانت البضائع التى يأتى بها التجار إلى تركستان، فإنهم كانوا يأتون إلى الصين فى المقام الأول بالمعادن الثمينة على هيئة نقود يشترون بها الحرير والديباج. إلا أن التجارة لم تكن مباشرة، حيث كانت الحكومة الصينية تستخدم منذ زمن بعيد نظاماً للنقود الورقية كما يشير بيچولوتى:

كل الفضة التى يحملها التجار [معهم] عند ذهابهم إلى خطاى يأمر سيد خطاى^(١) بسحبها وإيداعها خزينته^(٢). ثم يعطى التجار الذين يأتون بها نقوداً ورقية، وهى عبارة عن ورق أصفر ضرب عليه خاتم السيد المذكور. وهذه النقود تسمى balisci^(٣). ويمكنك بها أن تشتري الحرير وأى سلعة أو بضائع ترغب فى شرائها. وأهل البلاد جميعاً ملزمون بقبولها. ومع ذلك لا يدفع ثمن أكبر للبضائع رغم كونها نقوداً ورقية^(٤). وهناك ثلاثة أنواع من النقود آنفة الذكر، كل واحد منها تزيد قيمته عن الآخر تبعاً لما حدده السيد له.

وأكثر ما كان التجار الأوروبيون يقبلون على شرائه هى الأقمشة الحريرية كثيرة النقوش، كالدمقس والديباج، وهى عكس الغزى الخفيف الذى كان يُنقل من الصين إلى الغرب فى العصر الرومانى.

وأشار بيچولوتى إلى النقود الورقية على أنها «ضربت»، وذلك لتعوده على النقود المعدنية وحدها. والواقع أنها كانت تُطبع بطريقة الطبع بالقوالب المستخدمة فى الصين منذ عدة قرون. ومن خلال أشياء مثل النقود الورقية وورق اللعب، ومعها كوتشينة البخت، وهى جميعاً أشياء بهرت الأوروبيين، انتقلت أسس الطباعة بالقوالب غرباً إلى أوروبا فى العصر المغولى. إلا أنه من الغريب أن الطريقة التى كانت مستخدمة فى طباعة كتب بكاملها

(١) الخان الأعظم. (المترجم).

(٢) جعل هذا ماركو بولو يقول إن خزانة الخان الأعظم كان بها من الأموال والكنوز مايفوق ذلك الذى لدى أى ملك على وجه الأرض. (المترجم).

(٣) تسمى بالصينية تشاؤ. (المترجم).

(٤) إذا بليت العملة الورقية وأراد صاحبها استبدالها بأخرى جديدة، دفع لدار «سك العملة» مايساوى ٣٪ من قيمتها. (المترجم).

طوال ما لا يقل عن سبعة قرون فى الصين لم تُستخدم فى الغرض نفسه فى أوروبا التى ظلت مبهورة باستخداماتها المتواضعة^(١).

واستمر تجار كهؤلاء الذين خاطبهم بيجولوتى فى السفر على طريق الحرير، وابن عمه طريق السهوب الأوراسية، بضعة عقود فى ذلك القرن الرابع عشر المميز. إلا أنه عندما طُرد المغول من الصين سنة ١٣٦٨^(٢) لم يعد هناك وجود لذلك الطريق الذى ظل مفتوحاً طوال المائة سنة السابقة. وأول من سقط كان طريق السهوب الأوراسية، وكان ضحية للانقسام الذى أصاب السهوب مرة أخرى. وظل طريق الحرير مستخدماً مستخدماً متواضعاً بسبب حمايته النسبية. ولكن الأوروبيين لم يعودوا يجرؤون على محاولة القيام بتلك الرحلة الخطرة فى بلاد آسيا الوسطى غير المستقرة. وظلوا بعض الوقت يعبرون إيلخانية فارس إلى الهند. وسُمح لهم ذلك بالتحايل على المصريين الذين كانوا يبيعون لأوروبا البضائع الشرقية بما يساوى ٣٠٠٪ من قيمتها أو يزيد. ولكن ذلك أيضاً صار محظوراً على الأوروبيين عندما أصبح الفرس الإيلخانية (بعد اعتناقهم الإسلام) لا يسمحون لغير المسلمين بالمرور بسلام فى أراضيهم.

وهكذا تبخرت أحلام أوروبا فى كسب آسيا إلى عقيدتها. ورغم أن المسيحيين الآسيويين كان منهم بعض مستشارى البلاط ذوى النفوذ، بل وأفراد من العائلة المالكة، فلم يكن خلفهم تلك الأعداد الكبيرة من المؤيدين التى وفرها الإسلام والبوذية. كما أن جاذبية المسيحية لم تزد بالاقتران بحضارة متقدمة على درجة رفيعة من الثقافة، بعكس الإسلام الذى تقرب إلى العصر الذهبى للثقافة الفارسية والبوذية التى ارتبطت بالتراث الهندى والصينى القديم. فقد كانت أوروبا فى ذلك الوقت جاهلة لا علم فيها. والأسوأ من ذلك أن ممثليها القليلين نسبياً، وهم اللاتين واليونان والنسطوريون، قد أضروا رسالتهم التبشيرية

(١) انتقلت طريقة الطباعة بالقوالب من الصين واليابان وكوريا وغيرها من دول الشرق الأقصى إلى أوروبا خلال طريق الحرير. فى البداية استخدمت فى طباعة صور القديسين لتعليقها على الجدران كوسيلة للحماية من الأمراض والشرور. تلى ذلك طباعة الكتب الدينية. وكانت البداية فى ألمانيا وهولندا فى أواخر القرن الرابع عشر. وأقدم أثر مطبوع بهذه الطريقة وم محفوظ إلى اليوم لوحة للقديس كريستوفر مع أحد النصوص الدينية تعود إلى سنة ١٤٢٣. أما أول كتاب كبير من حيث عدد صفحاته فكان الترجمة الألمانية للدليل السفر «عجائب روما» الذى طُبِعَ فى روما سنة ١٤٧٥ وكان يتضمن ٩٢ صفحة من النصوص والرسوم التوضيحية. وقد استمر العمل بطريقة القوالب ستين سنة بعد اختراع الألماني جوتنبرج للطباعة بالأحرف المتحركة وطبعه أول كتاب بالطريقة الجديدة، وهو الكتاب المقدس سنة ١٤٦٠. (المترجم).

(٢) استطاع تشو يوان تشانج قائد القوات التابعة لـ قوه تسي سنج، زعيم إحدى الانتفاضات، الإطاحة بحكم يوان وتصفية خصومه الآخرين ثم أسس أسرة منج التى استمر ملكها من ١٣٦٨ إلى ١٦٤٤. (المترجم).

وأضعفوها بما شجر بينهم من خلافات حول العقيدة. وهكذا نرى أنه بينما كانت الإيلخانيات الغربية تدخل في الإسلام أفواجاً وأصبحت الخانيات الشرقية أكثر تمسكاً بالبوذية، صارت الكراسى الأسقفية، التي سبق إقامتها من سراى مروراً بالماليك حتى بكين، شاغرة. كما أن المؤمنين المسيحيين، الذين حملوا عقيدتهم عبر آسيا إلى الصين قبل عدة قرون، أخذوا يختفون شيئاً فشيئاً.

ولكن إذا كان التواجد المسيحي واليهودي أصبح نادراً على طريق الحرير، فإن اعتناق الشعوب المغولية الغربية للإسلام أتاح الفرصة لظهور طائفة جديدة من المسافرين، وهم الزاهيون لأداء فريضة الحج في مكة. لقد سمح السلام المغولي لكثيرين بالحج خلال ذلك القرن المميز. كما أن البعض صار عاشقاً للترحال في تلك السنوات الذهبية، حتى أنهم كانوا يطوفون العالم لمجرد المتعة. ويتضح بعد الأماكن التي ذهب إليها هؤلاء المسلمون فيما ذكره ابن بطوطة، وهو من أهل تونس^(١)، عن لقائه على حدود الصين بشقيق رجل تعرف عليه في شمال أفريقيا!

ولكنه حتى بعد تصدع الوحدة والسلام في آسيا، فإن الإيمان المشترك بالإسلام جعل الطريق آمناً نسبياً أمام الحجاج المسافرين على طريق الحرير. وازداد الوضع تحسناً بتنامي أعداد الداخلين في الإسلام، حيث أدت الأعداد الكبيرة من الحجاج إلى زيادة الشعور بالأمن. وهكذا، وطبقاً للتقويم الإسلامي، كان المسلمون في كل عام يطرحون خلافاتهم المذهبية جانباً ويجتمعون في مدن تقع على الطرق الرئيسية المتجهة غرباً ليشكلوا قوافل تسير في الهضبة الإيرانية لتهبط منها إلى بغداد، حيث ينضمون إلى إخوانهم المسلمين القادمين من أرمينيا والكرج والأناضول. وباستثناء فترات توقف قصيرة، ظل الحجاج يقومون بهذه الرحلة الطويلة، الأمر الذي أعاد طريق الحرير إلى سابق عهده كطريق للحجاج. واستمر ذلك حتى القرن السابع عشر عندما بدأت فارس تغلق حدودها في وجه الأجانب، وعندما أصبح من الأسهل السفر بحراً من الخليج الفارسي أو بحر العرب للوصول إلى جدة التي هي ميناء مكة.

وعقب تفكك الإمبراطورية المغولية حاول زعيم ينتمي إلى آسيا الوسطى السيطرة على

(١) بل هو من طنجة بالمغرب كما أسلفنا. (المترجم).

طريق الحرير، وكان ذلك محارباً تركياً مغولياً يسمى تيمورلنك^(١) (أى تيمور الأعرج وسمى بذلك بسبب جرح قديم فى ساقه). وكونه ابن واحد من الحكام المحليين فى جنوبى سمرقند جعله قادراً منذ شبابه على رؤية قيمة تجارة آسيا التى تمر عليه. وبحلول سنة ١٣٦٩، أى بعد سنة من طرد المغول من الصين، أعلن نفسه سيداً على بلخ. وفى السنوات التالية ضم تحت جناحه إقليمى خوارزم وماوراء النهر. وفى محاولة واضحة لإجبار تجارة آسيا على المرور عليه، عبر المسار القديم لطريق الحرير، شن هجوماً على المدن التى تخدم الطريق الشمالى الذى وصفه بيجولوتى ودمرها. وكان بين تلك المدن استراخان وسراى أورجنج. وبحلول ثمانينيات القرن الرابع عشر كان تيمور يزحف بجيشه على طريق الحرير عبر فارس، حيث دمر الأراضي الزراعية ونقل إلى بلاده كل ما هو ثمين ليُشربها به وترك وراءه تلالاً مربعة من الجماجم والجثث، تعيد إلى الأذهان تلك التى أقامها المغول قبل ذلك بقرن من الزمان. كما استولى على تبريز وفعل ما قام به سلفه جنكيزخان، حيث نقل الصناعات المهرة والفنانين شرقاً إلى سمرقند. وعندما وجه انتباهه إلى الهند عدداً من السنين أحدث بها دماراً مشابهاً وفعل الشيء نفسه ببغداد مع بداية القرن الخامس عشر.

استفادت سمرقند حيناً من الزمن مما تدفق عليها من رجال وخيرات. وكانت المدينة فى عهد تيمورلنك مركز طريق الحرير. وفى سنة ١٤٠٤ (وهى السنة السابقة لوفاة تيمور وهو فى السبعين) ذكر أحد المراقبين أن سمرقند وصلتها قافلة من الصين تضم ٨٠٠ جمل تحمل الكثير من الأقمشة الحريرية والساتان، إلى جانب الجواهر والمسك والراوند^(٢) (وهو نبات برى يجمع ويُبَاع على نطاق واسع فى أنحاء أوراسيا). وكانت القافلة تضم كذلك مبعوثين من سيبيريا يحملون هدايا من فرو السمور وفرو السنسار بالإضافة إلى الصقور. وهناك أيضاً التجار الروس الذين يحملون الكتان وأنواعاً أخرى من الجلود.

ولكن ذلك النظام الذى فرضه تيمور على طريق الحرير، بما انتهجه من سياسة الأرض المحروقة، انهيار بوفاته. وبذهابه ذهب آخر أثر للنظام على ذلك الطريق العظيم. ولكن التجارة ظلت قائمة بالطبع. فما أن بدأت حتى كان من الصعب أن تتوقف. إلا أنها كانت، وظلت بعد ذلك، فى أيدي التجار المحليين الذين أقاموا فيما بينهم صلات على ما كان يوماً

(١) ادعى تيمور لنك (١٣٣٦ - ١٤٠٥) أنه ينحدر من صلب جنكيز خان. والواقع أنه ينتمى إلى قبيلة مغولية مشتركة كانت تعيش فيما تعرف حالياً بجمهورية أوزبكستان. وأعلن تيمور نفسه حاكماً لمملكة عاصمتها سمرقند. ورغم كونه مسلماً، فقد أنزل بأرواح المسلمين وأملاكهم من الدمار ما لم يحدثه سلفه الوثنى. ويختلف تيمور لنك عن جنكيز فى أنه كان يحارب بلا أى خطة. كما أنه لم يسهم بشيء فى نظم الحكم والإدارة فى البلاد التى فتحها. وفى سنة ١٤٠٥ مات تيمور لنك أثناء محاولة فاشلة كان يستهدف بها غزو الصين. إلا أن أسرته استمرت فى الحكم حتى سنة ١٥٠٦ وعُرفت فى التاريخ بالمغول التيمورية. (المترجم).

(٢) من الأعشاب الطبية مفيد للكبد والمعدة وضعفهما وأوجاعهما. (المترجم).

طريقاً دولياً رئيسياً. ويرى بعض الباحثين أن طريقة الطباعة بحروف معدنية، التي ظهرت وانتشر استخدامها في القرن الخامس عشر في كوريا، ربما وصلت إلى أوروبا من خلال شبكة دقيقة كهذه، وقد تكون هي التي أوحى بعسقرية يوهان جوتنبرج وزملائه المبتكرين الأقل شهرة فيما اخترعوه.

وعلى أية حال، فقد ولت أيام طريق الحرير العظيمة. وكان سقوط القسطنطينية^(١) في يد الأتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣ بمثابة تأكيد للعالم بأن الطريق الذي بلغ طوله ٥ آلاف ميل قد مات. ولم تكن القسطنطينية قد نهضت منذ استيلاء البنادقة عليها في أوائل القرن الثالث عشر. كما انقضى زمن طويل على الوقت الذي كانت فيه السوق الرئيسية للبضائع الشرقية أو المورد الرئيسي لأوروبا، وإن ظلت سوقاً رئيسية يتجمع فيها التجار. وحين استولى الأتراك على المدينة في نهاية الأمر لم تكن سوى أطلال. وحتى في القرن الرابع عشر ذكر الجغرافي المسلم أبو الفدا أن هناك حقولاً مزروعة داخل أسوارها وبيوتاً خربة كثيرة. وذلك الخط القوي من الدول الإسلامية التي منعت الأوروبيين من دخول آسيا اتحد على أمر واحد: فقد فرضت رسوم باهظة على الأوروبيين لقاء ما يحصلون عليه من نفائس. وفي النهاية أدى هذا، ومعه المهارة التي اكتسبها الأوروبيون حديثاً في الإبحار بالمحيطات، إلى القضاء على أي أمل في إحياء طريق الحرير. فقد حاول الأوروبيون الوصول إلى الشرق بحراً تدفعهم حكايات كتلك التي رواها ماركو بولو. وبعد ما يقل عن قرن من وفاة تيمور كان البحارة البرتغاليون موجودين في الهند. وبعد بضعة عقود، وفي سنة ١٥١٤، كانوا قد بلغوا الصين.

وفي عهد أسرة منج، التي جاءت بعد المغول، عادت الصين مرة أخرى إلى ما وراء أسوارها الدفاعية لتبنى النموذج الحديث من سورها العظيم، ذلك «الشعبان الحجري العظيم» الذي مارال واقفاً حتى اليوم في شموخ مهيب. ولم تقتصر الصين على إغلاق حدودها الغربية، بل غيرت توجهاتها. فقد صارت اتصالاتها الرئيسية مع العالم الخارجي تتم عن طريق البحر^(٢). وغالباً ما كانت مجبرة على ذلك. إذ ولّت تلك القرون الطويلة التي كان فيها طريق الحرير طريق الاتصال الرئيسي بين الصين وعالم البحر المتوسط، أي بين الشرق والغرب.

(١) فتح القسطنطينية محمد الثاني بن مراد الثاني الذي تولى الحكم من ١٤٥١ إلى ١٤٨١ وهو المعروف بمحمد الفاتح. ويفتح القسطنطينية انتقل إليها السلطان من العاصمة القديمة أدرنة فأصبحت هي عاصمة الدولة العثمانية. وبذلك أصبح للدولة المركز الثقافي والإداري الذي كانت تفتقر إليه. (المترجم).

(٢) قام تشنج خه (١٣٧١ - ١٤٣٥) أحد أغوات البلاط الإمبراطوري بسبع رحلات بحرية مع أسطوله الكبير إلى جزر بحر الصين الجنوبي والمحيط الهندي ووصل إلى شواطئ شرق آسيا وأقام علاقات تجارية وثقافية مع تلك البلاد التي ذهب إليها صينيون كثيرون ساهموا في تطوير اقتصادها. وبلغت التجارة الخارجية مستوى رفيعاً في أول عهد أسرة منج. فقد وصلت السفن التجارية البرتغالية جواغيدونج سنة ١٥١٦ مفتحة بذلك خطاً بحرياً بين الصين وأوروبا. ثم جاء من بعدهم البحارة الأسبان سنة ١٥٥٧ وتبعهم الهولنديون سنة ١٦٠٦ ثم الإنجليز سنة ١٦٣٧. (المترجم).

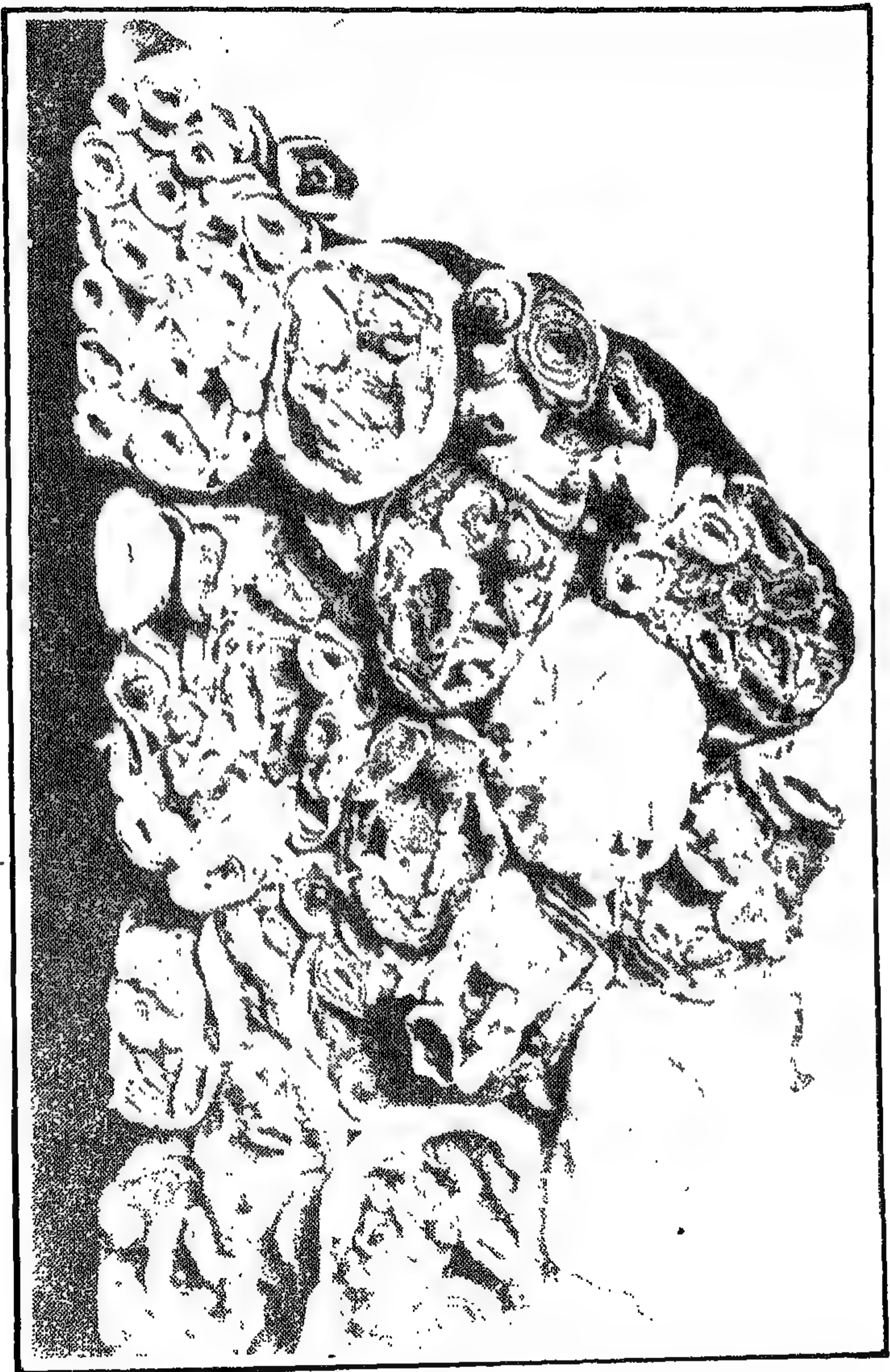
مدن تحت الرمال

هات لى نظيراً لهذه الأعجوبة فى غير مناخ الشرق،
إنها مدينة وردية فى نصف عمر الزمان.

— من قصيدة «بتراء»

لچون ويليام برجون

طريق الحرير



هذه مجرّد خزنة من آلاف المخطوطات التي أخذها المستكشفون المحدثون من غرقة في كهوف الألف يردا. (تصوير أوريل ستاين، من كتابه Ruins of Desert Cathay).

بعد ذلك أضحت مدن القوافل العظيمة فى بلاد الشرق أطلالاً يكاد لا يسكنها أحد. كما صارت المدن الواحات فى تاكلامكان أماكن محظورة تغمرها رمال الصحراء الزاحفة. إنها لم تُنس نسياناً تاماً. وبغض النظر عن مدى خلو تلك المدن المفقودة من البشر، كان السكان المحليون يعرفون أنها موجودة. وكانت الواجهة الفارغة للبترء التى حُفرت فى الصخر ماتزال تشهد مرور حفنة من التجار البدو. كما أن أطلال بالميرا «تدمر» ظلت مأوى لبعض العائلات من الرعاة. فى حين احتفظت مدن مثل حلب وبغداد ببعض الأهمية، ولكن بصفتها ملتقى طرق. فهى لم تعد محطات أخيرة لطرق عابرة لقارة آسيا. وخدمت المدن الواقعة على الهضبة الإيرانية فى المقام الأول ثقافة فقيرة منغلقة على نفسها. أما الدمار الذى ألحقه المغول بنظام الرى الذى جعل من بلاد فارس ما يشبه البستان فلم يُعاد إصلاحه إصلاحاً تاماً. ولم تعد البلاد تثرىها التجارة العالمية التى ظلت تتدفق عليها آلاف السنين.

وهناك فى أقصى الشرق، كانت جواهر آسيا الوسطى المسلمة مثل سمرقند وبخارى قد فقدت بريقها، وإن ظلت المساجد ذات النقوش الجميلة شاهداً على العظمة السابقة. وكانت الآثار القديمة العظيمة خارج أسوار المدينتين تروى نفس الحكاية بهدوء أشد. فالمدينتان نفساهما «متاهة محيرة من الشوارع الملتوية التى تحيط بها أفنية قذرة ومنازل مزرية» كما جاء وصف الأمير بيتر ألكسييفتش كروپتوكين لسمرقند فيما بعد. كما أن مدن التاريم، التى غمرتها الرمال وأضطر أهلها للإقامة على مقربة من الجبال، كان يذكرها السكان المحليون الذين كانوا يعرفون بالفعل أن الأطلال موجودة. إلا أن بعض المحظورات منعتهم من الكشف عنها.

وما نسيه أهل الصحراء والعالم بأسره كان مغزى كثير من المدن الواحات المهجورة، خاصة تلك التى فى تاكلامكان، وأهميتها بالنسبة للشئون الدولية يوماً ما. وعبر فولتير عن ذلك ببلاغة حين قال: «هؤلاء الذين يسكنون الصحراء الآن لا يعرفون سوى أن أسلافهم غزوا العالم قديماً». لذلك كان لابد من «إعادة اكتشاف» الأوروبيين لطريق الحرير، ليس فقط الآثار المادية التى كانت متوافرة لكل من أراد رؤيتها، بل أيضاً الحكايات التى تروىها تلك الآثار.

فبالنسبة للأوروبيين كان طريق الحرير ومعالمه العظيمة تاريخاً وقصة خيالية وأسطورية. بل وموضعاً التقت فيه كل شعوب أوراسيا وتاجرت وحاربت وحملت منه الأفكار وتضافرت لتشكّل معاً أكبر قسم منفرد فى العائلة البشرية شديدة التباين. وهذا وحده يبرر

الاهتمام الضخم الذى لا ينقطع بطريق الحرير فى كل أنحاء العالم . ولم تعد قبائل البدو تخرج من آسيا موجة إثر أخرى لتغزو الحضارات المتطورة المحيطة بها وتغير طبيعتها . فالببدو هنا . أنهم نحن العائدين بعقلنا إلى قومنا وإلى تاريخنا .

تلك هى أفضل طريقة نفهم بها إعادة اكتشاف الأوروبيين لطريق الحرير فى أواخر عصر الاكتشافات الأوروبية العظيم والتوسع العالمى . كانت هناك بالتأكيد دوافع استعمارية ، مثلما اتجه الروس شرقا نحو المحيط الهادى وتحرك البريطانيون شمالا من الهند ، وكانت آسيا الوسطى هى الجائزة التى يطمعون فى الحصول عليها . ولكن الدوافع الاقليمية لا تفسر الدوافع الأوروبية تفسيراً تاماً ، ولا حتى بقدر معقول . كان مارك أوريل ستاين وسفن هيدن ونيكولاى بريالفسكى وألبرت فون لوكوك وپول بيو وألبرت جرونفيلد وسائر المستكشفين وعلماء الآثار والمؤرخين الذين بدأوا التحرك فى أنحاء آسيا الوسطى منذ قرن مضى وراءهم مجموعة أكبر من الدوافع ، بينها مجرد الرغبة فى المعرفة والرغبة فى أن يكون لهم قصب السبق وأن يشتهروا بكونهم الأوائل ، وأخيراً وليس بآخر الرغبة فى الحصول على الكنوز المدفونة . والواقع أن هؤلاء الأوروبيين قاموا بعمليات نهب وسلب على مستوى عال . وحاليا تُشرف كنوز آسيا الوسطى المنهوبة كبرى المجموعات المتحفية فى أنحاء العالم .

وأوجدت المنافسات الاستعمارية الذريعة التى تمت من خلالها عملية إعادة اكتشاف الأوروبي لطريق الحرير . فعلى طول طريق الحرير من البحر المتوسط وما بين النهرين وصولاً إلى شيآن ، المدينة الحديثة التى حلت محل تشانج القريية ، التقت امبراطوريات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، تماماً كما إلتقت على مدى عدة آلاف من السنين . بل وكما تلتقى الآن . ففي الغرب كانت إمبراطورية الأتراك العثمانيين ، التى تدهور بها الحال شيئاً فشيئاً من فاتح القسطنطينية القوى إلى «رجل أوروبا المريض» ، حيث قامت بعض الشعوب الخاضعة لها بحركات قومية ثورية ، فى حين تقاتلت الدول الأوروبية على الغنائم . وفى الشمال امتد نفوذ الروس جنوباً وشرقاً بعد اجتياح سريع لسيبيريا ليصلوا إلى المحيط الهادى فى القرن السابع عشر . وفى الجنوب توسع البريطانيون شرقاً عبر العالم العربى وشمالاً فى شبه القارة الهندية . وكان التنافس البريطانى الروسى فى آسيا هو ما سماه البريطانيون «اللعبة الكبرى» ، وكانت فى حد ذاتها مجرد جزء من اللعبة الاستعمارية الأكبر التى كانت ذروتها الحرب العالمية الأولى والثورة الروسية .

وفى الشرق ، لعبت الصين لعبة أقدم من ذلك بكثير ، مع من سيطر على التخوم

الشمالية ومن جاء إلى الصين من الغرب، أى من آسيا الوسطى. وهذا هو على أية حال التاريخ والجغرافيا بالنسبة للصينيين. فحتى العصر الحديث لم يأت أى من أعداء الصين أو فاتحيها العظام من البحر أو من شبه القارة الهندية. فالشيونج نو والترك والعرب والمغول والمنشو^(١) جاءوا جميعا من الشمال والغرب. وهذا أيضا هو ما فعله الروس فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عندما سيطروا على الصحراء والسهوب الآسيوية فى إطار «اللعبة الكبرى» الأوسع^(٢).

ولم يكن الصينيون لاعبين سلبين فى هذه اللعبة، حيث تقلصت أراضيهم فى ظل الضغط الأوروبى المستمر. وبينما كان الروس يزحفون شرقا إلى المحيط الهادى لعبروا إلى أمريكا الشمالية فى منتصف القرن السابع عشر، كان المنشو يستولون على السلطة فى الصين. وفى القرن التالى زادت الأسيرة الحاكمة مساحة الأراضى التى تحت سيطرتهم المباشرة ثلاثة أضعاف، حيث استولت على مساحة كبيرة فى سنكيانج فى الشمال والغرب لتجعل منها مرة أخرى «الأملاك الجديدة». وكان الاسم مازال صالحا. فالصين لم يسبق لها السيطرة على هذا الجزء الكبير من آسيا الوسطى منذ آلاف السنين. أى منذ نهاية أملاك أسرة تاريخ هناك. (المغول هم الذين سيطروا على آسيا الوسطى والصين فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وليس الصينيين).

ومع أن سنكيانج هى ماكشفت عنه دراما إعادة اكتشاف طريق الحرير الرئيسية، فالشرق الأدنى هو المكان الذى بدأ فيه الأوروبيون فهم تاريخ أورسيا والطريق العظيم إلى الصين لأول مرة.

وفى النصف الغربى من طريق الحرير كان التجار لا يزالون يجوبون المسالك بين البحر المتوسط ومدينتي القوافل القديمتين سمرقند وبخارى. ولكن هذه التجارة المحلية التى كانت تقوم بها شعوب من قوميات كثيرة منها العرب واليهود واليونان والأرمن على وجه

(١) شعب بدوى موطنه منشوريا شمال شرقى الصين حاول المنشو غزو الصين فى القرن الثانى عشر ولكنهم طردوا منها سنة ١٢٣٤. وفى سنة ١٦١٦ أقاموا إمبراطورية أصبحت تعرف فيما بعد باسم تشينج بعد تجميع عدد من القبائل. وفى عهد الإمبراطور فو لين استولت قواتهم على بكين وأصبح اسمه الإمبراطور شي تسو. ظلت أسرة تشينج تحكم الصين حتى اندلاع ثورة ١٩١١. (المترجم).

(٢) انتهز الروس فرصة حرب الأفيون الثانية واستولوا على أجزاء واسعة من الأراضى الصينية بلغت مساحتها ١,٥ مليون كيلو متر. وبعد احتدام التنافس الروسى البريطانى توصل البلدان سنة ١٨٩٩ إلى اتفاقية أعطت حوض يانجتسى لبريطانيا والأراضى الواقعة شمالى السور العظيم لروسيا القيصرية. وكانت كل من ألمانيا وفرنسا واليابان تسيطر على أجزاء أخرى. (المترجم).

الخصوص، كانت أقل ربحية بكثير عما كانت عليه التجارة بعيدة المدى في السلع الفاخرة التي كانت يوها ما تتدفق عبر البلاد. كما فقدت المدن التجارية على الطريق كثيرا من ثروتها وأهميتها. ولم يكن السبب في ذلك هو إغلاق الطرق المتجهة شرقا فحسب. فالأمر الأكثر أهمية هو أن النفوذ والأسواق في أوروبا قد انتقلت إلى الغرب والشمال مع عصر الاكتشافات الأوروبية العظيم. وأصبحت التجارة بعيدة المدى الرئيسية الخاصة بالدول الناشئة في غرب أوروبا وشمالها تنقل عبر الطرق البحرية، غربا إلى الأمريكتين ومنها عبر المحيط الهادى إلى الشرق، أو جنوبا إلى أفريقيا ثم شرقا إلى الهند والصين. وكان البحر المتوسط لبعض الوقت أشبه بالمياه الراكدة.

ولكن طول الطرق البحرية إلى الشرق والبحث المستمر عن أسواق جديدة أجبر الأوروبيين على الاتجاه إلى الشرق الأدنى مرة أخرى. ومع بداية القرن السابع عشر أقام البريطانيون شركة الشرق ذات الصلة الملكية سعيا وراء التجارة في الشرق الأدنى وإقامة قنصليات في ميناءى طرابلس وأزمير القديمين، وكذلك في القسطنطينية (التي أصبحت تعرف الآن باسطنبول أو استامبول) وحلب. وبالإضافة إلى دخولهم في التجارة الشرقية، كانوا شديدي الاهتمام بإيجاد طريق أقصر إلى الهند. وقبل ذلك أنشأ البرتغاليون (بدافع من اهتمامهم الشديد بالهند والشرق الأقصى) والبنادقة (الذين حاولوا سدى إحياء تجارتهم الآسيوية) طرق اتصالات بين حلب وبغداد. ولكن البريطانيون كانوا يفضلون مسار طريق الصحراء الكبرى القديم من حلب إلى البصرة، ذلك الميناء الواقع جنوبى نهر دجلة حيث كان الرسل وغيرهم من المسافرين يستقلون السفن إلى الشرق. ومن خلال هذا الطريق المختصر استطاع الرسل البريطانيون أن يوفرأ كثيرا من الوقت اللازم بين ارسال سؤال من الهند وتلقى إجابة عنه من لندن. كما أن بعض التجار خاطروا بالسير في هذا الطريق، حيث سافروا مع قوافل عبرت حلب إلى البصرة في أبريل وسبتمبر، وذلك لتستطيع السفن الاستفادة من الرياح الموسمية في المحيط الهندى.

إلا أن موقف الترك العثمانيين، الذين كانوا يحكمون المنطقة من التجارة البرية الأوروبية كان سيئا. فكما هو حال أشد أنواع الطفيليات سوءا، قتلوا من يعيشون عليهم بفرض رسوم عقابية بشكل رسمى وغير رسمى، في صورة رشاوى. إلا أنه رغم الرشاوى التي تؤخذ قسرا، لم يكن بمقدور العثمانيين ضمان الأمن على الطريق. فعرب الشرق الأدنى، ليس فقط بدو الصحراء وإنما باشوات مدن مثل حلب وبغداد والبصرة، كانوا يتمردون كل فترة ويقطعون الطريق الموصل إلى الهند. وعندما أدرك البريطانيون ذلك كانوا

يرسلون البريد على طريق الصحراء الكبرى من نسختين مع رسولين منفصلين، في محاولة منهم لضمان وصول نسخة واحدة على الأقل يسلم إلى مقصدها. وأصبح السفر على قدر كبير من الخطورة بحلول ستينيات القرن السابع عشر، مما جعل الأوروبيين يهجرون الطرق البرية لمدة قرن تقريبا حتى حوالي سنة ١٧٤٥.

في تلك الفترة انطلق بعض التجار الأوروبيين المحبين للمعرفة وقيموث في حلب لرؤية بعض الآثار في الصحراء السورية التي سمعوا عنها من السكان العرب. إلا أن تجربتهم التي تمت سنة ١٦٧٨ لم تشجع على أي استكشاف آخر:

سرعان ما وصل هؤلاء السادة إلى هناك، إلى تدمر، ولكنهم وقعوا لسوء حظهم في يد جماعة من اللصوص العرب... الذين اضطروا لإعطائهم كل ملابسهم إرضاء لهم. وكانت خسارتهم كبيرة وخوفهم شديد أما أفسد عليهم رغبتهم في المعرفة وحال دون قيامهم باستطلاع الآثار القديمة كما ينبغي فعادوا على الفور إلى ديارهم فرحين بالإياب.

ولم يكن هؤلاء أول الأوروبيين الذين جرّدوا من «كل ملابسهم» ولا آخرهم. وقد عاد بعضهم وليس عليه سوى بعض الجرائد القديمة. هذه المعاملة جعلت غيرهم يحجم عن محاولة الوصول إلى تدمر، حتى يبدو أن الأوروبيين لم يزورا ذلك المكان لإلقاء نظرة عليه من قرب إلا بعد ١٣ سنة حيث وجدت مجموعة ما أن ما بين ٣٠ و ٤٠ أسرة من الرعاة يعيشون في «أكواخ صغيرة من الطين داخل أسوار تحيط بفناء فسيح به أجمل معبد وثني». وذهل الدكتور ويليام هاليفاكس الذي كان يرأس تلك الحملة (يحميه تصريح مرور اشتراه من الشيخ المحلي) لم رأى ذلك «العدد الكبير من الأعمدة الرخامية» التي كان الكثير منها يرقد على الأرض محطما. بل إنه شعر أن:

لدى المرء تصور عن تلك الآثار العظيمة وإذا كان في مقدوري من الناحية القانونية أن أعيد للمكان ما كان عليه من جمال بما تبقى فيه، فأى مدينة في العالم يمكنها أن تتحدى هذه بأن تفوقها مجدا.

أشار الدكتور هاليفاكس إلى أن السكان العرب المحليين كانوا ينظرون إلى النوايا الأوروبية نظرة مشوشة تتسم بالتعصب. وعندما زارت القافلة الشيخ الذي أعطاها تصريح المرور بأمان سألهم:

... ما رأينا في تدمير؟ وهل وجدنا كنزا هناك؟ فهذه الفكرة تعشش في رؤوس هؤلاء الناس وهي أن الإفرنج [مازال المصطلح المحلى الذى يدل على كل الأوروبيين فى ذلك الوقت] يذهبون لرؤية الآثار القديمة فقط لأنهم يجدون هناك نقوشا ترشدتهم إلى كنز مدفون. لذلك فليس مستغربا أنهم حين يجدون حجرا عليه نقش يقلبوه لكى لا يراه أحد أو يقرأه. إلا أننا أكدنا له أننا لم نذهب بمثل هذا الأمل، وإنما رغبة فى رؤية المكان. ولم نعد من هناك إلا بقطعة من حجر البروفير أطلعناه عليها بناء على طلبه...

وكان هاليفاكس فريدا بين الأوروبيين فيما يتعلق بهذا الأمر. والمخاوف التى أعرب عنها العرب لها مبرراتها القوية فى أنحاء آسيا، وإن كان الكنز الذى كان المستكشفون يسعون إليه ليس بالضرورة من ذلك النوع الذى تصوره العرب.

ولم يكن هناك مسح حقيقى لموقع تدمر حتى سنة ١٧٥١ حين قام بذلك الإنجليزيان روبرت وود وجيمس دوكنز. وكانت المنطقة لاتزال بها بعض القلاقل. بل إن باشا دمشق الذى كانت له السيطرة الاسمية على المنطقة، اعترف لوود ودوكنز بالكثير:

أخبرنا باشا هذه المدينة أنه لا يمكنه أن يعد بأن اسمه أو نفوذه يشكلان أى ضمان لنا فى الجهة التى كنا نقصدها.

وبناء على نصيحته استأجروا حراسا من زعيم بدوى محلى وخرجوا فى قافلة تضم ٢٠٠ شخص ومثلهم من الحيوانات متجهين إلى تدمر:

... فى حراسة... أفضل الفرسان العرب المسلحين بالبنادق والرماح الطويلة... [وفى أخطر جزء من الرحلة أعرب المرشد عن] رغبته فى ضرورة خضوعنا تاما لتوجيهاته، وهى أن يكون الخدم والأحمال خلف الحراس العرب مباشرة. وكان يرسل فردا أو اثنين أو أكثر من الحرس من حين لآخر للاستكشاف من على أى مكان مرتفع يروونه ثم ينتظروننا حتى ندركهم... وهؤلاء الفرسان ينطلقون دائما من القافلة بأقصى سرعة، كما يفعل التتار والهوسيار. وقد داخلنا الشك فيما إذا كانت كل هذه الاحتياطات لأنهم يستشعرون الخطر بالفعل، أم أنهم أرادوا فقط أن يجعلونا نُقدّر فائدتهم ويقتتهم.

قد نتخيل مدى غرابة الأمر بالنسبة لهم عندما خرجوا من الصحراء بهذه الطريقة ليجدوا أمامهم مدينة يونانية رومانية لو نُقلت إلى سهول إيطاليا لما كانت غريبة عنها:

... عندما انفرجت التلال كشفت لنا عن أضخم قدر من الآثار سبق أن رأيناه. كانت كلها من الرخام الأبيض وكانت تقع خلفها في اتجاه نهر الفرات صحراء منبسطة على مدى البصر، دون أن يكون هناك أى أثر لحياة أو حركة. ولا يمكن أن تتخيل شيئا أكثر غرابة من ذلك المنظر: أعداد كبيرة من الأعمدة الكورنثية بينها القليل من الجدران الصغيرة أو المباني الراسخة، بحيث تشكل معا أكثر المناظر رومانسية فى تنوعها.

وكانت القصة الخيالية هى ما سلب لب أوروبا. وكان كتاب وود ودوكينز «آثار تدمر» مثار الاهتمام من لندن حتى سانت بطرسبرج. وشعرت كاثرين الكبرى إمبراطورة روسيا بالفرح لمقارنتها بزنوبيا ملكة تدمر التى ذكر اسمها وشهرتها فى النقوش الموجودة على أعمدة المدينة المفقودة. ووجود مدينة على هذا القدر من العظمة وسط الصحراء كان تصديقا لتلك التجارة الآسيوية العظيمة التى تحدث عنها ماركو بولو وغيره. وكان ذلك فى أغلب الأحيان يُلقى على آذان غير مصدقة لما تسمع.



ظل الأوروبيون زمنا طويلا مهتمين بالآثار التوراتية (تدمر نفسها جاء ذكرها فى التوراة). وهامهم يهتمون بمدن آسيا المفقودة فى حد ذاتها وببصفتها الآثار الباقية من عدد من الحضارات التى ظهرت فى فجر التاريخ الإنسانى. وعثر الرحالة على الصحراء والمدن القديمة والشعوب الجديدة وغلّفوها جميعا بغلاف من الحكايات الخيالية. جاء الرجال، وكذلك النساء، ليراوا المناظر المدهشة التى اكتشفوها على الطرق القديمة فى الشرق الأدنى ويكتبوا عنها ويرسموها. رأوا جميعا كل ما تمنوا رؤيته. وهكذا علّق طبّاخ إدوارد لير على رؤيته لآثار البتراء التى حُفرت فى الصخر لأول مرة قائلا: «أيها السادة، لقد دخلنا عالما كل شىء فيه صُنِع من الشوكولاتة ولحم الخنزير والكارى والسالمون.» بينما وجد آخرون لا يقلون عنه رومانسية وإن كانوا أكثر علمية، أنها جنة من الآثار.

لم «يكتشف» الأوروبيون البتراء الوردية إلا سنة ١٨١٢. وكان يوهان بوركهارت قد تنكر فى هيئة تاجر مسلم من الهند (وهى حيلة شائعة بين الرحالة الأوروبيين) كى يتنقل فى الشرق الأوسط دون أن يُقابل بأى عدااء. وحتى ذلك الوقت كان الموقع مستوطنة عربية

صغيرة تُعرف محليا باسم وادي موسى وتسكنها ست أسر فقيرة. فى تلك السنوات وما تلاها كان الرحالة، ومن بعدهم علماء الآثار، يقومون باستكشافات وحفائر فى اليونان وفارس وما بين النهرين ومصر وعشرات غيرها من المواقع فى العالم القديم. وشيئا فشيئا استطاعوا أن يجمعوا تفاصيل قصة عالم البحر المتوسط. وأثناء ذلك عرفوا حكاية طريق الشرق العظيم. وحتى فى ذلك الحين كانت الصورة لاتزال بعيدة عن الكمال. ولم يحدث قبل الاحتلال البريطانى أن حدد علماء الآثار موقع مدينة دورا أوربوس البارثية تحديدا صحيحاً وبدأوا حفائرهم فيها. وهى على أطراف الأراضى التابعة لتدمر. وحتى ذلك الوقت كانت مجرد مدينة محلية تسمى الصلاحية.

وبينما استمر علماء الآثار فى عملهم فى الشرق الأدنى، أخذ البعض يتجه شرقا ليعرف قصة طريق الحرير. وكما هو الحال فى كل مكان مأهول آخر، كان يرشد الأوروبيين الذين يستكشفون «القفار الخالية من الطرق» السكان المحليون الذين كان وطنهم هو تلك المنطقة. ويتذكر الضابط الإنجليزى فرانيس يانجهسباند مقدار شعور السكان المحليين بأنهم فى وطنهم فى تاكلامكان، بينما كان عائدا إلى النهر من منشوريا عبر صحراء جوى وتاكلامكان فى ثمانينيات القرنى التاسع عشر، قبل زمن طويل من بدء سفن هيدن ومارك أوريل لاستكشافاتهما. وهو يتحدث عن مرشده قائلا:

كان المرشد رجلا قصيرا محنى الظهر لا نرى عينيه فى أغلب الأحيان، وإن كانتا تلمعان فى بعض الأوقات من خلف تجاعيده فتخترق المرء كأنها مثقاب.. وكانت الطريقة التى يتذكر بها مواضع الآبار، كل مرحلة فى الصحراء، تدعو للعجب. فكان ينام نوعا عميقا على ظهر الجمل مائلاً برأسه إلى الأمام ليستقر على سنام الجمل أو يتدلى بجانبه. وفجأة يستيقظ وينظر أولا إلى النجوم التى يحدد بها الوقت حتى ربع الساعة، ثم إلى المدى الذى يمكن أن يصل إليه بصره فى الظلام. وبعد فترة يميل بالجمل قليلا عن الطريق فنجد أنفسنا عند أحد الآبار تماما.. والقاعدة أننا لا نرى مدقات بالمرّة، خاصة فى الأراضى الرملية. ولكنه كان يقودنا بطريقة ما. وغالبا ما يكون ذلك اهتداء ببعير جمال ما سبقنا من قوافل. وكثيرا ما يكون بأثارها الخفيفة التى لم أكن أميزها بنفسى حتى وإن بينوها لى. فالجمل لا يترك كثيرا من الآثار على الحصباء التى تشبه ممرا مذكوكا فى إحدى الحدائق.

إلا أن المرشد كان يستطيع قص أثرها ولو فى الظلام بفضل أدلة هنا وهناك.

وليس كل مرشد لديه مثل هذه المهارات الدقيقة. ففى الأيام الأولى من هذا الاختراق الأوروبى كان بعض السكان المحليين يهولون فى معلوماتهم، رغبة فى الحصول على مكاسب سهلة بما يدفعه لهم الأوروبيون من مال. وأدى ذلك إلى وقوع كوارث فى تاكلامكان. وتعلم المستكشف الأوروبى سفن هيدن هذا الدرس القاسى سنة ١٨٩٥. فعندما أكد له مرشده أنه على علم تام بالصحراء لم يأخذ معه إلا ما يكفى أربعة أيام من الماء، بدلا من عشرة أو أكثر. وكان المرشد نفسه بين أول من لقوا حتفهم من القافلة عند محاولة إجتياز تاكلامكان. والذين بقوا على قيد الحياة ظلوا يكافحون أملا فى بلوغ الماء، إلى أن وصل بهم الأمر إلى شرب دم الدجاجات القليلة التى تركوها وأكل دم الخروف الذى ذبحوه قربانا لهذا الغرض (إذ كان السائل يتخثر فوراً ليصبح كتلة جيلاتينية). بل إن أحد الرجال أخذ يقضم رثتى الديبحة الملتطختين بالدم. وعلق هيدن على ذلك فيما بعد قائلاً: «أدرك الآن كيف يجعل العطش الرجل شبه مجنون». كما جمع بعض أفراد القافلة بول الجمال وأضافوا إليه الخل والسكر وشربوه. وسرعان ما أصاب الكل حالة من القىء الشديد. ولم يتبق سوى هيدن ورجل آخر قادرين على الاستمرار فى السير بحثاً عن الماء، إذ أبى كلاهما أن يشرب هذا الخليط المقرّر.

وبعد أن تركا وراءهما خيمة منصوبة على كتيب رملى، كدليل يسترشدان به عند عودتهما المزمعة، اتجها ناحية الشرق بحثاً عن نهر خوتان الذى سينقذ حياتهما. كان هيدن يرتدى ملابس بيضاء: «إذا كان مقدراً لى أن أموت فى الرمال، فلتكن ملابسى لائقة. كنت أريد أن تكون الملابس التى أدفن فيها بيضاء ونظيفة». وخلال تلك الأيام العصيبة خطر ببال هيدن مراراً احتمال أن يضيع إلى الأبد وأثر ذلك على من سيركهم خلفه:

... تعذبت روحى عندما تصورت ما سوف يلحق بمن هم قرييون منى وأعزاء على نفسى من اضطراب وقلق عندما لا نعود ولا يعرفون عنا شيئاً. كانوا سيترقبون قدومى سنة بعد أخرى، ولكنه انتظار بلا طائل. فما كان لأى معلومات أن تصلهم.. وكان مستر بتروفسكى [القنصل الروسى فى كاشغر] سيرسل بطبيعة الحال رسلاً للاستعلام عنا. كانوا سيذهبون إلى ميركت حيث يبلغونهم هناك أننا غادرنا ذلك المكان فى

العاشر من أبريل قاصدين الشرق. ولكن آثارنا في ذلك الوقت ستكون قد ضاعت في الرمال. وسيكون من رابع المستحيلات معرفة الاتجاه الذي ذهبنا فيه. وفي الوقت الذي يبدأ فيه البحث المضنى المنظم تكون أجسامنا قد مضى عليها أشهر عديدة تحت أمواج الرمال الملتهمة غير المستقرة.

جاهد الرجلان في سيرهما شرقا لعدة أيام بحثا عن مجرى نهر خوتان. وفي النهاية بلغ الضعف برفيق هيدن مبلغا جعله عاجزا عن الاستمرار في السير. وبعد أن أصبح هيدن وحيدا قادته الصدفة إلى إحدى البرك المتسعة في مجرى النهر الذي جف مع قدوم الصيف. وبعد أن تخلص هيدن مما كان معه معدات بسبب ضعفه لم يكن معه وعاء مناسب يحمل فيه الماء الذي ينقذ به رفيقه. إلى أن هداه تفكيره إلى حذائه الذي لا ينفذ منه الماء. وهو الذي قال عنه فيما بعد إنه الحذاء الوحيد الذي عرفه «ولم ينقذ حياة رجل فحسب، بل سافر عبر آسيا وعاد مرة أخرى». كان ذلك في ليلة ٥ مايو ١٨٩٥. وبعد عدة أيام التقى الرجلان عند نهر صغير ببعض الرعاة الذين أطعموهما وآووهما إلى أن استردا عافيتهما. أما بقية من كانوا معهما في القافلة فهلكوا جميعا. وفي الشتاء التالي عندما وصلت قافلة صيد إلى المؤن والخيمة التي تركها هيدن لتكون دليلا يسترشد به، كانت الخيمة (ويفترض أن معها جثث من تخلفوا عن السير) قد دفنت تحت ستة أقدام من الرمال المتراكمة.

وحتى في المسار الرئيسي لطريق الحرير كان حوض التاريم يحوى بعض الأخطار للمستكشفين، مهما كانت خبرة مرشديهم. ففي الرياح الشديدة، التي كثيرا ما تهب في ثوان، قد يقتل ما تحمله من رمال وحصى من لا يأخذ حذره اليوم، تماما كما كان يحدث منذ ألفى سنة. ووصف يانجهسبند هبوب العواصف الترابية المفاجيء قائلا:

... بينما كنا نستعد لبدء السير رأينا سحابة داكنة عظيمة الحجم على مسافة بعيدة في السهل. كانت عاصفة ترابية قادمة نحونا. وبينما كان الهواء ساكنا حيثما كنا، وكانت السماء فوقنا صافية تماما، إذا بنا نرى سحبا داكنة على مسافة منا ناحية الغرب. كانت سوداء كأنها الليل البهيم. وشيئا فشيئا أخذت تحجب السماء كلها. وما إن اقتربت العاصفة حتى سمعنا صوتا مدويا.. وبعدها دوى فوقنا بقوة رهيبة، مما اضطرنا إلى الاستلقاء خلف متاعنا...

عموماً، وجد سهول الحصباء وقد تناثرت فيها الكثبان الرملية:

... أكثر البلاد التي رأيتها قفرا. وهي لا تقارن بأى شيء مررنا به.
إنها سلسلة من تلال الحصباء التي ليس فيها أى دليل على الحياة أو
الحيوان أو النبات وليست بها نقطة ماء...

رغم كل تلك الشدائد، كان كثير من هؤلاء الأوروبيين الذين عاشوا فى القرن التاسع
عشر وأوائل القرن العشرين على الأطراف الشرقية لطريق الحرير لا يزالون على
رومانسيته. فبعد أسبوعين من العاصفة الترابية، وبعد مسيرة صعبة فى تاكلامكان لاحظ
يانجهسبند أن:

الغروب كان رائعا. فحتى فى التلال الهندية أثناء المطر لم أر قط هذا
اللون الأحمر الغريب الذى كانت عليه السحب الليلة. لم تكن حمراء،
ولم تكن قرمزية، وإنما خليط من الاثنين معا. كانت شديدة العمق،
وفى الوقت نفسه كان ضوءها غاية فى الإشراق... وعندما أوشك
الظلام أن يحل، خيمت على مغرب الشمس سحابة خفيفة فوسفورية...

ومع أن سفن هيدن وأوريل ستاين هما أول من قام بحفائر حقيقية فى المدن الواحات
فى تاكلامكان من الأوروبيين، كان هناك عدد لا بأس به من الرحالة الأوروبيين الذين ذهبوا
إلى هذا الجزء من آسيا، فى وقت سابق لذلك بقليل من القرن التاسع عشر. وساعدت
رحلاتهم وكتاباتهم على تعريف الأوروبيين المحدثين بالمنطقة. وكان معظمهم، وليس
كلهم، يجتازون آسيا الوسطى ويرسمون خرائط لمصلحة الحكومتين الروسية والبريطانية. من
هؤلاء يانجهسبند وأعظم الرحالة والمستكشفين الروسى نيكولاى برياليفسكى الذى قام بأربع
رحلات كبرى فى آسيا الوسطى فيما بين ١٨٧٠ و ١٨٨٥ قطع خلالها نحو ٢٠ ألف ميل
ورسم خرائط لوب نور، التى لم يكن الأوروبيون المحدثون يعرفون شيئا عنها حتى ذلك
الوقت. كما شاهد بعض المدن الواحات التى بلغها هيدن وستاين وغيرهما من المستكشفين
وعلماء الآثار الأوربيين، إلا أنه لم يبق فيها بأى حفائر.

وحتى قبل يانجهسبند وبرياليفسكى كان الأوروبيون قد بدأوا السفر إلى الأجزاء الشرقية
من طريق الحرير القديم. والواقع أن المصور الفوتوغرافى والرحالة الألمانى العظيم البارون
فرديناند فون ريشتوفن (عم البطل الطائر فى الحرب العالمية الأولى البارون الأحمر مانفريد

فون ريشتوفن)، هو من صاغ الاسم الحديث Seidenstrasse، أى طريق الحرير. وذكر المسّاح ويليام چونسون، الذى كان يستكشف المنطقة الواقعة شمالى الهند حتى تاكلامكان، أنه زار آثاراً مدفونة فى الرمال سنة ١٨٦٥. وكانت الزيارة نتيجة مباشرة للعبة الكبرى، حيث كان چونسون يعمل طبقاً لمعلومات مقدمة من جواسيس هنود استأجرهم البريطانيون للذهاب شمالاً وجمع معلومات من المناطق التى كان محرماً على البريطانيين دخولها.

وفى سنة ١٨٩٠ بدأ المستكشف والمصور الفوتوغرافى السويدى الشاب سفن هيدن نصف قرن من الترحال فى شرقى آسيا الوسطى. وفى تلك السنة، وكان فى الخامسة والعشرين، ذهب إلى كاشغر حيث التقى بكل من المندوبين الروسى والبريطانى، نيكولاى بيتروفسكى وجورج ماكارتنى، وكذلك بفرانسيس يانجهسبند وآخرين من أفراد الجالية الدولية الصغيرة هناك. وهؤلاء أصبحوا على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لهيدن وستاين وكثير من المستكشفين الذين جاءوا بعدهم، إذ كانت كاشغر نقطة الانطلاق الأساسية لاستكشاف آسيا الوسطى الصينية، وهى المكان الذى كان ينبغى الحصول منه على تصاريح ضرورة من المسئولين الصينيين. كما كانت مكاناً للراحة، والعلاج إن لزم الأمر. فعلى سبيل المثال أمضى هيدن فى كاشغر فترة نقاهة امتدت ٥٠ يوماً تحت رعاية بتروفسكى، فى أعقاب محاولة لتسلق الجبال كادت تتحول إلى كارثة وأدت إلى إصابته بالتهاب فى عينيه أفقده البصر لبعض الوقت.

وكان بتروفسكى وماكارتنى خصمين لدودين يمثل كل منهما حكومته فى واحدة من أقصى مناطق آسيا الوسطى وأكثرها حساسية. ورغم ذلك كانا يقدمان العون للمستكشفين الغربيين فى آسيا الوسطى الصينية طوال نصف قرن. ولا بد أن يُذكر هنا أنهما، من وجهة النظر الصينية، كانا يمثلان قاعدة لمن كانوا ينهبون بعض أثمن كنوز الصين فى تلك السنين.

أمضى هيدن الفترة من ١٨٩٤ إلى ١٨٩٧ فى آسيا الوسطى. وفى ٩ يناير ١٨٩٦ كانت أولى زيارته لواحدة من أقدم المدن الواحات فى تاكلامكان وهى يوتكان، وكانت فى ذلك الوقت قرية صغيرة اسمها بورازان على مقربة من خوتان. وكان بتروفسكى وهيدن قد علما بهذا المكان، حيث كان تجار خوتان يأتون بالقطع الأثرية من بورازان إلى كاشغر، حيث أوجد بتروفسكى وغيره من الأوروبيين سوقاً لمكتشفاتهم. وما إن اتضح أن الأوروبيين يتهافون على أنواع معينة من القطع الفنية المستخرجة من الآثار حتى ظهر على الساحة من يقوم بالحفائر من السكان المحليين، وبينهم أيضاً مزيفون، كما يحدث فى كل أنحاء العالم

فى مثل هذه الظروف . اشترى هيدن من بورازان بعض التحف كما وجد بعض القطع الخزفية واستأجر بعض السكان المحليين كى يبحثوا له عن المزيد، بينما مضى هو فى رحلته إلى تاكلامكان . وكانت النتيجة حصوله على ٥٢٣ قطعة، كانت أساس المجموعة الرئيسية فى مؤسسة سفن هيدن بستكهولم . وكانت تلك إشارة البدء فى السباق العظيم على غنائم الاستكشاف الذى ميّز العقود الثلاثة التالية من الاستكشافات والحفائر الأوروبية فى آسيا الوسطى الصينية، وخاصة على مسار طريق الحرير القديم . ولاحظ هيدن أيضاً فى بورازان أن التحف التى جمعها اتضح أن لها أصولاً مشتركة هلينية وآسيوية عديدة، وهى الفكرة التى طورها أوريل ستاين فيما بعد تطويراً تاماً فى العديد من الأعمال الكبرى، وخاصة «سيريندا» .

وفى وقت لاحق من تلك السنة اكتشف هيدن أولى مدنه المدفونة تحت الرمال، وهى دندن أويليك التى كان السكان المحليون يسمونها تاكلامكان . وفى رحلة تالية قام بها من ١٨٨٩ إلى ١٩٠٠ اكتشف تحفاً فى لولان الواقعة على الحافة الشمالية الشرقية من تاكلامكان وأخذها معه . وكانت مدينة الحامية الصينية القديمة قد هُجرت فى أعقاب انهيار أسرة هان، أى قبل حوالى ١٦٠٠ سنة، حيث غطتها رمال الصحراء من ذلك الوقت . ومن لولان، التى يعتبرها الغرب أعظم اكتشافاته المبكرة فى الصين لكونها أثمنها، أخذ تحفاً كثيرة بينها خبيئة ضخمة من المخطوطات القديمة .

كان سفن هيدن مستكشفاً وعالم جغرافياً أكثر منه أثرياً أو مؤرخاً . كما أنه كان رومانسياً كذلك، تماماً كما كان يانجهسبند أو أى أوروبى آخر كان يستكشف الحضارات القديمة فيما كان بالنسبة لهم صحراء شاسعة تكاد تخلو من الطرق . وقد أوحى له أولى مدنه المدفونة تحت الرمل، وهى تاكلامكان (دندون أويليك)، بهذه التأملات :

متى كانت تلك المدينة المحيرة مأهولة بالبشر؟ متى نضج آخر محصولاتها من المشمش الخمرى اللون فى الشمس؟ ... متى هجر أهلها اليانسون مساكنهم آخر مرة وتركوها نهياً لملك الصحراء؟ من هم الذين عاشوا هنا؟ ما هى اللغة التى كانوا يتحدثون بها؟ من أى مكان فى الصحراء جاء سكان تدمر الذين لانعلم عنهم شيئاً؟ ... مدينة تاكلامكان هذه... تلك المدينة التى لم يسمع أى أوروبى شيئاً عن وجودها، كانت واحدة من أكثر الاكتشافات التى توصلت إليها فى رحلاتى الآسيوية

مفاجأة لى. من كان يتخيل أنه داخل صحراء جوبى الرهيبة [وكانت تلك أيضاً إشارة إلى تاكلامكان فى ذلك الوقت]، وفى ذلك الجزء منها على وجه التحديد الذى يفوق فى كآبته ووحشته كل ماعداه من صحارى على وجه الأرض، نامت مدن حقيقية تحت الرمال، مدن طمرتها الرياح آلاف السنين؟ إنها الأطلال التى بقيت مما كانت يوماً حضارة مزدهرة. ومع ذلك وقفت هناك وسط حطام وخرائب شعب قديم، لم يدخل مساكنه سوى العواصف الرملية أيام عريبتها المجنونة. وقفت هناك كالأمر فى الغابة المسحورة، حيث أيقظت المدينة التى نامت آلاف السنين على حياة جديدة، أو على الأقل أنقذت ذكرى وجودها من النسيان.

ظل هيدن على نشاطه فى آسيا الوسطى حتى أواخر الثلاثينيات من القرن العشرين، حيث أفسحت الجبال المجال للمركبات ذات المحركات وزاد حجم البعثة زيادة ضخمة. وكان فى مستهل أمره قد ذهب مع أربعة رجال، جميعهم من أهل البلاد. وبحلول عشرينيات القرن العشرين كان يقود مئات الأفراد إلى آسيا الوسطى. وعلى مدى عقدين من الزمان تقريباً كان واحداً من أشهر الشخصيات الرومانسية فى عصره، وإن فقد تلك الشعبية فى بعض البلاد عندما ساند الجانب الألمانى فى الحرب العالمية الأولى. وعندما أعلن تعاطفه مع النازيين فى الحرب العالمية انصرف عنه سائر العالم. وتوفى هيدن سنة ١٩٥٢ عن ٨٧ سنة ونسيه الناس إلا عدد قليل من المتخصصين. ومع ذلك فهو أول من شد الرحال من أهل الشرق أو الغرب إلى المدن المفقودة فى حوض التاريم، تلك المدن الواحات الواقعة على طريق الحرير القديم، واستكشفها وأدرك أهميتها وكتب عنها.

وبعد سنة ١٩٠٠ كان هناك تواجد أوروبى كبير جديد على طريق الحرير. وفى تلك السنة اجتاز المؤرخ وعالم الآثار البريطانى مارك أوريل ستاين جبال البامير إلى كاشغر ليبدأ عملاً استمر أربعة عقود فى صحارى آسيا الوسطى والشرق الأدنى وجبالهما. ولم يتوقف عمله إلا بموته فى كابول سنة ١٩٤٣، عن عمر يناهز الثمانين سنة، وهو على وشك أن يبدأ بعثة جديدة فى آسيا الوسطى.

وكان أوريل ستاين، الذى أصبح بعد ذلك سير أوريل ستاين، مؤرخاً ومستكشفاً بارزاً ورائداً لطريق الحرير والثقافات التى التقت على ذلك الطريق وتداخلت على مر الآلاف من

السنين. وصل إلى آسيا الوسطى والشرق الأدنى وفي ذهنه افتراضات يريد اختبارها بخصوص خط سير الإسكندر والدور الذي قامت به كل من دورا أوربوس وتدمير والتأثيرات اليونانية على شمالى الهند وامتداد نفوذ أسرة هان قبل ألفى سنة وانصهار الثقافات الصينية والهندية والفارسية واليونانية وغيرها فى ثقافة بوذية واحدة على امتداد طريق الحرير، قبل ألف سنة أو يزيد فى عهد أسرة تانج. وهو لم يكن مثل سفن هيدن يتسلق جبلاً أو يعبر صحراء لمجرد أنها موجودة، وهو مايفعله المستكشفون والمغامرون. كان أوريل ستاين مختلفاً، وبقدر كبير، عن هؤلاء. فهو أول من لفت انتباه عالم القرن العشرين المندھش إلى الحضارات القديمة على طريق الحرير وفى آسيا الوسطى. وهذه بلا جدال مساهمة ضخمة فى كتابة تاريخ العالم وتطوير علم الآثار وفنها.

ولا جدال أيضاً فى أنه استولى على أعداد ضخمة من التحف، كما هو حال كل كبار علماء الآثار الأوروبيين العاملين فى آسيا والشرق الأدنى فى عصره. فاعتباراً من عصر سفن هيدن ظل علماء الآثار «يستولون» على امتداد طريق الحرير. ولكن بعضهم كان أكثر تدميراً من غيره. فالبعثات الألمانية برئاسة فون لوكوك وجرونفيلد كانت على قدر كبير من الإهمال فيما يتعلق بحفائرها وما تتبعه من أساليب النقل. وكانت تدمر الكثير من المواقع والقطع الفنية ذات الأهمية غير العادية بصورة يصعب إصلاحها. أما ستاين فلم يفعل ذلك. إذ كان حريصاً على الحفر بطريقة سليمة، وإن كانت أسرع من اللازم. وهو ما أشار إليه علماء آثار كثيرون غيره منذ ذلك الوقت.

وقام أوريل ستاين بثلاث بعثات إلى حوض التاريم نجحت جميعها نجاحاً ملحوظاً. وكانت الأولى من ١٩٠٠ إلى ١٩٠١ والثانية من ١٩٠٦ إلى ١٩٠٨ والثالثة من ١٩١٣ إلى ١٩١٦. والتقى ستاين، وهو مجرى ذهب إلى إنجلترا كطالب للدراسات العليا فى اللغات والآثار الشرقية، بالعديد من المستشرقين البارزين فى ذلك الوقت وصار صديقاً لهم. وكان بين هؤلاء السير هنرى يول والسير هنرى رولنسون. وفى سنة ١٨٨٨ وجدوا له وظيفة كمسجل لجامعة البنجاب ومدير للكلية الشرقية الجديدة فى لاهور، وهى وظيفة أمضى فيها ١٠ سنوات كان خلالها نافذ الصبر وكان يتجه شمالاً إلى كشمير، كلما سنحت له فرصة لمتابعة مهنته الحقيقية. وفى سنة ١٨٩٨ اقترح على الحكومة الهندية عمل استكشافات أثرية فيما وراء جبال البامير، حيث حصل على موافقة بذلك بعد أن توفر له الرعاية القوية. وقد استعان فى ذلك كثيراً بما رواه سفن هيدن عن رحلته التى قام بها فيما بين ١٨٩٤ و ١٨٩٧، وهى الرحلة التى فتحت مسألة استكشاف آسيا الوسطى بصورة غير

مسبوقة. كما أنه استفاد من اللعبة الكبرى. فقد ألح بذلك في اقتراحه إلى أن الروس كانوا يعدون لبعثة إلى تاكلامكان وأن هيدن، الذي كان على صلة أوثق بالروس منه بالبريطانيين، قد يُعول عليه في العودة إلى التاريم.

وصادت أول بعثة يقوم بها ستاين إلى تاكلامكان نجاحاً عظيماً. فقد جلبت له الشهرة بمجرد الإعلان عن اكتشافاته وعرض تحفه. وكان قد اتجه شمالاً عبر البامير وحصل على تصاريح الحكومة الصينية اللازمة من كاشغر بمساعدة ماكارتنى. وبعد ذلك اتجه مباشرة إلى مدينة هيدن المدفونة في تاكلامكان، حيث أمضى ثلاثة أسابيع هناك وجد خلالها ما يكفي لإثبات مقولته الأساسية الخاصة بالحضارة البوذية ذات الثقافات المتداخلة والخروج منها بكنوز كثيرة. فعل الشيء نفسه في نى يا ويوتكان وعديد غيرهما من المواقع في التاريم. وهى عملية فتحت أبواباً عبر منها الكثير من علماء الآثار والباحثين الغربيين عن الكنوز على مدى العقود الثلاثة التالية.

وبحلول موعد البعثة الثانية لستاين في آسيا الوسطى سنة ١٩٠٦، كان هناك سباق بين المتنافسين من الباحثين الأوروبيين عن الكنوز، وهو صورة من التنافس الذى سرعان ما مزق المجتمع الأوروبى إلى شيع. وفى هذه الرحلة قطع الفرع الجنوبى من طريق الحرير حول تاكلامكان بأقصى سرعة، ليصل إلى ثانى أكبر اكتشافات هيدن عند لولان قبل منافسيه. كما توقف عند سلسلة متوالية من المواقع، بينها راواك وخذاليك ونى يا، مرة أخرى، وإندير وميران، حيث عمل على عجل. وقد استولى على تحف من كل مكان. فمن خذاليك أخذ «ستة صناديق كبيرة» من «الزخارف الحصية واللوحات الجدارية». ومن نى يا «أرشيف من الوثائق». ومن ميران «لوحات جدارية هشة كالحلوى».

وفى ذلك كله كان لايزال عالم آثار ومؤرخاً، ولكنه كان أيضاً، وبكل وضوح، صائد كنوز شديد المنافسة كله عزم على اكتشاف ما أمكنه والاستيلاء عليه، لحكومته وليس لنفسه. ولم يكن ذلك حال هيدن أو جرونفيلد أو فون لوكوك أو بيليو أو كل من شارك فى هذه المنافسة الحامية تقريباً. وكانت تلك البعثات باسم حكومات قومية ومؤسسات راعية مازال معظمها يحتفظ بهذه التحف الآسيوية حتى يومنا هذا.

وجاءت كبرى ضربات ستاين بعد ذلك. وقبلها بستين، وفى كهوف الألف بوذا، وهى مكان بوذى مقدس بالقرب من تونهوانج، استخرج كاهن من أهل المنطقة اسمه أبوت وانج كنزاً ضخماً من المخطوطات والأعمال الفنية الموغلة فى القدم التى ظلت قروناً عديدة

حييسة الجدران. وعندما سمع ستاين عن الكنز قدّم رشوة لوانج مقابل السماح له بأخذ مايزيد على ٥٠٠ عمل فنى بينها العديد من قطع الحرير التى تحمل رسوماً و٣ آلاف لفافة مكتملة أو شبه مكتملة من المواد المطبوعة و ٦ آلاف قطعة أخرى من المواد الوثائقية. وكان الكثير من قطع الحرير المطبوعة قد طوى على هيئة لفائف. وعندما فضّها العلماء فى المتحف البريطانى بعد جهد اتضح أنها لوحات رائعة كبيرة على قماش غزى فاخر جداً من الحرير. كانت إحدى اللفافات «السوترا الماسية» التى طُبعت بطريقة القوالب الخشبية سنة ٨٦٨ ميلادية، وتُعد أقدم كتاب مطبوع عرفناه حتى الآن. (هناك شذرات مطبوعة أقدم منه). وهذا وحده كنز لا يقدر بثمن. وهو، وبقيّة ما استولى عليه ستاين من كهوف الألف بوذا، يُعد واحداً من أعظم المجموعات فى تاريخ العالم. أما كونه مصدراً للبحث والدراسة فيستحق أكثر من ذلك بكثير.

ولكى يزداد پول بيليو الطين بلة ذهب إلى تونهووانج سنة ١٩٠٨ وقدم رشوة إلى وانج ليسمح له بأخذ آلاف أخرى من المخطوطات المكتملة والشذرات الوثائقية. ولم يكن أوريل ستاين قد انتهى من عمله. ففى زيارة تالية لتونهووانج سنة ١٩١٤ استولى على ٦٠٠ لفافة أخرى من المخطوطات البوذية. وبالمثل نشر فون لوكوك وجرونفيلد وغيرهما كثيراً من اللوحات الجدارية ونزعوها من على جدران المعابد على طول طريق الحرير، وخاصة تلك التى فى بيزيكليك وقيزيل، حيث عادوا بها إلى برلين ليُدمر قصف الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية معظمها.

واليوم نجد أن هناك نزاعاً حديثاً يستحق الاهتمام بشأن أنشطة هؤلاء المستكشفين الأوربيين فى الجزء الشرقى من طريق الحرير. وترغب الصين فى استعادة ما استولوا عليه من سنكيانج فى تلك السنوات، بزعم أن أى تصاريح منحتها فى ذلك الوقت حكومة صينية ضعيفة مغلوبة على أمرها لابد أن نعتبرها الآن باطلة. فكل ما أخذوه سلبوه سلباً. وهذا الموقف يشبه موقف اليونان فيما يتعلق بتمائيل إلجين الرخامية^(١)، حيث تزعم أن التصريح التركى بالاستيلاء على الكنوز القومية اليونانية ينبغى اعتباره باطلاً. ولاشك فى أن الكنوز الصينية مساوية لها فى الأهمية.

والحجة الصينية قوية، وكذلك اليونانية. أما الذين بحوزتهم الكنوز فيمكنهم أن يردوا

(١) مجموعة من التماثيل اليونانية القديمة جُمعت من أثينا فيما بين ١٨٠١ و ١٨٠٣ ونقلها إلى إنجلترا توماس بروس، إيرل إلجين السابع. وهى عبارة عن أعمال فنية من الأكروبول. اشترت الحكومة البريطانية التماثيل سنة ١٨١٦ حيث تُعرض حالياً فى المتحف البريطانى. (المترجم).

على ذلك بقولهم إنهم إن لم يستولوا عليها لأتلفها من يقومون بالحفائر من السكان المحليين سعياً وراء بيعها قطعة قطعة أو لقضت عليها الحروب العصبية والقومية فى قرن الصراعات الذى خرب آسيا الوسطى، أو لدمرها الحرس الأحمر. وهذا الرد فيه بعض الحقيقة، فقط بعضها. فمهما حدث من قبل، هذه الأعمال لاتزال موجودة وستعود إلى أوطانها عاجلاً أم آجلاً.

لقد ولّى عهد «الاستيلاء» فى الصين وعلى طول طريق الحرير القديم حتى البحر المتوسط. والآن يقوم علماء الآثار من أنحاء العالم بحفائر، ويقدمون مساهمات عظيمة لدراسة تاريخ البشرية من خلال حفائرهم، ولكنهم لا يأخذون ما يكتشفونه معهم.

وبينما كان القرن العشرون يمضى بطيئاً بدأ طريق الحرير يكتسب شكلاً حديثاً. ففى غرب آسيا بدأ استخدام السيارات فى الصحراء السورية إبان الحرب العالمية الأولى. وكانت تسير بسهولة على الأراضى الصحراوية التى تغطيها الحصباء وتسمح للمسافرين بالاستفادة من الطرق الصحراوية المختصرة، مع الخوف بعض الشيء من نقص الماء. وإلى الشرق منها بدأ المستكشفون الأوروبيون استخدام المركبات ذات المحركات. وغالباً ما كان ذلك ملازماً لاستخدام الجمال التى كانت تحمل البنزين. وهكذا أخذت التكنولوجيا الحديثة تغير طبيعة السفر على الطريق الآسيوى العظيم.

ولم يكن القدر الذى وفرته السيارات من الراحة فى تلك الأيام كبيراً. ومع ذلك كانت مفضلة على تلك الأيام الطويلة من السفر على ظهور الدواب فى السهوب والصحارى. وهكذا بدأت المسافات تقل عبر أوراسيا لأول مرة فى تاريخ طريق الحرير. وما إن أصبح الوصول إلى المنطقة متاحاً لكل إنسان حتى صار طريق الحرير مفتوحاً أمام الجميع من الناحية النظرية. أو كما قال روى تشابمان أندروز يوماً: «لقد فقدت الصحراء عفتها إلى الأبد».

إلا أن المستكشفين الأوروبيين لم يكونوا بحال من الأحوال بمنجى من قُطَاع الطرق والمغيرين عليهم الذين يمارسون مهتهم على الطريق على مر آلاف السنين، رغم دخول السيارة. والواقع أن المستكشفين والعلماء فى شرق آسيا وجدوا أن قُطْع الطريق قد اتخذ شكلاً له طقوسه، كما كان عليه الحال فى غرب آسيا. وتحدث أندروز عن ذلك قائلاً:

... التقت قافلتنا بخمسة آلاف جمل على مقربة من أورجا [وكانت وقتها عاصمة منغوليا] يصحبها ضابط اتصال، مع قُطَاع الطرق.

وكان هذا قبل عدة سنوات مالكا محترماً لأحد الفنادق التى تخدم ركاب السيارات على طريق أورجا. وكنت أعرفه حق المعرفة وأعرف أنه الآن شيخ منصر. بل إنه عرف أنى أعرف ذلك. لقد تصرف وكأنه «جنرال» يمكنه توفير الحماية لقافلتنا من خلال «الجنود» التابعين له. ومضت نصف ساعة فى احتساء الشاي والحديث غير المترابط قبل أن ندخل فى العمل. اقترح هو أن ندفع إتاوة قدرها خمسة دولارات عن الجمل الواحد. وعرضت أنا دولاراً واحداً. وأدرك هو أن صناديقنا لم يكن بها ما يمكن لعصابته أن تستفيد منه أو تبيعه. وفى النهاية اتفقنا على نصف المبلغ المعتاد.

لقد انفصل الرحالة المحدثون على طريق الحرير فى أغلب الأحيان عن تجربة رحالة الماضى. ومع أنهم قطعوه بسرعة فى مركبات ذات محركات، أبطؤها أسرع كثيراً من الزحف المعتاد للقوافل التى كانت تسير بسرعة ميلين فى الساعة، أو بالقطارات أو حتى منفصلين تماماً عن الأرض، حيث تحملهم الطائرات الحديثة عبر أراضى آسيا الشاسعة، فمن المؤكد أنه كانت لديهم رغبة قوية فى أن يبدأوا رسم صورة لطريقة الحياة على طريق الحرير عندما كان كل شىء يربطه خيط واه من طرق القوافل.

ولكنهم مازالوا يأتون، تجذبهم تلك الحكايات الخيالية عن طريق الحرير.

وفى أعقاب علماء الآثار والمستكشفين جاء صنف جديد من الرحالة إلى طريق الحرير، إنهم السائحون. وكما هو حال من ساروا على خطاهم، انجذب السائحون فى بادئ الأمر إلى الشرق الأدنى، حيث استأجروا التراجمة ليصحبوهم إلى المواقع القديمة فى غرب آسيا. وغالباً ما كان ذلك فى إطار جولة تشمل الهند، وربما إيران أو تركستان أو الصين لو سمحت الظروف السياسية بذلك. واقتضى الأمر أن الرحلات الشاملة فى القرن العشرين ظلت عقوداً كثيرة تتبع خط سير واحد.

ولكن كما هى العادة فى معظم تاريخ طريق الحرير، فإنه فى العصر الحديث نادراً ما كان مفتوحاً للجميع أو على طول امتداده. فالثورة والحرب الأهلية فى روسيا والثورة والحرب الأهلية فى الصين والتوترات على الحدود السوفيتية الصينية ووجود الجيش ومعدات الطاقة النووية (كتلك التى فى لوب نور) والحرب العراقية الإيرانية والاشتباكات الإسرائيلية العربية اللبنانية التى استمرت عشرات السنين فى الشرق الأوسط والصراع الأفغانى السوفيتى

وعشرات غيرها من الاضطرابات الصغرى والكبرى حالت دون قيام الرحالة برحلتهم الطويلة جداً عبر أراضي أوراسيا التى تُميز الحد الحقيقى والكامل لطريق الحرير.

من ناحية أخرى كان بالإمكان عبور أجزاء كثيرة من طريق الحرير فى أوقات عديدة خلال العقود القليلة الماضية. فبالنسبة للبعض، مثل فتزروى ماكلين، كان ذلك معناه رحلة عبر آسيا الوسطى السوفيتية إلى بعض مدن القوافل العظيمة القديمة. وبالنسبة لغيرهم كان يعنى السفر إلى الصين حتى ينتهى بهم الأمر إلى القيام برحلة صعبة من شيآن، وهى مدينة صناعية صاخبة فى الوقت الحالى، إلى سنكيانج حيث ما حل محل المدن الواحات القيمة المحيطة بتاكلامكان. واستطاع البعض السفر شمالاً من الهند على طريق قره قورم متبعاً الطريق الذى سار فيه الحجاج والمستكشفون إلى آسيا الوسطى. وعندما كانت الظروف السياسية مواتية، سافر آخرون إلى غرب آسيا وما بين النهرين وإلى مواقع كثيرة من طريق الحرير القديم وطريق التوابل.

وحيثما ذهبوا، ومهما كان الوقت الذى ذهبوا فيه، فإن الرحالة المحظوظين والمجتهدين سوف يشعرون بنبض التاريخ على طول طريق الحرير. وبغض النظر عن بعد البلاد ومقدار ماتبدو عليه من عدم تخطيط وإقفار، فإنهم قد يكونون على يقين من أن آخرين مروا من هذا الطريق وتركوا بصمتهم عليهم. ورغم تغير أشياء كثيرة، فإن ذكرى طريق الحرير باقية. إنها ذكرى واحد من أقدم طرق العالم. فهو نهر عظيم له العديد من الروافد ينساب بين أقدم حضارات البشرية على مر آلاف السنين.

وحتى بعد أن قُطع الواقع السياسى^(١) أوصاله، سيبقى الطريق، ذلك الطريق الذى شهد الحرير الصينى والذهب الرومانى وكل الكنوز والأفكار والديانات والمخترعات والمنتجات ومهارات الشعوب عبر أوراسيا. وصحيح أن طريق الحرير لابد أن يحيا فى ذاكرتنا وخیالنا كواحد من أعظم الطرق الإنسانية قاطبة.

(١) تغير هذا الواقع فى العقد الأخير من القرن العشرين بعد انهيار الاتحاد السوفيتى وانفتاح الصين على العالم وبدء مشروعات ربط آسيا الوسطى وإيران بسكك حديدية ضخمة. (المترجم).

مراجع المترجم

* ابن بطوطة، عبدالله بن محمد بن إبراهيم اللواتي: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأمصار، تحقيق د. علي المنتصر الكنانى، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨١.

* حسين، أحمد: موسوعة تاريخ مصر، دار الشعب، القاهرة ١٩٧٠.

* الإدريسي، أبو عبدالله محمد بن محمد عبدالله إدريس الحمودى الحسنى: نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

* الاصطخرى، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى: مسالك الممالك، مطبعة بريل، ليدن ١٩٢٧.

* بارندر، جفرى: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة د. إمام عبدالفتاح إمام، سلسلة عالم المعرفة (١٧٣)، الكويت.

* الدمقشى، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبى طالب الأنصارى: نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، دار إحياء التراث العربى، بيروت ١٩٨٨.

* عثمان، د. شوقى عبدالقوى: تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة (١٥١)، الكويت ١٩٩٠.

* الفردوسى، أبو القاسم: الشاهنامة، ترجمة الفتح بن على البندارى وتحقيق د. عبدالوهاب عزام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب الثانية (١١٤ - ١١٥)، القاهرة ١٩٩٣.

* الكتاب المقدس: دار الكتاب المقدس فى الشرق الأوسط، ١٩٩٣.

* كريم الله، د. أبرار: من هم التتار، ترجمة د. رشيدة رحيم الصبروتى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب الثانية (١٤٧)، القاهرة ١٩٩٤.

* كولر، چون: الفكر الشرقى القديم، ترجمة كامل يوسف حسين، سلسلة عالم المعرفة (١٩٩)، الكويت ١٩٩٥.

* مارسدن، وليم: رحلات ماركو بولو، نقلها إلى العربية عبدالعزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الألف كتاب الثانية (٢٠١ - ٢٠٣)، القاهرة ١٩٩٥ و١٩٩٦.

* المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسن بن علي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة الإسلامية بيروت.

* المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق د. محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٧.

* هازارد، هاري و.: أطلس التاريخ الإسلامي، ترجمه وحققه إبراهيم زكي خورشيد، مؤسسة فرانكلين للطباعة، القاهرة ١٩٥٦.

LEXICON UNIVERSAL ENCYCLOPEDIA, Lexicon Publications, Inc. *
New York 1989.

بيبلوجرافيا المؤلف

- * Allchin, Bridget, and Raymond Allchin. *The Birth of Civilization: India and Pakistan Before 500 B.C.* Harmondsworth: Penguin, 1968.
- * Ashtor, Eliahu. *A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages.* Berkeley: University of California Press, 1976.
- * Basham, A.L. *The Wonder That Was India: A Survey of the Culture of the Indian Sub-Continent Before the Coming of the Muslims.* New York: Grove Press, 1959.
- * Barthold, Vasili V. *Turkestan Down to the Mongol Invasion*, 2nd edition. London: Luzac & Co., 1928. Translated from the Russian by the author with the assistance of H.A.R. Gibb. Original title: *Turkestan at the Time of the Mongol Invasion*.
- * Bausani, Alessandro. *The Persians.* New York: St. Martin's, 1962. Translated from the Italian by J.B. Donne.
- * Beal, Samuel. *Buddhist Records of the Western World.* New York: Paragon, 1968. Reprint of 1906 edition.
- * Bell, M.S. "The Great Central Asian Trade Route from Peking to Kashgaria." *Proceedings of the Royal Geographic Society*, Vol. 12 (1890), pp. 57 ff.
- * Benveniste, Emile. *Indo-European Language and Society.* Coral Gables, Florida: University of Miami Press, 1973. Miami Linguistic Series No. 12. Translated from the French edition of 1969.
- * Boulger, G.S. "The History of Silk." *Asiatic Review*, Vol. 16 (1920). pp. 662-77.
- * Bourlière, Françoise. *The Land and Wildlife of Eurasia.* New York: Time, 1964.
- * Blunt, Wilfrid. *The Golden Road to Samarkand.* New York: Viking, 1973.
- * Braudel, Fernand. *Civilization and Capitalism, 15th-18th Century*, 3 volumes. New York: Harper and Row. Volume 1, *The Structures of Everyday Life: The Limits of the Possible*, 1981; originally translated as *Capitalism and Material Life, 1400-1800* by Miriam Kochan, revised by Siân Reynolds. Volume 2, *The Wheels of Commerce*, 1982, and Volume 3, *The Perspective of the World*, 1984, both translated by Siân Reynolds.
- * Brent, Peter. *Genghis Khan: The Rise, Authority and Decline of Mongol Power.* New York: McGraw-Hill, 1976.
- * Boulnois, L. *The Silk Road.* London: George Allen & Unwin, 1966. Translated by Dennis Chamberlin.
- * Bretschneider, Emil. *Medieval Researches from Eastern Asiatic Sources: Fragments Towards the Knowledge of the Geography and History of Central and Western Asia from the 13th to the 17th Century*, 2 volumes. London: Kegan Paul, Trench, Trubner & Co., n.d. (c. 1888).
- * Brown, Slater. *World of the Desert.* Indianapolis: Bobbs-Merrill, 1963.

- * Browning, Iain. *Palmyra*. Park Ridge, New Jersey: Noyes Press, 1979.
- * Browning, *Petra*, new and revised edition. London: Chatto & Windus, 1982.
- * Buchanan, Keith, Charles R. Fitzgerald, and Colin A. Ronan. Foreword by Joseph Needham. *China: The Land and the People*. New York: Crown, 1980.
- * Burnaby, Fred. *A Ride to Khiva*. London: Century, 1983. Reprint of 1877 edition.
- * Byron, Robert. *The Road to Oxiana*. New York: Oxford University Press, 1982. Reprint of 1937 edition.
- * Cable, Mildred, and Francesca French. *Through the Jade Gate and Central Asia*. Boston: Houghton Mifflin, 1927.
- * Carpenter, Rhys. *Beyond the Pillars of Heracles*. New York: Delacorte, 1966. Part of the Great Explorers series.
- * Cameron, Nigel. *Barbarians and Mandarins: Thirteen Centuries of Western Travelers in China*. Chicago and London: University of Chicago Press, 1976.
- * Carruthers, Douglas, ed. *The Desert Route to India: Being the Journals of Four Travellers by the Great Desert Caravan Route Between Aleppo and Basra, 1745-1751*. London: Hakluyt Society, 1929.
- * Chambers, James. *The Devil's Horsemen: The Mongol Invasion of Europe*. New York: Atheneum, 1979.
- * Chandra, Moti. *Trade and Trade Routes in Ancient India*. New Delhi: Abhinav Publishers, 1977.
- * Chard, Chester S. *Northeast Asia in Prehistory*. Madison: The University of Wisconsin Press, 1974.
- * Chêng Tê-K'un. "Travels of the Emperor Mu". *Journal of the Royal Asiatic Society, North China Branch*, Vol. 64 (1933), pp. 124 ff; Vol. 65 (1934), pp. 128 ff.
- * Childe, V.G. *The Aryans: A Study of Indo-European Origins*. Port Washington, New York: Kennikat Press, 1970. Reprint of 1926 edition.
- * College, Malcolm A.R. *The Parthians*. New York: Praeger, 1967. Part of the Ancient Peoples and Places series.
- * Collins, Robert J. *East to Cathay: The Silk Road*. New York: McGraw-Hill, 1968.
- * Coon, Carleton S. *Caravan: The Story of the Middle East*. New York: Henry Holt, 1951.
- * Coyajec, J. C. *Cults and Legends of Ancient Iran and China*. Bombay: Karami, 1936.
- * Culican, William. *The First Merchant Ventures: The Ancient Levant in History and Commerce*. London: Thames and Hudson, 1966. From the Library of Ancient Civilizations.
- * Curzon, Robert. *Armenia: A Year at Erzerum, and on the Frontiers of Russia, Turkey, and Persia*. New York: Harper and Brothers, 1854.
- de Gaury, Gerald, and H.V.F. Winstone. *The Road to Kabul: An Anthology*. London: Quartet, 1981.
- * Dilke, O.A.W. *Greek and Roman Maps*. Ithaca, New York: Cornell University Press, 1985. Part of the Aspects of Greek and Roman Life series.
- * Downey, Glanville. *Antioch in the Age of Teodosius the Great*. Norman: University of

- Oklahoma, 1962. Part of the Centers of Civilization series.
- * Dubs, Homer. *A Roman City in Ancient China*. London: The China Society, 1957. No. 5 in the China Society Sinological series.
 - * Dunlop, D.M. *History of the Jewish Khazars*. New York: Schocken, 1967.
 - * East, Gordon. *The Geography Behind History*, revised and enlarged edition. New York: Norton, 1967.
 - * Edwardes, Michael. *East-West Passage: The Travel of Ideas, Arts and Inventions Between Asia and the Western World*. New York: Taplinger, 1971.
 - * Etherton, Percy Thomas. *In the Heart of Asia*. London: Constable, 1925.
 - * Fairbank, John K., Edwin O. Reischauer, and Albert M. Craig. *East Asia: The Modern Transformations*. Boston: Houghton Mifflin, 1965. Volume Two of *A History of East Asian Civilizations*; see Reischauer.
 - * Fairley, Jean. *The Lion River: The Indus*. New York: John Day, 1975.
 - * Fleming, Peter. *News From Tartary: A Journey From Peking to Kashmir*. Los Angeles: J.P. Tarcher, n.d. Reprint of 1936 edition. Part of the Library of Travel Classics.
 - * Fox, Ralph. *Genghis Khan*. New York: Harcourt, Brace & Co. 1936.
 - * Franck, Irene M., and David M. Brownstone. *To the Ends of the Earth: The Great Travel and Trade Routes of Human History*. New York: Facts On File, 1984.
 - * Frye, Richard Nelson. *Bukhara: The Medieval Achievement*. Norman: University of Oklahoma Press, 1965. Part of the Centers of Civilization series.
 - * Frye. *The Heritage of Persia*. Cleveland and New York: World, 1963.
 - * Gernet, Jacques. *Daily Life in China: On the Eve of the Mongol Invasion, 1250-1276*. New York: Macmillan, 1962. Translated from the French by H.M. Wright.
 - * Gernet, A. *History of Chinese Civilization*. Cambridge: Cambridge University Press. 1982. Translated by J.R. Foster.
 - * Ghirshman, Roman. *Iran from the Earliest Times to the Islamic Conquest*. Harmondsworth: Penguin, 1954.
 - * Gibb, Hamilton Alexander Rosskeen. *The Arab Conquests of Central Asia*. London: Royal Asiatic Society, 1925.
 - * Giles, H.A., translator and editor. *The Travels of Fa-Hsien (391-414 A.D.) or Record of the Buddhist Kingdoms*. Cambridge: Cambridge University Press, 1923.
 - * Giles, L. *Six Centuries at Tunhuang*. London: China Society, 1944.
 - * Glover, T.R. *The Ancient World: A Beginning*. Baltimore: Penguin, 1964.
 - * Grant, Michael. *From Alexander to Cleopatra: The Hellenistic World*. New York: Scribner, 1982.
 - * Grant, Christina Phelps. *The Syrian Desert: Caravans, Travel and Exploration*. New York: Macmillan, 1938.
 - * Grousset, René. *Chinese Art and Culture*. New York: Grove Press, 1961. Translated from the French by Haakon Chevalier.
 - * Grousset. *The Civilization of India*. New York: Tudor, 1939. Translated from the French by Catherine Alison Phillips.

- * Grousset. *Conqueror of the World: The Life of Chingis-Khan*. New York: Orion. 1966. Translated from the French by Marian McKellar and Denis Sinor.
- * Grousset. *The Empire of the Steppes: A History of Central Asia*. New Brunswick, New Jersey: Rutgers University Press, 1970. Translated from the French by Naomi Walford.
- * Grousset. *In the Footsteps of the Buddha*. New York: Grossman, 1971. Translated from the French by J.A. Underwood.
- * Grousset. *The Rise and Splendour of the Chinese Empire*. Berkeley: University of California Press, 1953. Translated by Anthony Watson-Gaudy and Terence Gordon.
- * Hambly, Gavin, et al. *Central Asia*. London: Weidenfeld and Nicolson, 1969.
- * Hart, John. *Herodotus and Greek History*. Berkenham: Croom Helm, 1983.
- * Hayashi, Ryoichi. *The Silk Road and the Shoso-in*. New York: Weatherill, 1975. Volume 6 of the Heibonsha Survey of Japanese Art.
- * Hedin, Sven. *The Silk Road*. New York: Dutton, 1938. Translated from the Swedish by F.H. Lyon.
- * Hedin. *Through Asia*, 2 volumes. London and New York: Harper & Brothers, 1899.
- * Heichelheim, Fritz Moritz. *An Ancient Economic History, from the Paleolithic Age to the Migrations of the Germanic, Slavic, and Arabic Nations*, 3 volumes. Revised and complete English edition. Leiden: A.W. Sijthoff, 1958.
- * Hirth, F. *China and the Roman Orient: Researches into Their Ancient and Medieval Relations as Represented in Old Chinese Records*. New York: Paragon, 1966. Reprint of original, 1885 Shanghai edition.
- * Hitti, Philip K. *The Near East in History: A 5000 Year Story*. Princeton. New Jersey: D. Van Nostrand, 1961.
- * Hopkirk, Peter. *Foreign Devils on the Silk Road: The Search for the Lost Cities and Treasures of Chinese Central Asia*. London: John Murray, 1980.
- * Hudson, G.F. *Europe and China: A Survey of Their Relations from the Earliest Times to 1800*. London: Edward Arnold, 1931; reprint, Boston: Beacon Press, 1961.
- * Humble, Richard. *Marco Polo*. New York: Putnam, 1975.
- * Huzzayin, S.A. *Arabia and the Far East: Their Commercial and Cultural Relations in Graeco-Roman and Irano-Arabian Times*. Cairo: Publications de la Société Royale Géographie D;Egypte, 1943.
- * Ibn Battuta. *Travels, A.D. 1325-1354*, 3 volumes. Cambridge: Cambridge University Press, 1958-71. Hakluyt Society Publications, 2nd Series, No. 110. Translated by H.A.R. Gibb.
- * Irving, Clive. *Crossroads of Civilization: 3000 Years of Persian History*. New York: Barnes & Noble, 1979.
- * Isidore of Charax. *Parthian Stations: An Account of the Overland Trade Between the Levant and India in the First Century B.C.* Chicago: Ares, 1976. Reprint of 1914 London edition. Translated by Wilfred H. Schoff.
- * Kirchner, Walther. *Commercial Relations Between Russia and Europe 1400 to 1800*.

- Bloomington. Indiana University Press, 1946. Volume 33 in the Russian and East European series.
- * Klimburg-Salter, Deborah E. *The Silk Route and the Diamond Path: Esoteric Buddhist Art on the Trans-Himalayan Trade Routes*. Los Angeles: University of California, Los Angeles, Art Council, 1982.
 - * Koestler, Arthur. *The Thirteenth Tribe: The Khazar Empire and Its Heritage*. London: Pan, 1977.
 - * Krader, Lawrence. *Peoples of Central Asia*, 3rd edition. Bloomington: Indiana University Press, 1971. Volume 26 in the Uralic and Altaic series.
 - * Kuhn, Delia, and Ferdinand Kuhn. *Borderlands*. New York: Knopf, 1962.
 - * Kwanten, Luc. *Imperial Nomads: A History of Central Asia, 500-1500*. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1979.
 - * de Lacoupérie, Terrien. *Western Origins of Early Chinese Civilization: From 2300 B.C. to 200 A.D. or Chapters on the Elements Derived from Old Civilizations of West Asia, in the Formation of the Ancient Chinese Culture*. London: Asher, 1894.
 - * Larsen, M.T. *Old Assyrian Caravan Procedures*, Istanbul: Nederlands Historisch-Archaeologisch Instituut in Het Nabije Oosten, 1967.
 - * Latourette, Kenneth Scott. *The Chinese: Their History and Culture*, 4th edition, two volumes in one. New York: Macmillan, 1967.
 - * Lattimore, Owen. "Caravan Routes of Inner Asia." *Geographical Journal*. Vol. 72 (December 1928), pp. 497-531.
 - * Lattimore, *Inner Asian Frontiers of China*. Boston: Little, Brown, 1962.
 - * Lattimore, "Origins of the Great Wall of China." *Geographical Review*, Vol. 27, (October 1937), pp. 529-49.
 - * Lattimore, "A Ruined Nestorian City in Inner Mongolia." *Geographical Journal*, Vol. 84 (December 1934), pp. 481-97.
 - * Lattimore, *Studies in Frontier History: Collected Papers 1929-58*. London: Oxford University Press, 1962.
 - * Lattimore, *The Desert Road to Turkestan*. Boston: Little, Brown, 1929.
 - * Lattimore, Owen, and Eleanor Lattimore, eds. *Silks, Spices and Empire: Asia Seen Through the Eyes of Its Discoverers*. New York: Delacorte, 1968. Part of the Great Explorers series.
 - * Laufer, Berthold. *Jade: A Study in Chinese Archaeology and Religion*. Chicago: Field Museum of Natural History, 1912. Publication 154, Anthropological Series, Volume 10. Reprint, New York: Dover, 1974.
 - * Laufer. *Sino-Iranica: Chinese Contributions to the History of Civilization in Ancient Iran: With Special Reference to the History of Cultural Plants and Products*. Chicago: Field Museum of Natural History, 1919. Publication 207, Anthropological Series, Number 3.
 - * Leemans, W.F. *Foreign Trade in the Old Babylonian Period as Revealed by Texts from Southern Mesopotamia*. Leiden: E.J. Brill, 1960.

- * Legg, Stuart. *The Heartland*. New York: Farrar, Straus & Giroux, 1971.
- * Lewis, Bernard. *The Arabs in History*. New York: Harper, 1960.
- * Lewis, editor. *Islam and the Arab World: Faith, People, Culture*. New York: Knopf, with American Heritage, 1976.
- * Lewis, Richard Percival. *Genghis Khan*. New York: Stein and Day, 1969.
- * Lloyd, Seton. *Early Highland Peoples of Anatolia*. London: Thames and Hudson, 1967. Part of the Library of the Early Civilizations.
- * Lopez, Robert S., and Irving W. Raymond, translators and editors. *Medieval Trade in the Mediterranean World*. New York: Norton, n.d. Part of the Records of Civilization, Sources and Studies series.
- * McGovern, W.M. *The Early Empires of Central Asia: A Study of the Scythians and the Huns and the Part They Played in World History*. Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1939.
- * Menen, Aubrey. *Cities in the Sand*. New York: Dial, 1973.
- * Micheli, Silvio. *Mongolia: In Search of Marco Polo and Other Adventurers*. New York: Harcourt, Brace & World, 1967.
- * Miller, James Innes. *Spice Trade of the Roman Empire, 29 B.C. to A.D. 641*. Oxford: Clarendon Press, 1969.
- * Mirsky, Jeanette, editor. *The Great Chinese Travelers*. New York: Random House, 1964.
- * Mirsky. *Sir Aurel Stein: Archaeological Explorer*. Chicago and London: University of Chicago Press, 1977.
- * Morton, W. Scott. *China: Its History and Culture*. New York: Lippincott and Crowell, 1980.
- * Moscati, Sabatino. *The Face of the Ancient Orient: A Panorama of Near Eastern Civilization in Pre-Classical times*. Garden City, New York: Doubleday, 1962.
- * Munro, Eleanor C. *Through the Vermilion Gates: A Journey Into China's Past*. New York: Pantheon, 1971.
- * Myrdal, Jan. *The Silk Road: A Journey From the High Pamirs and Ili Through Sinkiang and Kansu*. New York: Pantheon, 1979. Translated from the Swedish by Ann Henning.
- * Needham, Joseph. *Science and Civilization in China*, Volume 1- London: Cambridge University Press, 1954.
- * Nöldeke, Theodore. *Sketches from Eastern History*. Beirut: Khayats, 1963. Reprint of 1892 London edition. English translation by John Sutherland.
- * Obolensky, Dimitri. *The Byzantine Commonwealth: Eastern Europe, 500-1453*. New York: Praeger, 1971. Part of the Praeger History of Civilization series.
- * Pan Ku. *The History of the Former Han Dynasty*, 2 volumes. New York: American Council of Learned Societies, 1944. Translated by H. Dubs.
- * Panikkar, K.M. *A Survey of Indian History*, 3rd edition. Bombay: Asia Publishing House, 1956.
- * Pareti, Luigi, et al. *The Ancient World 1200 B.C. to A.D. 500*. New York: Harper & Row,

1965. Volume II of UNESCO's *History of Mankind: Cultural and Scientific Development*.
- * Parker, E.H. *A Thousand Years of the Tartars*, 2nd edition. New York: Knopf, 1926. Part of the History of Civilization series.
 - * Parker, W.H. *An Historical Geography of Russia*. Chicago: Aldine, 1969.
 - * Penkala, Maria. *A Correlated History of the Far East: China, Korea, Japan*. The Hague and Paris: Mouton, 1966.
 - * Penrose, Boies. *Travel and Discovery in the Renaissance, 1420-1620*. New York: Atheneum, 1972. Reprint of Harvard University Press, 1952 edition.
 - * Perkins, John, with the American Museum of Natural History. *To the Ends of the Earth: Four Expeditions to the Arctic, the Congo, the Gobi, and Siberia*. New York: Pantheon, 1981.
 - * Philips. E.D. *The Royal Hordes: Nomad Peoples of the Steppes*. London: Thames and Hudson, 1965. Part of the Library of the Early Civilizations.
 - * Philips. *The Mongols*. New York: Praeger, 1969. Part of the Ancient Peoples and Places series.
 - * Piggott, Stuart. *Prehistoric India: To 1000 B.C.* Harmondsworth: Penguin, 1950.
 - * Plinius Secundus, C. (Pliny The Elder). *Natural History*, 10 volumes. Cambridge, Massachusetts: Harvard University Press, Loeb Classical Library, 1938. Translated by H. Rackham.
 - * Polo, Marco. *The Travels of Marco Polo*. Harmondsworth: Penguin, 1979. Translated by Ronald Latham.
 - * Polo. *The Book of Ser Marco Polo, the Venetian...* New York: Scribner, 1926. Translated and edited by Col. Sir Henry Yule, 3rd edition revised by Henri Cordier.
 - * Pulleybank, E.G. "Han China in Central Asia." *International Historical Review*, Vol. 3, pp. 278-86.
 - * Rawlley, Ratan C. *Silk Industry and Trade: A Study in the Economic Organizations of the Export Trade of Kashmir and Indian Silk with Special Reference to Their Utilization in the British and French Markets*. London: P.S. King & Son, 1919.
 - * Reischauer, Edwin O., and John K. Fairbank. *East Asia: The Great Tradition*. Boston: Houghton Mifflin, 1960. Volume One of *A History of East Asian Civilization*; see Fairbank.
 - * Roberts, Frances Markley. *Western Travellers to China*. Shanghai: Kelley and Walsh, 1932.
 - * Roerich, George Nicholas. *Trails to Inmost Asia: Five Years of Exploration With the Roerich Central Asian Expedition*. New Haven, Connecticut: Yale University Press, 1931.
 - * Rostovzeff, Mikhail Ivanovich. *Caravan Cities*. Oxford: Clarendon Press, 1932. Translated by E. And T. Talbot Rice.
 - * Rostovzeff. *Social and Economic History of the Roman Empire*, 2 volumes, 2nd edition. Oxford: Clarendon Press, 1957.

- * Rostovzeff. *Iranians and Greeks in South Russia*. New York: Russell and Russell, 1969. Reprint of 1922 Clarendon edition.
- * Rostovzeff. *Social and Economic History of the Hellenistic World*, 3 volumes. Oxford: Clarendon Press, 1941.
- * Sabloff, Jeremy A., and C.C. Lamberg-Karlovsky, editors. *Ancient Civilization and Trade*. Albuquerque: University of New Mexico Press, 1975.
- * Salisbury, Charlotte Y. *Tibetan Diary*. New York: Walker, 1981.
- * Saunders, J.J. *The History of the Mongol Conquests*. New York: Barnes & Noble, 1971.
- * Schafer, Edwerd H. "The Camel in China Down to the Mongol Dynasty." *Sinologica*, Vol. 2 (1950), pp. 165-94, 263-90.
- * Schafer. *The Golden Peaches of Samarkand: A Study of T'ang Exotics*. Berkely and Los Angeles: University of California Press, 1963.
- * Schober, Joseph. *Silk and Silk Industry*. New York: Richard R. Smith, 1930. Translated by R. Cuthill.
- * Schoff, W.H. *Early Communication Between China and the Mediterranean*. Philadelphia: no publisher listed, 1925.
- * Schreiber, Hermann. *The History of Roads: From Amber Route to Motorway*. London: Barrie and Rockliff, 1961. Translated by Stewart Thomson.
- * Seligman, C.G. "The Roman Orient and the Far East," *Antiquity*, Vol. 11 (1937), pp. 5ff. Also Annual Reports of the Smithsonian Institution 1938, pp. 547ff.
- * Seligman. "Some Aspects of the Overland Oriental Trade at the Christian Era." *Journal of the American Oriental Society*, Vol. 35 (1915), pp. 31ff.
- * Severin, Timothy. *The Oriental Adventure: Explorers of the East*. Boston: Little, Brown, 1976.
- * Sherwood, Merriam, and Elmer Mantz. *The Road to Cathay*. New York: Macmillan, 1928.
- * Simkin, C.G.F. *The Traditional Trade of Asia*. London: Oxford University Press, 1968.
- * Skrine, C.P. *Chinese Central Asia*. New York: Barnes & Noble, 1971. Reprint of 1926 edition.
- * Skrine, Francis Henry, and Edward Denison Ross. *The Heart of Asia: A History of Russian Turkestan and the Central Asian Khanates from the Earliest Times*. London: Methuen, 1899.
- * Spuler, Bertold. *History of the Mongols: Based on Eastern and Western Accounts of the 13th and 14th Centuries*. Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1972. English translation by Helga and Stuart Drummond.
- * Stark, Freya. *Rome on the Euphrates: The Story of a Frontier*. New York: Harcourt, Brace & World, 1966.
- * Stark. *The Valley of the Assassins: and Other Persian Travels*. Los Angeles: J.P. Tarcher, n.d. Reprint of 1936 edition. Part of the Library of Travel Classics.
- * Stein, Aurel. *Innermost Asia: Detailed Report of Explorations in Central Asia, Kan-su and Eastern Iran*, 5 volumes. Oxford: Clarendon Press, 1928.

- * Stein, edited by Jeannette Mirsky. *On Ancient Central-Asian Tracks: Brief Narrative of Three Expeditions in Innermost Asia and Northwestern China*. New York: Pantheon, 1964.
- * Sullivan, Michael. *A Short History of Chinese Art*. Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1967.
- * Teggart, Frederick John. *Rome and China: A Study of Correlations in Historical Events*. Berkeley: University of California Press, 1939.
- * Toynbee, A., editor. *Cities of Destiny*. New York: McGraw-Hill, 1967.
- * Trippett, Frank, and editors of Time-Life Books. *The First Horsemen*. New York: Time-Life Books, 1974. Part of the Emergence of Man series.
- * Vlahos, Olivia. *Far Eastern Beginnings*. New York: Viking, 1976.
- * Vollmer, John E., et al. *Silk Roads-China Ships*. Toronto: Royal Ontario Museum, 1983.
- * Von Grunebaum, Gustave E. *Medieval Islam: A Study in Cultural Orientation*, 2nd edition. Chicago: University of Chicago Press, 1961.
- * Von Hagen, Victor Wolfgang. *The Roads That Lad to Rome*. Cleveland and New York: World, 1967.
- * Waley, Arthur. *Ballads and Stories From Tun Huang*. New York: Macmillan, 1960.
- * Waley. "The Heavenly Horses of Ferghana: A New View." *History Today*, Vol. 5 (1955), pp. 95-103.
- * Waley. *The Secret History of the Mongols and Other Pieces*. London: George Allen and Unwin, 1963.
- * Warmington, Eric Herbert. *The Commerce Between the Roman Empire and India*. New York: Octagon Books, 1974. Reprint of Cambridge University Press edition of 1928.
- * Watson, Burton, translator and editor. *Records of the Historian: Chapters from the SHIH CHI of Ssu-ma Ch'ien*. New York: Columbia University Press, 1969.
- * Wheeler, Mortimer. *Civilizations of the Indus Valley and Beyond*. London: thames and Hudson, 1966. Part of the Library of Ancient Civilizations.
- * Wheeler. *Rome Beyond the Imperial Frontiers*. London: G. Bell, 1954.
- * Wintle, Justin. *The Dragon's Almanac: Chinese, Japaness and Other Far Eastern Proverbs*. London: Routledge and Kegan Paul, 1983.
- * Wu, K.C. *The Chinese Heritage*. New York: Crown, 1982.
- * Yu, Antohony C., translator and editor. *The Journey to the West*, 4 volumes. Chicago: University of Chicago Press, 1977.
- * Yule, Henry. *Cathay and the Way Thither*, 2nd edition, 2 volumes. Taipei: Ch'eng-Wen, 1966. Revised by Henri Cordier; based on original 1866 edition.
- * Zewen, Luo, et al. *The Great Wall*. New York: McGraw-Hill, 1981.

مطالعة الأثر الميكروني في النيل

طريق الحرير .. طريق الحضارات والديانات والفتوحات . إنه الطريق الذى سار عليه دعاة البوذية والمسيحية ونشر من خلاله التجار العرب الإسلام فى ربوع آسيا . وعلى الطريق نفسه مضت جيوش الإسكندر ، وقورش ، وجحافل جنكيز خان ، وهولاكو ، وتيمورلنك تقيم الإمبراطوريات . كما قطع سهوبه وسهوله ووديانه شبان تسونج ، وابن بطوطة ، وماركو بولو وغيرهم من الرحالة العظام .

وإذا كان الكتاب يحدثنا عن تاريخ طريق الحرير .. فهو ليس كتاباً عادياً للتاريخ . فما يحويه بين دفتيه يُعد خلفية لما يجرى الآن فى هذه المنطقة الحيوية من العالم .. التى تمتد من الصين شرقاً إلى تركيا غرباً . وهو ضرورى لمن أراد أن يفهم ما يجرى هناك بعد أن اتجهت الأنظار من جديد إلى طريق الحرير .

ومع أن السكك الحديدية حلت محل الجمال .. فما زالت أطماع الدول الواقعة على طريق الحرير كما هى . فإيران تأمل فى استعادة مكانتها كمفترق طرق .. وترغب دول آسيا الوسطى فى الوصول إلى المياه الدافئة خلال خط السكك الحديدية الجديد .. وتراه الصين وسيلة سهلة لوص منتجاتها إلى البحر المتوسط والشرق الأوسط .